الـرجـولـة. . إنــجــاز

دليل الآباء. . لوقاية الأبناء

من الشذوذ الجنسي

تأليف

الدكتور جوزيف نيكولوسي

و

ليندا إمزنيكولوسي

ما يقوله الآخرون عن الكتاب:

«كل أب أو أم يهتمان بمستقبل أبنائهما سوف يستفيدان من هذا الدليل التربوي العلمي في مساعدة الطفل على اكتساب هوية جنسية آمنة تؤدي إلى توجه طبيعي نحو الميل للجنس الآخر في فترة البلوغ.

الدكتور "نيكولوسي" خبير متخصص مشهور على المستوى العالمي في طرق العلاج التي تشجع على التوافق الطبيعي مع الجنس الآخر، وهو معروف بقيادته البارزة لجمعية متخصصة تطبق الأبحاث العلمية في التوافق النفسي الجنسي، وتمتزج معرفته العلمية المتخصصة على اتساعها مع سنوات من الخبرة العلاجية الشاملة في مساعدة الأشخاص العاديين.

ولقد أعطى هذا المزيجُ المؤلفينِ القدرةَ على شرح نتائج الأبحاث النفسية للآباء والأمهات بطريقة علمية جدًّا؛ فهذا الكتاب يقدم دليلاً واضحًا لما يستطيع الوالدان أن يفعلاه لتشجيع التوافق الجنسي لدى الطفل».

الدكتور جورج إيه. ريكرز

بروفيسور الطب النفسي العصبي وعلم السلوك بكلية الطب

جامعة ساوث كاولينا.

«باستخدام نموذج انتقائي من نماذج العلاج النفسي التي تستند إلى مبادئ التحليل النفسي، يظهر الدكتور "نيكولوسي" كيف يمكن تعديل نزوات ودوافع الشذوذ الجنسي، أو في بعض الحالات: التخلص منها، وهذا شيء يعطي الأمل للآباء والأمهات الذين لديهم أطفال يعانون اضطراب الهوية الجنسية، والذين استسلموا للشعور باليأس من قبل.

يقدم هذا الكتاب الكثير من الحالات السريرية الموجزة التي تم

عرضها بأسلوب علمي سهل القراءة، وأنا أوصي بقراءته بشدة».

الدكتور تشارلز دبليو. سوكارديز

البروفيسور السابق في الطب النفسي، كلية ألبرت أينشتاين للطب

المركز الطبي بمونتيفيوري، نيويورك، وزميل الجمعية الأمريكية للطب النفسي.

«عند التطرق إلى موضوع الهوية الجنسية، وما يمكن عمله للمساعدة، سوف نتجه إلى أفضل مصدر وجدته- حتى الآن- لكل من الآباء والمعلمين على السواء، ولقد تم تقديم هذا المصدر في كتاب رائع هو الكتاب الذي بين يديك الآن، الذي ألفه دكتور علم النفس السريري جوزيف نيكولوسي بالاشتراك مع ليندا إمز نيكولوسي.

وأنا أعتقد أن الدكتور "نيكولوسي" هو أفضل خبير في مجال الوقاية وعلاجٍ الشذوذ الجنسي في الوقت الحالي، ويقدم الكتاب نصائحَ عملية ورؤية واضحة للحوادث السابقة للشذوذ الجنسي، وأتمنى أن يقرأ كل أب وأم هذا الكتاب، خاصة هؤلاء الذين لديهم أسباب منطقية للقلق على أطفالهم. وليس الهدف منه الإدانة، ولكنه يهدف إلى تثقيف الآباء والأمهات».

الدكتور جيمس دوبسون

رئيس مركز "عين على العائلة"

«في هذا الكتاب الذي يعتمد على سنوات كثيرة من التخصص يحول الدكتور نيكولوسي مفردات الأبحاث العلمية إلى لغة واضحة، سهلة الفهم لعامة الناس، ورغم أن الكتاب موجه في الأساس إلى الآباء والأمهات الذين يشعرون بالقلق حيال النمو الجنسي لأطفالهم، فإنه دليل جيد للآباء والامهات بصورة عامة.

ويقدم الدكتور نيكولوسي إسهامات ثمينة جدًا في مجال أدبيات الثقافة الجنسية من خلال تقاريره جيدة الوصف والواضحة للجلسات والمناقشات السريرية عن النظريات التي يؤيدها أو لا يؤيدها، والأهم من هذا، أن هذا الكتاب لا غنى عنه بالنسبة لكل هؤلاء الذين يهتمون بتربية الأطفال وتطورهم، وتعليمهم».

ما يقوله الآخرون عن الكتاب

الدكتور توبي بي. بيير

عالم نفس سريري

ومؤلف مشارك في كتاب "الشذوذ، دراسة نفسية للشواذ الذكور"

«بوصفي أستاذًا جامعيًّا في العلاج النفسي السريريّ، فأنا أؤيد بشدة جهود الدكتور نيكولوسي للوقاية من الشذوذ الجنسي؛ فيجب أن يكون الوالدان على معرفة بالمؤشرات التحذيرية للسلوك المنحرف والقناعة بإمكانية تعديل الهوية الجنسية لأطفالهم؛ لزيادة نمو الأطفال نموًّا سويًّا.

إن اتخاذ هذا القرار لمساعدة الأطفال لا يكون بسبب الخوف من الشذوذ، بل إنه أسلوب فطري لتربية الأطفال، وهو يناسب أنظمة القيم في الكثير من الأسر، وفي هذا الكتاب يتطرق المؤلفان إلى موضوع نقاش مهم».

الدكتور إيه. دين بايرد

حاصل على الماجستير في إدارة الأعمال

ونائب رئيس الجمعية الوطنية لأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي

«لقد ألف جوزيف وليندا إمز نيكولوسي كتابًا رائعًا ودقيقًا عن الشذوذ والدور المهم والمؤثر للوالدين في تجنبه. إن البشر الذين يولدون بنوع واحد من الأجهزة التناسلية لا يحاولون أن يتغيروا إلا إذا كانت هناك مشكلات خطيرة في تجاربهم المبكرة، خاصة فيما يتعلق بالوالدين.

وأنا أعتقد أنه من الحتمي عند ظهور أولى علامات الانحراف، أن يلجأ الوالدان إلى معالج نفسي يكون على دراية بهذا النوع من المشكلات، وعليهما أن يبذلا كل جهد ممكن لكي يكونا على علم بالأضرار التي ربما تحدث في علاقتهما مع الطفل المعنيّ. وأنهي

كلامي بالقول: "أحسنتما صنعًا"».

الدكتورة ناتالي شينيس

معالجة ومحللة نفسية

ولها مؤلفات في موضوعات الجنس والنوع

«إن مبادئ الدكتور نيكولوسي في الوقاية من الشذوذ الجنسي، سوف يستفيد منها أي والد يريد تنشئة أبناء أصحاء على مستوى الهوية الجنسية، وأتمنى لو كان هذا الكتاب مع والديّ عندما كنت في سنواتي التكوينية.

إن المعرفة العملية والمبادئ المستمرة- التي غالبًا ما تكون غير معروفة- أنقذتني من سنوات من الحزن عندما بدأت- شخصًا بالغًا- طريقًا صعبًا للتغلب على ميلي للشذوذ الجنسي.

إن كتاب جوزيف وليندا هذا، يجب أن تفرض قراءته في كل الصفوف التعليمية التي تتناول نمو الطفل».

جون بولك

متخصص في مسائل الجنس والمثلية الجنسية، مركز "عين على العائلة"

والرئيس السابق لمجلس إدارة مؤسسة الهجرة الدولية بأمريكا الشمالية

ومؤلف كتاب "الحب ينتصر"

«إن هذا الكتاب يلبي احتياجات ملحة للوالدين في الوقت الحالي، فهو يقدم رؤى حول الخلافات بين الوالدين/ الأطفال، وعدم التوافقات الشخصية التي من الممكن أن تمهد الطريق لظهور الانجذاب الجنسي المنحرف.

إن استخدام المؤلفين لمذكرات الوالدين في وصف النجاحات والصراعات وحتى حالات الفشل، يقدم نصائح واقعية وعملية تتناول موضوع الوقاية من جذوره.

ما يقوله الآخرون عن الكتاب

إن الفهم الذي يمكن اكتسابه من هذا الكتاب سوف يقطع شوطًا طويلاً في سبيل القضاء على الألم والإحباط في الأسر، مع تحديد التنشئة الصحية التي تعتبر في غاية الأهمية في تعزيز شخصية الطفل الفريدة وهويته الجنسية».

دون شميرير

مؤلف كتاب "درهم وقاية" وكتاب"كيف يتصرف الآباء"

«إن هذا الكتاب يلبي احتياجات هائلة، وهو يتميز بالدقة العلمية، ويواجه المعلومات الخاطئة الغزيرة- المتعلقة بموضوع الشذوذ الجنسي- التي تنتشر بين عامة الناس في الوقت الحالي.

إنه يقدم ما لا يستطيع الآباء والأمهات العثور عليه في أي مكتبة بأي شكل من الأشكال؛ فهو يتحدث عما يجب أن يفعله المرء عندما يلاحظ على طفله النمو في اتجاه الشذوذ الجنسي.

إن الدكتور نيكولوسي يعتمد على سنوات طويلة من الخبرة العلاجية ليقدم للآباء والأمهات إرشادات واضحة للتقييم ثم اتخاذ رد الفعل المناسب للموقف بطريقة بناءة.

إن النقاط التي يثيرها المؤلفان واقعية وعملية، وهي تظهر الاحترام دائمًا للآباء في صراعهم لمساعدة أبنائهم.

وأنا أعتقد أن هذا الكتاب سيصبح أحد الكلاسيكيات الأدبية التي سوف يرجع إليها الوالدان كثيراً في المستقبل، وربما يكون هذا الكتاب مفاجأة للعديد من العاملين في تخصصات الصحة العقلية أيضًا».

الدكتورة جوانا كروت تابين

عضو الزمالة الأمريكية لمتخصصي علم النفس

وعضو هيئة التدريس في مركز شيكاغو للتحليل النفسي

والرئيسة السابقة لكلية علم النفس بشيكاغو

«لقد ألفت عائلة نيكولوسي كتابًا رائعًا، إن المؤلفين يتحديان

الجمعية الأمريكية لعلم النفس بسبب النظرة الضيقة للجمعية واتجاهها الشمولي فيما يتعلق بالشذوذ الجنسي.

يطرح المؤلفان قضية مثيرة تقول: إن عددًا لا يستهان به من الشواذ قد نمت هوياتهم الجنسية بسبب أساليب التربية المعيبة، وإن الكثيرين من أمثال هؤلاء تمنوا في وقت لاحق أن يغيروا من اتجاهاتهم، وهما يوضحان أيضًا استراتيجيات نافعة لمساعدة الوالدين على كل من الوقاية- وفي بعض الحالات التحرك في الاتجاه المعاكس- من تطور الشذوذ الجنسي، وبالنسبة لكل أب أو أم تشعر بالقلق حيال هذا الموضوع، فإن الكتاب لا غنى عنه».

الدكتور بول سي. فيتز

بروفيسور علم النفس بجامعة نيويورك

مؤلف كتاب "علم النفس كديانة، طقوس عبادة الذات"

«يسعدني أن أقدم دعمي الكامل لهذا الكتاب، فالدكتور نيكولوسي عالم نفس متمرس وخبير في التعامل مع الأشخاص الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية أطفالاً وشبابًا وبالغين أيضًا، والذين يحاولون التغلب على المشاعر غير المرغوب فيها للانجذاب للجنس المثيل.

إن الدكتور نيكولوسي هو رئيس الجمعية الوطنية للأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي، وهي جمعية رائدة تضم أطباء وعلماء نفسيين، وأطباء معالجين كرسوا أنفسهم لتقديم المساعدة والعلاج المتخصص للأفراد الذين يقاومون الانجذاب غير المرغوب فيه للجنس المثيل، واضطراب الهوية الجنسية، وموضوعات الشذوذ الجنسي السلوكية الأخرى، وبجانب الاحترام البالغ الذي يحظى به الدكتور نيوكولوسى بين أقرانه، فإنه جدير لأن يؤلف هذا الكتاب.

ولمساعدة الأطفال والشباب في العصر الحالي على التعامل مع الضغوط الهائلة التي تتسبب في الحيرة والارتباك فيما يتعلق بالهوية الجنسية والتوجه الجنسي، فإن الآباء والأمهات في حاجة بالغة إلى

مزيد من الفهم لعملية التطور الجنسي أكثر من ألاجيال السابقة.

إن هذا الكتاب يقدم هذا النوع من المعلومات النافعة للوالدين في القرن الحادي والعشرين، ليس فقط من أجل العائلة وأصدقاء الأطفال والمراهقين الذين ربما يكونون في صراع مع الهوية الجنسية، بل أيضًا من أجل المشرعين، وواضعي السياسات، ومعلمي المدارس، والمحامين، والقضاة، الذين يجب عليهم أن يفهموا العمليات المعقدة لنمو الهوية الجنسية التي أصبحت اليوم تشكل تحدي لم يسبق له مثيل.

إنني أوصي بشدة باقتناء هذا الدليل المثير للاهتمام جدًا والممتع في قراءته».

لين دي. واردل

أستاذ القانون بكلية جيه. رويبرن كلارك للحقوق، جامعة بريجهام يونج

وهو السكرتير العام للجمعية الدولية لقانون الأسرة

«مع مثل هذه الحكمة المكتسبة على مر السنين وآلاف من ساعات العمل مع اضطرابات الهوية الجنسية، يستخدم الدكتور نيكولوسي الذكاء مع النظرية والتطبيق؛ ليقدم هذا الكتاب الممتع جدًا في قراءته والواضح في أهدافه المتعلقة بالوقاية من اضطرابات الهوية الجنسية.

وأنا أوصي به ككتاب رئيسي في تنشئة الرضع والأطفال لكل الآباء والأمهات الذين يهتمون بالتوجه الجنسي المناسب لأطفالهم».

الدكتور بينجامين كوفمان

أستاذ الطب السريري بقسم العلاج النفسي، كلية دافيس للطب بجامعة كاليفورنيا

لقد حبانا الله وشرفنا

ببهجة ومسؤولية تربية ابننا "جوزيف الابن"

الذي نهدي إليه هذا الكتاب. .

بكل حب

ما يقوله الآخرون عن الكتاب

مقدمة

كلمات للعقلاء:

جاكوب شاب في الثانية والعشرين من عمره، يتردد على العيادة منذ عدة أشهر للعلاج، يعاني من الكآبة نتيجة لتورطه في الشذوذ الجنسي.

في أحد الأيام، انفجر في وجه والدته مدفوعًا بمشاعر الحزن والغضب التي أصبحت تطبق عليه قائلاً لها: لماذا تركتني ألعب بدمى البنات وسمحتِ لي باستخدام مستحضرات التجميل والوقوف أمام المرآة لساعات طويلة لتصفيف شعري؟! إخواني لم يصنعوا شيئًا من هذا القبيل، لماذا لم تحاولي منعي من ذلك؟! ماذا كان يدور برأسك عندما كنت تشاهدينني وأنا أقوم بتلك الأعمال؟!

يقول جاكوب: لا أشك ولو للحظة واحدة أن والدتي كانت على الدوام تريد الأفضل لي، ولكنها في تلك اللحظة لم تجد جواب على سؤالي فقط ظلت تحملق في وجهي باندهاش بالغ، ثم اغرورقت عيناها بالدموع.

على مدى سنوات طويلة[1] من عملي بالعيادة، قابلت الكثير من الرجال الشاذين الذين يشعرون بالسخط والاستياء العميق لانجذابهم المنحرف تجاه الذكور، فحياة الشذوذ لم تكن تناسبهم وجميعهم كان يعتقد- ولو بدرجات متفاوتة- أن بعض الأحداث في فترات مبكرة من حياتهم دفعت بهم باتجاه السلوك الشاذ.

هذا الكتاب هو محصلة رحلة طويلة امتدت لعقدين من الزمن عملت بها مع هؤلاء الشواذ، وتابعت خلالها عن كثب محاولاتهم تعقبَ الأسباب الحقيقية التي دفعت بهم إلى عالم الشذوذ، ومرة تلو الأخرى يؤكد لي هؤلاء الرجال الجزء المفقود من طفولتهم.

قصص الحياة التي أسمعها كل يوم من رجال مثل جاكوب يصارعون للتخلص من الشذوذ، تتضمن بشكل أصبح مألوفًا ذكريات مؤلمة عن ارتباك الهوية الجنسية في فترة الطفولة.

وفي الحقيقة هناك ارتباط وثيق بين اختلال الهوية الجنسية في مرحلة الطفولة وبين الشذوذ في مرحلة البلوغ، معظم الرجال الذين أقدم لهم الاستشارة لم تكن نزعة الأنوثة ظاهرة عليهم بالدرجة التي كان عليها جاكوب؛ فهم لم يلعبوا بالدمى ولم يلبسوا ملابس البنات، ولكن وبالدرجة نفسها كانت هناك مؤشرات واضحة تفضح

ما يختلج في صدورهم من صراع وشكوك حول قدرتهم على التحول إلى ذكور أسوياء، وبالأخص مخاوفهم المتزايدة من أنهم- بشكل أو بآخر- لن يستطيعوا التأقلم مع الصبية الآخرين.

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن الآباء والأغلبية الساحقة منهم يكنون كل الحب لأطفالهم ويسعون لتحقيق الأفضل لهم، وغالبًا لا يتنبهون للمؤشرات المبكرة ويتأخرون كثيرًا قبل طلب المساعدة لأطفالهم، ولعل أحد أسباب تأخر الآباء في طلب المساعدة لأطفالهم هو إحجام الطب النفسي الحديث عن التطرق هذه المسألة؛ فالآباء ليس لديهم أدنى فكرة عما يجب القيام به.

إدامة الصور النمطية عن الهوية الجنسية:

لا يمكننا مسايرة الرأي الذي يقول: إن كل إنسان لديه القدرة ليكون أي شيء يريده فيما يتعلق بهويته الجنسية أو ميوله الجنسية، ولعله من المؤسف أن هذا الرأي واسع الانتشار في أوساط مهنة الطب النفسي، هم يتحدثون كأن التحول إلى شاذ أو سحاقية أمرًا هامشيًّا ولا يترتب عليه عواقب وخيمة على الفرد وعلى الثقافة وعلى الجنس البشري برمته، هم يتحدثون كأن التكوين الطبيعي الذي حبانا الله إياه ليس له علاقة بقدرنا وبما يمكن أن نكون عليه، هم يوحون للآخرين- عندما ندعو إلى تنشئة سليمة تخرج رجالاً أسوياء ونساءً سويات، وهو الأمر الطبيعي والفطري- بأننا منهمكون في إطالة صور نمطية عفا عليها الزمن.

ولكن الجنس البشري مكون من ذكر وأنثى، وليس هناك جنس ثالث، وأكثر من ذلك فالحضارات الإنسانية قاطبة أوضحت لنا أن أفضل بيئة ممكنة لتربية النشء هي الأسرة الطبيعية المكونة من أب وأم وأطفال، برغم كل عيوبها، فهل كانت كل تلك الحضارات على خطأ وعلى مدى قرون طويلة من الزمن؟! هل يجب علينا تنحية تاريخ الإنسانية جانبًا من أجل برنامج تلفزيوني يمجد لإلغاء الهوية الجنسية؟!

كما علق الدكتور تشارلز سوكاريديز- وهو محلل نفسي- قائلاً: إنه لا يوجد آباء أو أمهات في أي مكان يستطيعون القول بأنه لا يعنيهم كثيرًا كون أطفالهم شواذّ أو أسوياءَ[2]، ولو أتيح الاختيار فإن الجميع يود أن يرى أطفاله أسوياءَ بعيدين كل البعد عن الشذوذ.

لقد أصبحت صرعة جديدة في أوساط المفكرين والمثقفين: ترديد أن الإنسان

لا يملك طبيعة فطرية متأصلة، وأن جوهر الوجود الإنساني هو الحرية المطلقة في إعادة تشكيل أنفسنا بالطريقة التي نرغب فيها. ولكن ما جدوى الحرية إذا استخدمت لتتحدى ما نحن عليه بالفعل والفطرة التي جبلنا عليها؟!

هناك أشياء نستطيع الجزم بأنها غير قابلة لإعادة التشكيل، فإذا كان الأمر الطبيعي هو أن تعمل الأشياء وفقًا للتصميم الذي صنعت عليه، فإن الفطرة تدعونا وتلح علينا بأن نحيا وفق ما أراده الله لنا ذكورًا وإناثًا.

في هذا الكتاب سوف نستخدم بعض المصطلحات بطريقة متداخلة؛ مثل: "مرحلة ما قبل الشذوذ"، و"صراع الهوية الجنسية"، و"ارتباك الهوية الجنسية"، و"اضطراب الهوية الجنسية"؛ كل هذه الحالات قد تقود في النهاية إلى الشذوذ الجنسي.

فوضى الهوية الجنسية هي حالة نفسية تعتبر مثالاً متطرفًا لمشاكل تحديد الهوية الجنسية؛ فالطفل الذي يعانيها يكون غير سعيد بهويته الجنسية، والكثير من الأطفال الذين تحدثنا عنهم لا ترقى حالاتهم لفوضى الهوية الجنسية رغم وجود مؤشرات واضحة على وجود صراع حول الهوية الجنسية وعلى الميول الشاذة.

الاصطدام مع عالم الطب النفسي:

تقوم وسائل الاتصال الجماهيرية في عصرنا الراهن بدور تحريضي لتشجيع الرجال على استكشاف عالم الشذوذ، ويتساءلون: أليس التنوع الجنسي أمرًا رائعًا؟ ويحاول بعض منتجي السينما والتليفزيون- بعضهم من فئة الشواذ- إقناعنا بهذه الرسالة من خلال تقديم سير بعض الشاذين وخروجهم إلى العلن لإعلان ميولهم الجنسية الشاذة بطريقة جذابة أقرب للمثالية . في اعتقادنا أن جهودهم هذه لا تعدو كونها محاولات تضليل لاستدراج الشباب اليافعين لعالم يملؤه البؤس والتعاسة.

وبالنسبة إلي شخصيًّا، فإن موقفي المناهض للشذوذ الجنسي وضعني في صدام دائم مع كثيرين من أعضاء مهنتي: الطب النفسي، المعارضين لمواقفي من قضية الشذوذ الجنسي، يقولون: إن هذه القضية حسمت عام 1973م؛ عندما قررت الجمعية الأمريكية للطب النفسي استبعاد الشذوذ الجنسي من الدليل التشخيصي والإحصائي واعتباره سلوكًا طبيعيًّا، ولكن الحقيقة أن هذا القرار-

باعتراف بعض نشطاء الشذوذ أنفسهم- لم يكن ليتخذ لولا الضغوط السياسية الهائلة التي مارسها نشطاء الشذوذ لاستصدار هذا القرار[3].

بالطبع أدى صدور هذا القرار إلى عرقلة تقديم العلاج لحالات الشذوذ، وأدى أيضًا إلى تعطيل البحث العلمي في هذا المجال، والأخطر من ذلك أن نظرة المجتمع للشذوذ الجنسي تحولت؛ فالشذوذ أصبح سلوكًا مألوفًا، ولم يعد يمثل أي مشكلة، وتم منع الأطباء المناهضين للشذوذ من إبداء رأيهم للجمهور، أو حتى تقديم أبحاث علمية متخصصة تختلف مع التوجه الجديد، ولاحقًا امتنعت الدوريات العلمية المتخصصة عن الحديث عن الشذوذ بوصفه مشكلة نمو حقيقية.

وفي الحقيقة- وحتى هذه اللحظة- فإن الجمعية الأمريكية للطب النفسي ترفض التعاون معنا في الجمعية الوطنية للأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي؛ لأنهم لا يوافقوننا الرأي في أن الشذوذ هو حالة من حالات اضطراب النمو، وأكثر من ذلك أنهم يرون أن هذا الرأي العلمي الصرف سوف يخلق جوًّا مليئًا بالتمييز والعنصرية ضد الشواذ [4]، وفي الواقع قررت جمعية علم النفس الأمريكية تعليق الجدال حول الشذوذ الجنسي إلى أجل غير مسمًّى.

هذا الصمت الذي فرض على الباحثين لم يكن نتيجة اكتشافات علمية جديدة، بل إن الموضوع تحول بكل بساطة إلى نوع من الموضة أو الصرعة: أن يتم التعامل مع الشذوذ كأنه أمر طبيعي، فأصبح من المألوف الإعلان عن الشذوذ ومناقشته بالطريقة نفسها التي تقدم بها أخبار المساء على غرار إذاعة أحوال الطقس لليوم التالي.

رونالد باير- وهو باحث في مركز هستينج لعلم الأخلاق في نيويورك- لخص كل ما يحدث قائلاً عن الجمعية الأمريكية للطب النفسي: إنها سقطت ضحية فوضى في عصر مضطرب عندما هددت عناصر تخريبية بتسييس كل جوانب الحياة الاجتماعية، وفرضت مساواة مجحفة بين العلماء وبين الشواذ، فأصبح لزامًا على العالم أو الباحث في مجال الشذوذ أن يدخل في مساومات وجدالات طويلة مع الشاذين أنفسهم قبل أن يعلن نتائج أبحاثه وآرائه العلمية.

إن قرار استبعاد الشذوذ الجنسي من دليل الطب النفسي للاضطرابات لم يأت نتيجة عملية عقلانية تتبع المنهج العلمي، بل كانت قرارًا متعجلاً أفرزته الضغوط

الهائلة للمزاج العام السائد في تلك اللحظة[5].

الوقاية. . حاجة متنامية:

قبل صدور قرار الجمعية الأمريكية للطب النفسي في عام 1973م، كان أمرًا مقبولاً أن يسعى الأطباء إلى نشر الوقاية من الشذوذ الجنسي؛ فالشذوذ حالة اضطراب، واضطراب الهوية الجنسية أمر يجب تجنبه كلما كان ذلك ممكنًا، ولهذا السبب تحديدًا قمت بتأليف هذا الكتاب.

قليل من المؤلفات التي تتوجه إلى الآباء قدمت في السابق بجانب الكتاب الشهير الذي يعد مرجعًا في هذا المجال: "النمو السوي" لـ بيتر دباربارا ويدن، والكتاب الوحيد الذي صدر منذ قرار استبعاد الشذوذ من الدليل التشخيصي والإحصائي في عام 1973م هو كتاب النمو، "ماذا يجب على كل عائلة أن تعرفه عن الشذوذ" للدكتور جورج ريكرز (1982)، وبعد ذلك صدر كتاب آخر يخاطب العوائل المسيحية المتدينة: "درهم وقاية" لمؤلفه دان شمير (1998)؛ وهو يقدم نصائح عملية تمزج بين الحكم السائدة والحقائق العلمية.

والآن نتمنى أن يسهم مؤلفنا هذا في تلبية الحاجات المتزايدة للوقاية من الشذوذ، فمعظم الآباء والأمهات الذين يأتون إلينا طلبًا لمساعدة أطفالهم، متدينون (كاثوليك- بروتستانت- نورمن- يهود)، ولكن هناك أيضًا قلة من الملحدين الذين لا ينتمون لأي طائفة دينية، ولكنهم يشعرون بالفطرة أن الميول الطبيعية يجب أن تتوجه للجنس الآخر، لا نملك إلا أن نبدي تعاطفًا مع كل هؤلاء الآباء والأمهات؛ لأننا نشترك جميعًا في نظرتنا للعالم.

ومع ذلك فإن بعض نشطاء الشذوذ (ومعظمهم من داخل الأوساط العلمية) يدينون موقفنا هذا، ويتساءلون مستنكرين: من نكون نحن لنضع الهوية الجنسية للآخرين موضع تساؤل؟! ناهيك من مساعدة طفل صغير على تجنب الشذوذ، أو مساعدة رجل شاذ على التخلص من هذا السلوك، ولكننا نقف في الموقف الذي يدعمه التاريخ وتسانده الأغلبية؛ فالميول الشاذة هو أمر خاطئ ومؤذٍ.

لقد أوردنا الكثير من شهادات المرضى على مدار فصول هذا الكتاب؛ من أجل مزيد من التوضيح، وبطبيعة الحال قمنا بتغيير الأسماء والأماكن وأية معلومات قد تؤدي إلى معرفة هوية الأشخاص؛ حفاظًا على الخصوصية، ولكن ما نؤكده أن كل

القصص التي ترد: حقيقية.

إن تركيز الكتاب على دور الوالدين لا يعني إلقاء المسؤولية عليهم، بل إن الهدف هو تثقيفهم؛ فلم أقابل أي والد أو والدة يرغب في التأثير على ولده بطريقة قد تسهم في تحوله إلى شاذ، وعلى الرغم من النوايا الحسنة فالكثير منهم يقع ضحية أنماط أسرية ضارة، ومما يدعو للأسف أن كثيرًا منهم تم تضليله للاعتقاد بأنه لا يمكن فعل أي شيء للتأثير على نمو الهوية الجنسية للطفل، والسبب الرئيسي لانتشار هذا الاعتقاد الخاطئ هو النقص المخجل للمعلومات الدقيقة من عالم الطب النفسي، وهو ما سوف نناقشه في الفصل الثامن: "تسييس العلاج".

وما يستوجب الشكر هو أننا اكتشفنا أنه بمجرد حصول الآباء والأمهات على المعلومات الصحيحة، فإنهم يبادرون بإحداث التغييرات المطلوبة، ويشرعون في تقديم المساعدة لأطفالهم للنمو السوي بكل حماس وتفانٍ، أحد الآباء أخبرنا بأنه شعر بوجود أمر خاطئ يتعلق بابنه وأنه كان يعرف ماذا يجب عليه القيام به، ولكن انهالت عليه التحذيرات من المعلمين والمستشارين النفسيين بألا يعرض ابنه للصدمة وأنه عليه أن يقبله كما هو.

ولكن عندما يلجأ الوالدان لأطباء نفسيين يتفهمون رغبتهم في تنشئة أطفالهم تنشئة سوية، فإنهم يتلقون الإرشادات المطلوبة التي تجنب أطفالهم الذين يعانون ارتباك الهوية الجنسية من الانزلاق في عالم الشذوذ، هذا الكتاب يحتوي على الكثير من خطط واستراتيجيات التدخل التي من شأنها مساعدة الآباء والأمهات في تحصين أطفالهم من الشذوذ.

الدكتور جورج ريكرز- وهو خبير مشهور على المستوى الوطني في الاضطراب الجنسي- كتب أن عدم التكيف مع الهوية الجنسية في مرحلة الطفولة هو أبرز العوامل المرتبطة بالشذوذ الجنسي، ويضيف أن هناك دلائل ومؤشرات كثيرة تؤكد أن بإمكان هؤلاء الأطفال التخلص من اضطرابات الهوية الجنسية بمساعدة الطبيب النفسي، أو حتى من دون مساعدته، ويؤكد أن عددًا كبيرًا من حالات ارتباك الهوية الجنسية تم الشفاء منها نهائيًّا.

وعلى الرغم من أن العوامل البيولوجية تقوم بدور المهيِّئ أو المحرِّض عند بعض الأطفال، إلا أن الدكتور ريكرز يؤمن بأن إحداث التغيير ممكن؛ لأن تأثيرات الأسرة

والبيئة المحيطة كبيرة جدًّا، وأن لها الدور الأكبر في تطور الشذوذ، معظم الآباء والأمهات يرغبون في أن يصبح أطفالهم أسوياء، وعلى الطبيب المعالج ألا يوجه العلاج في طريق يخالف القيم التي يعتنقها الوالدان [6].

وإضافة إلى ذلك، يعتقد ريكرز أنه يجب على المعالج الذي يتعامل مع مراهق أن يوضح له التالي:

- هناك مخاطر صحية تهدد الحياة مرتبطة بأسلوب حياة الشذوذ الجنسي.
- التكيف مع أسلوب حياة الشذوذ سيكون صعبًا ومثيرًا للجدل على المستوى الاجتماعي.
- النشاط الجنسي المبكر أمر محفوف بالمخاطر من الناحية النفسية.
- إرجاء اتخاذ القرارات حيال الحياة الجنسية حتى مرحلة البلوغ هو أمر متعقل وحكيم.

معظم الأبحاث حول الهوية الجنسية تتعلق بالصبية الذكور، وفي الواقع فأن مجال تخصصي ومعظم النصائح الواردة في هذا الكتاب تتعلق بالصبية الذكور، ونتمنى أن يقوم مؤلف آخر بمواصلة عملنا، وأن يقوم بدراسة الشذوذ لدى الفتيات والوقاية منه بشكل أفضل.

ربما تشعر بالقلق على طفلك ونموه الجنسي، وربما يدور بخلد ابنك او ابنتك أنه شاذ أو شيء من هذا القبيل، فإن أهم رسالة يمكننا تقديمها لك هي أنه لا يوجد طفل شاذ جنسيًّا أو مراهق شاذ جنسيًّا، لقد خلقنا جميعًا لنكون أسوياء، وترجع الحيرة حيال الهوية الجنسية في المقام الأول إلى الحالة النفسية، ويمكن تعديل ذلك بدرجة ما.

نعتقد أنك ستجد في الصفحات التالية من المعلومات ما سوف يشجع ويدعم التوجه الصحيح للتنشئة السوية، عند قراءة القصص التي سوف نسردها ربما ترى جزءًا من ابنك أو ابنتك فيها، وربما يدفعك ذلك إلى التأكيد بصورة أقوى على النمو الجنسي السوي.

وفي الختام، نؤكد مجددًا أن هناك اختلافات فلسفية قوية بيننا وبين جمعية علم النفس الأمريكية، والتي أنا عضو بها؛ لقد اتخذت الجمعية في السنوات الأخيرة

موقفًا متحيزاً وداعمًا للشذوذ الجنسي، وأصبحت الجمعية تدعم الألاعيب السياسية التي تدعو إلى زواج الشواذ، وحقهم في تبني الأطفال وتطبيع الشذوذ الجنسي، بينما تعمل في الوقت نفسه على تشويه القيم التقليدية وتحطيم نموذج الأسرة التقليدية، إن مواقف جمعية علم النفس الأمريكية هذه لا تعبر عن رأي علمي حقيقي، وإنما هي في الحقيقة مواقف الجمعية السياسية وتوجهاتها المتحررة.

لقد تنامت سيطرة الجمعية وأجندتها السياسية في السنوات الأخيرة على حرية تدفق المعلومات بشكل جائر، لدرجة تحولت فيها من جمعية علمية إلى نقابة تجارية هدفها الوحيد هو فرض أجندة سياسية تحررية على مجتمعنا، وفي الواقع كان نادرًا ذلك المقال الذي ظهر في دورية علمية لعالم نفس شجاع ينتقد فيه الجمعية على ما أسماه عدم احترام تنوع الآراء، وأن أبحاثها المتحيزة في شؤون المجتمع هزت بشكل مباشر مصداقية علم النفس أمام المشرعين وأمام الجمهور بشكل عام، وعرقل تقديم المساعدة للتوجهات المحافظة داخل المجتمع؛ وهو ما أدى إلى تمييز حقيقي ضد الطلاب والعلماء المحافظين وأساء كثيرًا للتعليم الحر [7].

خلال تأليفنا هذا الكتاب، بذلنا كل ما في وسعنا من أجل تقديم المعلومات العلمية بطريقة عادلة ودقيقة، ونحن لا نرغب في مجرد التلميح إلى أن نموذج مرحلة ما قبل الشذوذ الذي نقدمه في هذا الكتاب هو الطريق الوحيد المؤدي إلى الشذوذ، وعلى الرغم من ذلك فإننا نؤمن أن هذا النموذج هو الأوسع انتشارًا، ولا نرغب أيضًا في الإيحاء بأن هناك إجابة سهلة تمنع حدوث الشذوذ، ما يجب عليكم- أيها الآباء والأمهات- هو توفير البيئة الملائمة حسب الإمكانات المتوفرة لديكم.

إذا وافقتم معنا على الاعتراف بأن الوضع الطبيعي هو عندما تكون الوظائف متناغمة مع التصميم الأصلي، وأن نظرتنا السليمة تدعونا أن نمارس حياتنا الطبيعية ذكورًا أو إناثًا، فإننا ندعوك إلى مواصلة القراءة، وبوصفنا آباء وأمهات، فإن هدفنا هو تقديم الأمل والدعم والتثقيف والتشجيع.

1
الرجولة إنجاز

«المرأة مرأة، ولكن الرجل لابد أن يسعى ليكون رجلاً؛ فالرجولة مفهوم محير ومحفوف بالمخاطر، ولا يمكن اكتسابه إلا من خلال التمرد على الأنوثة، ولا يؤكد الرجولة إلا رجال آخرون».

كاميلي باجليا- ناشطة سحاقية

في صلب حالة الشذوذ الجنسي، هناك أزمة في تحديد الهوية الجنسية؛ فعادة ما نرى في الصبي الذي يعاني من شذوذٍ صراعًا مؤلمًا تعود جذوره لمرحلة الطفولة، ويؤدي إلى أن يرى الصبي نفسه مختلفًا عن الصبية الآخرين.

وعادة ما يبدو هذا الصراع المؤلم في تحديد الهوية الجنسية على شكل هواجس ومخاوف صامتة لا يبوح بها الصبي لأحد، ولا يستطيع الوالدان التأكد منها، رغم شعورهما المتنامي بوجود أمرٍ مّا.

وهذه المعاناة تبدأ في فترة مبكرة جدًّا لدرجة أن ذاكرته لا تسعفه بالعودة للفترة التي ظهرت بها لأول مرة؛ هذا الشعور بالاختلاف يدفعه للإحساس بالدونية وبعزلة عن نظرائه من الذكور الآخرين.

عند بعض الصبية الصغار، تكون حالة الارتباك والحيرة في تحديد الهوية الجنسية واضحة وسهلة التشخيص، واسمحوا لي برواية قصص بعض من مرضاي مبتدئًا بـ"ستيفي" الذي كانت حالته مأساوية بشكل غير عادي.

لقد عالجت- بوصفي طبيبًا نفسيًّا- مئات الرجال الشواذ الساخطين، وكانت الاتصالات الهاتفية تأتيني من جميع أنحاء العالم، معظم الاتصالات تتعلق بالأطفال؛ فالمتصلون في الغالب هم آباء متفانون يرغبون في الأفضل لأطفالهم، وأنا أجتهد في تثقيفهم وتقديم المشورة والعون لهم.

في أحد الأيام أخبرتني السكرتيرة أن هناك اتصالاً من ضاحية "باسادينا"

المجاورة، فالتقطت السماعة وإذا بصوت امرأة على الطرف الآخر تبادر بالقول: دكتور، اسمي "مارجريت جونسون"، ثم أخذ صوتها يتهدج، وللحظة بدت طويلة اعتقدت أن الاتصال انقطع، فسألت: هل تسمعينني؟ هل أستطيع مساعدتك؟ فعاد الصوت مرة أخرى قائلة: حسناً. . أنا. . أعتقد أنني قد رأيتك منذ أسبوعين على شاشة التلفزيون. . أنت أليس كذلك؟ لقد كنتَ في مناظرة مع طبيب نفسي.

رددت بالقول: هذا محتمل، لقد كنت في أحد البرامج التلفزيونية منذ أسبوعين أتعارك من أحد النشطاء الشواذ الذي أصبح ضيفًا مألوفًا للبرامج الحوارية [1]، تقصدين مناظرتي مع الدكتور إيزي؟ أجابت: نعم، لقد كنت في البرنامج الذي تحدث عن الأولاد الصغار الذين يرغبون في أن يصبحوا فتيات صغيرات. قلت: هذا صحيح، لقد كنا نتحدث عن الحيرة في تحديد الهوية الجنسية.

قاطعتني السيدة "جونسون" هذه المرة بنبرة جازمة توحي بالأهمية قائلة: دكتور، لقد كنت تتحدث عن ابني ستيفي، إنه صبي صغير وجميل، إنه طفل مميز. . ترددت لوهلة ثم واصلت حديثها قائلة: إنه مفتون بأشياء الفتيات الصغيرات أكثر حتى من بناتي، في الحقيقة هو يحب فقط اللونين الوردي والأحمر، ويلعب بدمى الباربي، ويسير في أرجاء المنزل متراقصًا على أصابع قدميه مثل راقصات الباليه.

وبينما كنت أستمع لها أعطتني السيدة "جونسون" مزيدًا من التفاصيل عن حالة ابنها، فقد كان يبلغ من العمر خمس سنوات، وذكرت أنها لاحظت هذه السلوكيات عليه على مدار ما يقرب من العامين.

بالنسبة لي طول الفترة الزمنية هو أمر يبعث على القلق؛ فمن الطبيعي أن يتساءل صبي صغير عما سيبدو عليه شكله عندما يرتدي خصلات شعر شقراء طويلة، وقد يدفعه الفضول لأن يجرب ذلك، ولكن إذا استمر في فعل هذا الأمر لفترة طويلة وأبدى نفورًا من السلوك الطبيعي والفطري لصبي في عمره، فمن المرجح أن هناك مشكلة.[2]

سألتها هل استمرت هذه الأمور لعامين؟ ويبدو لي أن السيدة "جونسون" أساءت فهم السؤال، وظنّت أنني أوبخها حيث قالت بنبرة دفاعية: ولكن معلمته أخبرتني بألا أقلق، فهي مجرد مرحلة عابرة، وأخبرتني أم زوجي بالمثل، حتى إنها

كانت تعطي ستيفي وشاحها ومجوهراتها ليرتديها، بل إن الجدة كانت دومًا تداعبه قائلة: إن الجدة تحب فتاتها الصغيرة كثيرًا.

فسألتها: وكنت تأملين أن يكونا على حق، وأن كل ما في الأمر لا يعدو كونه مرحلة عابرة؟! أجابت: نعم، ولكن كنت أشعر أن شيئًا ما ليس على ما يرام. . واسترسلت في الحديث بنبرة جادة لتأكيد هذه المخاوف- على ما يبدو- قائلة: في الأسبوع الماضي، أصر "ستيفي" على أن أشتري له دمية من دمى البنات، ثم شاهدتك على التلفزيون واعتقدت أنك تتحدث تحديدًا عن ابني، وبحسب ما فهمت من طرحك أن ابني- إن استمر على هذا الوضع- سيكبر ويصبح... وترددت، وبدت كأنها خائفة من أن تقول: سيكون شاذًّا، وأكملت قائلة: بكل صراحة، أنا اتصلت بك لهذا السبب، وبدا صوتها متهدجًا وهي تسألني: هل سوف يكبر ابني ليصبح شاذًّا؟!

أردت أن أقول لها: إن المصطلحات لا أهمية لها، وأن كلمة "شاذ" تحمل في مضمونها أبعادًا اجتماعية وإيديولوجية [3]، وأن التعبير العلمي هو: "مثلي" لا "شاذ"، ولكن هذه المرأة لا يهما كثيرًا العلم وتأثير المصطلحات، كل ما يهمها هو ابنها.

لكني حاولت تلطيف إجاباتي لها وقلت: إن الاحتمال الأكبر هو أنه بالفعل سائر في طريقه ليصبح شاذًّا؛ فطفل مثل "ستيفي" بنسبة 75% سيكون- عندما يبلغ- شاذًّا أو ثنائي الميول؛ فعدم وضوح الهوية الجنسية هو مؤشر مبكر على الشذوذ.

قالت: إذن سوف يصبح شاذًّا، وليس هناك أمل؟ فأجبتها: قد يكون ذلك، ولكن ليس بالضرورة؛ ما زال أمامه الوقت الكافي لتلقي المساعدة ليتكيف مع وضعه كولد. بادرتني بالسؤال: إذن ماذا يجب علي القيام به؟

بوصفي رئيس هيئة الرابطة الوطنية للبحوث ولعلاج الشذوذ، كنت دومًا أقدم محاضرات عن الشذوذ، خلال الخمس عشرة سنة الماضية، عالجت أعدادًا كبيرة من الشاذين الساخطين من وضعهم في مكتبي في "أنسينو" بـ"لوس أنجليس".

معظم المراجعين الشاذين الذين يأتون لعيادتي لم يلعبوا بالدمى كالبنات، وحالة "ستيفي" هذه تبدو متطرفة جدًّا، ولكن تقريبًا معظمهم أَظهرَ نوعًا من عدم

التكيف والارتياح مع هويته الجنسية الذكورية منذ الطفولة المبكرة؛ وهو ما أدى إلى انعزالهم بعيدًا عن نظرائهم الأولاد الآخرين.

معظم هؤلاء الرجال يتذكرون أنهم في طفولتهم لم يكونوا محبين للرياضة وكانوا انطوائيين- باستثناء صديقات- وغير عدوانيين، ولا يميلون للأنشطة العنيفة، وكانوا يخافون من نظرائهم الأولاد؛ حيث كانوا يكنّون لهم مزيجًا من مشاعر الخوف والانجذاب، وبعضهم كان لديهم مواهب اجتماعية وفنية، وبسبب أن معظم هؤلاء لم يظهروا انجذابًا لمظاهر الأنوثة- مثل "ستيفي" فإن آباءهم لم يشكّوا في وجود أي خلل؛ ولهذا السبب لم يسعوا لعلاجهم في فترات مبكرة.

ولكن من الداخل فإن هؤلاء الرجال عندما كانوا أولادًا، كانوا غير متأكدين من هويتهم الجنسية: هل هي ذكورية، أو أنثوية؛ معظمهم ولد رقيقًا مرهف الحس، ولم يشعروا أن الرجولة هي جزء من تكوينهم، بعضُ الكُتّاب يشير إلى هذه الحالة بمصطلح "فراغ الهوية الجنسية"، وهو ما ينتج من خليط من المزاج عالي الحساسية من قبل الطفل، يقابله بيئة لا تستطيع توفير الاحتياجات الخاصة والمختلفة لهذا النوع من الأطفال.

ما يحتاجه هؤلاء هو عناية خاصة، وتوكيد من الآباء والأنداد، ليتسنى لهم تطوير هوية ذكورية آمنة.

هذا الولد- لأسباب تتعلق بحالته المزاجية والبيئة الأسرية- يبدأ في التراجع عن التشبه بشخصية والده وبخصال الرجولة التي تعبر عنها، وبدلاً من تضمين خصال الرجولة في شخصيته، فإن الصبي في مرحلة ما قبل الشذوذ يندفع في الاتجاه المعاكس لذلك تمامًا، حيث يرفض مظاهر الرجولة المقبلة عليه، ويبدأ بتطوير موقف دفاعي ضدها.

لاحقًا، سوف يبدأ بالانجذاب نحو ما فقده من خلال السعي إلى شخص يمتلك تلك الخصال التي لم يعد يمتلكها؛ وهذا بسبب أننا نقع في حب غير المألوف والشيء الآخر الذي يختلف عنا.

إنها مشكلة هوية:

في جذور كل حالات الشذوذ الجنسي- تقريبًا- هناك تشوُّهٌ في مفهوم الهوية الجنسية؛ فنحن نرى هذا التشوه عند الناشطة السحاقية التي تريد إعادة صياغة

الكتاب المقدس لتبديل ضمير المذكر الذي يعود على "الرب" إلى ضمير المؤنث، أو عندما تسمع شخصًا ما يقول بكل فخر: أنا لا أقع في حب جنس معين؛ لأن جنس الإنسان لا يهم، وإنما أقع في حب الشخص سواء كان رجلاً أو امرأة، أو عندما يقول أحد علماء النفس: إن الثنائية الجنسية تعبر عن توجه أفضل؛ لأنها تفتح الباب أمام احتمالات مبتكرة وجديدة للتعبير الجنسي، أو عندما يصر الفتى في إحدى المدارس الثانوية على أن يسمح له بارتداء فستان وحذاء ذي كعب عال عند ذهابه إلى المدرسة، ويأمر القاضي المدرسة بمسايرة هذا التوهم لدى الفتى ومجاراته في الاعتقاد بأنه فتاة.

إن التوهم الخاطئ للهوية الجنسية هو جوهر حالة الشذوذ؛ فالأطفال الذين يتخيلون أن باستطاعتهم أن يكونوا الجنس الآخر أو الجنسين معًا، يتشبثون بحلٍّ خيالي للخروج من حالة الارتباك التي يعانونها؛ هي ثورة ضد الواقع وتمرد على الحدود التي تفرضها طبيعتنا البشرية. ولكن حان الوقت للعودة إلى "ستيفي":

الهوية الجنسية تترسخ داخل إطار الأسرة:

إن التعامل مع مشكلة مرحلة ما قبل الشذوذ الجنسي، هو عملية يجب أن يشارك فيها كل فرد من أفراد العائلة، وعودة لمحادثتنا الهاتفية، فقد طلبتُ من السيدة "جونسون" أن تحدثني عن والد "ستيفي"؛ فالأب يؤدي دورًا محوريًّا في النمو الطبيعي لأي صبي [4]، والحقيقة أن دور الأب يعتبر أكثر أهمية من دور الأم في تنمية الهوية الجنسية بالنسبة للصبي.

قالت والدة "ستيفي": إن زوجي "بيل" موجود هنا الآن، هل تريد التحدث إليه؟ وعلى عجل لخّصَتْ له ما أخبرتُها به: بيل، إن عالم النفس هذا يقول: إنه من الممكن أن يصبح ستيفي شاذًّا جنسيًّا. التقط السماعة وبادرني بصوته الأجش متسائلا: إذن، ماذا يجب علينا القيام به؟ ولم يمهلني لأرد عليه، بل واصل قائلاً: سوف نأتي إلى عيادتك؟ كان واضحًا أنه من النوع الذي يجيد الأفعال أكثر من الأقوال. أجبته بأن هذه فكرة رائعة، وأخبرته بأنه ببعض الإرشاد المتخصص، فإن باستطاعتهما القيام ببعض الأمور المهمة، وتعديل بعض الأنماط الأسرية لمساعدة "ستيفي"، ولكن يجب عليهما أولاً أن يعرفا الوضع معرفة دقيقة.

النمو الآمن للهوية الجنسية:

في اليوم التالي، حضرت عائلة "ستيفي" وكان واضحًا أنها عائلة تقليدية، فالأم كانت جذابة ومتحدثة لبقة، أما بالنسبة لـ"ستيفي" ذي الخمسة أعوام، فكان ولدًا جميلاً بشكل لافتٍ، فبشرته ناصعة البياض مع عينين كبيرتين تزيد من تألقهما أهدابٌ سوداء طويلة [5].والأب "بيل "هو مدير تنفيذي في أحد المصارف ,ولم يكن يتكلم كثيرا . وبالنسبة لي كان هذا نمطا أسريا مألوفا .[6]

لقد تحدثت إليهم أسرةً واحدةً لعدة دقائق، ثم أخذت "بيل" و"مارجريت" جانبًا، وشرحت لهما بعض الأساسيات التي يحتاج لها أي صبي لكي ينمو بشكل سوي، وابتدأت من أن الأمهات يصنعن الأولاد، بينما يصنع الآباءُ الرجالَ، وشرحت لهما كيفية حدوث هذا؛ ففي مرحلة الطفولة يرتبط الولد والبنت بالأم، وبلغة علم النفس التفاعلية: فإن الأم تمثل المصدر الأول للحب؛ فهي التي تقوم بتلبية الحاجات الأساسية لطفلها [7]، وفي حين تستطيع البنت الاستمرار في تطوير هويتها الجنسية عبر علاقتها بأمها، فإنه يجب على الولد القيام بمهمة إضافية؛ وهي الانفصال والاختلاف عن أمه، ومحاكاة والده والتشبه به.

ومع تعلم اللغة بـ"هو" و"هي"، يكتشف الطفل أن العالم ينقسم إلى نقائض طبيعية من الأولاد والبنات، والرجال والنساء، وعند هذه المرحلة يتعين على الولد الصغير أن يذهب أبعد من مجرد ملاحظة الفروق؛ إذ يجب عليه أن يحدد المكان المناسب له وسط هذا العالم المنقسم جنسيًّا، وشرحت لوالدَيْ "ستيفي" أن البنت تكون أمامها مهمة أسهل؛ فهي ترتبط بالأم، وليست مضطرة إلى التمايز عن أقرب الناس إلى قلبها وهي أمها، ولكن الوضع مختلف بالنسبة للولد؛ إذ يتعين عليه أن ينفصل- مكرهًا- عن الأم، وأن ينمي بداخله التميز والاختلاف عن مصدر الحب الرئيسي إذا ما أراد أن يكون رجلاً ذا ميول جنسية سوية.

وربما يفسر هذا الأمرُ (صعوبة مهمة الولد مقارنة بمهمة البنت) انخفاضَ عدد الشواذِّ في أوساط النساء مقارنةً بالرجال، حيث تشير بعض الدراسات إلى أنها في مقابل كل حالة شذوذ لدى النساء هناك حالتا شذوذ لدى الرجال، بينما تشير دراسات أخرى إلى أنها 1 إلى 5، أو ربما 1 إلى 11؛ نحن لا نعلم على وجه الدقة، ولكن من المؤكد أن نسبة الشذوذ بين الرجال تزيد على نسبته بين النساء.

يعلق المحلل النفسي روبرت ستولر ساخرًا بقوله: إن أول طلبية في صناعة

الرجل، هو عدم التشبه بالمرأة.[8]

بحثًا عن الذكورة:

يؤدي الأب دورًا مؤثرًا في تشكيل هوية ابنه الذكورية، فيجب عليه تسليط الضوء على الملامح الذكورية التي تبدأ بالتشكل على ابنه وتشجيعه على تنميتها وإبرازها؛ فالأب بمقدوره ممارسة أنواع من الرياضة تتطلب جهدًا بدنيًا شاقًا مع ابنه أو أي أنشطة أخرى لا تقبل عليها الفتيات؛ من أجل تعزيز شعور الصبي بأنه مختلف عن الفتيات، كما أن مشاهدة الصبي لأجزاء من جسد أبيه كرؤية صدره العاري تمنحه فرصة لملاحظة ملامح الذكورة على جسد والده مثله تمامًا.

ونتيجة لذلك سوف يتعرف أكثر على ماذا يعني أن تكون ذكرًا، وسوف يقبل جسده الذي يمثل ذكورته، وسوف يتساءل: إذن هكذا هم الأولاد والرجال وهكذا أنا! أنا ولد؛ ولهذا السبب لدي عضو تناسلي ذكوري!

يطلق علماء النفس على عمليه اكتساب خصال الذكورة وتجسيدها في النفس مصطلح "احتواء الذكورة"، وهي عملية- بالمناسبة- تحدث بطريقة غير واعية، ولكنه سلوك يتشكل بتراكم الملاحظات التي تدفع في هذا الاتجاه، وهذه العملية جزء مهم من النمو السوي.

يمثل العضو الذكري رمزًا مهمًّا في مفهوم الذكورة، فهو الاختلاف الجليّ الذي لا يخطئ بين الذكر والأنثى، ويجب التأكيد على هذا الاختلاف عند علاج الصبي، وكما لاحظ المحلل النفسي ريتشارد جرين، فإن الصبي الذي يتشبه بالفتيات ينظر إلى عضوه التناسلي كأنه شيء غريب وغامض [9]، وإذا لم يستطع الاعتراف بعضوه التناسلي جزءًا أساسيًّا من طبيعته الذكورية، فسيكبر ويجد نفسه منجذبًا دائمًا إلى الأعضاء التناسلية لدى الرجال الآخرين.

إن الصبي الذي يتخذ قرارًا غير واع بالانفصال عن جسده الذكوري، فإنه بلا شك يسير في الطريق المؤدية للشذوذ الجنسي، ومثل هذا الصبي تظهر عليه- أحيانًا وبوضوح- علامات التشبه بالفتيات، ولكنه غالبًا ما يعاني من ارتباك الهوية الجنسية، وهذا يعني أنه سوف يبدو مختلفًا، ولا يتمتع بصداقات قوية مع أقرانه الذكور في هذه المرحلة المهمة من نموه، حيث ينفر عادة الأولادُ الأسوياء- بين السادسة والحادية عشرة من العمر- من الاختلاط وعقد الصداقات مع الفتيات من

أجل تشكيل هوية ذكورية سليمة.

العلاقة الفاترة أو السيئة مع الأب هي مؤشر مهم على وجود خلل وارتباك في تحديد الهوية الجنسية.

"ريتشارد ويلز" الذي يرعى مجموعة تقدم الدعم والمساندة للذين يعانون من الشذوذ، جمع قصصَ مجموعة من الرجال الذين شُفُوا من الشذوذ واستطاعوا الإقلاع عنه ونشرها على الإنترنت، وهو يصف مشاعرهم المشتركة بالاغتراب عن طبيعتهم الذكورية قائلاً:

«إن خوفنا وآلامنا نتيجة الشعور بالرفض من قبل العالم الذكوري، قد قادنا في الغالب إلى الانعزال بأنفسنا بعيدًا عن عالم الذكورة- على الرغم من أنه أكثر شيء نرغب فيه- حيث بدأ بعض منا في الابتعاد شيئًا فشيئًا عن الذكور الآخرين، وعن الاهتمامات الذكورية وكل ما يرتبط بالذكورة من خلال الاندفاع نحو الطباع الأنثوية، والاهتمامات الأنثوية والتأنق الأنثوي بوعي أو بدون وعي. (في كثير من الأحيان كنا نرى هذا في مجتمع الشواذ جنسيًّا، كمحاولة متعمدة للتشبه بالإناث، حيث كان الشواذ في بعض الأحيان يصلون إلى مرحلة شديدة التطرف؛ إذ كان يشير بعضهم إلى بعض بكلمة "هي" أو "صديقة").

لكن إلى أين أوصلنا هذا كذكور بالفطرة؟ لقد أوصلنا هذا إلى أرض الأوهام المكتظة بالارتباك الجنسي؛ فلسنا كاملي الذكورة، ولسنا في الحقيقة إناثًا أيضًا، فإننا لم نفصل عن الذكور الذين نخشى أن يتسببوا في إيذائنا فقط، بل انفصلنا عن العالم الذكوري الذي يحيا حياة جنسية سوية، بل إن بعضًا منا كان ينفصل عن ذكوريته بوصفها شيئًا يسبب الخزي والشعور بالدونية».

وكما يوضح الطبيب النفسي "تشارلز سوكاريدز"، فإن هذا يعني أن الرجال الشاذين ما زالوا يبحثون عن معنى الذكورة في النفس والذي كان من المفروض أن يتم وضع أساسه في عهد الطفولة المبكرة، ثم ترسيخه خلال مرحلة المراهقة [10]، ولكن التفاعلات الحادثة تتم بلا وعي تمامًا، ولهذا السبب يستخدم الدكتور "سوكاريدز" التحليل النفسي (وبعضًا من أدوات التحليل النفسي مثل تأثير الحلم) لمساعدة مرضاه من البالغين المثليين على فهم تطلعاتهم اللاواعية وتحليلها.

ومن أجل تفادي الاضطرار لتقديم علاج صعب وطويل لتغيير السلوك الشاذ في

مرحلة البلوغ، يجب تشجيع التدخل المبكر في مرحلة الطفولة، وهو ما أدعو إليه ويمكن للوالدين- خاصة الآباء- أن يؤكدوا وينمّوا الهوية الجنسية الذكورية الضعيفة لأبنائهم، خاصة عندما تكون في طور التكوين، ويمكن أن يؤدي التدخل الأبوي إلى زيادة الثقة بالهوية الذكورية، والوقاية من الشعور بالدونية الذكورية والاغتراب عن عالم الرجال الذي يصفه الكثير من الرجال الشاذين جنسيًّا؛ والهدف الأساسي هنا هو منع الصبي من الانسلاخ عن عالمه الذكوري الطبيعي، وتشجيعه على اكتساب الهوية الذكورية التي تناسب فطرته، ويجب الحذر هنا من التورط في فرض هوية ذكورية نمطية لا تناسب طبيعته وخصاله الشخصية، فقط المطلوب مساعدته لتطوير الهوية الذكورية التي تلائم الخصال والإمكانات المتوفرة لديه.

يوضح "ريتشارد ويلز" الاحتياجات التي شعر بها هو وغيره من الذين عانوا من الشذوذ وهم أطفال، خاصة الشعور بالحنين والوحدة، مثل كثير من الشاذين الساخطين على هويتهم الجنسية قائلاً:

«لقد صنعنا خليجًا من الاختلافات النفسية يفصلنا عن عالم الذكور الأسوياء، دون قصد أو علم منا، ومع ذلك ولأننا ذكور فقد كنا بحاجة للانتماء لعالم الرجال كي يرشدونا ويعترفوا بوجودنا، وأيضًا لكي نحب ويحبنا الآخرون، وعلى الرغم من خوفنا منهم فقد كنا نتشوق بشدة لقبولهم لنا، وكنا نحسدهم على الثقة التي تضفيها عليهم ملامح الفحولة بشكل تلقائي وعفوي، ومع مرور الوقت يتحول هذا الشعور بالحسد إلى شعور بالشهوة تجاههم، أصبحنا نراقب الرجال من مسافة، ونريد أن نصبح مثلهم، ونريد أن نكون وسطهم وأصبحوا محور رغباتنا.

وعلى الجانب البعيد من الخليج الذي صنعناه، لم يكن بمقدورنا الانعتاق عن عالم الشذوذ الجنسي، نشطاء الشذوذ والأطباء النفسيون المؤيدون للشذوذ، كانوا يقولون لنا: إن هذا مكاننا الحقيقي، وإنه رائع، ولكن حتى لو كان هذا هو المكان الملائم للبعض، لم يكن كذلك بالنسبة لنا؛ كنا نرغب في شيء أكثر؛ كنا بحاجة لمواجهة مخاوفنا وعلاج الآلام التي تختلج في صدورنا، وأن نصبح الرجال الذين أرادنا الله لنا أن نكون، نحن لا نريد التأكيد على وجودنا كشواذ جنسيًّا، نحن نريد الاعتراف بنا كرجال، إننا نريد أن نعالج مشكلاتنا الداخلية التي تدعونا ضمائرنا لأن نعالجها».

وكما يفسر "وايلر"، فإن العملية الطبيعية لتحديد الهوية الجنسية قد أصابها تشوه؛ فبدلاً من التماثل مع جنسهم يقوم مثل هؤلاء الصبية بفصل أنفسهم عن عالم الرجال، ويضربون حول أنفسهم سياجًا عازلاً يحميهم من تأثيرات عالم الذكورة؛ لأنه يعرضهم للتوتر والألم!

تبدأ عملية الانسلاخ عن عالم الذكورة في الغالب، بعلاقة هشة مع الأب؛ فبعض الآباء لا يعدمون الحيلة لإشراك أنفسهم في كل شاردة وواردة، إلا عندما يتعلق الأمر بأولادهم؛ فالإنهاك في العمل أو السفر أو الرياضة أو أي نشاط آخر، يتحول بمرور الوقت إلى أولوية تسرق الوقت، ولا تبقي منه شيئًا للأولاد، وبعض الآباء لا يدرك أن من الأبناء من يفسر النقد بأنه تعبير عن الرفض، وأنه لا يستطيع فهمه إلا بهذه الطريقة.

وقد تكون جذور المشكلة أصلاً هي في تفاوت الحالة المزاجية، وعدم التوافق في الطباع؛ فيجد الأب صعوبة في التعامل مع هذا المميز بسبب حساسيته المفرطة والاختلاف في الاهتمامات، (فربما هذا الابن المميز يتمتع بمواهب اجتماعية وفنية والقليل من الخصائص الذكورية التقليدية)، ووسط مشاغل الحياة وإيقاعها المتسارع يبتعد الأب عن هذا الصبي الذي يصعب التواصل معه ويتجاهله بطريقة أو أخرى.

وهناك بعض الآباء الذين يصلون إلى درجة متطرفة عند تنفيذ هذا السيناريو، فلقد رأيت أبًا (شخصًا، غير ناضج لم يستوف الشروط اللازمة كي يصبح رجلاً، كان يحذر زوجته قبل أن تضع حملها من أنه لا يريد ذكورًا!) يرفض ويتجاهل ابنهما تمامًا، في حين أنه كان يهيم شغفًا بابنته الكبرى، وبسبب خوفه الشديد من فكرة أن يكون هناك "رجل آخر في المنزل"؛ فقد أظهر هذا الرجل استياءه بطريقة واضحة، لدرجة أن ابنه مع بلوغ عامه الثاني كان يرتدي الفساتين مثل أخته ويلعب بمجموعة الدمى الخاصة بالفتيات، وليس من المستغرب- حينئذ- أن يشعر بمزيد من الأمان لتخلي ابنه عن هويته الذكورية.

وهناك بعض الأمهات اللواتي يطلن أمد اعتماد أبنائهن عليهن لأسباب مختلفة، فالعلاقة الحميمة بين الأم وابنها هي علاقة أساسية ومعقدة ومستقلة، وهذه الرابطة القوية من الممكن جدًا أن تتعمق لتتحول إلى ما يطلق عليه الطبيب النفسي

"روبرت ستولر" اسم "المعايشة المباركة" [11]، بمعنى أن يعتمد كل طرف على الآخر في كل شيء وبشكل مبالغ فيه، وإذا كانت الأم لا تتمتع بعلاقة مشبعة وحميمية مع والد الطفل، فمن الممكن أن تفرط الأم في التركيز على الصبي، وتستخدمه لإشباع حاجتها إلى الحب والرفقة بطريقة لا تنفعه.[12]

وسوف يفسر أي أب بارز (الذي يتميز بالقوة والطيبة) علاقة الأم بالابن التي يطلق عليها "المعايشة المباركة" التي يحس بها بفطرته على أنها علاقة غير سوية، وإذا كان الأب يريد لابنه أن يشب سويًّا، فيجب أن يكسر رابطة الأم بالابن، هذه الرابطة التي تتناسب مع مرحلة الرضاعة، ولكن استخدامها بعد ذلك لا يصب في مصلحة الابن، وبهذه الطريقة يجب على الأب أن يكون مثالاً يحتذى به، بحيث يوضح أن في إمكان الابن الحفاظ على علاقة الحب مع الأم مع الحفاظ على استقلاليته، ومن هذا المنطلق يجب أن يعمل الأب كعازل صحي بين الأم والابن.[13]

وربما تعمل الأم في بعض الأحيان ضد تكوين الرابطة بين الأب والابن من خلال إبقاء الزوج بعيدًا عن الصبي ("إن الجو بارد جدًّا بالخارج لكي يذهب معك، وربما يؤذيه هذا" أو "إنه مشغول بأداء بعض الأمور معي اليوم") من أجل إشباع حاجتها الشخصية إلى الحميمية الذكورية، فيمكنها الحصول على علاقة عاطفية حميمة مع ابنها- الذكر "الآمن"- بدون الدخول في الصراعات التي ربما تواجهها في علاقتها مع زوجها، وربما تسارع إلى "إنقاذ" ابنها من أبيه، فربما تضم الولد وتواسيه عندما يعاقبه الأب أو يتجاهله، ويمكن أن يؤدي تعاطفها المفرط إلى تثبيط الصبي الصغير عن الإقدام على الانفصال المهم جدًّا عن الأم.

علاوة على ذلك، يعزز التعاطف المبالغ فيه من الأم من الإحساس بالرثاء للذات؛ وهي صفة نلاحظها في كثير من الأحيان على كل من الصبية في مرحلة ما قبل الشذوذ الجنسي والرجال الشاذين [14]، وربما يؤدي هذا العطف المبالغ فيه من قبل الأم إلى تشجيع الصبي على أن يظل منعزلاً عن أقرانه الذكور عندما يتأذى من استهزائهم به أو رفضهم إياه، وكما يقول "ريتشارد وايلر".

«كلنا تقريبًا يتمتع برقة مشاعر فطرية وقوة انفعالية نعلم أنهما قد يكونان نعمة وعلاجًا (مهما كان حجم تأثير تركيبنا البيولوجي على شذوذنا، فإن هذا الأمر من المحتمل أن يكون هذا الأمر هو أكبر مؤثر على صراعنا معها).

فمن جانب تدفعنا رقة مشاعرنا إلى أن نظهر مزيدًا من الحب واللطف والطيبة، وفي كثير من الأحيان ننزع إلى النواحي الروحانية بمعدل يفوق المتوسط، وعلى الجانب الآخر فإن هذه تمثل بعضًا من الصفات التي تدفع الفتيات إلى الترحيب بنا في عالمهن الداخلي، وتدفع الأمهات إلى التعلق بنا لمنحنا مزيدًا من الحماية، وتدفع الآباء إلى الابتعاد عنا، وتدفع أقراننا الذكور إلى نبذنا».

وربما يصبح الأمر أكثر إشكالاً، فإنه عرضة للشعور بالأذى والرفض؛ مما يؤدي إلى المبالغة في أية إساءة أو رفض حقيقي نتعرض له على أيدي الآخرين، ويتحول إدراكنا للأمور إلى واقع نعايشه.

عدم انسجام الهوية الجنسية: هل هو مجرد خرافة؟

هل من الممكن أن تكون القصص التي يرويها لنا الكثير من السابقين عن عدم الانسجام في مرحلة الطفولة، ذات دلالة لمجموعة نمطية صغيرة من الشواذ فقط؟ هل هذه القصص- في الحقيقة- غير معتادة؟!

تقدم دراسة جديرة بالاحترام عن الشذوذ الجنسي بعض الإجابات الموضحة لهذا السؤال، وفي كثير من الأوقات يستشهد النشطاء الشواذ بهذه الدراسة الواردة بعنوان: "الاختيارات الجنسية. . تطورها لدى الذكور والإناث"، على أنها عمل مرجعي، وقد قامت المؤسسة الوطنية للصحة العقلية بتمويل هذه الدراسة، وقامت مؤسسة "كينسي" للأبحاث الجنسية بالتخطيط لها، ولقد كشفت الدراسة أن الرجال الذين أصبحوا شواذّ تقل الاحتمالات لديهم- مقارنة بمعظم الرجال- في أن يستمتعوا "كثيرًا" بأنشطة الصبيان التقليدية مثل لعبة البيسبول أو كرة القدم، نسبة ممارسة مثل هذه الأنشطة في أوساط الشاذين تبلغ 11% فقط، مقارنة مع انتشارها الواسع في أوساط الأسوياء والبالغ 70%.

في المقابل، نجد شعبية جارفة في أوساط الشاذين للأنشطة الفردية، وخاصة الرسم والموسيقى والقراءة، تزيد على ضعف معدلها لدى الأسوياء، أوضحت الدراسة أيضًا أن أكثر من نصف الشواذ يتمتعون بممارسة بعض الأنشطة الخاصة بالفتيات، مثل لعبة المنزل والحجلة وغيرها مقارنة بـ 11% فقط من الأسوياء [15]، أكثر من ثلث الشواذ (37%) يرتدون أزياء البنات خلال سنوات الدراسة الأولى، بينما 10% فقط من الأسوياء جربوا مثل ذلك.

وربطت الدراسة بين أنماط أسرية معينة وبين عدم انسجام الهوية الجنسية، وعلى رأسها الأم قوية الشخصية، والعلاقة القوية بالأم، والأب الذي تسيطر عليه الأم، وأخيرًا المستوى المنخفض لتقمص الابن لشخصية والده.

وخلص القائمون على الدراسة إلى أن العينة التي شملتها الدراسة، أثبتت أن عدم انسجام الهوية الجنسية خلال مرحلة الطفولة لدى الذكور هو مؤشر قوي على الميول الجنسية عند البلوغ [16]، وهذه الاكتشافات حول عدم انسجام الهوية الجنسية عند الأطفال لا تشمل الشواذ الساخطين من ميولهم المنحرفة فقط، بل أيضًا الشواذ الذين لا يبدون تذمرًا من سلوكهم ولم يراجعوا عيادات نفسية.[17]

الالتزام بمستقبل صحي:

مستشهدًا بعبارات عالم النفس "روبرت ستولر"، ذكرتُ لـ"مارجريت" و"بيل" أن الرجولة إنجاز، وما أقصده هو أن التنشئة بطريقة سوية لا تحدث بشكل تلقائي وعفوي، بل تتطلب توجيهًا أبويًّا سليمًا ودعمًا عائليًّا، وبحاجة أيضًا للوقت. فهمت "مارجريت" الفكرة وقالت: تقصدُ أنها عملية.

سألتْ: وكم تستغرق هذه العملية من الوقت؟ عرفتُ مغزى سؤالها؛ فهي تقصد: متى باستطاعتها معرفة إذا ما كان "ستيفي" سيصبح شاذًّا، أخبرتها أن الفترة المؤثرة أو الحرجة هي بين سنة ونصف وثلاث سنوات، ولكن الفترة الممكنة هي قبل الثانية عشرة، إذا لم تصنع شيئًا خلال هذه المرحلة، فمع مستهل مرحلة البلوغ عندما يبدأ بالشعور بروابط جنسية عميقة وبحنين عاطفي، فإن بحثه عن الهوية الجنسية سيتحول إلى سلوك توجهه النوازع الشهوانية.

"شهوانية؟" سأل الأب وهو مقطب الجبين بنظرة قلقة، فأوضحت له أنه ربما يبدأ مرحلة الاستكشاف بممارسة الشذوذ مع صبية آخرين أو حتى مع شواذ بالغين.

وقال بنبرة ممتعضة: هذا هو أسوأ كابوس لأي أب! شعرت بالقلق واضحًا في نبرات صوته. فهو- ككل أب- يتمنى أن يرى ابنه يومًا ما متزوجًا ولديه أطفال، أخبرته أن الصبي الذي يعاني ارتباكًا في هويته الجنسية قد يجرب الحميمية مع ذكور آخرين، وأحيانًا مع رجال بالغين، وأن هذا السلوك سوف يؤدي إلى تكريس الهوية الشاذة لديه.[18]

أسند "بيل" ظهره على الكرسي، وبحاجبين مقطبين قال لي: سوف نبذل كل ما في وسعنا حتى لو اضطررنا لبيع المزرعة. في تلك اللحظة أدركت أن "بيل" يقصد أنه سوف يفعل أي شيء لمساعدة ابنه ستيفي مهما كان.

متفهمًا للمخاوف التي يشعر بها "بيل" أكدتٌّ له أنه لن يضطر لبيع المزرعة، فبإمكانه القيام بكل المطلوب منه في هذه المرحلة بصورة مباشرة، فقط كن قريبًا منه عاطفيًّا، وحافظ على علاقة دافئة تملؤها المحبة معه ولا تجعله يبتعد عنك.

في تلك اللحظة، تذكرت الساعات الطويلة من الجلسات التي قضيتها مع مراجعين شواذ، وكيف كانوا يخبرونني عن بحثهم عن رفقاء، وعن حنينهم البالغ لحب الذكور الآخرين وللحميمية الشهوانية معهم.

كان هناك فراغ هائل في حياتهم يعود لسنواتهم المبكرة لغياب مشاعر الاهتمام والعاطفة والتوعية، وفي مرحلة لاحقة يسيطر عليهم الشعور بأن هذا الشخص الذي سوف يفهمهم ويحتضنهم موجود في مكان ما، ويبدؤون رحلة البحث عن هذا الشخص الذي سوف يعوضهم عن حب وحنان الأب الذي افتقدوه.

قلت لـ"بيل": كن أبًا بارزاً. فرد بتعجب: ماذا تقصد بـ"بارز"؟ قلت له: الأب البارز تعني أمرين: قوي، وأيضًا مطبوع على حب الخير؛ فـ"ستيفي" بحاجة لأن يراك واثقًا من نفسك وحاسمًا، ولكن في الوقت ذاته هو بحاجة إلى تفهٌّمك وعنايتك ورِقّتك أحيانًا، بعبارة أخرى: "ستيفي" بحاجة لأسباب تجعله يطمح أن يكون مثلك.

وقلت لـ"مارجريت": أنت يجب عليك أن تتراجعي قليلاً. فبدت عليها الدهشة، وقالت: لست متأكدة من أنني فهمت ما تقصده، بالطبع سوف أعتني به أيضًا. فأخبرتها أن ما أقصده هو ألا تعامليه كطفل، ودعيه يقوم ببعض الأشياء بنفسه، لا تحاولي أن تكوني له الأم والأب معًا، إذا كان لديه تساؤل فاطلبي منه أن يتوجه بالسؤال لوالده.

أسئلة عن ماذا؟

عن كل شيء، عن الجنس بالتأكيد، ولكن حتى الأسئلة الأخرى: لماذا السماء زرقاء؟ لماذا تهب الرياح؟ حوِّلي كل الأسئلة لزوجك، كل المهمات التي من شأنها أن تكرس في "ستيفي" الشعور بأن والده مهتم به، وأنه مهم جدًّا بالنسبة له، وعلى الوالد أن يبرهن أن باستطاعته تقديم الكثير له.

كثير من الشواذ الذين يراجعونني يقولون لي: إن آباءهم لم يكن لديهم شيء ليقدموه لهم، وأحد هؤلاء الشواذ شاب في السادسة والعشرين من العمر، أخبرني أن والده كان موجودًا، ولكنه ليس موجودًا بالفعل، أقصد أنه كان يمضي ساعات طويلة في المنزل، ولكن لا أستطيع تذكر أي شيء مهم يتعلق به.[19]

سألني "بيل": إذن "ستيفي" ليس بحاجة للعلاج؟ فأجبته أن ستيفي بالفعل ليس بحاجة للعلاج، هو فقط يحتاج والده.

في الأسبوع التالي، عندما حضرت "مارجريت" كانت وحدها، وبكل أسف لم أفاجأ بعدم حضور "بيل"؛ فهذا النمط الأسري أصبح مألوفًا، فالأم غالبًا ما تستشعر أهمية ما يجب عليها القيام به، فيما يغيب هذا الحس بالمسؤولية بطريقة أو أخرى عن الأب؛ كما يقولون: "والدتك سوف تتولى الأمر".

أخبرتني "مارجريت" معتذرة أن "بيل" لا يبدي أي اهتمام بـ"ستيفي"، حتى عندما كنا في طريق العودة بعد مقابلتك الأسبوع الماضي لم يتحدث مع "ستيفي"، وأعتقد أيضًا أنه لم يدر بينهما حوار حقيقي ومباشر منذ ذلك الحين.

سألتها: ماذا يحدث عندما يعود "بيل" إلى المنزل؟ فأجابتني: المؤكد أنه لا يتحدث مع "ستيفي"؛ فهو بالكاد يتحدث معي، فهو بمجرد عودته من العمل يعد لنفسه كأسًا من المارتيني، ويشاهد التلفزيون؛ إنها نفس القصة القديمة.

لم يمض أسبوع واحد، منذ أن قال "بيل": إنه على استعداد لبيع المزرعة من أجل إنقاذ ابنه! ليس عندي أدنى شك في أن هذا الأب يحب ابنه، وأنه في قرارة نفسه يجزم بأنه على استعداد أن يضحي من أجله، ولكنها تلك الأشياء البسيطة مثل إظهار الحب والعطف وإبداء الاهتمام بشكل يومي أصبحت عصية عليه، ولم يستطع الوفاء بها من أجل مساعدة ابنه على تخطي أزمة ارتباك الهوية الجنسية، وكما شاهدنا فهو لم يلتزم حتى بمجرد الحديث مع ابنه، والمحزن أن هذا النمط من السلوك أصبح مألوفًا جدًّا؛ فخلال خمسة عشر عامًا تحدثت خلالها مع مئات الشواذ، لم أجد باستثناء حالات قليلة شاذًّا واحدًا يقول: إنه كان يتمتع بعلاقة قوية ومحترمة يملؤها الحب مع والده.[20]

ولمعرفة طبيعة العلاقة بين الأب وابنه، لا يجب علينا أكثر من أن ننظر إلى من يلجأ الطفل عندما يكون فرحًا أو فخورًا بإنجاز حققه بحثًا عن التشجيع أو لمجرد

المتعة والإثارة، إذا كان دومًا للأم فهناك بالتأكيد خللٌ في علاقة الابن بوالده.

من تجربتنا في العيادة وخبراتنا مع كثير من الشواذ، من النادر أن يشعر رجل يعاني من الشذوذ بأن والده أشبع احتياجاته للحب والرعاية والإرشاد، أو أنه يشعر أن والده كان يمثل قدوة له، في الواقع فإنه يتذكر أنه كان يعاني من الإهمال، وأن العداء المتبادل كان هو ما يميز علاقاته الأسرية خلال تلك المرحلة.

كما هي الطبائع البشرية، فهذا الأمر لا يمكن تعميمه؛ فأحيانًا تكون علاقة الأب مع ابنه مناسبة إلى حد معقول، في مثل هذه الحالات قد تكون هناك مشاكل عنف وعدائية مع إخوة أو أنداد- غالبًا أكبر سنًا- وإساءة معاملة تؤدي إلى جراح داخلية مؤلمة، وهذا يؤدي إلى استمرار نفس المشكلة؛ وهي أن الطفل يتملكه شعور بعدم أهليته للهوية الذكورية، وأنه لا يستطيع مجاراة الذكور من حوله، أو أنه أقل منهم؛ وهذه المشكلة يمكن تسميتها "أزمة الثقة في الهوية الجنسية".

كما أوضح "ريتشارد ويلر" وهو يتحدث نيابة عن مجموعة من الرجال الذين شفوا من الشذوذ- وهو أحدهم- : «لم نجد حالة واحدة لرجل يتألم من ميوله الشاذة، لم تعانِ علاقته مع الرجال الآخرين أو مع عالم الرجال من النفور العاطفي والإقصاء.

كل طفل لديه حنين إلى حب الأب، وإلى احتضانه له، وإلى من يقوده ويرشده إلى عالم الرجال، وإلى أن يعترف بطبيعته الرجولية؛ إذا لم تتوفر له مثل هذه العلاقات للترحيب به في عالم الذكورة، فسوف يبقى بعيدًا فقط يتطلع إلى الرجال الآخرين باشتياق ورغبة».

وتأكيدًا لكلام "ويلر" فأنا لم أقابل حالة واحدة لشاذ لم يعان من جراح في علاقته مع عالم الذكور.

لست يائسًا بعدُ من والدِ "ستيفي" لذلك؛ فقد نصحت "مارجريت" من أجل تعويض الفراغ المؤقت بالبحث عن رمز ذكوري بديل لابنها: عم أو خال مثلاً، يصطحب "ستيفي" معه في رحلة لصيد السمك، ابن عم يدربه على التقاط الكرة، وأي رجال آخرين موثوقين، يمضي "ستيفي" بعض الوقت معهم؛ لمنحه شعورًا بأنه مهم وأنه مرغوب فيه.

بالتأكيد، ليس هناك شيء مضمون، كل ما يجب على "مارجريت" و"بيل" القيام

به هو فقط من أجل مضاعفة فرص "ستيفي" بتوفير البيئة الملائمة، وأجزم أن "مارجريت" و"بيل" لن يتوقفا عن حب ابنهما حتى لو باءت محاولاتهما بالفشل.

لكن هناك الكثير من العمل يجب القيام به لوضع أساس صحي ملائم، وهذا هو الوقت للبدء فيه.

2

صبي مرحلة ما قبل الشذوذ

لماذا يجب على الوالدين التدخل؟

«الطريق إلى الرجولة طويل جدًا، وهو مليء بالتعلم والمحاولة والفشل والمحاولة مرة أخرى، بعض الصبية لا يكملون الطريق، في مرحلة ما تصبح الضغوط كبيرة، فالهزائم والفشل مريرة جدًا، ويقرر الصبي الانسحاب من مواصلة الرحلة، وينعطف في مسار جانبي، لقد كنت واحدًا من هؤلاء الصبية، وقادني هذا المسار الجانبي إلى عالم الشذوذ».

آلان
ميدينجر

ما هي الاحتمالات؟ هذا هو أول ما يتبادر في ذهن الآباء والأمهات عندما يشعرون بالقلق حيال الآثار المحتملة لارتباك الهوية الجنسية الذي يعانيه أطفالهم، ولا يبدو أن الاحتمالات جيدة؛ فالصبية الذين يشعرون بميول نحو الأنشطة الأنثوية أو ينهمكون بها تمامًا تصل فرص تحولهم إلى شواذ إلى نسبة 75% على الأقل.[1]

كما أسلفت، فإن قصة "ستيفي" تعتبر حالة متطرفة؛ حيث إن معظم الصبية الذين يعانون ارتباك الهوية الجنسية لا تكون الأعراض واضحة عليهم بنفس الدرجة، فالأعراض الظاهرة غالبًا هي: الابتعاد عن الآباء، وافتقاد الأصدقاء الذكور، والأهم أنهم يخفون الآلام وعذابات مشاعر نقص الرجولة؛ مما يجعلها تنمو وتتغذى في هذا المناخ المحاط بالسرية والكتمان، ونتيجة لعدم وجود أعراض واضحة لما يعانونه لا يتم تشخيص حالاتهم، ولكن تظل احتمالات تحولهم إلى شواذ كبيرةً جدًا.

يتفق معظم الباحثين على أن عدم انسجام الهوية الجنسية في فترة الطفولة- خاصة عندما يصاحبه الشعور بالاختلاف عن الصبية الآخرين- هو العامل الأكثر شيوعًا وارتباطًا بالشذوذ.

والمحزن أن الكثير من اختصاصيي الصحة العقلية- من أطباء نفسيين وعلماء نفس ومستشارين اجتماعيين- لا يرون ضرورة إبلاغ الوالدين باحتمالية تحول ابنهم إلى شاذ عندما يكبر، والأسوأ من ذلك أنهم عندما يبدي لهم الوالدان مخاوفهم من ميول أطفالهم الجنسية، فإنهم بدلاً من معالجة هذا الخلل لدى الأولاد، يحولون تركيزهم إلى الآباء أنفسهم، ويطلبون منهم التخلص مما يسمونه النظرة المتخلفة وغير المتنورة للشذوذ الجنسي، وهم بهذا التوجه يستبدلون بتقديم العون الحقيقي المطلوب في مثل هذه الظروف، تطبيق أجندة اجتماعية تتعارض مع قيم معظم العائلات ومشاعرها؛ لأن الحقيقة الثابتة هي أن كل الآباء والأمهات- دون استثناء- لا يرغبون في رؤية أبنائهم يتحولون إلى شواذ.

زوجان زارا عيادتي مؤخرًا ليخبراني عن ابنهم "آرون" ذي الأربعة أعوام، الذي يبدي سلوكًا أنثويًا بالغًا، وذكرا لي بطريقة لا تخلو من التباهي أنهما ذوا أفق واسع حيال ما أسموه- بطريقة مهذبة- : "سلوك التنوع الجنسي"، ولكن بمجرد أن أخبرتهما أن سلوك ابنهما هذا سيؤدي به- وبنسبة كبيرة- إلى أن يصبح شاذًا؛ أصيبا بصدمة كبيرة.

على الرغم من سعة أفقهما التي ادعياها، قررا التخلص من الدمى التي يلعب بها طفلهما، وبتوجيه مني شَرَعَا في إصلاح طريقتهما في التعامل مع الصبي، وهذا يعني بذل مزيد من العناية لتلبية احتياجات الصبي لتنمية ذكورته، وهي الاحتياجات التي كانت منعدمة في السابق.

كما هو المعتاد، كان الصبي بحاجة لأن يقترب أكثر من والده، وأن يبدأ بالانفصال التدريجي عن والدته، وكان لزامًا على الأبوين أن يعملا كفريق لتحقيق هذا الهدف. (تفاصيل أكثر عن كيفية القيام بهذه المهمة في الفصل القادم).

أخبرتهما أنه لو بدأنا الآن في هذه السن المبكرة، فإن ابنهما "آرون" سوف يتكيف مع هويته الذكورية؛ مما يعني أنه سوف يصبح سويًا عندما يكبر.

يصف الكثير من مرضاي حالة الشذوذ التي يعانونها، بأنها فراغ في الهوية الجنسية، أو انعدام الثقة في الهوية الجنسية، وبدون هذه الثقة- كما يوضح "ريشارد ويلر"- فإن الحياة تصبح مليئة بالمشاكل.

عادة، ينبع الألم من الشعور بأنك غير محبوب أو غير مرغوب فيه، أو على الأقل

أنك لست محبوبًا أو مرغوبًا فيه بالدرجة الكافية؛ هذا النوع من الألم قد يحدثه افتقاد الأب، أو الارتباط العاطفي الزائد بالأم، أو رفض الأنداد أو ضعف الثقة بالهوية الجنسية، وأيضًا التعرض للاعتداء الجنسي، أو التجارب الجنسية المبكرة بشكل يفوق المعدل العام. وعندما يحدث هذا- على يد الذكور الآخرين بالطبع- فإن ارتباكًا مريرًا يعصف بالصبي يفقده القدرة على تمييز الأشياء من حوله؛ فيخلط بين الحب والإيذاء، وبين الأنوثة والذكورة.

والزمن وحده ليس كفيلاً بعلاج مثل هذا الآلام والجروح العميقة، فنحن بحاجة إلى أن نعود لمواجهتها ونعترف بها ونحزن لحدوثها، ونفرغ شحنات الغضب التي تملكنا لزمن طويل، ونأخذ خطوات جدية لإصلاح الأضرار التي سببتها لنا، وأخيرًا إبداء التسامح والمضي قُدُمًا في الحياة.

يؤمن الدكتور "كينث زوكر" والدكتورة "سوزان براولي"، وهما خبيران في مشاكل تحديد الهوية الجنسية لدى الأطفال، بأن علاج اضطراب الهوية الجنسية لدى الأطفال يجب أن يبدأ مبكرًا قدر المستطاع.

كلما ابتدأ العلاج مبكرًا كانت النتائج أفضل؛ لقد علمتنا التجارب أن أعدادًا كبيرة من الأطفال وعائلاتهم تحقق تغييرات كبيرة وجوهرية من شأنها علاج اضطراب الهوية الجنسية أو على الأقل دفعها باتجاه التلاشي.

وبمراعاة كل الظروف المحيطة، فإننا نرى أن على المعالجين أن يبدوا قدرًا كبيرًا من التفاؤل بمقدرتهم على مساعدة الأطفال على تخطي أزمة الهوية الجنسية والتحول إلى أطفال أسوياء.[2]

هل الشذوذ هو من طبيعة بعض الناس؟

يتساءل بعض الآباء والأمهات: أليس من المحتمل أن يكون ابني شاذًّا لأنه ولد هكذا؟ بمعنى أن الشذوذ جزء من طبيعته.

يُردد دائمًا بأن العلم أثبت أن الميول الشاذة جزء طبيعي وفطري من تكوين الشخص [3] (في الفصل القادم سوف نتطرق للنظريات البيولوجية المتعلقة بالشذوذ بشكل موسع)، وفقًا لمنطق أن الشاذ ولد هكذا؛ فإن الميول الجنسي جزء من هوية الإنسان، وبناء على ذلك فإن الشخص ذا الميول الشاذة يجب أن يحظى بالقبول والاحترام؛ لأنه يعبر بصورة صادقة عن الطبيعة التي خلق عليها.

ولكن هناك بعض الهفوات التي تقوض هذا المنطق حتى لو تم غدًا الإعلان عن اكتشاف الجين المسبب للشذوذ، فالعلم- بعكس ما يفترضه بعضهم- ليس بمقدوره إخبارنا بكل شيء، فالعلم يصف لنا الكون ويفسر الظواهر التي تحدث، ولكنه لا يذهب أبعد من ذلك، فهو عاجز عن إخبارنا بالوضع المثالي الذي يفترض أن تكون عليه الأشياء، ولتوضيح هذه المسألة سوف نستخدم هذا المثال:

لنفترض أن ابنك "جاك" ولد وهو يحمل جينًا وراثيًّا يجعله معرضًا بشكل كبير للسمنة، ولأنك تحب الطهي، فقد نشأ محبًّا للحلويات والأطعمة المقلية، في المدرسة يتعرض للسخرية والنبذ بسبب سمنته المفرطة، فيقرر عندما يعود للمنزل أن يواجه هذه المشكلة بالطريقة التي يحسنها وهي التهام مزيد من الطعام، بعد فترة وجيزة تتفاقم مشكلته مع السمنة بدرجة تجعل طبيب الأسرة يعفيه من أداء الرياضات البدنية في المدرسة، هل السمنة جزء من تكوينه ومن هويته؟ الحقيقة أن سمنته المفرطة هذه هي نتاج تضافر عدة عوامل منها القابلية الفطرية- عوامل وراثية- والتأثير العائلي والبيئة الاجتماعية، وخصوصًا ضغوط الأنداد والأقران، وأيضًا الخيارات السلوكية التي يلجأ إليها؛ وكذلك هي الحال مع الشذوذ تمامًا.

وبقدر ما يبدو إفراط "جاك" في تناول الأطعمة مقبولاً بالنسبة له، فإننا نتفق جميعًا على أن السمنة ليست أمرًا طبيعيًّا أو صحيًّا بالنسبة له أو لأي شخص آخر؛ لأن إرهاق الجسد بالسمنة المفرطة ليس جزءًا من التكوين الطبيعي للإنسان، مدرِّسة ابنك تلاحظ تعاسته، والسخرية التي يتعرض لها من زملائه، فينفطر قلبها لذلك، ومن الطبيعي أن تسعى لحمايته كجزء من برنامجِ جَعْل المدارس آمنةً للأطفال الذين يعانون السخرية والنبذ، هل من واجبنا في مثل هذه الظروف ولحماية "جاك" من السخرية والاستهزاء أن نقول للآخرين: إن السمنة المفرطة أمر طبيعي بالنسبة للبعض؟ وهل يحق لنفس المدرِّسة التي تتعاطف مع حالته أن تقول: إن مشكلة السمنة الوحيدة هي نظرة المجتمع المتحيزة ضدها؟ التعاطف الحقيقي والصادق مع حالة "جاك" سيجبرنا على أن نقول: لا؛ قد تكون هذه الإجابة مؤلمة على المدى القصير، ولكن عندما يتم أخذ مستقبل هؤلاء الأطفال في الحسبان فإن هذه الإجابة هي الصحيحة والحكيمة، يجب على إدارة المدرسة قبول هذا الصبي، وقبول صراعه أيضًا للتغلب على مشكلته، ولكن لا يجب عليها الاعتراف بأن سمنته المفرطة هي جزء من تكوينه

الطبيعي؛ وما ذكر هنا ينطبق تمامًا على المراهق الذي يعاني اضطرابًا في هويته الجنسية.

يقول "آلن مدينجر" الذي عالج مئات الرجال للانعتاق من الشذوذ والذي بدوره مارس الشذوذ طيلة سبعة عشر عامًا- :

«إن الحرية الحقيقية ليست في الاعتراف بالهوية الشاذة، بل في اختيار الحياة السوية وفقًا لطبيعة المرء الحقيقية، وفي مواصلة الرحلة نحو الرجولة التي تَهرِّب منها بعض الرجال.

الطريق إلى الرجولة طويل جدًّا، ومليء بالتعلم والمحاولات والفشل والمحاولات المتكررة، وهو رحلة من الانتصارات والهزائم، معظم الأولاد لا يدركون أنهم سائرون على هذا الطريق، قلة تكتشف ذلك عندما تصل للمحطة الأولية، ولكن الأغلبية الساحقة تصل إلى هناك [4].

بعض الأولاد- على الرغم من ذلك- لا يصلون مطلقًا، في مرحلة ما تصبح الضغوط كبيرة؛ فالهزائم والفشل مريرة جدًّا فيقررون عدم مواصلة الطريق، وينعطفون في مسار جانبي، لقد كنت واحدًا من هؤلاء، كما هو الحال مع الآخرين قادني هذا المسار الجانبي إلى عالم الشذوذ، أدركت لاحقًا أن مشكلتي مع الشذوذ لم تكن سوى أزمة رجولة غير مكتملة».

ما سلبيات اضطراب الهوية الجنسية؟

ترتبط حياة الشذوذ بكثير من المساوئ والسلبيات، ويحذر الطبيب النفسي "ريتشارد فيتربونز" الآباء والأمهات من الاستهانة بأعراض اضطراب الهوية الجنسية، وبالمشاكل المصاحبة لها، واعتبارها مرحلة عابرة.

مشاكل الهوية الجنسية- بما في ذلك ارتداء ملابس الجنس الآخر، والميل لممارسة ألعاب الجنس الآخر، وانعدام الأقران- يجب التعامل معها على أنها أعراض لمشكلة كبيرة؛ فالأطفال الذين تظهر عليهم هذه الأعراض في مرحلة ما قبل المدرسة معرضون لأن يعانوا خلال مرحلة الدراسة الابتدائية من الوحدة والانعزال والشعور بعدم السعادة، وسوف تتفاقم مشاكلهم خلال المراهقة ليعانوا من القلق والاكتئاب ومشاكل سلوكية، وسيكونون عرضة للمنحرفين، وسيتطور لديهم

ميول جنسية لنفس الجنس.

وإذا تورطوا في ممارسة الشذوذ خلال مرحلة المراهقة، سيكونون عرضة أكثر من غيرهم للانحراف في عالم المخدرات والكحول والدعارة، وحتى إلى محاولة الانتحار أو الإصابة بأمراض جنسية معدية مثل الأيدز، وسيصبح عدد قليل من هؤلاء: من المتشبهين بالجنس الآخر أو من الراغبين في تغيير الجنس.[5]

وعلى الرغم من الحساسية الاجتماعية والسياسية للموضوع، فإن بعض الأطباء يدركون جيدًا أهمية علاج اضطراب الهوية الجنسية، "زوكر" و"براولي" يعتقدان أن علاج اضطراب الهوية الجنسية لدى الأطفال هو مسؤولية طبية وأخلاقية أيضًا، وأنه يعود على الطفل بفوائد كثيرة؛ منها:

- إتاحة الفرصة للطفل للتغلب على السلوكيات المناقضة لهويته الجنسية والعوامل النفسية السلبية المرتبطة بها.
- خفض معدل الرفض الاجتماعي الذي يتعرض له من الأنداد.
- تقليل احتمال التحول الجنسي (وهو اعتقاد الشخص بأنه ينتمي للجنس الآخر، ومن ثم اقتناعه بضرورة إجراء عملية جراحية لتغيير الجنس).
- تقليص فرص تحوله إلى شاذ عند البلوغ.[6]

قد يكون طفلي ولد بمشكلة في هويته الجنسية؟

كشفت بعض الأبحاث المثيرة للاهتمام أنه ربما يحدث تشوه لنمو الهوية الجنسية عند بعض الرجال والنساء، قبل الولادة؛ بسبب حادثة بيولوجية.

منذ عدة سنوات، انتشر عقار يساعد النساء خلال فترة الحمل على تجنب الإجهاض، وبعد فترة من استخدامه اكتشف أن هذا العقار له آثار جانبية تؤدي إلى اكتساب عقول الأجنة من الإناث صفاتٍ ذكورية، وفي النهاية فإن نسبة تزيد على المعدل المتوسط من هؤلاء الفتيات قد كبرن وأصبحن سحاقيات.

وفي كندا، أشارت دراسة أخرى إلى أن هناك علاقة بين استخدام اليد اليسرى والشذوذ الجنسي[7]؛ فنسبة استخدام اليد اليسرى في أوساط الرجال الشواذ تزيد بنسبة 30% عنها في أوساط الأسوياء، بينما تبلغ نسبة استخدام اليد اليسرى في أوساط السحاقيات ضعف مثيلتها في أوساط النساء السويات.

ولكن كما أوضح العالم "فيل وايتهد" فإن هناك احتمالاً بوجود علاقة بين الشذوذ واستخدام اليد اليسرى، ولكن هذه العلاقة ليست مؤكدة؛ فالحقيقة تظل هي أن معظم مستخدمي اليد اليسرى ليسوا شواذّ، ومعظم الشواذ ليسوا من مستخدمي اليد اليسرى.[8]

قابلية الأطفال الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية للتغيير:

يفيد الخبراء أن الأطفال الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية، الذين يفترض أن لديهم مشاكل بيولوجية، أبدوا استجابة مدهشة للتدخل العلاجي، وصف الباحثان "ريكرز" و"لوفاز" أحد مرضاهم بالتالي:

«عندما رأيناه لأول مرة، كانت ميوله الأنثوية عميقة بدرجة كبيرة: (أسلوبه، وإيحاءاته، وتخيلاته؛ كلها أنثوية بشكل صارخ، ويتبختر في أرجاء المنزل والعيادة مرتديًا ملابس نسائية، وشعر مستعار، وأظافر مطلية، وحتى صوته يتشبه بالنساء)؛ مما يدل على وجود محددات عصبية وكيميائية بيولوجية يتعذر نقضها.

بعد 26 شهرًا من المتابعة المستمرة، بدا من مظهره وسلوكه كأي صبي آخر، وكل من اطلع على تسجيل الفيديو له قبل العلاج وبعده، تحدث عن وجود صبيين مختلفين» .[9]

بالطبع، فإنه لا يجب إجبار الطفل الذي يعاني اضطراب الهوية الجنسية على التحول إلى صورة نمطية محددة قد تحرمه من طبيعته الأصلية: (مواهبه الطبيعية؛ كالإبداع، ورهافة الحس، واللطافة، وحب الاختلاط بالآخرين، والفكر الخلاق)؛ يوضح الدكتور "لورنس نيومان" هذا الفرق المهم:

«يجب ألا يجنح العلاج إلى تحويل طفل يعاني ميولاً أنثوية إلى بطل رياضي، أو إلى كبتِ ميوله الجمالية، ولكن يجب أن يركز على تنمية شعوره بالفخر لكونه ذكرًا.

ويستجيب الصبية للعلاج بشكل رائع عندما يكونون بين الخامسة والثانية عشرة من العمر؛ فالطابع الذكوري يبدأ بالتشكل على سلوكهم ويشعرون بمزيد من الراحة مع هويتهم الذكورية» .[10]

ويؤكد الباحث "كينث زوكر" جدوى التدخل العلاجي وفاعليته ويقول: إنه بناء على خبرته في تقييم أكثر من ثلاث مئة طفل يعاني صراعًا في الهوية الجنسية، فإنه وجد أن هؤلاء الصغار وعائلاتهم استفادوا من التدخل العلاجي، وأصبحوا يشعرون بالرضا عن أنفسهم كأولاد أو بنات، وطوروا علاقات وثيقة مع نظرائهم من نفس الجنس، كما أن تفاعلهم داخل إطار الأسرة أصبح أفضل حالاً.[11]

هل البدناء ولدوا هكذا؟

كما أسلفنا من قبل، عقد مقارنة بين مشكلتي البدانة والشذوذ أمر مفيد جدًّا، ويضع الأمور في نصابها الصحيح؛ فالباحثون يعلمون أن بعض الجينات الوراثية تجعل البعض أكثر عرضة للسمنة المفرطة، ولكن رغم ذلك فإن هذا الأمر لا يسمح لنا بالقول بأن السمنة المفرطة أمر طبيعي وصحي، هناك أيضًا تأثير العائلة: (هل كانت والدتك تضع الكولا بدل الحليب في زجاجة الإرضاع)، وتأثير الثقافة: (هل كانت عائلتك الكبيرة تتوسع في المناسبات الاجتماعية المليئة بالأطعمة المقلية والحلويات)، والضغوط الوقتية: (هل تعاني ضغوطَ العمل لدرجة تدفعك لاحتساء الكثير من الجعة وتتناول الكثير من الوجبات الخفيفة أمام شاشة التلفاز طوال الليل)، وأخيرًا بالتأكيد هناك الاختيارات التي نقوم بها لممارسة نوع من السيطرة على نفسك: (هل تلتزم بالحمية؟ أم مقاومتك تنهار وتستسلم أمام متعة الأكل؟).

كثير من البدناء بالتأكيد ليس لديهم استعداد وراثي للسمنة، ومشكلتهم تنبع من تضافر عدد من عوامل البيئة التي ذكرناها سابقًا.

الوضع في حالة الشذوذ الجنسي مشابه لدرجة كبيرة، فالوضع في كلا الحالتين كما يصفه الدكتور "وايتهد" لا يحدث بسبب العوامل الوراثية فقط؛ فالعوامل البيولوجية لا تجبرنا على سلوك معين، هي فقط تجعل الاحتمالية أو القابلية أكثر لدى البعض.

الجين الوراثي للشذوذ:

لقد ناقشنا إمكانية حدوث مشكلة هرمونية قبل الولادة لدى بعض الأطفال الشواذ، بسبب وقوع حادث أثناء الحمل أدى إلى تدفق هرموني غيِّر من نمو مخ الجنين في رحم الأم.

والآن، ماذا عن احتمال وجود جين للشواذ في عائلتك، انتقل بالوراثة إلى ابنك (الجينات لا تصنع الشذوذ، كما أوضحنا سابقًا، ولكنها تضع الأساس لطريقة استجابتنا للبيئة المحيطة بنا)، ما حجم التأثير الجيني المتوقع؟!

أشارت دراسة حديثة عن العوامل البيولوجية، إلى أن العنصر الوراثي المرتبط بالشذوذ هو ميول وراثية نحو عدم انسجام الهوية الجنسية [12]، وعلى مر السنين أكد كثير من الأطباء نفس السيناريو؛ فالصبي غير المنسجم مع هويته الجنسية يشعر أنه أقل ذكورة من أقرانه؛ ولذلك فهو يعجب بالذكورة أو الفحولة التي تبدو عليهم والتي يفتقدها، وينكفئ هذا الصبي إلى والدته بحثًا عن الشعور بالأمان، ويتوقف عن مقارنة نفسه بسمات الذكورة التي يتمتع بها أقرانه. (مزيد حول هذا الموضوع في الفصل القادم).

تعزيز الهوية الجنسية الذكورية (طقوس التحول):

تظهر الثقافات البدائية فهمًا فطريًّا لحاجة الصبية لنوعًا خاصًّا من الرعاية والتشجيع تسهل مهمتهم في التحول إلى رجال كاملي الذكورة؛ فتجد في هذه الثقافات البدائية طقوسًا معقدة يجب على الشاب اجتيازها ليتم اعتباره رجلاً كامل الذكورة، هي بمثابة امتحان للتحمل والقوة يجب اجتيازه لنيل شهادة الذكورة؛ فالتحول إلى رجل- بالنسبة لهم- يعني الكفاح؛ لأن الرجولة الحقيقية لا تأتي عفويًّا وتلقائيًّا.

شباب القبيلة كانوا مضطرين لخوض تجارب كثيرة ليشتد عودهم الغض ويزداد مراسهم، فيذهبون للصيد، ويقتلون الحيوانات المفترسة، وأعداء القبيلة، ويجدون أنفسهم مضطرين للقيام بأنشطة بدنية شاقة ومؤلمة ليثبتوا رجولتهم أمام كبار القبيلة.

وعندما ينجحون في تجاوز كل العقبات، تقام لهم طقوس تدشين، ويتم الترحيب بهم في عالم الذكور الأشداء، لقد أصبحوا منذ اليوم رجالاً، ولن يعود بوسعهم اللعب حول نار المخيم بالقرب من أمهاتهم وجداتهم وأخواتهم، سيذهبون بدلاً من ذلك إلى الصيد مع الرجال الآخرين.[13]

في عالم اليوم، الأمور ليست بهذه البساطة؛ فمهمة مساعدة الصبية على صقل رجولتهم ليست يسيرة، فالصبية الصغار لا ينتظر منهم أن يشاركوا في طقوس

التدشين، على النقيض من ذلك تمامًا في عالمنا اليوم الذي يشهد ارتباكًا في التعامل مع قضايا الهوية الجنسية، فأصبح مألوفًا أن يوجه المعلم تلاميذه من الصبية الصغار بأن عليهم تقبل الجانب الأنثوي في شخصياتهم أو طبيعتهم الأنثوية، والأسوأ من ذلك أن يشجعهم المرشد الاجتماعي على تقديم أنفسهم على أنهم شواذ، وربما يقوم معلمو المدارس العامة بتشجيع التلاميذ في مختلف المراحل التعليمية على تجربة هويات جنسية متنوعة، وربما تعمل بعض البرامج المدرسية المساندة للشذوذ على تشجيعهم على إقامة علاقات مع الجنس نفسه أو النظر للثنائية بوصفها حلاً بديلاً.

وفي الحقيقة، هناك من علماء النفس من يظن أن التزام الحياة الجنسية السوية هو تقييد لا ضرورة له يحد من القدرات الإنسانية، وأنه عندما نتجاوز مخاوفنا من الثنائية الجنسية سوف نكتشف إمكانيات مبدعة وغنية [14]، عندما قالت عالمة نفسية هذه العبارة في دورية علمية مؤخرًا، تسللت إلى منطقة هي من اختصاص علم الأخلاق (لتوحي بأن التنوع الجنسي أمرٌ جيد)؛ فالعلم ليس بمقدوره أن يخبرنا أن الالتزام بالسلوك السوي أو الاحتفاء بكل أشكال التنوع الجنسي هو أمر جيد أم سيء.

الأمر المثير للسخرية هو أنه لو دعت هذه العالمة للاحتفاء بالسلوك السوي المنضبط والملتزم بقواعد الأخلاق، لما اهتم أحد بما تقوله ولنظر لها على أنها امرأة سوية آراؤها لا يجب أن تتجاوز المواعظ الدينية، ولكن عندما تدعو إلى الاحتفاء بالتنوع الجنسي تضفى الصبغة العلمية على عملها ويتم تقديمه على أنه اكتشاف علمي مهم!

البرامج المدرسية في أسوأ مراحلها:

يتحدث "برايان كفيكر"- وهو ناشط يدافع عن حقوق الآباء- عن البرامج المدرسية في ولاية "ماساتوسيش" الأمريكية التي تفرض على الأطفال القيام بدور شخصية شاذة في مسرحية مدرسية، وتفرض على طلاب الثانوية حضور ورشة عمل في أسبوع "المخاوف غير المبررة من الشذوذ" تدين التقاليد المحافظة وتمجد الانحراف الجنسي، وتقمع أي طالب يخالف هذا التوجه.

يصف "كفيكر" أحد هذه البرامج الذي يطلب من التلاميذ ارتداء مثلثات وردية

عند حضورهم للمدرسة من أجل إظهار تضامنهم مع حركة الشواذ، وقلة من الصغار يملكون الجرأة لرفض ارتداء شعار الشواذ؛ يقول:

«في إحدى المدارس الثانوية، يوجه أحد المناهج الدراسية المقررة للمستوى التاسع الطلاب بأن النشاط الجنسي هو مسألة محاولة وخطأ، وأنه خاضع للاختيار الشخصي، في إحدى المدارس ترد هذه العبارة المستفزة التي تحرض على التجارب الجنسية المبكرة: "تجربة مقدرتك على القيام بوظائفك الجنسية، ومنح المتعة لشخص آخر، تكون أقل خطرًا عندما تمارس مع شخص من نفس الجنس"، ويتوجه المقرر بالنصيحة للتلاميذ بأنهم قد يتوصلون إلى قناعة بأن النضج في حقيقة الأمر يعني رفض قيم الوالدين البالية».[15]

العمليات الجراحية لتغيير الجنس. . وجهتا نظر:

الرسائل المتضاربة حول الحياة الجنسية تأتي من كل الاتجاهات، أعرف طبيبًا نفسيًّا كانت نصيحته لصبي ذي ميول أنثوية: "عندما تكبر، بإمكانك القيام بعملية جراحية لتغيير الجنس، ولكن في الوقت الحالي من الأفضل أن تتصرف كصبي حتى تجتاز هذه المرحلة".

هذا النوع من النصائح من شأنه تكريس الأوهام الأنثوية لدى الصبي؛ لماذا يجب عليه تدعيم طبيعته الذكورية وهو بعد عدة سنوات سيحقق أوهامه ويتحول إلى أنثى من خلال الجراحة؟! لماذا يتم تجاهل أن كثيرًا من المتحولين اكتشفوا بعد الجراحة أن لا شيء تغير من الداخل، وكثيرين منهم ظلوا في صراع وتعاسة دائمة؟![16]

يعتقد المحافظون (ومنهم المتدينون) أن نظامًا طبيعيًّا مكتوبًا على أجسادنا يخبرنا من نحن؛ ولهذا السبب لا يقبل المحافظون بأي مبررات عندما يقوم شخص يشعر بداخله بميول أنثوية ببتر أعضائه التناسلية وزراعة ثدي صناعي وضخ هرمونات أنثوية في عروقه، فقط من أجل جعل جسده يتواءم مع مشاعره الداخلية حول هويته الجنسية، يشعر المحافظون بقشعريرة تسري في أوصالهم من الرعب عند مشاهدة مثل هذا الشخص الذي ولد ذكرًا وأصبح يحاكي النساء في إيماءاتهن وخطواتهن بصورة تدعو للسخرية، ومنظر الثدي الصناعي الذي زرعه مع الظلال الباهت للحيته ومعالم الفك الذكوري يجعله مثيرًا للشفقة، ليس هناك أمر

إيجابي فيما قام به، بل إن العملية كلها أشبه بالمجزرة الحقيقية، وبالنسبة للمتحررين جنسيًّا فإنهم يرون بمثل هذا العمل إنجازًا يستوجب الثناء، وأنه بتغيير جنسه ليتوافق مع الهوية التي توهمها أسدى معروفًا للبشرية بمساعدة الطب الحديث.

هناك تباين شاسع في المواقف بين المحافظين والمتحررين، والاختلافات بينهما غير قابلة للإصلاح؛ فبينما يصفق دعاة الحرية للرجل الذي يهجر حياته السوية ويترك زوجته ويظهر للملأ ليعلن أنه شاذ، ويصفونه بأنه بطل وصادق ونبيل؛ لا يملك المحافظون إلا أن ترتعد فرائصهم لمثل هذا الموقف؛ فالسلوك الشاذ يبقى أمرًا غير طبيعي ومنحرفًا، ومجردُ تخيله يبعث على التقيؤ.

اتخاذ القرار: من أنا؟

أشعر بالقلق- ويشاطرني في ذلك كثير من زملائي- تجاه الشباب الذين يتورطون في ممارسة الشذوذ، ويتسرعون في وصف أنفسهم بأنهم شواذ، إن مثل هذا القرار الخطير يجب أن يتخذ فقط في مرحلة البلوغ، فليس من الضروري أن تستمر لدى كل هؤلاء الصبية الرغبة في السلوك الشاذ، ولكن بوجود مرشدين اجتماعيين يحثونهم على التجارب الشاذة، من المحتمل أن يقعوا في شراك حياة الشذوذ البائسة.

عندما يتعرض شاب صغير لرفض مؤلم من الأقران، وتبدي مجموعة أخرى- تحمل أفكارًا معاكسة- ترحيبها الحار به، فإن الاحتمال الأكبر أن يندفع نحوهم وسط احتفالية زائفة بانضمامه إليهم، وبمجرد الانضمام تأتي ممارسة الجنس على الفور، فبالإمكان الحصول على الجنس مع شخصيات مجهولة الهوية بسهولة في حانات الشواذ والحمامات العامة والمكتبات.

وهذه التجارب الجنسية قد تتحول إلى إدمان، كما يوضح "ريتشارد ويلر".

الإعجاب بالرجال يتحول بسهولة إلى شهوة جنسية، وعندما كنا غير قادرين على الشعور بالرجولة بداخلنا، كنا نتوق لرجل آخر قادر على ملء هذا الفراغ ولو من الخارج؛ فالنظر أو لمس جسد رجل آخر يمنحنا الشعور بالفحولة بطريقة لا نستطيع الشعور بها وحدنا.

ولكن إطلاق العنان للشهوة من خلال الأفلام الإباحية والتخيلات، زاد من

المشكلة وأدى أيضًا إلى تجريد الرجال الذين نتشبه بهم من صفاتهم الإنسانية وعزلنا عنهم، ويجعلهم يبدون كأنهم من الجنس الآخر والنقيض، لقد فتحت الشهوة الباب أمامنا للوقوع في فخ الرمال المتحركة للإدمان الجنسي.

على الرغم من كل ذلك، يظل الأمل موجودًا والإمكانية متاحة؛ فمع توفر الاستشارة المناسبة، فإن ارتباك الهوية الجنسية والتخيلات الجنسية الشاذة المصاحبة لها، ستتلاشى بشكل تدريجي مع إدراك المراهق أهمية أن يتطور تطورًا كاملاً مع هويته الذكورية.

اكتشفت الدكتورة "إلين سيجال" أن الفتيات اللاتي يعانين ارتباكًا في الهوية الجنسية وقامت بمعالجتهن، كن يعلمن بأنهن فتيات، ولكنهن لم يكنّ متأكداتٍ من أن كونهن فتيات هو أمر مرغوب فيه وممكن ومفيد لهن عندما ينجح علاجهن ويشفين، لم تحل مشكلات الهوية الجنسية لديهن فحسب، بل أيضًا تم التغلب على العوائق التعليمية السابقة في المدرسة، وأصبحت الفتيات أكثر قدرة على التوافق العام.[17]

عدم اكتراث، أم مجرد قصور؟

يردد بعض نشطاء الشذوذ أن الشخص ذا الميول الشاذة يولد ولديه نوع من عدم الاكتراث بمسائل الهوية الجنسية، وأن السبب في هذا الأمر يعود إلى أننا نعيش في بيئة يهيمن عليه قطب واحد وهو الذكور، وأن هذا الأمر يجب أن يتغير.[18]

ولكن إذا كان هذا القول صحيحًا وأن الشواذ فعلاً لا يكترثون لمسألة الهوية الجنسية ويعتبرونها أمرًا غير مهم، لماذا لا يكونون ثنائيي الميول؟! ولماذا أيضًا نجد للذكورة هذه القيمة العالية في أوساطهم؟! ولماذا نجد أيضًا في الإعلانات المبوبة أن الشواذ عادة يشترطون عند البحث عن مُساكنين أو شركاء أن يكون المتقدم سويًّا؟! ولماذا أيضًا نرى ما يعرِّض الشواذ أنفسهم له من مخاطر وتحقير للذات في سبيل التقرب من الذكور؟!

نحن نعتقد أن هذا كله يعود إلى أن الشذوذ يمثل في الحقيقة قصورًا في الهوية الجنسية، وليس عدم اكتراث بها؛ فالسلوك النابع من القصور هو ما يولد الحساسية المفرطة تجاه ما يفقده أو يشعر أنه لديه قصور فيه، وهو السلوك القسري المندفع؛

وهو ما يجعل الشخص يصر على سلوك معين متحديًا العقبات الاجتماعية والمخاطر الصحية الجسمية، وهو ما تجسده الصورة الكاريكاتورية التي تجدها في حانات الشواذ، حيث يرتدون أزياء عسكرية، ورجال شرطة يحملون في أيديهم أدوات التعذيب؛ هذه التصرفات المبالغ فيها تمثل في واقع الأمر وعيًا مفرطًا وبحثًا دءوبًا عن القصور الذي يعانونه في الهوية الجنسية؛ وهو الذكورية، ولكن بطريقة كاريكاتورية هزلية.

تشخيص اضطراب الهوية الجنسية:

إنني أومن باستخدام أسلوب إصلاحي لعلاج اضطراب الهوية الجنسية، هناك شيء معقد في اضطراب الهوية الجنسية أو فراغ الهوية الجنسية، وشعور الطفل بأنه بالفعل ذكر، أو الفتاة بأنها أنثى، وأتمنى أن أقدم اختيارًا من شأنه تغيير مسار حياة الكثير من هؤلاء الشبان قبل أن يتورطوا ويقعوا في فخ حياة الشذوذ غير المرغوب فيها، ويصعب عليهم بعد ذلك الخروج منها.

هل أنت قلق من سلوك ابنك؟ هل أنت في حيرة من أن ما يبديه ابنك من سلوك هو بالفعل أعراض ارتباك في هويته الجنسية؟

أولاً- لا تنسَ أن معظم الصبية الذين أصبحوا شواذّ لم تبدُ عليهم مظاهر الأنوثة، والصبي ذو الأنوثة الطاغية هو حالة متطرفة لحالات اضطراب الهوية الجنسية التي تقود إلى الشذوذ، ولكن في كلتا الحالتين- الصبي ذو الأنوثة الطاغية، والصبي الذي يعاني من عدم التكيف مع هويته الجنسية- هناك قاسم مشترك بينهما؛ هو الصعوبات في التعامل مع الصبية الآخرين، والأهم هو المصاعب الجمة في تحقيق هويته الذكورية والانسجام معها، و كلتا الحالتين تهيئ الأرضية لميول شاذة.

بعض العلامات الفارقة لمرحلة ما قبل الشذوذ من السهولة التعرف عليها، وهذه العلامات تظهر عادة في مراحل مبكرة من حياة الطفل، وفيما يلي بعض المؤشرات لاضطراب الهوية الجنسية لدى الأطفال، قدمتها جمعية الطب النفسي الأمريكية، وهناك خمسة مؤشرات يستخدمها الأطباء لتحديد ما إذا كان الطفل يعاني اضطراب الهوية الجنسية:

1. إبداء الرغبة بصورة متكررة بأن يكون من الجنس الآخر.

2.عند الأولاد: تفضيل ارتداء ملابس نسائية أو محاكاتها، وعند الفتيات: الإصرار على ارتداء الملابس الذكورية التقليدية فقط.

3.الإصرار الشديد على أداء أدوار مغايرة للجنس، في الألعاب أو التمثيليات، أو التخيلات المستمرة أنه ينتمي للجنس الآخر.

4.الرغبة الملحة في ممارسة الألعاب والرياضات الترفيهية المرتبطة تقليديًّا بالجنس الآخر.

5.التفضيل الشديد أن يكون رفيق اللعب من الجنس الآخر.[19]

يبدأ عادة السلوك المضطرب والمخالف للهوية الجنسية بالظهور في مرحلة ما قبل الدراسة؛ أي بين الثانية والرابعة، وتشير أبحاث الدكتور "ريتشارد جرين" إلى أن ارتداء الملابس المغايرة للجنس هي أولى هذه العلامات.[20]

وبالنسبة لمعظم الصبية الذين يعانون اضطرابًا في الهوية الجنسية، فإن العلامات المبكرة لتطور الشذوذ الجنسي لا تكون واضحة جدًّا؛ وهي: التلكؤ في اللعب مع الصبية الآخرين، والخوف من الألعاب الخشنة، والحياء الشديد من التعري أمام الذكور، (في حين يختفي هذا الحياء إذا كان بحضرة إناث)، عدم الارتياح برفقة الأب وضعف الارتباط به، وربما يوجد ارتباط مبالغ به مع الأم.

والقصة التي يرويها "ريتشارد وايلر" على موقعه على الإنترنت، تجسيد لحكاية صبي ما قبل الشذوذ، يعاني عدم التكيف مع هويته الجنسية، وهو يصف المشاعر المشتركة لفراغ الهوية الجنسية، ولم يرتدِ أي من الرجال الذين يتحدث عنهم ملابس نسائية، ولكنهم ظلوا يعانون الشعور بعدم أهليتهم ليصبحوا ذكورًا كاملين:

«في البداية على الأقل، لم نشعر بأننا شواذ بقدر ما كنا نشعر بفراغ في هويتنا الجنسية، وبافتقاد الذكورية الكافية داخلنا انجذبنا إلى ذلك الشيء الذي يمنحنا الشعور بالفحولة وبأننا كاملون.

وما دمنا شعرنا بأن الرجال هم الجنس المغاير لنا، فقد كنا نرى في النساء أخواتٍ لنا، ظللنا نشعر بانجذاب شديد للجنس المغاير لنا وهو الفحولة الغامضة وغير المعروفة بالنسبة لنا، لازمنا الشعور بأن الرجال هم الجنس المغاير لنا؛ لذلك كان يبدو لنا أن انجذابنا الجنسي نحوهم هو أمر طبيعي».

يجب عليك التمييز بين الهوس ومجرد اللعب، إذا لاحظت أن ابنك يبدي اهتمامًا بألعاب وملابس الجنس المغاير له لا يجب القلق عند حدوث مثل هذه الأشياء في حالات نادرة ومتباعدة، ولكن يجب الاهتمام عندما يواصل طفلك القيام بمثل هذه الأشياء، وفي الوقت ذاته يبدأ باكتساب بعض العادات المنذرة بالخطر؛ قد يبدأ باستخدام مستحضرات التجميل الخاصة بوالدته، ويتفادى اللعب مع الصبية الآخرين في الحارة، ويفضل البقاء مع شقيقاته، ويبدأ بشكل منتظم اللعب معهن بالدمى وبألعابهن الأخرى، ولاحقًا يبدأ في تغيير صوته في تشبُّهٍ بالفتيات، وربما يبدي اهتمامًا بالأشياء الأنثوية إلى درجة الهوس وفي الحقيقة ربما تصل به الأمور إلى أن يتصرف بطريقة أنثوية أكثر من أخته أو أمه.

عندما يطلب من الصبي الذي يعاني ارتباكًا في هويته الجنسية أن يرسم شخصًا، فإنه على الدوام تقريبًا سيبدأ برسم الأنثى أولاً، وبعد ذلك من المحتمل أن يرسم ذكرًا، وعادة ما يستخدم الألوان الزاهية عند رسم البنات أو النساء، خاصة اللونين الوردي والأحمر، مع الكثير من التفاصيل وبحجم كبير، وعندما يرسم الذكور تكون الأشكال صغيرة وكئيبة وأشبه بالعصي، وهذه الرسومات تعكس تصور الصبي للواقع؛ فالنساء مثيرات وقويات وفاتنات، بينما الرجال (ومن ضمنهم والده) ضعفاء باعثين على الملل وشخصيات سلبية.

قد يبدي صبي ما قبل الشذوذ اهتمامًا وفضولاً بالغًا بالأعضاء التناسلية للإناث، فبعض الأطباء وجدوا أن الصبية الذين يعانون اضطرابَ الهوية الجنسية، لديهم اهتمام خاصّ بالعضو التناسلي الأنثوي، على خلاف الصبية الأسوياء دون الثانية عشرة من العمر، وفي الوقت ذاته قد ينكر هويته الذكورية، ويشعر بالانفصال- أو حتى النفور- من عضوه التناسلي بدفعه داخل جسمه وربما يبول وهو جالسٌ في محاكاة للفتيات، هذا السلوك يشير إلى أنه لا يقترن بهذا الجزء من جسده، وأنه لا يمثل هويته وبعضهم يصر على أنه فتاة.

تقول والدة أحد الأطفال الذين يعانون اضطرابًا في الهوية الجنسية: إنها لم تكن تمانع في اقتناء ابنها لدمى البنات؛ لأنها- حسب وصفها- متحررة وواسعة الأفق، ولم ترضخ للصور النمطية الجامدة السائدة في المجتمع؛ تقول: إن ابنها أظهر هوسًا شديدًا بدمية "حورية البحر" و"سندريلا"، وبدأ بتقليد حركاتها وترديد أغانيها، فيما تجاهل تمامًا دمية "كين" الذي يمثل صديق "باربي" في عالم الدمى.

وتصف هذه الأم الصدمة ولحظة مواجهة الحقيقة المؤلمة التي تعرضت لها عندما وقف طفلها في عربة التسوق التي يركبها وبدأ بالصراخ محتجًّا عندما أخبرته بأنه ليس في استطاعته أن يصبح أمًّا؛ تقول: نزلت علي ردة الفعل هذه كالصاعقة، وأدركت أن ما يمر به ابني لم يكن مرحلة عابرة.[21]

كشفت دراسة شملت 66 طفلاً ذوي ميول أنثوية طاغية، بين الرابعة والثانية عشرة، أن 98% منهم يرتدون الملابس النسائية بشكل متكرر، وأن نسبة 85% قالوا: إنهم يتمنون لو أنهم ولدوا بنات.[22]

وعادة، فإن الطفل الصغير يبوح بمثل هذه الرغبات؛ إحدى الأمهات ذكرت لي أن ابنها الذي يبلغ من العمر 3 سنوات، يذكر لها بشكل مستمر أنه يريد أن يقطع عضوه التناسلي، وكلما كبر هؤلاء الصبية أصبحوا أكثر تكتمًا على مثل هذه الرغبات؛ بسبب حساسيتهم المفرطة من رفض الوالدين.

المشكلات الاجتماعية والنفسية للصبي ذي الهوية الجنسية المرتبكة:

رغم ادعاء بعض علماء النفس ومعظم نشطاء الشذوذ، بأن هذا التشويه الصارخ للواقع هو أمر طبيعي بالنسبة للبعض، فإن اختلال الهوية الجنسية والسلوك المصاحب لَيْسَا سوى مجرد الأعراض لمشكلة أعمق؛ مشكلة الهوية المشوهة وغير المنتمية؛ فالصبية الذين يعانون ارتباك الهوية الجنسية سيعانون أيضًا مشاكل نفسية واجتماعية مرتبطة بهذا الأمر؛ فهم أكثر عرضة للقلق والاكتئاب والانطواء [23]، وكثير من الآباء والأمهات يعترفون بأن أطفالهم الذين يعانون هذا الاضطراب غير سعداء؛ فهم متقلبو المزاج، وسهلو الاستثارة ويتذمرون بشكل متواصل من عدم اندماجهم مع الآخرين.

وفي النهاية، فإن هذا الصبي يبدأ بالانعزال عن أقرانه، ويكتفي بمراقبتهم من النافذة متطلعًا إليهم وهم يلعبون بتلهف ورغبة لأن يكون معهم، ولكنهم يتهكمون عليه ويرفضونه؛ مما يدفعه في نهاية المطاف إلى البقاء مع والدته في المنزل يساعدها في التنظيف والطبخ أحيانًا [24]، ويجب على الآباء والأمهات في مثل هذه الظروف أن يشعروا بالقلق؛ لأن مثل هذا السلوك في مرحلة ما قبل المدرسة هو جرس إنذار للمخاطر التي تحدق بمثل هذا الصبي في مراحل لاحقة من حياته.

بعض الصبية الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية، يكسرون الصورة النمطية المعروفة عنهم بأنهم جبناء وسلبيون، فتجدهم يتصرفون بطريقة متعالية ومسيطرة، ويصرون أن تسير الأمور كما يشتهون، وعندما لا يحصلون على ما يريدون تتملكهم نوبات غضب وهيجان.[25]

وهناك صبية آخرون يبدون خوفًا شديدًا من التعرض للجروح أو الكدمات، ويسيطر عليهم الشعور بأن أجسادهم رقيقة جدًّا وهشة لا تستطيع تحمل الألعاب والرياضات الخشنة، وبعضهم ينتابه الذعر لمجرد سماع الألفاظ النابية أو الجارحة، فتجدهم دائمًا يبدون التذمر والتشكي من أن الصبية الآخرين عنفوهم أو وبخوهم بألفاظ نابية، وبالتأكيد السلوك العدواني يصيبهم بالرعب الحقيقي.[26]

كما لاحظ الدكتور "ريتشارد فيتزبونز" أن الخوف من ممارسة الرياضة وشراسة الصبية الآخرين يمهد الطريق لهوية ذكورية ضعيفة.

من السهولة تشخيص ضعف الهوية الذكورية التي هي أكبر أسباب الشذوذ لدى الرجال، والمثير للدهشة هو أن سببها قد يكون ضعف التوافق الحركي الذي يجعله غير قادر على ممارسة الرياضة بشكل جيد، وضعف التوافق الحركي هذا يصاحبه عادة رفض ونبذ من الأقران، وفي أي مجتمع تسيطر عليه الرياضة- كمجتمعنا هذا- فإن الصبي الذي لا يجد متعة في رمي الكرة أو التقاطها أو ركلها سيتعرض للنبذ والاستبعاد والسخرية منه.

الرفض المستمر هو مصدر توتر للطفل أو المراهق، وللتغلب على مشاعر الوحدة وعدم الكفاءة فإنه قد يمضي وقتًا أطول في الدراسة أو المذاكرة، ، أو يعمل على تعزيز علاقات مريحة مع الفتيات، وفشله في ممارسة الرياضة يؤثر على ثقته في نفسه وعلى علاقته مع أقرانه وعلى هويته الذكورية وعلى تصوره لنفسه بوصفه ذكرًا، والصورة السلبية التي يشكلها عن هويته الذكورية والعزلة التي يفرضها على نفسه، قد تدفعه إلى أن يبحث ويتوق للذكورة عند أقرانه الذكور.[27]

وكشفت دراسات أخرى أن ضعف التوافق الحركي وصعوبة ممارسة الرياضات الجماعية العنيفة، واسع الانتشار في أطفال مرحلة ما قبل الشذوذ، كما أن دراسات أخرى بينت أن هؤلاء الصبية يجدون صعوبة في التمييز بين الصلابة والخشونة التي تتطلبها اللعبة، وبين نوايا الصبية الآخرين في إلحاق الأذى بهم.[29]

يتفق الدكتور "جرراد أردوج"- وهو عالم نفس هولندي- مع ملاحظة الدكتور "فيتزبونز" من خوف هؤلاء الصبية من الألعاب والرياضات العنيفة والشاقة، وقد أكدت دراسات واسعة ميل هؤلاء الصبية إلى الحذر المبالغ فيه وتجنب المشاركة في ألعاب جماعية.[30]

في المرحلة الابتدائية، يبدأ الصبية الآخرون بإطلاق الألقاب والتهكم على الصبية ذوي الهوية الجنسية المضطربة، فينادونهم بمصطلحات تدل على الشذوذ وعلى الميول الجنسية المنحرفة، وحتى الأساتذة قد يتورطون بمثل هذا السلوك ويطلقون على هؤلاء الصبية أسماءً مثل "شواذ" وغيرها، وهذا بدوره قد يكرس الشعور لدى هؤلاء الصبية بأنهم ولدوا هكذا شواذ، ويبدؤون بالاعتقاد بأنهم مختلفون بالفعل، وقبل أن يمر وقت طويل سوف يتحول نفورهم العاطفي من الصبية الآخرين إلى رغبات رومانسية تجاههم.

أحد المرضى السابقين الذين عالجتُهم ويدعى "أليكس" كتب عن حنينه المبكر لاهتمام الذكور، وعن فشله في إقامة روابط مع أقرانه الذكور وعن بدايات تطور الانفصال الوقائي عن الذكور:

«أول مشاعر الشذوذ التي أستطيع تذكرها حدثت عندما كنت في الصف الرابع الابتدائي، وعمري حينها 9 سنوات؛ بدأت ألاحظ طفلاً ذا شعر بني داكن يرتدي سترة زرقاء، أتذكر أنني أحببت ابتسامته في البداية، وكلما أمعنت النظر فيه ازداد إعجابي وانجذابي نحوه، وفكرت في نفسي: كم هو جميل!

أتذكر أنه كلما جلست في فناء المدرسة أبدأ بالبحث عنه، وعندما تقع عيني عليه أجد صعوبة في النظر لأي شيء آخر.

لكوني في التاسعة من العمر، لم أكن أعلم بالتحديد ما الذي يحدث معي، كل ما أعرفه أنني أحببت هذا الولد كثيرًا، أتذكر أني كنت أخاف عليه كثيرًا ليس لأنه يدخل في مشاجرات وعراك، ولكن لأنني كنت أحبه كثيرًا».

ولكن لا تخطئ فهم هذا، فمن الممكن أن يكون الصبي غير المنسجم مع هويته الجنسية حساسًا وطيبًا واجتماعيًّا ومولعًا بالفنون ودمث الأخلاق، وأيضًا ذا ميول جنسية سوية، يمكن أن يكون فنانًا وممثلاً وراقصًا وطاهيًا وموسيقيًّا؛ فهذه المواهب الفنية الفطرية تعبر عن هوية الفرد، وهي جزء من مجموعة القدرات

البشرية الرائعة؛ ولذا يجب ألا يحاول أحد إعاقة هذه القدرات أو إخمادها، ورغم ذلك- ومع تقديم الدعم والإقرار الذكوري المناسب- يستطيع كل هؤلاء أن ينموا داخل إطار الرجولة الطبيعية السوية.

ردود فعل الوالدين:

ربما تبالغ أمهات الصبية الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية في حماية أبنائهن، وقد يحدث ذلك أثناء اللعب مع الأقران، فترى في تصرفات الصبية الآخرين العنيفة والخشنة والمعتادة في مثل هذه المواقف خطرًا على طفلها، فتتدخل لحمايته؛ مما يجعله يبدو في أعين أقرانه شخصًا ضعيفًا ويعرضه للسخرية، وربما تناديه والدته أمام أقرانه: "تعال يا حبيبي وابتعد عن هؤلاء الأشرار؛ حتى لا تتعرض للأذى"، ومثل هذه العبارات التي تجعله عرضة للسخرية من أقرانه، وفي الحقيقة كثير من الشواذ الذين عالجتهم أخبروني عن أسلوب أمهاتهم السيئ في التعامل في مثل هذه المواقف.

اكتشف الكثير منا ممن يعملون مع الشواذ أنهم عندما كانوا صغارًا كانوا لا يحبون الألعاب الخشنة مع الأطفال الآخرين، ويتحاشون أن يكونوا برفقتهم، وكانوا يفضلون رفقة الفتيات الصغيرات اللاتي كن يتمتعن بالرقة واللطافة الاجتماعية مثلهم تمامًا، ولكن لاحقًا في منتصف مرحلة المراهقة يتحول هؤلاء الصبية بشكل مفاجئ ويبدون اهتمامًا كبيرًا بالصبية الآخرين لدرجة تصل لحد الفتنة، فيما تصبح الفتيات أمرًا غير مهم وغير مرغوب فيه.

صلابة مفهوم الهوية الجنسية لدى الأطفال:

مرحلة نمو صحية وطبيعية:

وعكس هذه العملية تحدث لزملائهم في الصف من الصبية الأسوياء، حيث يبدؤون بتنمية هويتهم الذكورية والابتعاد والنفور من الفتيات، فتجدهم بين السادسة والحادية عشرة من العمر يرددون: "أنا أكره الفتيات"، أو "إنهن غبيات، لا نريدهن أن يلعبن معنا"، وتردد الفتيات الصغيرات أن الأولاد يثيرون اشمئزازهن.

هؤلاء الأطفال ولفترة من الزمن، سوف يبدون صلابة شديدة في تأكيد هويتهم الجنسية وترسيخ الصور النمطية المتوقعة منهم، وتصبح فكرة انضمام بنت إلى

فرقة الكشافة الخاصة بالأولاد أمرًا لا يطاق، وعلى الجانب الآخر تجد لافتات معلقة على الأكواخ التي يصنعها الأولاد على أغصان الشجر كتب عليها: "ممنوع دخول البنات"، وهذا الأمر ليس تمييزاً أو عنصرية، إنما هو جزء من العملية الصحية والطبيعية لنمو الهوية الجنسية السوية.

ما يحدث هو أن هؤلاء الصبية والفتيات الأسوياء منهمكون في عملية تعزيز هويتهم الجنسية، وليتمكنوا من القيام بذلك فإنهم بحاجة إلى إحاطة أنفسهم بسياج عازل من الأصدقاء المقربين من الجنس نفسه، وبهذه الطريقة يمكنهم أن يضعوا أساسًا قويًّا لإحساسهم الجديد المكتسب بأنهم أولاد أو بنات، وهذا مطلب أساسي مهم قبل أن يبدؤوا فيما بعد- في مرحلة المراهقة- التطلع للتواصل مع الجنس الآخر.

وفترة النمو المهمة هذه تضفي غموضًا على الجنس الآخر، وهذا الأمر بدوره يؤسس للشعور بالجاذبية الجنسية والعاطفية تجاه الجنس الآخر، (فنحن ننجذب عاطفيًّا للشخص الآخر المختلف عنا)؛ ولهذا السبب تبدو فترة الترابط القوي والمبالغ فيه مع الأقران من نفس الجنس مرحلة مهمة في تعميق وإبراز هوياتنا الجنسية الطبيعية.

نتذكر قول "ريتشارد وايلر": إن جذور مشكلة الشذوذ تكمن في الانفصال عن الذكور الآخرين.

إن الآلام والمخاوف التي يسببها الشعور بالرفض من قبل الأقران الذكور، تدفعنا غالبًا إلى الانفصال عن عالم الذكورة؛ وهو العالم الذي نرغب فيه بشدة.

ولكن إلى أين أوصلنا هذا كذكور؟ لقد أوصلنا إلى عالمٍ الأوهام الذي تختلط به الهوية الجنسية، لسنا ذكورًا مكتملين ولسنا إناثًا حقيقةً، فنحن لم ننفصل عن الذكور الآخرين الذين كنا نخشى أن يؤذونا، ولكنا انفصلنا عن عالم الذكور الأسوياء برمته.

إن إحساس الطفل بكونه ولدًا أو بنتًا- وخاصة الصغير- هو أكثر من مجرد فكرة غامضة، فهوية الطفل لها دلالة عاطفية عميقة، وعندما قام الباحثون بسؤال الأولاد عما إذا كانوا بنات- وفعلوا العكس مع البنات- وجدوا أن الكثير من الأطفال أظهروا ردود فعل قوية جدًّا، وبعض الأطفال وجد ذلك أمرًا مضحكًا، بينما شعر

أطفال آخرون بالإهانة لمجرد السؤال، أما الأطفال الذين لم يظهروا ردود فعل مشابهة لهم فإنهم بعيدون كثيرًا عن النموذج السوي والصحي.[31]

وبعد ذلك في مرحلة المراهقة، تتغير المواقف؛ ويبدأ الصبي الذي نما بطريقة سوية في الانجذاب للفتيات، وأصبحت الفتيات- فجأة- يلفتن الانتباه والغموض بصورة رومانسية، ويصعب فهمهن أيضًا.

يقول أحد علماء النفس الشواذ: إن الفرد يصبح منجذبًا عاطفيًّا أو جنسيًّا إلى الآخرين الذين كانوا يختلفون عنه أو يمثلون النقيض له عندما كان طفلاً، وهكذا يتحول الشيء الغريب إلى شيء مرغوب ومثير 32، وهكذا فإن الولد أو البنت في مرحلة ما قبل الشذوذ يشعران بإثارة وانجذاب بسبب الغرابة التي يدركانها في الجنس نفسه، ومع ذلك فإن عالم النفس الشاذ هذا، يرى أن مشاعر الغرابة تجاه الأقران من نفس الجنس هو أمر طبيعي تمامًا.

السقوط، بعدما يبتعد الصبي عن والده:

الصبية ذوو الميول الأنثوية بحاجة كبيرة للأب، وتحديدًا هم بحاجة إلى أن يقوم الأب بوظائفه الأساسية تجاههم، وبخاصة تلبية ثلاثة احتياجات جوهرية: الإشباع العاطفي، والاهتمام، والقبول والرضا. وعندما لا يقوم الأب بهذا الدور بالشكل المقبول، فإن ذلك يعني لهؤلاء الصبية أنهم غير مهمين وغير مرغوب فيهم، وهذا الأمر يدفعهم للشعور بالألم العميق ويجرح كبرياءهم وتقديرهم لأنفسهم.

ومنذ تلك اللحظة، تبدأ علاقتهم مع آبائهم بالتآكل، وتصبح عديمة الأهمية؛ فتسقط رمزية الأب بالنسبة لهم، وهو الأمر الأكثر خطورة؛ فتجدهم لا يهتمون عندما يكبرون أن يصبحوا مثل آبائهم، وفي الحقيقة هذا يعني أنهم يعلنون تنازلهم عن أي طموح لتحقيق ذكوريتهم الفطرية، وبعد ذلك عندما يتجنبهم الأطفال الأسوياء يستغرقون في وحل الانطواء والوحدة، وهو ما يكرس شعورهم بالدونية وبأنهم ليسوا ذكورًا بالقدر الكافي، وفي نهاية المطاف يقودهم كل هذا إلى أن يزداد إعجابهم بمعالم الفحولة البادية على الذكور الآخرين، كما يوضح:

«شعورنا بالنقص- نحن الرجال- يجعلنا نتوق ونتلهف لأن يقبل بنا الآخرون، وخاصة من يملكون ذكورة طاغية، نبدأ بالإعجاب بمعالم الفحولة التي تبدو على الذكور الآخرين والتي نشعر أننا نفتقدها، وهذا الإعجاب يعمق الفجوة التي

صنعناها بأوهامنا بيننا وبين الرجال الحقيقيين.

إعجابنا المفرط بهم يعمق من شعورنا بنقص الرجولة، ويدفعنا إلى تجريد هؤلاء الرجال من إنسانيتهم والتعامل معهم كرموز بعيدة المنال.

ينهمك الأطفال الأسوياء في اللعب بنشاط وقوة، فيما يدفع الخوف الصبية الذين يمرون بمرحلة ما قبل الشذوذ إلى الجلوس على الرصيف، مكتفين بالمشاهدة والتحسر؛ لأنهم يرغبون بشدة في مشاركتهم اللعب، ولكن يمنعهم من ذلك إحساسهم بأنهم مختلفون عنهم، وبأنهم حتى أقل منهم، يشعرون بأنهم غير مهيئين وغير مجهزين لمشاركتهم اللعب.

وفي كثير من الأحيان تكون محطتهم القادمة هي الكآبة، يدفع بهم هذا إلى الانطواء وإلى التحول إلى حالمين يجذبهم عالم الخيال والأوهام، بعض منهم يشعر بشغف للتمثيل والمسرح ولفرصة تتاح له لِلَعِبِ دورَ شخص آخر، بينما يجد آخرون صعوبة كبيرة في التركيز داخل الصف الدراسي، وتكون نتائجهم مخيبة رغم قدراتهم التي تفوق المتوسط.[33]

ومن الطبيعي أن يشعر آباء هؤلاء الصبية وأمهاتهم بالقلق عندما يرون هذه المؤشرات في سلوك أبنائهم، وبالبداهة يدركون أن هناك شيئًا ما خاطئًا، وكما أسلفت سابقًا: إذا صادف هؤلاء الآباء والأمهات سوء الطالع، فسوف يقعون مع تلك النوعية من الأطباء النفسيين الذين يقبلون بطروحات نشطاء الشذوذ، وسيخبرونهم أن ما يمر به هؤلاء الصبية هو أمر لا يمكن تفاديه بسبب الجينات الوراثية التي يحملونها.

الخبر السيئ هو أن الكثير من المثقفين أصحاب المراكز المؤثرة لا يعرفون الحقيقة الكاملة حول ارتباك الهوية الجنسية لدى الأطفال، ولكن الخبر الجيد أنك بوصفك الأب والأم تملك التأثير الكافي لتحديد ميول طفلك الجنسية في المستقبل.

هل أنت غير مبال بكون ابنك شاذًا أو سويًا؟

هناك الآلاف من الأطباء النفسيين الذين سوف يدعمون توجهك لتعزيز مرحلة ما قبل الشذوذ لدى طفلك إن أنت اخترت هذا المسار.

أحد هؤلاء الأطباء الدكتور "جستن ريتشاردسون" الذي لا يرى أي مشكلة عندما يبدي الصبي أنوثة طاغية وتشبهًا بالنساء، المشكلة الوحيدة- يقول- هي في

رفض المجتمع له.

"ريتشاردسون" هذا، شاذ، يعلن شذوذه على الملأ، وهو يعتقد أن الحس المرهف والميول الفنية تضع الأساس للتوجه الشاذ، ولكنه يعترف (كما تفعل الجمعية الأمريكية للطب النفسي) بأن هناك مؤثرات اجتماعية ونفسية تقوم بتعزيز الهوية الجنسية لمثل هذا الصبي والميول الجنسية له في المستقبل، ويعترف أيضًا أن طريقة تحول هذا الصبي إلى شاذ ترجع إلى شخصية كل من والديه ومدى توافقها أو تعارضها مع شخصيته، ومدى الترابط العاطفي الذي يحظى به هذا الصبي مع والديه، ويضيف "ريتشاردسون" عوامل أخرى، مثل: ردود فعل والديه تجاه نضج جسده الذكوري، وتأثير الأقران؛ كل هذه العوامل التي حددها "ريتشاردسون"- وهي توافق توجهنا- يصفها بأنها مؤثرة في تعزيز الإحساس المتنامي لدى الصبي بهويته الجنسية الذكورية، أو إضعافه.

والأمر الخطير هو أن الدكتور "ريتشاردسون" لا يعتبر أن أيًّا من تلك التأثيرات هي ظاهرة مرضية؛ لأنه لا يعتقد أصلاً أن الشذوذ حالة مرضية؛ بالنسبة إليه: الشذوذ هو حالة طبيعية.

هل عدم الشعور بالهوية الذكورية والانفصال عن الأب وعن الأقران الذكور، مشكلة؟ هي ليست كذلك بالنسبة لـ"ريتشاردسون"؛ لأن الهوية الجنسية- بحسب اعتقاده- مسألة هامشية وغير مهمة.

ولا يكتفي بدعوة الآباء والأمهات إلى التغاضي عن سلوك ابنهم- في التشبه بالنساء- بل يطلب منهم تشجيع مثل هذا السلوك الذي يعكس حالة صحية في عدم التوافق مع الهوية الجنسية، ويذهب أبعد من ذلك بقوله: إن عدم الاكتراث بالهوية الجنسية يعكس حالة فكرية راقية.[34]

وعلى الجانب الآخر، نبقى نحن رجعيين ومتعلقين بمفاهيم جامدة عن الهوية الجنسية؛ ولذلك نحن نرى أن الصبي الذي يرتدي ملابس نسائية يعاني بالتأكيد مشكلةً، وهناك معالجون على النقيض من الدكتور "ريتشاردسون" يعتقدون أن النمو السوي يتطلب ترابطًا بين إحساس المرء الداخلي بهويته الجنسية وتكوينه البيولوجي، حيث يجب أن يعمل العقل والجسد والروح في تناغم، وربما يتميز الصبي الذي يعاني عدم الانسجام مع هويته الجنسية بمواهب فنية وإبداعية وفكرية، ولكن لكي ينمي هذه

المواهب يجب عليه أن يكون واثقًا من انتمائه لعالم الرجال.

وعندما يدرك الآباء والأمهات حجم المشكلات التي يواجهها صبيهم الذي يعاني ارتباك الهوية الجنسية، ويتفقان على العمل معًا لحلها، والبحث عن الخبرة والإرشاد المناسب من أطباء نفسيين يؤمنون بأن التغيير ممكن- فسيظل هناك أمل، وتحقيق هوية ذكورية سوية هو هدفُ مشروعٌ قابلٌ للتحقيق.

الفصل الثاني: صبي مرحلة ما قبل الشذوذ.. لماذا يجب على الوالدين التدخل؟

3
هل وُلد هكذا؟

«من المهم أولاً أن أوكد على ما لم أقم باكتشافه:

- أنا لم أثبت أن الشذوذ الجنسى يرجع إلى أسباب وراثية..

- ولم أقل يوما: إن الشواذ من الرجال ولدوا هكذا..

الكثيرون وقعوا في هذا الخطأ عند تفسير نتائج أبحاثي».

الدكتور سيمون ليفاي

مؤلف (دراسة دماغ الشاذ جنسيًّا)

يردد الناس كثيرا: "إن الرجال الشاذين ولدوا هكذا، ولم يُصنعوا".

الكاتبة الصحفية "آن لاندر" كانت واحدة من الشخصيات العامة الكثيرة التى ضللت ملايين الأمريكيين عندما أخذت تتردد هذه النظرية التى لا تدعمها أي دراسات موثقة[1].

ولقد بدأت هذه الخرافة في الانتشار عندما تورطت وسائل الإعلام في ترديد مقتطفات مجتزأة من بعض الأبحاث العلمية، وتغافلت عن تفاصيل أخرى مهمة تفسر أسباب الشذوذ بطريقة انتقائية مثيرة للريبة، ومع الأسف، بدأ ملايين الناس حول العالم- منذ تلك اللحظة- ينظرون إلى الشذوذ الجنسي على أنه طبيعة بشرية أو جزء فطري من صميم هوية المرء، وأصبح هناك رفض لفكرة أن الشذوذ الجنسي يتشكل أثناء السنوات التكوينية للفرد من خلال تفاعل عدة عوامل مؤثرة، مثل الوالدين والأقران والبيئة الاجتماعية، وأيضا العوامل البيولوجية.

ولكن التمعن قليلا في الأدلة التي صنعت هذه الخرافة يكشف لنا الحقيقة

الصاعقة؛ وهي: أن العلماء الذين يفترض أن أبحاثهم هي التي أثبتت نظرية أن الشواذ "يولدون هكذا"، يتفقون الآن على أنها خرافة، إنهم يقولون: "إن المؤثرات البيولوجية والوراثية تفتح الباب أمام الشذوذ الجنسي لبعض الأشخاص"، وهم يسلمون أيضًا بأن إضافة المؤثرات المحيطة (مثل المؤثرات التربوية، والاجتماعية، والتجريبية) هي التي تغري المرء وتستدرجه ليعبر هذا الباب ويتحول إلى شاذ جنسيًّا.

ويشرح مؤلف كتاب (جيناتي الوراثية دفعتني للقيام بهذا) كيف تم التجني على بحثه وتفسيره بطريقة خاطئة:

«هناك جدول متدفق من المقالات الصحفية- العشرات سنويًّا- تؤكد لنا أن هناك علاقة بين الشذوذ الجنسي والخصائص البيولوجية الوراثية، وتذكر هذه المقالات: الجينات، وتركيب المخ، ومستوى الهرمونات في الرحم، وخصائص الأذن، وشكل بصمة الإصبع، وطول الأصابع، والمهارات اللفظية، وأشياء أخرى كثيرة، وربما أثناء قراءتك لهذا يخترعون خرافات اخرى.

والحقيقة هي أن الجينات تؤثر بشكل غير مباشر، ولكنها في المعتاد لا تجبر الناس على أن يصبحوا شواذ؛ هذه الحقيقة معروفة جيدًا في أوساط المجتمع العلمي منذ بضعة عقود، ولكنها لم تجد طريقها بعد إلى عامة الناس» [2].

الدليل:

أصبح معروفا الآن أن البحث المعنون "لقد ولدوا هكذا"، كان هدية سياسية كبيرة لنشطاء الشذوذ، وبدأت خرافة أن الشواذ جنسيًّا ولدوا هكذا انتشارها المحموم في أوساط الرأي العام في عام 1991، عندما درس الباحث "سيمون ليفاي" أدمغة خمس وثلاثين جثة يفترض أنها ترجع لرجال شاذين جنسيًّا، و"ليفاى" نفسه شاذ، ويعد من أبرز نشطاء الشذوذ، ومع ذلك، لم يتطوع أحد ليسأله عن انتماءاته الاجتماعية والسياسية وإمكانية أن يسبب هذا تضاربًا في المصالح.

وقد فحص "ليفاي" عنقودًا صغيرًا جدًّا من الخلايا العصبية في مخ هؤلاء الرجال[3]، ولم يستطع أن يقول ما إذا كانت الاختلافات البسيطة التي وجدها كانت نتيجة للسلوك الشاذ أم أنها هي سبب حدوثه، ولم يستطع حتى أن يعرف ما إذا

كان سبب حدوث هذه الاختلافات يعود إلى تلف في المخ أحدثه مرض الأيدز النشط الذي كان يعانيه هؤلاء الرجال أم لا، ولم يقم أي باحث آخر بدراسة مماثلة لما قام به "ليفاى" مرة أخرى، ورغم ذلك ظلت هذه الدراسة توفر الدعم المطلوب لادعاءات نشطاء الشذوذ بأن الرجال الشاذين "هم أناس" يولدون مختلفين، ووفرت المادة الدسمة التي كانت وسائل الإعلام تبحث عنها وتتلهف لها لدعم التحرر الجنسي ونشطاء الشذوذ، وصنعت عناوين الأخبار حول العالم.

ومع ذلك- ومنذ ذلك الوقت- كان "ليفاي" يعترف- بعيدًا عن صخب الإعلام- بأنه لم يثبت أن الشواذ جنسيًّا "يولدون هكذا"، وقال: «من المهم أن أؤكد على ما لم أتوصل إليه: إنني لم أثبت أن الشذوذ الجنسي يرجع لأسباب وراثية، ولم أجد جينات وراثية تفسر الشذوذ الجنسي، ولم أوضح أن الشواذ قد ولدوا هكذا، الكثيرون وقعوا في هذا الخطأ عند قيامهم بتفسير نتائج أبحاثي» [4].

بعد عشر سنوات من نشر هذه الدراسة، اعترف "ليفاى" لمجلة متخصصة في الشذوذ الجنسي، بأن دراسته تم تسييسها- وهذا يعنى أنه تم المبالغة فيها، وتقديمها بطريقة ملتوية ومشوهة من أجل تحقيق أهداف سياسية، ولكنه يستدرك قائلاً- من وجهة نظر نشطاء الشذوذ- فإن البحث قد حقق هدفًا مفيدًا:

هل الشذوذ قابل للتغيير أو لا؟ هو سؤال له أهمية كبيرة على الساحة السياسية، وهل التوجه الشاذ هو مسألة اختيار أو لا؟ هو قضية لها بالغ الأثر في تشكيل موقف الرأي العام الأمريكي من حقوق الشاذين.

فلو استطاع العلم أن يثبت أن التوجه الشاذ هو جزء أصيل من جوهر الإنسان، لعاد ذلك بالخير الوفير لمجتمع الشواذ [5].

وبعد دراسة "ليفاي" بوقت قصير، في عام 1993، نشر اختصاصي علم الوراثة "دين هامر" من المعهد القومي للسرطان- دراسة يدعي فيها أنه وجد الجين الوراثي المسؤول عن الشذوذ الجنسي لدى الرجال [6]، و"هامر" هذا- مثل "ليفاي"- رجل شاذ جنسيًّا وناشط أيضًا في قضايا الشذوذ، وقد أعلنت الصحف عن هذه الدراسة بوصفها دليلاً إضافيًّا على أن الشواذ جنسيًّا "يولدون هكذا".

ومع ذلك، عندما حاول باحثان آخران الوصول إلى نتائج "هامر" من خلال القيام بدراسة مماثلة أضخم وأكثر شمولية، كانت النتائج التي توصلوا إليها

مختلفة[7].

وفى الحقيقة، لقد خلصوا إلى التالى: "ليس هناك سبب واضح وراء اختلاف نتائجنا عن نتائج دراسة "هامر"، ولأن دراستنا كانت أضخم من دراسة "هامر" وزملائه، فإننا بالتأكيد نملك القوة لكشف التأثير الجينى بالقدر الوارد في هذه الدراسة.

وفيما بعد، يحسب لـ"هامر" أنه عندما سئل عما إذا كان السبب الرئيسي للشذوذ الجنسي يرجع إلى التركيب البيولوجي فقط، أجاب: "لا، بالتأكيد؛ فقد عرفنا من دراسات التوائم أن نصف عوامل التوجه الجنسي المتغيرة أو أكثر لا تأتي بالوراثة"[8].

ولكن عناوين وسائل الإعلام عن دراسة "هامر" نقلت إلى العامة رسالة مختلفة تمامًا عما قاله؛ لقد نقلت وسائل الإعلام الرسالة بطريقة خاطئة، وهكذا، أصبحت الرسالة هي أن الشذوذ الجنسي لدى الرجال أمر فطري، وبالنسبة للشذوذ الجنسي لدى النساء، كتب "هامر" فيما بعد: "إن تأثر هؤلاء النسوة السحاقيات بالتركيب البيولوجي يقل عن تأثر الرجال الشواذ"، وقال "هامر" أيضًا: "تشير أفضل دراسة حديثة إلى أن تحديد الهوية الجنسية لدى الإناث مسألة ترجع إلى العوامل المحيطة أكثر منها إلى الوراثة" [9].

ما أظهرته دراسات التوائم:

لقد فوجئ عامة الناس بالأخبار المسيسة عن "دراسات التوائم الشواذ"، وقد صنعت دراسة ذائعة الصيت- عن التوائم المتطابقة- الأخبار في كل أنحاء العالم دليلاً إضافيًّا على وجود الأساس الوراثي للشذوذ الجنسي [10]، ولكن كما يوضح العالم "نيل وايتهيد" الأمر، فقد أظهرت الدراسات التي تمت على التوائم المتطابقة التأثيرَ القوي للعوامل المحيطة، وإذا كانت الجينات تجعل أي شخص شاذًّا، فمن المفترض أن نجد كل زوج من التوائم المتطابقة إما أن يكونا سويين معًا، وإما أن يكونا شاذيْن معًا.

ويوضح الدكتور "وايتهيد"- مؤلف كتاب "جيناتي الوراثية جعلتني أقوم بهذا"- الأمر قائلاً: "في نصف الحالات تقريبًا، يكون أحد التوأمين سويًّا جنسيًّا، بينما لا

يكون الآخر كذلك"، وقد أضاف: "إن التوائم المتطابقة لديها جينات متطابقة، فإذا كان الشذوذ الجنسي حالة بيولوجية تحدث حتمًا بسبب الجينات (كما هو الأمر بالنسبة للون العين أو الشعر)، إذن عندما يكون أحد التوأمين شاذًا، يجب على هذا الأساس أن يكون أخوه مثله، بنسبة 100% في كل الحالات، ولكننا نعلم أنه في نحو 38% فقط من الحالات يكون الأخوان التوأمان المتطابقان شاذيْن. . أما في بقية الحالات فإنه إذا كان أحد التوأمين شاذًا، فعادة لا يكون الآخر كذلك"[11].

وعلاوة على ذلك، فإن الأشخاص الذين خضعوا للبحث في هذه الدراسة الخاصة بالتوائم، لم يكونوا عينات عشوائية، ولكنهم جاؤوا بأنفسهم، (لقد كانوا متطوعين استجابوا لأحد الإعلانات)، إن أفراد مجتمع الرجال الشواذ يدركون جيدًا الأهمية السياسية "لإثبات" أن الشذوذ الجنسي أمر فطري؛ لذا فإن التوائم التي يكون فيها كلا الأخوين شاذًا، ستكون هي التوائم التي يزداد احتمال إقبالها على التطوع للخضوع للدراسة، وكما يقول الدكتور "وايتهيد":

«لقد وصلت دراسات التوائم- خلال العقد الماضي- إلى أرقام تشير إلى أن نسبة الإسهام الوراثي في الشذوذ الجنسي تصل إلى نحو 50%، وهي نسبة ترتفع كثيرًا عن نسبة الإسهام التي أشارت إليها فروع العلوم الأخرى.

ولكن من خلال التنقيح المستمر لمناهج البحث في دراسات التوائم- خاصة فيما يتعلق باستخدام سجلات التوائم، بدلاً من التوائم المتطوعين- هبط الرقم إلى نسبة تتفق مع 10% مع كل من الذكور والإناث الشواذ [12].

والأمر المثير هو إشارة الدكتور "وايتهيد" إلى أن هذه الدراسات الخاصة بالتوائم نفسها تبرز الطرق المختلفة التي يدرك بها الإخوة والأخوات الوالدين نفسيهما، وهذا قد يعزز الملاحظة الشائعة التى تشير إلى أن الكثير من الأسر التي بها عدد كبير من الأطفال يخرج من بينهم طفل واحد فقط شاذ جنسيًّا، بينما ينمو باقي الإخوة والأخوات بطريقة سوية».

ويختتم الدكتور "وايتهيد" قائلاً: «لقد سأل فريق [الباحثين] توأمين متطابقين- أحدهما كان شاذًا، والآخر كان سويًا- عن البيئة الأسرية المبكرة؟ واكتشفوا أن التوأمين أدركا البيئة الأسرية نفسها بطرق مختلفة تمامًا، وأدت هذه الاختلافات- فيما بعد- إلى أن يتجه أحد التوأمين فقط إلى الشذوذ الجنسي، إن الحقيقة

العلمية هي: أن جيناتنا لا تدفعنا إلى أي شيء، ولكننا نحن الذين ندعم أو نكبت اتجاهاتنا الوراثية. . فيمكننا أن نعززها أو نكبحها»[13].

وتذكر- كما قلنا من قبل- أنه يبدو أن هناك بالفعل استعدادًا فطريًّا يهيئ الأطفال للشذوذ الجنسي، ويعتبر الصبية أكثر عرضة لذلك بشكل خاص؛ على سبيل المثال: تبلغ نسبة الصبية ما يزيد على خمسة أضعاف نسبة البنات اللواتي يتم تشخيص حالاتهن على أنها اختلال في الهوية الجنسية في فترة الطفولة، ولكن هذا لا يعني أنه يجب أن نقول عن أي طفل معين: "إننا نعلم بأنه طفل شاذ، ويجب التعامل معه على هذا الأساس، ولا بد أن نلحقه بنادٍ للشاذين أو مركز دعم اجتماعي لهذه الفئة"؛ هناك الكثير جدًّا من العوامل الأخرى التي تسهم في تشكيل هوية المرء وسلوكياته في سنواته التكوينية، وهي تتضمن تأثيرات الأسرة والأقران التي تشكل صورة المرء عن نفسه، وموافقة المجتمع لأسلوب حياة الشواذ أو رفضهم له، وحرية الاختيار لأن يتصرف المرء حسب ما يهوى أو لا، وشكل الاستغلال الجنسي في فترة الطفولة، والمعتقدات الدينية، وتأثير المعلمين- لكي نستطيع القول: إن قَدَرَ هذا الطفل أو ذاك هو أن يصبح شاذًّا جنسيًّا.

تحيز الباحثين في العلوم الاجتماعية:

بجانب الدراسات الخاصة بـ"جين الشذوذ"، نرى عددًا متزايدًا من الدراسات التي تحاول إثبات أن السحاقيات والشواذ يكونون آباء وأمهات جيدين، أو أفضل من الأزواج والزوجات الأسوياء، ويمثل الاصطفاف السياسي للباحثين- كما هو الحال في دراسات "ولدوا هكذا"- مشكلة خطيرة في الأبحاث المتعلقة بتربية الأطفال على يد الشواذ[14]، وهذا لا يعنى أن نسقط عمل هؤلاء الباحثين من حساباتنا، ولكن يجب أن تخضع هذه الدراسات لعملية مراجعة صارمة قبل الموافقة على نشرها، فبدلاً من ذلك، نحن نرى استنتاجات شاملة تستند إلى هذه الدراسات التي تتحدى الفطرة السليمة، مثل: "إن الأطفال الذين ينشؤون مع والدين من النوع نفسه تكون لهم نفس القدرة على التكيف والتوافق مثل غيرهم من الأطفال، بل إن الجمعية الأمريكية لعلم النفس أعلنت بأنه: "ليست هناك دراسة واحدة تثبت أن أطفال السحاقيات والشواذ ينقصهم أي شيء من كل النواحي، مقارنة بأطفال الآباء والأمهات الأسوياء"[15].

والأمر المثير للسخرية هو أننا نرى بالفعل عملية مراجعة ضعيفة لتمحيص دراسات الشواذ والسحاقيات قبل النشر، بينما تتم إعاقة أو استبعاد الأبحاث التي تتعارض مع أهداف نشطاء الشذوذ (وهي الدراسات التي تثبت أن الشواذ بإمكانهم التغيير)، من الدوريات المتخصصة.

أحد الأمثلة على ذلك: نشرت دورية- مجلة الرعاية الكنسية- مقالا عن إمكانية تغيير التوجه الجنسي، بعنوان "زيارة جديدة للعلاج التحولي. . منهج ومحدادات الرعاية الأخلاقية"[16]، ولكن في الاجتماع التالي لمجلس إدارة الدورية، قطاع من القيادة الدينية للدورية احتجوا غاضبين وأبدوا قلقهم الكبير إزاء هذا المقال، وقالوا: "إن الافتراضات التي يستند إليها هي موضع شك كبير، وأنه- أي المقال- يوجه إساءة شديدة لجمهورنا"[17]، ولقد وصف مجلس الإدارة هذا المقال- الذى كان بالمناسبة ذا صبغة علمية وبحثية بحتة- بأنه يحط من كرامة وقيمة الشواذ والسحاقيات!

وفي نفس التوقيت الذي ظهر فيه هذا المقال، كان هناك إعلان مجدول للجمعية الوطنية لأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي لدى الرجال، كان من المفترض أن ينشر في عدد الخريف من نفس المجلة، وكان يهدف إلى دعوة القساوسة الذين يؤمنون مثلنا بإمكانية تعديل الميول الشاذة للاتصال بنا والانضمام لجمعيتنا، وفوجئنا باتصال منهم يبلغوننا فيه بتأجيل نشر الإعلان إلى أجل غير مسمى.

كل هذا الصخب يحدث في مجلس إدارة دورية دينية!

وراء الكواليس الخاصة بوسائل الإعلام:

عندما تظهر دراسة تعلن عن اكتشاف "جين خاص بالشذوذ"، كما ذكرنا من قبل، فإن نشطاء الشذوذ بمساعدة هائلة من وسائل الإعلام، يبرزون هذه الدراسة وتتحول إلى عناوين رئيسية في وسائل الإعلام، وفي المقابل يتم تجاهل كل المناقشات الدائرة حول العوامل الأخرى (النفسية، والبيولوجية، والاجتماعية) التى تنظر إليها الأوساط العلمية على أنها المسبب الحقيقي للميول الجنسية الشاذة لدى الرجال.

ويقدم النموذج العلمي التالي طريقة تساعد على تصور العلاقة بين العوامل البيولوجية والعوامل المحيطة، وبخاصة لدى الصبية[18]، وينظر مؤلفو هذا النموذج

إليه على أنه الإطار الذي يحتضن نمو الشذوذ الجنسي:

- يتمثل المستوى الأول في الاستعداد المزاجي، فأي صبي يولد ولديه ميل لأن يكون مرهف الحس، وللشعور بأنه يتأذى بسهولة، ويتجنب الألعاب العنيفة والاشتباكات التي يتحمس لها معظم الذكور وتساعدهم على تنمية إحساسهم بأنفسهم وبهويتهم الذكورية.
- يتسم مثل هذا الطفل- بصفة خاصة- بالحساسية الشديدة للحالة المزاجية للوالدين، ويرجع هذا إلى ضعف تكوينه وعدم حصانته تجاه المثيرات التي تفرزها الضغوط والتحديات (ربما يكون هذا العامل هو نفسه الذي يدفعه لتجنب الألعاب العنيفة والاشتباكات)، ويواجه هذا الصبي صعوبة في استعادة توازنه وعافيته من الجروح الجسدية والعاطفية، وفي الصمود أمام السلوك العدواني.
- خذ صبيًّا له هذه الطباع (أو حتى لديه مشكلة جسدية، مثل داء الربو، الذي يعوقه على نحو مماثل)، وضعه في بيئة لا يتوفر بها الأب، أو تكون فيها شخصية الأب غير جذابة أو كريهة دائمًا، وتكون الأم مصدرًا عاطفيًّا جذابًا، أو تكون موجودة على الدوام، وعندئذ ستزداد احتمالات أن يصبح الصبي شاذًّا جنسيًّا.

وهذا يفسر سبب تحول أحد الصبية إلى الشذوذ الجنسي في العائلات كبيرة العدد، فعادة ما يعاني هذا الصبي- الحساس والمحب لتكوين العلاقات- من عدم الاهتمام أو الانتقاد من جانب الأب، وهذا يدفعه إلى اللجوء إلى حماية الأم.

كيف تؤدي العوامل البيولوجية إلى فتح الباب أمام الشذوذ الجنسي لدى الرجال:

الدكتور "جود مارمور"- وهو رئيس سابق للجمعية الأمريكية للطب النفسي، ومؤيد صريح لنشطاء الشذوذ- يقول: إن عدم الانسجام الجنسي الناجم عن عوامل بيولوجية هو "عامل مسهل" فقط؛ بمعنى أن تأثيره ينحصر بوضع الأساس لحدوث الشذوذ الجنسي لدى الذكور؛ لأنه يدفع الصبي إلى أن يرى نفسه بصورة مختلفة، ويدفع الآخرين إلى أن يصفوه بأنه مختلف، ولكن هل يعني هذا أن الصبي يولد شاذًّا؟ يرد الدكتور "مارمور" قائلاً: «لا؛ إن الشذوذ الجنسي لدى الذكور ليس قَدَرًا

حتميًّا لا مفر منه؛ لأنه- كما نلاحظ في كثير من الأحيان- يمكن للصبية الذين يعانون أنوثة طاغية أو البنات المسترجلات بالفطرة، أن يقوموا بتطوير علاقات جنسية سوية، عندما تكون البيئة الأسرية ملائمة وفرص اكتساب الهوية الجنسية الملائمة سانحة»[19].

بمعنى آخر، إن الاستعداد البيولوجي لعدم الانسجام الجنسي ليس قَدَرًا محتوما.

في الحقيقة، عندما ننظر وراء كواليس وسائل الإعلام، ونذهب مباشرة إلى المجتمع الأكاديمي والعلماء، نسمع دائمًا أن الشذوذ الجنسي لدى الذكور يرجع إلى مجموعة من العوامل النفسية، والاجتماعية، والبيولوجية، التي تعمل في تناغم وانسجام[20].

- تعطي الجمعية الأمريكية لعلم النفس (والتي يحتل مراكز القيادة فيها الكثير من نشطاء الشذوذ) المصداقية للنظرية التي تقول: إن الشواذ "ولدوا هكذا"، ولكنها تستدرك مضيفة: "أن الكثير من العلماء يتشاركون في وجهة النظر القائلة: إن التوجه الجنسي يتشكل لدى معظم الأشخاص في سن مبكرة من خلال التفاعل المركب لمجموعة من العوامل البيولوجية، والنفسية، والاجتماعية"[21].

- يقول "سيمون ليفاي"- الباحث في أدمغة الذكور الشواذ- : "في هذه اللحظة، إن الرأي السائد الآن على نطاق واسع [بالنسبة لأسباب الشذوذ الجنسي لدى الذكور] هو أن هناك مجموعة من العوامل الكثيرة التي تلعب دورًا في هذا".

- إن كتيب "لماذا أسأل لماذا؟" الذي يصدر عن مجموعة دعم للشواذ ويتناول الأبحاث المتعلقة بالشذوذ الجنسي لدى الذكور وعلم الأحياء، يعلن أنه: "حتى اليوم، لم يزعم أي باحث أن الجينات بإمكانها تحديد الميول الجنسية، وفي أحسن الظروف، يعتقد الباحثون أنه ربما يكون هناك عنصر وراثي. . فالحياة الجنسية- مثل أي سلوك آخر- تتأثر بالتأكيد بكلا العاملين البيولوجي والاجتماعي"[22].

- يقول عالم الاجتماع "ستيفن جولدبرج": "أنا لا أعلم أن هناك أحدًا في مجال عملنا مقتنع بأنه يمكن تفسير الشذوذ الجنسي لدى الذكور دون التطرق

لعوامل البيئة المحيطة"[23].

ولكن يظل هناك سؤال وحيد دون إجابة: إذا كان الباحثون أنفسهم يقولون: إنه ليس هناك صبي "يولد شاذًا جنسيًا"، لماذا لا توجه الجمعية الأمريكية لعلم النفس اهتمامها نحو دراسة المؤثرات الأسرية والاجتماعية التي تؤدى إلى اكتساب هوية الشذوذ الجنسي؟ أعتقد أن الإجابة واضحة: لأن نشطاء الشواذ في الجمعية لا يريدون هذا. وفي الحقيقة، في كل مرة توجه الجمعية الوطنية لبحوث وعلاج الشذوذ الجنسي (التي أرأسها) خطابًا إلى رئيس الجمعية الأمريكية لعلم النفس، يتم تحويل الخطاب إلى مكتب شؤون الشذوذ والسحاق، وهو عبارة عن مجموعة من نشطاء الشذوذ المصممين على عدم التطرق لمثل هذا الموضوع المهم وتفسيره.

قصة "جريج لوجانيس": هل ولد شاذًا؟

في مذكراته التي أسماها "كسر السطح الخارجي" يقدم لنا بطل الغطس الأولمبي "جريج لوجانيس" صورة مكبرة للعوامل الأسرية والاجتماعية التي تؤدى إلى الشذوذ الجنسي عند الرجال، ورغم الظروف المحيطة المؤثرة في طفولة "لوجانيس"، فإن وسائل الإعلام ركزت وبطريقة سلبية على نظرية أن الشواذ "ولدوا هكذا"، ولقيت مذكرات "لوجانيس" التي تفطر القلب انتشارًا واسعًا.

وفي مقابلة تليفزيونية ببرنامج على قناة "أي بي سي" الأمريكية سنة 1995 مع المذيعة "باربرا والترز"، تحدث "لوجانيس" عن المعاملة السيئة والإيذاء الذي يلقاه من والده الذي تبناه عندما كان رضيعًا، وتقول والدته بحرقة: والده لم يكن له أي دور معه إلى أن وصل "جريج" إلى المركز الأول "في رياضة الغطس"، إنه لم يلعب معه مطلقًا، ولم يصطحبه إلى أي مكان، ولم يمثل له في يوم من الأيام القدوة والمثل الأعلى".

وفي مقابلة أخرى مع مجلة "بيبول" الأمريكية تحدث "لوجانيس" عن حادثة مؤلمة بقيت عالقة في ذاكرته قائلا: في يوم من الأيام، ضربني والدي بحزام لإجباري على التدرب على الغطس في أجواء متجمدة، وانهال على ظهري وأرجلي بالضرب إلى أن احمر جلدي، و أجبرني على أن أؤدي أربع أو خمس قفزات خلفية في الماء، ولكي أنتقم منه، كنت أتعمد الارتطام بالماء بطريقة خطرة، محاولا إيذاء نفسي، كانت أفضل طريقة للتعامل مع والدي هي الابتعاد التام عنه".

لم يحصل "لوجانيس" على الدعم من أقرانه الذكور، وكانوا يلقبونه "بالزنجي" بسبب لون بشرته، وكانوا يسخرون ويتهكمون عليه بسبب نعومته الزائدة وتلعثمه في الكلام.

كانت والدته هي الداعم الوحيد له؛ لذلك لم يكن من المستغرب أن تنمو بينهما علاقة قوية، وصفتها الأم قائلة: "عندما يعود للبيت قادمًا من المدرسة، كان بمقدوري معرفة ما كان يشعر به بمجرد أن يخطو عبر الباب ، وأعرف بالضبط ما الذي ينوي أن يفعله".

وصرح "لوجانيس" لمجلة "بيبول" قائلاً: "إن أمي تحبني مهما حدث"، ولقد انسحب كل من "لوجانيس" و"أمه" واعتزلوا الحياة الاجتماعية بسبب السمعة السيئة التي لحقت بهم بسبب سلوك والده.

وعندما اكتشف رفاق الدراسة أن "لوجانيس" يملك موهبة رياضية فذة، تغيرت نظرتهم له، ووجد "لوجانيس" أخيرًا في تميزه الرياضي الترياق لمشاعر النقص والدونية التي كانت تطبق عليه، ولكن رغم نجاحه الرياضي، فإنه حاول الانتحار ذات مرة وهو في الثانية عشرة من عمره، وكرر المحاولة مرتين قبل أن يتم دراسته الثانوية.

ويصف "لوجانيس" أول اتصال شاذ مع رجل أكبر منه سنًّا التقى به على الشاطئ، وعلى غرار كثير من الشباب في مثل هذه الظروف يقول "لوجانيس": "لقد أدمنت العودة إليه بحثًا عن الشعور بالعطف، والاحتواء، والاحتضان- أكثر من الجنس، لقد كنت أتضور للحنان والعطف"، وقبل أن يمضي وقت طويل، كان "لوجانيس" قد اعترف بأنه شاذ جنسيًّا.

الأمر المثير في هذه المقابلة مع "باربرا وولترز" هو الشيء المفقود الذي لم يتطرق إليه أحد؛ فقد أحجمت "وولترز" عن الإشارة إلى الأمور الواضحة في سيرته، ولم تسأله حتى: لماذا يستمر في علاقاته السيئة والمنهكة جسديًّا وعاطفيًّا مع عشاقه، وأحدهم نقل إليه مرض الأيدز؟ والمقابلة فيما يبدو تحاول دفع المشاهد العادي لأن يستنتج أن "لوجانيس" قد "ولد شاذًّا جنسيًّا".

من الممكن أن تكون الجينات عاملاً مساعدًا:

بإيجاز، يقول الطبيب النفسي "جيفري ساتينوفر": إننا يجب ألا نبحث عن "جين الشذوذ الجنسي" الذي يدفع الأشخاص إلى الشذوذ الجنسي؛ لأنه لا وجود له أصلا.

إن السؤال الحقيقي المتعلق بالجينات الوراثية هو- ما الأشياء المتعلقة بتكوين هولاء الأشخاص الذين أصبحوا شواذ جنسيًّا والتي فتحت لهم باب الشذوذ؟ بينما ظل هذا الباب مغلقًا أمام أشخاص آخرين؟

والخلاصة هي أنه في كل السمات السلوكية في الطبيعة الإنسانية هناك عنصر وراثي، على سبيل المثال، يعتمد لعب كرة السلة على الوراثة بشكل واضح، ولكن إذا سألت نفسك عما يدور حوله هذا الأمر، فسيكون من الواضح أنه لا يدور حول وجود جينات للعب كرة السلة، ويعود هذا الارتباط الوراثي لوجود سمات وسيطة تسمح للأشخاص الذين يحملونها بأن يكونوا لاعبي كرة سلة بنسبة تفوق نظراءهم الذين لا يحملونها؛ تحديدًا: سمات الطول، والمرونة الجسدية، وغيرها.

وهكذا، فليس من المستغرب أن تكون هناك أعداد متزايدة من الدراسات حول الروابط بين الوراثة والشذوذ الجنسي، ولكن عندما يتحدث البعض عن أن الشذوذ هو أمر وراثي تمامًا كما هو الحال في لون العينين، فهذا تطرف ومبالغة ليس لها سند علمي أو حتى عقلاني[24].

إذن، هل من الصواب أن نقول: إن الشذوذ الجنسي لدى الرجال هو متغير طبيعي وفطري في الطبيعة البشرية؟ ليس هناك شك في وجود بعض الأشخاص الذين فتحت لهم المؤثرات الوراثية أو مؤثرات ما قبل الولادة، البابَ المؤدي إلى الشذوذ الجنسي، ومن المحتمل أن تستدرج هذه المؤثرات الطفل لأن يرى نفسه شاذًّا جنسيًّا[25].

إن الإجابة عن تساؤل الحتمية- حسب الدكتور النفساني "جيفرى ساتينوفر"- هي: لا، ليس هناك شخص "يولد شاذًّا جنسيًّا"؛ فليس هناك دليل يظهر أن الشذوذ الجنسي لدى الرجال يرجع إلى عوامل هرمونية غير قابلة للتغير وقعت قبل الولادة أو لعوامل وراثية؛ لمجرد أن الطفل لديه اهتمامات جنسية شاذة.

وفى الحقيقة، ليس هناك بحث يدعي أن الشذوذ الجنسي تحكمه العوامل البيولوجية، ولكن وسائل الإعلام وباحثين معينين يفعلون ذلك عندما يتحدثون للعامة

بطريقة انتقائية مشوهة للحقائق[26].

ومع ذلك، وبينما كنا نكتب هذا الكتاب، كانت الصحفية "آن لاندرز" قد كتبت عمودًا آخر تؤيد فيه هذه الخرافة القديمة، فكانت تقول لملايين من قرائها: "إذا كانت ابنتك سحاقية، فقد ولدت لتنجذب إلى أفراد من جنسها نفسه" [27]، فما زال هناك الكثير من العمل الذي يجب القيام به لتثقيف النخب التي تتولى صناعة الرأي في المجتمع!

في الفصل التالي، سنلقي نظرة متمعنة على دور الأسرة، وآليات ما قبل الولادة، وعلى عدد من الخطوات التي يمكن اتخاذها لمساعدة طفلك على التغلب على ما يشعر به من ارتباك في الهوية الجنسية.

الفصل الثالث: هل ولد هكذا؟

4
كله من الأسرة

«علاقتي بأمي كانت وثيقة جدا، وكنت بعيداً إلى حد ما عن أبي..

وفي سنوات المراهقة، كانت الموجهات مع أبي والانحياز التام لأمي في المشاجرات العائلية..

وأظن- بهذه الطريقة- أنني سلكت الطريق المثالي لتنمية الشذوذ الجنسي».

أندرو سوليفان

مؤلف وناشط مثلي الجنس

كان "داني" في السادسة من عمره عندما اشترت له أمه "جيني" مريلة للطبخ، وداعبته قائلة بأنه سيكون "الطاهي الصغير" . كانت "جيني" على مدار سنوات مضت تشاهد بقلق وانزعاج زوجها وابنيها الآخرين الأكبر سناً وهم يسخرون من "داني" لعدم مقدرته على ممارسة الرياضة، وبالأحرى كانت سخريتهم منه تطال كل ما يمكنك أن تتخيله، ولشعورها بمدى الألم والضيق الذي يسببه هذا الاستهزاء والتهكم بطفلها الصغير قررت الأم أنه بدلاً من التحدث مع زوجها "ستيف" مرة أخرى، فإنها ستقوم بالمبادرة وستحاول مساعدة الصبي بنفسها.

كان "دانى" طفلاً نحيلاً ضعيف البنية، وكان يعاني ضعف النظر وانعدام التوافق الحركي، والأسوأ من ذلك، كان عاطفيًّا سهل الاستثارة، تصفه والدته: "إنه يشعر بالأشياء بعمق شديد"، ومن وجهة نظرها، فإن أباه بجلافته وإخوانه الذكور باندفاعهم وعدوانيتهم هم أساس مشكلته، لماذا لا يمكنهم أن يكونوا لطفاء فحسب بدلاً من التحرش والسخرية منه؟

إلى جانب ذلك، إذا عرفت الحقيقة، فالأم كانت تستمتع بصحبة ابنها الأصغر، وكانت تشعر- في كثير من الأحيان- بالعجز والضعف في منزل يكتظ بالذكور،

الذين هم في حالة تأهب مستمرة للاندفاع خارج المنزل من أجل لعب الكرة معًا أو للالتقاء بالأصدقاء، بينما كان "داني" لطيفا هادئًا حسن المعشر، وكان يحب البقاء في المنزل والاستمتاع بصحبتها، كانا يمضيان الساعات الطويلة في تجاذب أطراف الحديث عن أحلامهما، وآلامهما، وآمالهما، أو عن الكتب التي قرآها، وكانت "جينى" تردد دائما: "إن "دانى" هو الفرد الوحيد في العائلة الذي يفهمني".

وبمرور الوقت، وبلوغه مرحلة المراهقة، وتحوله إلى مريض في عيادتي، أصبح يعاني الانجذاب إلى الذكور في المدرسة، واكتشف أن البنات لا يثرن اهتمامه على الإطلاق، إلا كأصدقاء وفي أضيق الحدود، واعترف لي بأن عالم الرجال يثير انبهاره ويسحره، ولكنه بقي خارجه فهو لم يشعر قط بأنه ينتمي إليه، وبدلاً من قضاء الوقت مع نظرائه الذكور، اكتفى "داني" بمراقبتهم من بعيد، وتخيل كيف سيبدو الأمر لو أصبح أبرز لاعب في فريق البيسبول بالمدرسة صديقه المفضل.

لاحقًا، أدرك الوالدان أن ابنهما يعاني ارتباكًا في الهوية الجنسية، ولكنهما كانا لا يعرفان ماذا يفعلان.

كيف يتصرف الآباء والأمهات:

رغم دورهم الجوهري والأساسي في تشكيل هوية أبنائهم وبناتهم الجنسية، فإن الكثير من الآباء والأمهات- وهو ما يدعو للعجب!- غير متنبهين للطريقة التي يتعاملون بها مع أولادهم مرهفي الحس، ولا للصعوبات والمعاناة التي يلحقونها بهم؛ فتجدهم يرددون: "إن ابننا يتصرف أحيانًا مثل البنات، والصبية الآخرون يسخرون منه ويتجنبونه، هل هذه مجرد مرحلة عابرة؟". أو يتسألون: "ابنتنا ترتدي ملابس الأولاد، وليست لديها صديقات مقربات، هل يجب علينا أن نتجاهل هذا الأمر؟ هل يعني هذا السلوك أنها سوف تتحول إلى سحاقية؟ ماذا يجب علينا أن نفعل؟".

وعندما يصطدم الآباء والأمهات بميول ما قبل الشذوذ لدى أطفالهم، تجدهم يصابون بالدهشة والارتباك، الغالبية الساحقة من الذين يأتون لعيادتي بحثًا عن الاستشارة والعلاج هم آباء وأمهات لأولاد يعانون الأنوثة الطاغية (سوف نتحدث بمزيد من التفصيل عن البنات في الفصل السابع)، كانوا على علم بالمشكلة لفترة طويلة من الوقت- أحيانًا تصل إلى سنوات- قبل أن يقرروا طلب المساعدة.

عندما يصطدم الآباء والأمهات بالميول الأنثوية لابنهم، فإن معظم استجاباتهم تتخذ ثلاثة أشكال متوقعة:

1- الإنكار: ربما يقولون: "إنها مجرد مرحلة عابرة؛ وسوف يكبر ويتخطاها"، أو يزعمون: "أن الأمر ليس له أهمية، هو- فقط- يحاول لفت الأنظار إليه بارتداء ملابس البنات الصغيرات؛ ليبدو أكثر وسامة وجمالاً".

بالطبع ينبع هذا الإنكار- جزئيًّا- من حقيقة أن ثقافتنا جعلت من الصعب على الوالدين أن يرسما الحدود بين ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي فيما يتعلق بنمو الهوية الجنسية للطفل، وجعلت من الصعب أيضًا أن يميزا بين ما يستدعي القلق وما لا يستدعيه، وما يزيد من حجم المشكلة (كما سنرى بعد قليل) هو أن الكثير من الآباء والأمهات- بسبب سلبيتهم- يعززون بدون قصد سلوكيات ابنهم الخاطئة، وهذا يقود إلى مزيد من الإنكار.

والسؤال هنا هو: هل يتصرف الصبي الصغير والسوي أحيانًا مثل بنت صغيرة؟ الإجابة هي أن قدرًا قليلاً من اللعب المغاير للجنس يعتبر شيئًا مقبولاً، ومع ذلك، إذا لم يقلع عن هذا السلوك بسرعة، فالأب بحاجة لأن يلقي نظرة ليس على سلوك الابن فحسب، بل على سلوكه هو أيضًا.

2- الحيرة: يردد الآباء في كثير من الأحيان: "أن هذا جزء من الثقافة؛ فهناك أسباب ثقافية لهذا الارتباك".

جاءتني إحدى الأمهات وكانت ذات مستوى عال من الثقافة؛ لاستشارتى بشأن ابنها "شون"، وكانت سلوكيات هذا الصبي ذي الميول الأنثوية تتضمن لفّ نفسه في منشفة وردية، وقضاء ساعات في استخدام أدوات التجميل، وعندما تحدثت مع معلمه عن قلقها من سلوكه؛ طلب منها ألا تقلق وأن مثل هذه التصرفات هي أمر صحي؛ فهو حسب وصفه يتلمس الجانب الأنثوي في شخصيته".

ولكن "شون" استمر في رسم صور الأميرات الأسطوريات: أميرة الثلج، والشخصيات الأنثوية الشهيرة الأخرى، لقد كان يبدي شغفًا كبيرًا بها، وكان يمضي الساعات الطويلة بمفرده وهو يرسم ويصمم الملابس لمجموعة الدمى الخاصة بأخته.

بعد أن زاد شعورها بالقلق ذهبت لمستشار المدرسة الذي بدوره حذرها من التدخل مؤكدا لها أنه لا يرى أي مشكلة على الإطلاق، وسألها هل تريدين لابنك أن يصبح شخصية ذكورية نمطية؟ وقالت لنفسها في ذلك الوقت: بالطبع، لا. ولكن إحساسها كأم أخبرها بأن هناك شيئًا ما خاطئًا.

بعد ذلك ذهبت الأم إلى الاختصاصي النفسي في المدرسة، الذي كرر ما قاله المعلم والمستشار لها: "لا تقلقي حيال هذا الموضوع، ثقي تمامًا بأن كل شيء على ما يرام".

وفي النهاية، سمعت هذه الأم عني وجاءت لمقابلتي، وبعد أن استمعت إلى قصتها، قلت: "إن المؤشرات واضحة جدًّا، وإذا لم نقم بعمل تدخلات حاسمة، فلن يحصل ابنك على هوية جنسية طبيعية، وربما يصبح شاذًّا جنسيًّا".

3- التجاهل: إن الكثير من الآباء الذين يلجؤون في النهاية لاستشارة متخصص نفسي قد يمر عليهم وقت وهم يعيشون في قلق يراقبون أبناءهم شهورًا، وقد يصل الأمر بالكثير منهم إلى سنوات، ولا يفعلون شيئًا حيال ذلك الأمر، إنهم فقط يؤجلون التعامل مع الموقف ويقولون: "لقد اعتقدنا أنها كانت وسيلة لجذب الانتباه، وأنه يجب علينا تجاهلها".

وعلى خلاف ذلك، اكتشف الدكتور "ريتشارد جرين" أن الآباء الذين يلاحظون بالفعل سلوك الأبناء، ولكنهم لا يتدخلون أو يعارضونه، فإن هذا يعني ضمنيًّا أن الأبناء قد حصلوا على موافقتهم [1]، وفي الحقيقة، قد يتساءل بعض الآباء عما إذا كانت محاولاتهم للتدخل ستؤدي إلى إعاقة شيء يعتبر طبيعيًّا لأولادهم بالذات، وعما إذا كان هذا يعني أنهم يتدخلون في تشكيل شخصية أبنائهم وينتهكون خصوصياتهم.

ربما يسبب الطفل المضطرب الرعب لوالديه أو يثير مشاعر الشفقة لديهم، إحدى الأمهات على سبيل المثال كانت تغمرها السعادة عندما ترى ابنها يرتدي الملابس التنكرية، و"يمثل أدوارًا مغايرة للجنس أثناء اللعب"، وتوضح قائلة: "لأريد جرح مشاعره، لقد بدا مصدومًا عندما طلبت منه في إحدى المرات التخلي عن دمى "باربي"، إنني بالتأكيد لا أستطيع القيام بذلك".

بعض الأولاد أكثر أنوثة من الفتيات:

إن الصبي الذي يمر بمرحلة ما قبل الشذوذ، تظهر عليه مؤشرات تحذيرية توحي بعدم الانسجام في هويته الجنسية وعدم الارتياح مع أقرانه الذكور، وبأنه غير منتمٍ، ولكن عدم الانسجام لدى الصبية الذين يعانون اضطرابًا في الهوية الجنسية يأخذ أشكالاً أكثر تطرفًا، فيأخذ أحيانًا منحًى كريكاتوريا مبالغًا فيه، حيث يقوم بعضهم بسلوكيات أكثر أنوثة من الفتيات أنفسهن، فيبدون إعجابًا شديدًا بالشخصيات الأنثوية بصورة تزيد على كونها مجرد انجذاب طبيعي أو مبالغة أثناء اللعب.

وقد عللت إحدى الأمهات سلوك ابنها الذي يعاني اضطرابَ الهوية الجنسية قائلة: "إن الأمر مخيف! فالأشياء الخاصة بالفتيات استحوذت على تفكيره تمامًا، وكأنه تحت تأثير تنويم مغناطيسي"، فمن الممكن أن يشعر بعض الصبية بالبهجة ويتغير حالهم عند مشاهدة شخصيات أنثوية على شاشة التلفاز، أو من الممكن أن يجلسوا بلا حراك أمام أفلام مثل الحورية الصغيرة أو بوكاهانتس، أخبرتني أم أخرى أنها عندما تقوم بارتداء ملابسها، يجلس ابنها على السرير وينظر إليها في إعجاب ويقول: "أمي، أنت في غاية الجمال!" وكان هذا يصيبني بالقشعريرة.

ولقد رأيت هذا الإعجاب والافتتان الشديد نفسه يتجه أيضًا إلى شخصيات كرتونية بلا هوية جنسية محددة، فقد أخبرني أحد الآباء بأن ابنه الشاذ الذي يرفض التفكير في التغيير، كان مفتونًا بشخصية المهرج "بوزو"، واعتقد الوالدان في ذلك الوقت أنه أمر لطيف، حتى لو بدا غريبًا بعض الشيء، ولكن ظل هذا الأمر مستحوذًا على تفكير الابن حتى بلغ الثانية عشرة من العمر، والحقيقة أن هذه الاهتمامات التي يبديها الصبية هي محاولات للهروب من النفس نحو عالم خيالي، حيث يتصورون أنفسهم شيئًا آخر يختلف عن الذكور، وحيث تتلاشى المشكلات حول الهوية الجنسية.

الهوية الجنسية أكثر من مجرد بناء:

إن أول خطوة في التدخل هي تثقيف الأبوين أنفسهم، وهذا يعني في كثير من الأحيان تصحيح ما لديهم من معلومات خاطئة؛ فالهوية الجنسية والمعاني المرتبطة بالذكورة والأنوثة ليست مجرد بناء اجتماعي اعتباطي، بل هي طريقة أساسية

وحيوية تسهل اندماجنا في المجتمع وتمنحنا القدرة على التعبير عن أنفسنا داخل العالم الحقيقي.

ويرى اختصاصيو العلاج الإصلاحي أن وجود هوية جنسية سليمة هو الطريق الرئيسي الذي ينقلنا إلى مرحلة النضج، وعلى النقيض من هذا، فإن الخاصية البارزة لحركة الشذوذ هي الرغبة في زعزعة تصنيفات الجنس وهوية الفرد الجنسية.

في إحدى ورش العمل الحرة في جامعة "إيموري" الأمريكية، قام طبيب نفسي للأطفال بتوجيه النصح إلى الآباء والأمهات بأنهم يجب أن يساعدوا أطفالهم على كسر الصور النمطية الجامدة المرتبطة بالهوية الجنسية، وأنه إذا سألهم الأطفال عما إذا كان شخصٌ ما ذكرًا أو أنثى، يجب عليهم أن يردوا بأنه لا يمكنهم معرفة ذلك إلا إذا تسنى لهم النظر إلى ما تحت ملابسه.[2]

ونحن نرى أن ارتباك الهوية الجنسية- الذي يبرز واضحًا في افتتان عالم الشاذين بوسائل الترفيه المرتبطة بارتداء الملابس المغايرة للجنس- في فكرة أن الرجل الذي يشعر بأنه امرأة يجب إلزامه بذلك من خلال مخاطبته بضمير المؤنث "هي"، وفي فكرة أن الرجال الشاذين يمكنهم أداء دور "الأم" مثلما تفعل النساء، وفي الرغبة في تطهير اللغة من المصطلحات المستخدمة في تحديد الهوية الجنسية.

كما أننا نرى مثل هذا التوجه في عقيدة أنصار الشذوذ؛ فالقس "ميل وايت"- قسيس كنيسة ضخمة للشاذين وزعيم جماعة "القوة الروحية"، وهي مجموعة تعترض على التقاليد الدينية دفاعًا عن زواج الشاذين- يشير بصورة متكررة إلى الرب بالضمير "هي"!

ويؤدي اندفاع وسائل الإعلام في نشر وترويج السلوكيات الشاذة بالآباء والأمهات إلى الشك في تصوراتهم البدهية حول الأمور التي تشكل الهوية الجنسية السليمة.

بالطبع، لا بأس في أن تطلب الأم من ابنها أن يساعدها في أعمال المنزل، ولكن يجب أن ندرك أنه عندما يتصرف الولد أو يتظاهر بأنه أم أو بنت صغيرة مساعدة، فهذا أمر مختلف، ويجب رؤيته دليلاً واضحًا على وجود مشكلة في الهوية

الجنسية.

ويجب على الاختصاصيين المعالجين- عند مد يد العون إلى الآباء والأمهات القلقين- ألا يكتفوا بذكر المؤشرات التي تظهر في فترة الطفولة والتي تدل على إمكانية حدوث الشذوذ الجنسي في المستقبل فقط، بل يجب عليهم أيضًا إظهار الاحترام ومراعاة مشاعر الآباء والأمهات الذين يرغبون في مضاعفة فرص نمو أطفالهم بصورة طبيعية، وإذا اتفقت وجهة نظر الوالدين مع الاختصاصي المعالج حيال ما هو صحي وطبيعي، فسيمكنهم إنشاء تحالف علاجي ناجح جدير بالثقة، ولكن عندما يعتقد الوالدان أن جنس الفرد هو مجرد بناء اجتماعي، أقول لهم: سوف تحصلون على خدمة أفضل من خلال طلب المشورة من اختصاصي آخر؛ اختصاصي يشاطرهم وجهة النظر.

المشكلات الأسرية وصبي ما قبل الشذوذ:

في كثير من الأحيان، نجد أن الأزواج الذين يذهبون إلى اختصاصي العلاج بحثًا عن وسيلة لمساعدة طفلهم، يعانون هم أنفسهم من عدم التوافق في حياتهم الزوجية؛ فقد تشتكي الزوجة قائلة: "إن زوجي يصعب التعامل معه، إنه لا يتواصل عاطفيًّا معي أو مع الأطفال"، وقد يرد الزوج قائلاً: "الحقيقة أنها مهووسة بحب السيطرة! ولو تتراجع قليلاً، لأمكنني المشاركة بشكل أكثر وأفضل".

وسوف ترد الزوجة بسرعة: "وكيف تتوقع مني عدم التدخل إذا كنت سلبيًّا لا تفعل شيئًا البتة! أنت لا تفعل شيئًا، وهذا ما يدفعني إلى أن آخذ زمام المبادرة".

دومًا، الزواج السيئ يسهم في اضطراب الابن؛ فعندما تنقل الأم لابنها صورة سيئة عن عالم الذكور: "إن الرجال لا قيمة لهم، من الذي يحتاج إليهم؟ لا يمكن الوثوق بهم؟"؛ فلابد أن يؤثر ذلك بصورة سلبية على تصور الابن لمفهوم الذكورة، وفي العائلات التي يوجد بها طفل مصاب باضطراب الهوية الجنسية، ربما لم تبد الأم أي تقدير أو احترام للذكورة التي تتمثل تحديدًا في ذكورة زوجها.

لاحظ الراحل "إيرفينج بيبر"- وهو باحث شهير- أن بعض الصبية يصبحون ضحايا للعلاقات الزوجية التعيسة بين الوالدين؛ ففي أحد سيناريوهات المعارك التي تحدث بين الأم والأب، يلجأ الأب إلى تجاهل ابنهما عاطفيًّا كوسيلة للانتقام من الأم.[3]

وعند قراءة الأدب الذي يكتبه الرجال الشواذ والنساء السحاقيات، كثيرًا ما نرى التعبير عن التحرر من وهم أن الزواج مؤسسة اجتماعية، والسخرية من إمكانية وجود ذكر طيب يتصرف كزعيم للعائلة، ويشجع الرجال الشواذ بحماس منقطع النظير الحركات النسائية المتطرفة على الترويج لأفكارها المتطرفة، وبالأخص لفكرتها الأساسية وهي أنه لا يمكن الوثوق بالرجال، ولا يجب أن يمنحوا السلطة، وهذا الأمر قد يبدو منطقيًّا إذا افترضنا أنه في كثير من الحالات، النظام الأسري والأب خذلهم على الصعيد الشخصي.

الأسرة التقليدية هل هي غير جيدة للمجتمع؟

يسخر أحد قادة حركة الشذوذ البارزين من نظام الأسرة التقليدي، وهو بالمناسبة الموضوع الأكثر شيوعًا في أدب الشذوذ، وتكشف كلماته عن سخريته من الآباء وخيبة الأمل التي يشعر بها تجاه الأسرة التقليدية:

«ليس من المستغرب أن تظهر الإحصاءات الخاصة بحالة الأسر التقليدية أن دُور حضانة الأطفال أصبحت توفر رعاية للأطفال تفوق ما يقدمه المنزل.

وعندما أعلن "دان كويل" عن الحاجة إلى وجود الآباء في كل منزل، فقد تجاهل نتائج أبحاث المجلس القومي للوقاية من اغتصاب الأطفال، والتي تشير إلى أن معظم الاعتداءات الجنسية التي تحدث في المنزل يقترفها الآباء أو أزواج الأمهات. . لقد آن الأوان لكي نرفض الحنين إلى التجمعات الأسرية التقليدية، ولكي نبحث عن طرق جديدة لتحقيق الشعور بالارتياح والرضا الذي كانت تجلبه هذه الأسر فيما مضى. . [يجب أن نصنع] أنواعًا جديدة من العلاقات، التي لا تحاكي أو تتشبه بالطقوس القديمة، والتي من شأنها فتح الباب أمام تحقيق قدر أكبر من السعادة للفرد».

يطلب هذا الكاتب- مثل معظم نشطاء الشذوذ- وضع نهاية للاحتمالات القمعية لما يسمونه "نظام الهوية الجنسية"، ويتطلع إلى عالم جديد يتصف بالجرأة والشجاعة تشرع فيه الأبواب أمام الاتصالات الجنسية خارج إطار الزواج، وحيث يجد الناس السعادة في حياة لا تتمركز حول الأبوة والأمومة و"إعادة إنتاج الخصائص الوراثية للمرء"، وهو ينظر باحتقار إلى القيم الدينية التي تدعو إلى تكوين الأسرة الطبيعية، مفضلاً عليها إطلاق الغرائز الشهوانية وتحريرها من كل

القيود، وهو يقول: "فقط أصحاب الفكر الضيق، من المتعصبين ومن على شاكلتهم، هم الذين يصرون على أن الزواج هو التعبير الطاهر والعفيف عن الحب الذي يحقق الإشباع الحقيقي".[4]

وإزاء هذا الإصرار من نشطاء الشذوذ على الحط من قيمة الآباء والأسر التقليدية، نسمع هذه الكلمات الحكيمة للطبيب النفسي "ريتشارد فيتسجبونز":

«عندما ينمو الأولاد بلا أب، يصبح هناك اشتياق هائل للاحتضان الذكوري؛ لأنهم لم يحصلوا عليه في المنزل، إن هواتف الخطوط الساخنة للشاذين تتلقى الكثير من المكالمات من رجال يشعرون بالحاجة لأن يحتضنهم رجل آخر.

وبعض هؤلاء الرجال متزوجون، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنهم شواذ، أعتقد بأننا سنرى المزيد والمزيد من تجارب الشذوذ من قبل الشباب، سواء كانوا رجالاً شاذين أو طبيعيين، بحثًا عن الحب الأبوي، الذي لم يحصلوا عليه في مراحل نموهم».[5]

نظرة عن كثب للأم:

في ستينيات القرن العشرين، عندما كان مريضي "داني" يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، لم يكن سعيدًا بالمدرسة لفترة طويلة حسبما يتذكر؛ ولذا فقد كان يحاول يائسًا أن يكون هادئ الأعصاب، وفي أحد أيام السبت، ذهب لصالون الحلاقة، وطلب من الحلاق تخفيف الشعر من الخلف وتركه طويلاً من الأمام، في قصة مختلفة تمامًا عما اعتاده.

وفيما يبدو، كان "دان" في تلك اللحظات يتخيل نفسه "جيمس دين" أو "ألفيس بريسلي"، ومع ذلك عندما وصل إلى المنزل، أصيبت أمه بالدهشة، فعندما وقع نظرها عليه قالت: "يا إلهي! داني، إن هذا يثير الاشمئزاز! أنت تثير الاشمئزاز! من تظن نفسك؟".

اقتادته بعد ذلك على الفور لصالون الحلاقة، ودفعته أمام جمع من الرجال، وقالت للحلاق: "هذب الشعر من الخلف والأمام واجعله متناسقًا، أنا لا أريد أن يبدو ابني مثل المجرمين!".

غمز الحلاق للرجال الموجودين في المحل، وغير من قصة شعر "داني"، وكانت

عيناه تلمعان وهو يحاول إخفاء ابتسامته، أما بقية الرجال فبعضهم اكتفى بابتسامة هازئة، وبعضهم انفجر ضاحكًا غير عابئ بالأم وابنها، فيما شعر "داني" المسكين بالبرودة تسري بأوصاله كأنه ميت، ورفض أن يعود إلى الحلاق نفسه مرة أخرى، وظلت حادثة إحراجه أمام الذكور الآخرين عالقة في ذاكرته، إلى أن رواها لي- لأنني أقوم بعلاجه- كواحدة من أسوأ تجارب الإذلال في حياته، ولقد عمقت هذه الحادثة من إحساسه بالغربة عن عالم الذكور.

من الممكن أن تبالغ الأمهات في التدخل في حياة أبنائهن بشكل مفرط دون وعي أو إدراك، وفي بعض الحالات، ربما ينبع هذا السلوك من شعور الأم بحاجة ابنها الملحة إلى الرعاية من أمراض معينة في مرحلة الطفولة، وقد أظهرت عدد من الدراسات أن هناك ارتباطًا وثيقًا يزيد على المعدل المتوسط بين الشذوذ الجنسي لدى البالغين والمشكلات الطبية في مرحلة الطفولة المبكرة، ولقد أخبرني كثير من مرضاي بأنهم كانوا يعانون مرض الربو أو مرضًا بالقلب أو السمنة، أو ضعف النظر في مرحلة الطفولة، مما كان يتسبب في منعهم من اللعب مع الصبية الآخرين؛ كل هذه الحالات كانت تهيئ الصبي ليرى نفسه مختلفًا وأقل من الصبية الآخرين.

ولقد رأينا من خلال تجربتنا أن أمهات الرجال الشواذ جريئات في التعبير عن أنفسهن، وإظهار التأثر، ويتميزن بسهولة التواصل العاطفي، ومنهمكات في حياة الصبي، ولا يترددن في التدخل في كل شاردة وواردة، ربما تكون مشكلة الأم في أنها تبالغ في رعاية ابنها؛ ولا تكون هناك حدود واضحة بينها وبينه.

وتفرط الأمهات- في بعض الأحيان- في رعاية الأبناء من أجل إشباع حاجاتهن الخاصة؛ لأنهن لم يجدن العلاقة العاطفية الحميمة في حياتهن الزوجية.

لدى الأمهات مقدرة عالية، أكثر من الأباء، على ملاحظة واكتشاف الميول الأنثوية لدى الصبي، ولكنهن يؤجلن التدخل خشية إثارة غضب الأبناء، ومع ذلك، فإن معظم الأزواج الذين يلجؤون إلي طلب المساعدة المتخصصة تكون العلاقات بينهم أقوى والارتباط العاطفي أفضل من نظرائهم الذين لا يلجؤون إلى طلب المساعدة.

العلاقة الثلاثية الشهيرة:

قد تشعر الأم بالألم عندما يخبرها المستشار بأنها "متسلطة وتبالغ في التدخل"، وكذلك الحال بالنسبة للأب عندما يقال له: إنك "أب مبتعد"، عندما تقرأ الأوصاف التي سنسردها لشخصيات الآباء والأمهات، يجب عليك أن تتذكر أولاً: أننا جميعًا نرتكب الأخطاء، ثانيًا: ربما يكون لصفاتنا الشخصية القاصرة تأثير سلبي محدود على أحد الأطفال، ولكن من الممكن أن تسبب هذه الصفات ضررًا بالغًا لطفل آخر، ثالثًا: إن طريقة ارتباطنا بأطفالنا تعكس بشكل كبير طبيعة ونمط العلاقة التي كانت تربطنا بوالدينا، الأمر المهم الذي يجب تذكره قبل الشروع في قراءة تحليل شخصيات الآباء والأمهات، هو أن المقصود هنا ليس مجرد توجيه اللوم وإلقاء المسؤولية، بل إتاحة الفرصة للآباء والأمهات لتعرُّفِ أنفسهم بشكل أفضل وتحديد أي نوع من الآباء والأمهات هم؛ لذلك يجب قراءتها بعقول وقلوب مفتوحة، وتأكد أننا نعلم بأن الغالبية العظمى من الآباء والأمهات يتسمون بحسن النوايا وبالحب، وبأنهم يريدون الأفضل لأطفالهم:

اكتشف الباحثون- بشكل متكرر- العلاقة الثلاثية الشهيرة في الخلفية الأسرية للرجال الشاذين [6]، في هذا الموقف: تكون علاقة الأم- في كثير من الأحيان- سيئة أو قاصرة بزوجها؛ ولذلك فإنها تحوِّل احتياجاتها العاطفية إلى ابنها، وعادة ما يكون الأب سيئًا في التواصل، ومنعزلاً، وكثيرًا ما يكون متذمرا أيضًا. وهكذا، نجد في هذا النمط الثلاثي للأسرة: أب منعزل، وأم مبالغة في التدخل، وصبي ذو طبيعة حساسة ومشاعر مرهفة، وسوف يحاول أن يملأ الفراغ الذي ينجم عن تقصير الأب.

وبينما تَقْوى العلاقة العاطفية بين الأم والابن، يزداد حزنها وأساها لحاله، فتقول: "أنا ملاذه الآمن الوحيد، الجميع يسخر منه، فأقرانه ينبذونه؛ والأب يتصرف كأنه نسي أن له ولد؛ وهكذا فأنا الوحيدة التي تفهمه وتقبله كما هو تمامًا".

والكلمات الأخيرة هي القاتلة: "كما هو"، كأنها تريد القول: مهما تكن هويته الجنسية، أي من الممكن أن تتضمن خيالاته الشاذة وخوفه من الذكور الآخرين، ورفضه لجسمه، وشعوره بعدم التوافق مع طبيعته الذكورية.

في هذه اللحظة، يكون التثقيف والتوعية ضروريًا؛ يجب أن تفهم الأمهات أنه في إمكانهن الحد من اضطراب الهوية الجنسية لدى أبنائهن بدون أن يرفضن

الأبناء أنفسهم، وفي الحقيقة، إنها ليست قضية رفض على الإطلاق، بل تتعلق بالتوجيه والإرشاد من البالغين لتجهيز الصبي للعيش في عالم يشترط هوية جنسية واضحة- العالم الذي حددت له فيه فطرته هويته- وإلى رفض المشاركة في تشويه رجولته وذكورته.

وعلى الجانب الآخر، هناك الكثير من الأمهات اللاتي يأتين إلى عيادتي للاستشارة ويظهرن قلقًا بالغًا نحو تقدير أبنائهن السيئ لجنسهم، أو نحو أنوثة هؤلاء الأبناء، ويبدين رغبة قوية في مساعدة أبنائهن على الوصول لهوية جنسية ناضجة مهما كلفهن الأمر، إنهن يشعرن بحدسهن بالمشكلة التي يقع فيها أبناؤهن، ويصبن بالحيرة والارتباك حيال ما يجب القيام به لمساعدتهم، وكيفية إشراك الزوج في هذه العملية، وهؤلاء الأمهات يعربن عن امتنانهن وشكرهن لكل ما أستطيع أن أقدمه لهن من توجيه وإرشاد.

وهناك قلة من الأمهات (خاصة الأمهات الأنانيات) اللاتي ينشئن علاقة قوية ذات حدود ضبابية لدرجة لا يستطيع معها الصبي إبراز شخصيته الفردية، ولن تسمح مثل هؤلاء الأمهات- اللاتي يصنعن مثل هذه العلاقة الحميمة والتواكلية- لأي شيء بأن يعترض طريق هذه الرابطة أو يمنع استمرارها، وكلما طالت مدة هذه العلاقة القوية زادت مظاهر الأنوثة والتشبه بالفتيات لدى الصبي، وبالطبع، فإن الأم التي تشعر بالقلق من سلوك ابنها الطبيعي المشاكس- والتي تشجعه على السلبية والاعتماد عليها (رغم أن حاجة الصبي الحقيقية: هي أن يكون مستقلاً)- هي في الواقع تتصرف بأنانية؛ لأنها تقدم احتياجاتها على احتياجات ابنها.

يصف مؤلفو كتاب "شخص أحبه شاذ"، هذا النمط الخاص بالأمومة، فيقولون:

«في بعض الأحيان، تكون العلاقة قوية جدًّا لدرجة أنها تصبح غير صحية، وتقترب كثيرًا من حدود "الزنا العاطفي"، ويصبح الابن هو الصديقة الحميمة لأمه، فتجدها تتحدث معه عن مشكلاتها الزوجية، بدلاً من البحث عن حل لها مع زوجها، وتبحث عن ابنها ليقدم لها الدعم العاطفي والراحة عندما تسوء الأمور.

وفي بعض الحالات، تتجاوز سلوكيات الأم الخطوط الحمراء وتصل إلى درجة شهوانية، الأمهات العازبات والنساء المرتبطات بأزواج يتسمون بالتعسف أو البرود العاطفي، يكنّ عرضة للاعتماد بطريقة مبالغ فيها على أبنائهن.[7]

وفـي بـعض الـحالات الـنادرة، تـريـد أمـهات الـصبية الـشواذ جـنسيًّا أن يـصبحن رجـالاً، ويـبدأن فـي الـتنافـس مـع أولادهـن؛ مـما يـشوه مـفهوم الـذكـورة لـدى هـؤلاء الـصبية»[8].

وعـمومًـا، هـناك أبـحاث عـلمية مـهمة تظهـر أن عـائـلات الـصبية الـذيـن يـعانـون اضـطراب فـي الـهويـة الـجنسية، تـميل إلـى الـحياة الـفوضـويـة، وقـد كـشفت إحـدى الدراسـات، التي أجريت على 610 من هؤلاء الصبية، عن وجود مستوى عالٍ من الخلافات الأسرية [9]، ولاحظ الكثير من الأطباء وجود نسبة أعلى من حالات الطلاق، والانفصال، والتعاسة الزوجية في عائلات مرضاهم الشاذين [10]، ولجأ الكثير من آباء هؤلاء الصبية وأمهاتهم لطلب الاستشارة الزوجية قبل أن تظهر حاجة أطفالهم إلى الرعاية الطبية بسبب اضطراب الهوية الجنسية لديهم.[11]

وقد أشار عالم النفس "جريجوري ديكسون" إلى وجود تناقضات في العلاقة القويـة بين الأم والابن؛ حيث يشعر الصبي المضطرب جنسيًّا بحاجته المستمرة إلى رعاية الأمومة، ولكن لأن علاقته بأمه تمثل حاجزاً بينه وبين عالم الذكور، فإنه يشعر بالغضب والتقدير في آن واحد تجاه أمه، وهو يشعر أيضًا بأن أمه تفهمه بطريقة خاطئة، وأنها- في الوقت نفسه- أفضل من يفهمه، إن الأم تعرف ابنها جيدًا في مستوى واحد، ولكن هناك مستوى آخر لا يمكنها الوصول إليه أبدًا، ولا تعترف بأنه جزء مكمل لتكوين الابن كذكر [12]، وينتج من هذا صراع متناقض بين الحب والكره، وبين الاقتراب والابتعاد.

لِمَ يُرفض هذا البحث عن تأثير الأسرة؟

رغم ما تسمعه من نشطاء الشذوذ، ليست هناك منشورات علمية تبطل النظريات التقليدية التي تصف طريقة تطور الشذوذ الجنسي، وفي الحقيقة، لقد ظهر كتاب في عام 1996 بعنوان "إعادة تقييم فرويد علميًّا.. فحص النظريات والعلاج"، يقيّم نظريات المحلل النفسي الشهير "فرويد" في ضوء المعلومات المتاحة الآن من خلال الأبحاث الحديثة، وجد المؤلفون نتائج متضاربة تتعلق بالعلاقة بالأم، وكانت نتائج البحث الخاصة بالآباء واضحة:

- أن التقارير التي تتعلق بنظرة الشواذ الذكور إلى آبائهم تدعم نظرية "فرويد" بصورة قوية، فمع بعض الاستثناءات القليلة، يعلن الذكر الشاذ أن الأب كان له

تأثير سلبي في حياته.

- لا توجد أي دراسة علمية مقننة نستطيع من خلالها أن نجد الذكور الشواذ وهم يشيرون إلى آبائهم بطريقة إيجابية أو بمحبة، وعلى خلاف ذلك، ينظر الشواذ إلى آبائهم باعتبارهم خصومًا أوأعداء لهم؛ فنجد الابن وبسهولة متناهية يقوم بأداء دور "أوديب" الذي يتسم بالغرابة والقوة والتنافس، وهو الدور الذي وصفه "فرويد".[13]

ومن المهم أن نؤكد هنا أننا سنقوم باستخدام مثال الأم المبالِغة في التدخل بصورة متكررة في هذا الكتاب نموذجًا للأم التي لديها صبي يعاني ارتباك الهوية الجنسية، ولأن الأم التي تبالغ في التدخل غالبًا ما تكون الشخص الذي يحضر الطفل للاستشارة- وهي التي تعمل بقوة على إحداث التغيير- فقد استخدمنا هذا النوع من الأمهات مثالاً لتوضيح سيناريوهات الحالات، وفي الحقيقة، فإن الأم التي تتدخل بدافع من الود الخالص تقوم على الأرجح بدون قصد بتشجيع عدم الانسجام الجنسي لابنها، ولكن لا تقوم كل الأمهات بالتدخل في حياة أبنائهن بطريقة مبالغ فيها، وفي الواقع: من بين المرضى الشواذ نسبة صغيرة لم تكن الأمهات فقط يتدخلن بالفعل.

وهذه الملاحظات تتوافق مع النتائج الواردة في كتاب "إعادة تقييم فرويد علميًّا" الذي قام بتحليل الدراسات المتوفرة ووجد أن هناك بعض التضارب في نتائج الأبحاث المتعلقة بالأمهات، ولكن- كما اتفق الباحثون- كان هناك عامل واحد ثابت فعليًّا وهو سوء العلاقة مع الآباء.

ويمكننا القول بأن هذا بمثابة نداء استيقاظ للآباء الذين يأملون في أن ينمي أبناؤهم هويات جنسية سوية.

هل هناك طرق أخرى للشذوذ؟

بالتأكيد، فإن أزمة العلاقة الثلاثية داخل الأسرة وعدم انسجام الهوية الجنسية المزاجي في مرحلة الطفولة، ليست الطرق الوحيدة للشذوذ، هناك طرق أخرى، تتضمن بالتأكيد أساليب تنشئة مختلفة للأطفال، ومشكلة الإغواء الجنسي المبكر والترويض الجنسي الذي ينتج منه، وتأثير الرسائل الثقافية.

وهناك نوع أقل شيوعًا من الشذوذ الجنسي، ويمكن وصفه- في الواقع- بالاتصال بالجنسين؛ وهو الذي قد يتضمن اختيار السعي وراء إرضاء النفس

والإشباع الجنسي بكل الأشكال الممكنة، ونادرًا ما نرى وصفًا لهذا النوع الأخير من الأشخاص في المنشورات العلمية السريرية؛ لأنه من غير المحتمل أن يسعى هؤلاء في طلب العلاج من أجل التغيير.

وتذكر أن المظاهر قد تكون خادعة؛ ففي كثير من الأحيان يقال: "لا يمكن أن يكون لدى فلان مشكلة تتعلق بتقديره الذاتي لهويته الجنسية، إنه مفعم بالذكورة"، ولكن عندما ننظر تحت السطح فإننا نرى المؤثرات المألوفة نفسها، ومثال ذلك: النجم السينمائي "روك هودسون" الذي توفي بسبب مرض الأيدز في ثمانينيات القرن العشرين.

كان "روك هودسون" رجلاً وسيمًا طويل القامة، وكان يمثل أدوار البطولة في الأفلام الرومانسية، وأثناء تربعه على عرش النجومية، كانت الجماهير لا تعلم شيئًا عن شذوذه الجنسي، ولكن سيرته الذاتية كشفت أنه كان يكره والده الذي هجر العائلة، وأنه لم يستطع التوافق مع زوج أمه، الذي كان يضربه، وعندما عملت أمه مدبرةَ منزل مقيمة، كان يشاركها النوم في سرير واحد في مأوى الخدم، وفي التاسعة من عمره، تحرش به رجل جنسيًّا (ويعترف "هودسون" بأنه بحث عن هذا التحرش وأستمتع به)، وطيلة حياته، كان "هودسون" يحتفظ بعلاقات وثيقة مع النساء اللاتي شاركنه في بطولة أفلامه، ولم يكن له علاقات مع معظم الممثلين الرجال تقريبًا، فيما كان يبدي إعجابًا منقطع النظير ببعض المخرجين، ويكن لهم مشاعر الحب.

وقد قال أسطورة السينما ذو المظهر الرجولي الجذاب ذات مرة لعشيقه: "إن بداخلي فتاة صغيرة سحقتها بقدمي حتى الموت، وقلت لها: لن تخرجي!".[14]

أحد المشاهير الشاذين يصف طفولته:

لقد روى "أندرو سوليفان"- وهو كاتب شهير ومن نشطاء الشذوذ- عن نمطٍ في فترة الطفولة يتوافق مع النموذج الثلاثي للعلاقات الأسرية، حيث كان أفضل أصدقاء "سوليفان" في المدرسة من البنات اللاتي كن "أحيانًا توأم روحه"، واللاتي كان يمضي معهن الوقت في أحاديث كثيرة وطويلة "لا نهاية لها".

ووصف "سوليفان" أمه التقليدية المبالغة في التدخل وأباه غير المبالي قائلاً: «كانت علاقتي قوية جدًّا مع أمي، وكنت بعيدًا إلى حد ما عن أبي"، وأضاف

أيضًا أن أباه كان كتومًا لا يفصح عن مشاعره، بينما كانت أمه هي التي- على حد قوله-: "تملأ رأسي بالحديث عن الإمكانيات الموجودة في هذا العالم، وكانت تجاذبني الحديث كإنسان بالغ، وكانت تساعدني على الإيمان بقدرتي على فعل أي شيء في هذا العالم الكبير"، لقد كانت قيمها الخاصة هي التي شكلتني وشجعتني... وفي فترة المراهقة، كانت المواجهات مع أبي والانحياز التام لأمي في المشاجرات الأسرية، وخلال كل تلك الأحداث، وأظن أنني بهذه الطريقة سلكت الطريق المألوف لعالم الشذوذ».[15]

تروي "جودي شيبرد"- والدة "ماثيو شيبرد" (الشاب الشاذ الذي كان ضحية جريمة كراهية مخزية)- القصة التقليدية نفسها، وهي تصف ابنها "ماثيو" قائلة: "إنه صديقي، وتوأم روحي، وكاتم أسراري".[16]

نصيحة للأمهات العازبات:

في عالم اليوم البالغ التعقيد، تثير المشكلة المتنامية للأمهات العازبات (أمهات دون زواج) تحديًا فريدًا لنمو الهوية الجنسية للصبي، في كل مرة ألقي فيه كلمة أو محاضرة في جميع أنحاء البلاد، فلا بد أن تقف سيدة من وسط الجموع وتسألني السؤال التالي: "بوصفي أمًّا عزباء، كيف أتمكن من تنشئة ابني بطريقة سوية؟".

وتستطيع الأم العزباء أن تبدأ بالطرق الثلاث التالية:

1. **مراقبة العلاقة مع الابن:** يجب على الأم العزباء أن تحذر من الإفراط في تقوية العلاقة مع ابنها، فإذا كانت لا تتمتع بعلاقة عاطفية آمنة مع أي رجل، فربما تسعى بلا وعي إلى إشباع احتياجاتها العاطفية مع ابنها، فتعمل على تقوية رابطة حميمة بصورة مبالغ فيها وغير صحية، وربما تلبي احتياجاتها الخاصة، ولكنها لن تكون في مصلحة ابنها.

والصبي ذو الهوية الجنسية الهشة، تحديدًا، يكون ذكيًّا ومتحدثًا لبقًا، ولديه القدرة على أن يقرأ أفكار أمه جيدًا، ويحس بالاعتماد المتبادل بينه وبين أمه، وربما يتعلم كيف يستغل عواطفها ويتلاعب بها، وبالتالي ينمو شابًّا لا يعرف الالتزام، ومفرطًا في الاستمتاع بالملذات، وغير ناضج (نهائيًّا)، وأنانيًّا وغير مستعد لمواجهة متطلبات الحياة.

2.**تشجيع الهوية الذكورية:** يجب على الأم العزباء أن تبذل جهدًا إضافيًّا في سبيل التأكيد على ذكورة ابنها، ومنذ اليوم الأول، يجب على الأم أن تجعل ابنها يشعر بأن ذكورته تختلف عن أنوثتها، وأن هذا الاختلاف شيء طيب، وصحي، وجزء من هويته.

ويكتسب هذا التعزيز الذكوري أهمية خاصة في الحالات التي يكون فيها الأب غائبًا بصورة دائمة، فيمكن أن تحافظ الأم على إظهار الاحترام للأب وذكره باستمرار بطريقة إيجابية، حتى لو كان الأب لن يعود أبدًا، وهكذا تعزز الصورة الذهنية الإيجابية "للوالد الجيد"، وعلى الجانب الآخر، إذا كان الحديث عن الرجال في المنزل يأخذ شكلاً سلبيًّا، فربما يتبنى الولد هوية أنثوية لكي يضمن أن يتجنب الرفض من جانب أمه.

إن مثل هذه الجهود تثير الإعجاب وتعد مفيدة، ولكنني أرى من وجهة نظري أن الأم لا تستطيع القيام بهذا الأمر وحدها، ورغم قيام الأم ببذل أفضل ما لديها، فإنها لا تستطيع القيام بدور الرجل، ومع ذلك يمكنها أن تقوم بدورها الرائع كأم، وهذا يقودنا إلى التصرف الثالث الذي يمكن للأم العزباء أن تقوم به:

3.**البحث عن شخصية أبوية:** من الممكن أن يجد الأطفال بديلاً للأب الغائب، من خلال الأخ الأكبر أو الجد أو ذكر آخر، ومن المهم أن تقوم الأم المنفصلة بتقديم الدعم للاهتمامات الذكورية لابنها، وأن تشجع هذه الاهتمامات وتعترف بها، ومن الخطأ أن تقوم الأم بنقل رسالة مفادها أنها وابنها يمكنهما أن "يتدبرا أمرهما بأنفسهما فحسب"؛ لأن الرجال عنصر غير مهم في الحياة الأسرية.

إن البحث عن شخصية أبوية لا يعني (وأنا متأكد من أن غالبية الأمهات يعرفن ذلك جيدًا) أن تأتي الأم إلى البيت من إحدى الحانات في كل يوم بصحبة صديق جديد، والسماح له بقضاء الليل معها، ثم محاولة أن تجعله يتواصل مع الصبي، فإن هذا يضر أكثر مما ينفع، ويحدث الفرق عندما تكون هناك علاقة مستمرة وجديرة بالثقة- وبالتالي طويلة الأمد- مع شخصية أبوية مستقرة.

ولهذا السبب، فأنا أقترح الاستعانة بأحد أفراد العائلة: الأخ الأكبر، أو العم أو الخال، أو الجد؛ لا تخجلي من التعبير عن مخاوفك وطلب المساعدة،

وإذا لم يكن هناك أحد من أفراد العائلة يمكنه تقديم المساعدة، فعليك التفكير في الجماعات والهيئات التي يمكنها مد يد العون؛ فهناك منظمة "الإخوة الكبار الأمريكية" التي تعرض المساعدة في مثل هذه المواقف، وعادة ما تحتوى دور العبادة على مجموعات موجهة من الشباب الذين يخصصون وقتًا للأطفال الذين يواجهون صعوبات في المنزل، وهناك أيضًا جمعية الشباب المسيحي، وفرق الكشافة للأولاد، والفرق الرياضية التي لها مدربون من الرجال، والمرشدون والمستشارون في المدرسة؛ حيث يقوم كل هؤلاء بتوفير إمكانيات لتكوين علاقات جيدة مع الذكور، ومن الممكن أن يقوم معلم الدروس الدينية المتفاني في عمله- في أيام عطلة نهاية الأسبوع- بإحداث فارق كبير بوصفه نموذجًا يحتذى به في حياة طفلك، ومن الحكمة أن تطلب الأمهات العازبات من المعلمين والبالغين- خاصة المعلمين الذين يتمتعون بصفات الرجولة الحقة- مساعدتها في تربية ابنها.

كما ذكر أحد المرضى الذي يعالج للتخلص من الشذوذ، وهو يستعيد ذكرياته:

«كلما كنت أشعر بالرفض من أصدقائي، كانت أمي تحاول أن توجه لي النصيحة، ولكن هذا لم يكن يساعدني، فهي لم تكن فتًى من قبل؛ ولذلك فليس هناك ما يمكنها قوله لتجعلني أشعر بحال أفضل، فمن الممكن أن تقول: "أوه! أنت لا تريد اللعب مع هؤلاء الأولاد السيئين على أية حال"، وكان من الممكن أن تسير الأمور بصورة حسنة لو كان والدي هو من يقوم بالتحدث معي».

عندما يمر الصبي بتجربة مشاعر الرفض من قبل أقرانه من الذكور، يجب أن يأتي النصح والمواساة من الذكور الآخرين؛ فهذا أفضل من أن تقوم الأم بذلك.

الآباء لاعبون أساسيون في الهوية الجنسية:

"داني"، أحد مرضاي البالغين من ذوي الميول الجنسية الشاذة، كان يشعر بالرفض من والده بمجرد أن بدأ الدخول إلى عالم الرجولة، أما والدته فكانت كثيرة الاهتمام به باستمرار، وتبدي القلق نحو صحته، ومظهره، وسلوكه المناسب، وسلامته. وفي المرات القليلة التي يتوقف فيها الأب عن تجاهل "داني"، كان يعنفه ويوجه له الألفاظ البذيئة، ولقد أخبرني "داني" عن حادثة تعبر بوضوح عن نوعية الفعاليات الأسرية التي نشأ فيها، فوصف لي هذا المشهد:

«قالت له أمه صبيحة أحد أيام المدرسة: "لا تنس أن تأخذ قميصًا ثقيلاً وزوجًا من الجوارب معك في حقيبة الظهر، إن الجو بارد وممطر اليوم، وأنت تعلم مدى شعوري بالقلق عليك".

وصرخ والد "داني" من حجرة النوم قائلاً: "ماري، اتركي الولد وشأنه، بالله عليك! فإذا لم يكن لديه إدراك جيد لأن يبقى جافًا ودافئًا، فإنه لا يستحق القلق عليه!".

قال "داني": "أبي، توقف عن الصراخ في وجه أمي".

خرج والد "داني" من غرفة النوم وهو يزأر قائلاً: "لا تظن أن باستطاعتك الوقوف في وجهي، أيها الشاب، أنت لا شيء!".

وأخبرني "داني" بأن كلمات والده جعلته يرتجف، وأن والده عندما رآه يرتعد خوفًا صرخ في وجهه قائلاً: "أنت شخص نكرة!".

ورفع الأب إصبعه الصغير في وجه ابنه وأشار إليه قائلاً: "أنت بهذا الحجم، لا تظن أبدًا أن في استطاعتك مواجهتي".

إن والد "داني" ينتمي إلى تلك القلة من الآباء الذين لا يجيدون سوى كيل العقوبات، وبطريقة قاسية أيضًا، ويحتاج مثل هذا النوع من الآباء عادة إلى صبي صغير ليقوم بدور الشخصية الذكورية الضعيفة- شخص يستطيع الأب أن يسبب له الرعب لتعزيز إحساسه الذاتي بالقوة، ويجد الصبية الذين تتشابه ظروفهم مع "داني" صعوبة بالغة في معرفة ماذا يعني أن تكون رجلا؛ لأن أمهاتهم- الطيبات- يحمينهم، ولكن آباءهم يصدونهم، ويقمعونهم، ولا يتيحون لهم الفرصة لدخول عالم الذكور، إن والد "داني" كان يبعده عنه، وكأن "داني" كان يكبر ليكون منافسًا له، ولكن لحسن الحظ، فإن هذا الموقف- الذي يثير الحزن- لا يحدث كثيرًا، لأن غالبية الآباء الذين عرفتهم، والذين لديهم صبية في مرحلة ما قبل الشذوذ، هم فقط لا يهتمون بأبنائهم، ويهجرونهم عاطفيًا، ولا يتواصلون معهم.[17]

ولقد سلم المحللون النفسيون بأهمية دور الأب في نمو الصبي، وفي انفصاله عن الأم، ولقد أشار بعض المحللين إلى الأب على أنه بمثابة "نسمة الهواء المنعشة" التي تمنع الأم من التدخل المبالغ فيه، فيمكن أن يكون الأب بمثابة

الفارس الذي يرتدي دروعه اللامعة الذي يلعب معه الطفل، بينما يظل مختلفًا بالكلية عن الأم.

حب الأب وتفانيه:

هناك الكثير من الآباء الرائعين الذين عندما يعلمون بما يمر به أبناؤهم من صراعات، فإنهم يترجمون ما يشعرون به من حسرة إلى تأهب واستعداد لبذل قصارى جهدهم وعمل كل ما يستطيعون القيام به، استمع إلى هذا التفاني الأبوي الذي تم التعبير عنه في خطاب مكتوب إلى الجمعية الوطنية لأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي:

«لقد أفصح لي ابني "بن" عن نشاطه الجنسي منذ أسابيع قليلة مضت فحسب، وكلانا أخبر الأم على الفور، ولقد كان هذا أكثر الحوادث إيلامًا في حياتي، ولقد شغل هذا الأمر تفكيري في كل لحظات يقظتي، ولقد أوضح لي "بن" أنه مصمم على هذا الموقف، ولم يظهر لي أية بادرة تدل على رغبته في التغيير، استحالت حياتي إلى فوضى عارمة، وأنا لا أستطيع تصديق هذا الأمر، وأحمد الله أنني لم أفقد أعصابي وأظهر له الرفض، إن حالتي الذهنية كانت في صدمة كبيرة؛ حيث إنني قبل هذا الوقت كنت لا أعلم شيئًا البتة، ولم تساورني الشكوك من أي نوع، ولم تكن أمه أيضًا تعلم شيئًا.

ولقد شعرت بدافع قوي لأن أبحث في موضوع الشذوذ الجنسي، وذهبت إلى مكتبة إحدى الجامعات من أجل هذا الغرض، ولقد وجدت أشياء قليلة جدًّا تتحدث عن هذا الموضوع، وحتى هذه الأشياء القليلة كانت لا تتحدث عن حالة "بن"، ولحسن الحظ، فقد اكتشفت الجمعية الوطنية لأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي من خلال شبكة الإنترنت، ووجدت الكتب والمقالات الجيدة في مؤسستكم.

لمحة بسيطة عن ابني: هو أبيض البشرة، وعمره سبعة وعشرون عامًا؛ وله شقيق عمره ستة عشر عامًا، لم يكن "بن" شخصًا رياضيًّا في المدرسة الابتدائية أو الثانوية؛ وكان دائمًا مقربًا من أمه؛ وكان أغلب أصدقائه من البنات، كما كان شديد التركيز على الأمور الدقيقة، ويملك موهبة فنية، وكان طالبًا جيدًا، وكان- ولا يزال- يظهر الاهتمام والاحترام للآخرين- أي "الطفل المثالي".

وعندما أتذكر فترة الطفولة والمراهقة في حياته، يمكنني النظر إلى

الماضي ورؤية أن الشيء الذي كان موجودًا على الدوام هو الفراغ، إنني لم أدرك هذا ولم أفكر فيه من قبل، إن ابني لا يشاطرني نفس الاهتمامات، وبعد أن تجاوز سن العاشرة، أَوقفت كل المحاولات لتوجيهه إلى مجالات اهتمامي، والآن فقط أدركت حجم ما ارتكبته من سوء، لقد كان ذلك الوقت الذي كان عليّ فيه أن أفعل كل ما هو ضروري لتقوية علاقتي به، لقد تنازلت عن تربيته لأمه، بينما كنت أقضي المزيد من الوقت وأبذل المزيد من الجهد مع أخيه الأصغر.

إن لدينا أسرة مترابطة، وأنا أعلم أن ابني يحبني، وأشعر بأنه ينظر إليّ بشيء من الحسد، أشعر بأن لديه إحساسًا بعدم الأهلية، ومنذ أن بدأت بالقراءة والاطلاع على الشذوذ الجنسي، وأنا أكرس جل وقتي لتحسين علاقتي به.

في الأسبوع الماضي، تحدثت معه على انفراد، وأثناء هذه المحادثة حاولت أن أتذكر أخطائي ومدى تقصيري معه، ولقد طلبت منه بإخلاص وتواضع أن يغفر لي ما فعلته، وأخبرته بأني على استعداد لأقضي معه كل الوقت الذي يمنحني إياه، وأنني أريد أن أعالج أخطائي السابقة، وأتمنى وأصلي من أجل أن يسمح لي بأن أقوم بذلك، وبعد هذه المحادثة، شعرت بالراحة، وأعتقد أن طلبي كان يعني شيئًا مهمًّا بالنسبة له، إن هدفي هو ملء الفراغ الذي صنعته.

وعندما يحين الوقت المناسب، سوف أتحدث معه مرة أخرى، وسوف أعطيه بعض المواد ليقرأها، وسأطلب منه أن يجرب العلاج وسيلةً لإحداث التغيير، إنني أصلي وأدعو في كل يوم أن يكون متقبلاً لذلك.

ولقد تعلمت أنا شخصيًّا قدرًا كبيرًا حول حالة الشذوذ الجنسي، فمن السهل الآن أن أتعامل مع هذا الموقف العصيب بفضل المعرفة التي اكتسبتها حول الحالة حاليًّا، إن مهمتي في الحياة لن تتغير أبدًا: تحقيق الحرية لابني».

الأب البارز:

عندما يأتي أبٌ وابنٌ إلى غرفة الاستشارة معًا، فإنني أرى سوء الفهم، والتباعد، والتجنب، والإساءة على الدوام، كمواقف اثنين من الغرباء لم يفهم كل منهما الآخر مطلقًا.

ولكي يستطيع الصبي أن يتمايز عن أمه وأن يتماثل مع أبيه، يجب أن يرى أن أباه جدير بأن يكون مثالاً يحتذى به، إن الصبي بحاجة لأن يرى والده بارزاً (وهذا

يعني، أن يكون قويًّا وطيبًا، تذكر هذا جيدًا)، وفي الحقيقة، ومن خلال عملي مع الشواذ البالغين من الرجال، اكتشفت أن أنواع الشخصيات الذكورية، التي يشعر عملائي بالانبهار والافتتان بها ويتعلقون بها عاطفيًّا، تمثل الصورة المثالية "للأب الجيد": الرجل الطيب، والقوي، والواثق من نفسه.

إن الفجوة التي تصنعها سلبية الأب الذي لا يراه الابن أبًا مميزاً سوف تدفع الابن- المرهف الحس، والمتردد، والمحب لتكوين العلاقات- لأن يكون عرضة للدخول في علاقة وثيقة مع الأم لكي يملأ الفراغ الذي يشعر به، وهكذا، ربما يلاحظ الأب أن هناك شيئًا غريبًا في ابنه، ولكنه لا يقوم باتخاذ أية خطوات للتدخل في اندفاع ابنه المبالغ فيه نحو الأم.

أيها الآباء لا تدعوا أبناءكم يرفضونكم:

يستسلم الكثير من الآباء بسهولة شديدة ويتخلون عن أطفالهم الذين يعانون ارتباكًا في الهوية الجنسية ويتركونهم لأمهاتهم، وهذا خطأ فادح. أيها الآباء، لا تدعوا أبناءكم يرفضونكم ويبتعدون عنكم، إن مهمتك- أيها الأب- هي متابعة ابنك، واقتحام حصونه الدفاعية، ومع الاستمرار في بذل الجهد بانتظام، ستصبح أهم شخص في حياته، اجعل هدفك هو معالجة الجروح التي ربما تسببت فيها لابنك في وقت من الأوقات بدون أن تعرف كيف أو لماذا حدثت، أعد بناء جسور الثقة المتهدمة بينكما، حتى لو كنت لست متأكدًا من وقت أو كيفية أو سبب تردي العلاقة بينكما.

وسيكون المعيار الأساسي لعلاج ابنك هو مستوى تجاوبه معك، فعندما يخبرني الوالدان بأن ابنهما يجري الآن نحو أبيه عندما يعود إلى المنزل، أعرف حينها أن الهدف الأساسي للعلاج قد تحقق، والآن، فإننا بحاجة إلى بناء وتقوية هذه العلاقة الجيدة فحسب.

ردة فعل الآباء والأمهات تجاه عدم انسجام الهوية الجنسية:

عادة ما تتسم ردة الفعل الأولى للآباء والأمهات تجاه السلوك المغاير للجنس من قبل الابن بالحيادية، بل إن بعضهم يعزز هذا السلوك [18]، وفي الحقيقة، فقد اكتشف بعض الباحثين أنه من غير المحتمل أن يحاول الآباء والأمهات تغيير سلوكيات أبنائهم الأنثوية [19]، ولأن استجابات الوالدين قد تكون محايدة أو مشجعة، فربما

يغض بعض الآباء والأمهات الطرف عن سلوكيات الطفل المغايرة للجنس ولا يقولون شيئًا [20]. وفي الحقيقة، فإن بعض الكتاب يشكون في أن بعض أمهات الصبية الصغار يعبرن بوعي أو دون وعي عن توقعهن السلوكيات المغايرة للجنس.[21]

آباء هؤلاء الصبية عادة تتملكهم مشاعر متناقضة تجاه العلاج، ولقد ترسخ لدي الانطباع بأنه عندما يأتي هؤلاء الآباء لطلب العلاج لأولادهم تكون الزوجة هي التي دفعتهم إلى ذلك، وفي الحقيقة، فقد وجدتُّ- بشكل متكرر، وبالتأكيد من ممارستي الشخصية في العيادة- أن الأمهات هن من يحضرن الأطفال من أجل العلاج[22]، ورغم أن الآباء يعبرون عن قلقهم حيال الصبي، فإنهم عادة ما يجلسون في مقعد المتفرجين ويتركون الساحة للأم.

ولقد لاحظ الدكتور "ريتشارد جرين" أن نقص الاهتمام الأبوي- الذي أطلق عليه اسم "الحيادية" الأبوية- كتوجه مبدئي نحو الميول الأنثوية والتشبه بالفتيات، توافر في 80% من الحالات التي شُخصت كمشكلة صريحة لاضطراب الهوية الجنسية، وعندما ينشأ القلق لدى الوالدين بالفعل، فإن الأمهات يصبحن أكثر قلقًا من الآباء في 80% من الحالات [23]، ويجهل الآباء غالبًا ما يجب عليهم القيام به لترجمة الاهتمام والقلق إلى محاولات منظمة لتشجيع السلوكيات الجنسية الملائمة.

ويقع الكثير من الآباء في حيرة إزاء ما يعتمل في نفوس أطفالهم الحساسة، وعلى العموم، يميل الأب المنتمي إلى هذا النوع إلى سوء التوافق مع مشاعر الآخرين، وعندما يتوافق، فإنه يوجه مشاعره إلى ابن آخر يتصرف بمزيد من الذكورة، ويكون التواصل معه أسهل، وتكون بينهما الكثير من الأمور المشتركة، بينما يرى الكثير من الآباء أن الابن اللطيف والسلبي والمحب لتكوين العلاقات- كل علامات ما قبل الشذوذ- طفل غامض.

ويذكر هنا أحد المعالجين النفسيين مثالاً لحالة شاب شاذ يعاني مشكلات حادة، كان والداه يظهران الحب والنية الطيبة، ولكنهما كانا بعيدين عما يمر به من صراعات، وكانا غير مدركين للنبذ والسخرية التي مر بها في فترة الطفولة، ولم يشك الوالدان أيضًا في الشذوذ الجنسي لابنهما، كتب المعالج النفسي يقول:

«جاءني مريض جديد اليوم- وهو طالب جامعي- يتمتع بعلاقة جيدة إلى حد ما مع أبيه، ولكنها ليست حميمة، فهذا الشاب لم يكن يخبر والديه مطلقًا عن

السخرية التي كان يتعرض لها، ومعظم الأطفال الذين يسخر منهم أقرانهم لا يخبرون والديهم لأنهم يشعرون بالخجل الشديد من ذكر هذه الأشياء، هذان الوالدان يجلسان الآن في انتظار الانضمام إلى الجلسة، ولكن هذا الشاب لم يسمح لي حتى بذكر درجة السخرية والعزلة اللتين مر بهما، أو الخوف الذي يشعر به الآن من الذكور الطبيعيين.

إن الهوية الذكورية الضعيفة، والحزن الشديد، والخوف البالغ من الرفض؛ هي الأمور التي تدفع هؤلاء إلى الشعور بالإحباط واليأس الشديدين، وتجعلهم عرضة لاتباع سلوك مدمر للذات.

ومثلما قال لي هذا الشاب الصغير- ردًّا على سؤالي له عن ممارسة الجنس غير الآمنة-: "نعم، أنا منخرط في هذا، فأنا لا آبه لذلك".[24]

وفي الحقيقة، فإننا نجد بالفعل آباء يمتلكون القدرة على التناغم مع أبنائهم بصورة جيدة- ما إن يدركوا أن هناك مشكلة- ويبدون نيتهم في المشاركة ويقومون بدور فعال في عملية العلاج، وهذا يتطلب من الأب أن يدرك المشكلة، وأن يعيد تقييم دوره الأبوي، ويشارك بفاعلية وبصورة منتظمة في تهيئة مستقبل صحي لابنه، ولا حاجة بنا للقول بأن الصبية الذين يتمتعون بوجود آباء يبدون التعاون ويظهرون الاهتمام تزداد لديهم احتمالات حدوث التغيير الصحي.

يجب أن يظل الآباء ملتزمين:

إن مواصلة الوالدين العمل كفريق هو أمر في غاية الأهمية، ولكن التحدي الأكثر صعوبة هو إبقاء مشاركة الأب متواصلة بشكل منتظم، وفي الحقيقة، فإن مشكلة الحفاظ على مشاركة الأب الفعالة واليومية تعتبر هي أكثر العقبات الشائعة التي تقف في طريق نجاح العلاج.

تذكّر: أن تصنع الأنوثة والتشبُّه بالفتيات هو وسيلة دفاعية ضد التماثل مع الدور الذكري، ولا يمكنك إزالة التدابير الأمنية التي يتخذها الصبي إلا إذا قدمت له شيئًا في المقابل، وهكذا، تقوم استراتيجية العلاج على جذب انتباه الصبي نحو الذكورة من خلال علاقة دافئة مع الأب أو مع شخصية أبوية، بدلاً من مساعدته على التخلص من علامات الأنوثة الظاهرة فحسب.

أنصت للمشاعر:

بينما نوجه المزيد من التركيز على التدخل لإحداث التغيير السلوكي المناسب للجنس، يجب علينا ألا ننسى المهمة الحقيقية، وهي إنشاء رابطة عاطفية جيدة بين الطفل وبين الوالد الذي ينتمي للجنس نفسه، بينما من الممكن أن يؤدي التركيز على تحقيق التغيير السلوكي فحسب إلى إهمال مشاعر الطفل وتجاهلها.

إن هذا وقت عصيب، ليس على الأب والأم فقط، بل على الطفل أيضًا، فالطفل يتعرض للضغوط نتيجة للجهود التي يبذلها الوالدان لتغيير العادات والسلوكيات التي تبدو حتى الآن جزءًا من طبيعته، ومن المفهوم أن يعبر عن مشاعر سلبية، وربما يشعر بأنه غير محبوب ويساء فهمه، وربما يلجأ الطفل إلى الانسحاب والعزلة، إذا كان تدخل الوالدين قاسيًا، وقد ينفصل عاطفيًّا عن باقي أفراد الأسرة.

لذلك، فإنه من المهم جدًّا أن يعبر الأب والأم عن اهتمامهما واحترامهما لردود أفعاله العاطفية نحو هذا الاحتمال الجديد المثير للتحدي- "بأنه صبي ذكر"- ويجب على الأب والأم أن يظهرا تشجيعهما لأن يعبر الطفل عن كل ما يختلج في نفسه من مشاعر، حتى عندما يريد التعبير عن مشاعر سلبية أو إلقاء اللوم على أي أحد، إن تشجيع التعبير عن مشاعر الألم، والغضب، والحزن، والإحباط أمرٌ مهم للحفاظ على تواصل الطفل معك أثناء الفترة الانتقالية الصعبة.

ويعتقد بعض الآباء أن بإمكانهم التخلص من سلوكيات التشبه بالفتيات من خلال توجيه السلوكيات الخارجية بطريقة صارمة وعنيفة، ولكن هذا ليس هو الأسلوب المناسب، إنما الأسلوب المناسب يتمثل في الارتباط مع الأب والشعور بالأمان العاطفي في العلاقة بينهما، بحيث يشعر الصبي بقدرته على التخلي عن خيالاته المغايرة للجنس.

وعادة ما تمثل العلاقة الضعيفة بين الابن وأبيه العقبة الكئود أمام التدخل الناجح، وفيما يلي مثال على ذلك:

هناك صبي يبلغ من العمر ست سنوات، أحضره لي والداه، سوف نطلق عليه اسم "جوي"، كانت تبدو على الأب علامات القلق والاهتمام وهو يخبرني بأنه لا يريد أن يصبح ابنه شاذًّا جنسيًّا، ولكنه لا يعلم ماذا يجب عليه فعله حيال هذا الأمر.

في بداية الجلسة الثانية، سألت الوالدين: كيف مر الأسبوع الماضي؟

كانت الأم جالسة على حافة الكرسي، وبدأت في التحدث؛ ولكني قاطعتها قائلاً: "في الحقيقة، لنسمع من الأب أولاً، كيف مر الأسبوع مع "جوي"؟

أجاب الأب: "جيد.. على ما أعتقد".

ولكن الأم قالت بحدة: "لا، إنه لم يكن كذلك! أخبره يا عزيزي بما حدث".

فقال الأب متسائلاً: "ماذا؟".

فردت عليه: "ألا تتذكر؟".

أجاب في النهاية: "أوه، نعم.. حسناً. أنا لا أعلم.. لقد كنت أشاهد التلفاز عندما مر ابني من أمامي ونظر إليّ كأنه يقول: من تظن نفسك؟".

وبعد نطقه لهذه الكلمات، نظر الأب إلى الأرض وصمت تمامًا؛ ولذلك سألته لأشجعه على مواصلة الحديث: وماذا فعلت حيال ذلك؟

فرد باستهجان: "لا شيء، ماذا كان بوسعي أن أفعل؟".

كانت الزوجة تحدق إليّ، تنتظر إجابتي، فبدأت الكلام قائلاً: لو كان "جوي" ابني، ومر من أمامي ونظر إليّ نظرة مثل هذه، لكنت لفتُّ نظره إلى هذا، ولقلت: "تعال هنا! ماذا تعني بهذه النظرة؟"، ولمددت يدي نحوه، وأمسكته، وجذبته إليّ، ربما بقليل من الخشونة ولكن بمحبة، وكنت سأعلمه أن هذه النظرة غير مقبولة، وكنت سأسعى إلى مزيد من التواصل معه، فكنت سأقول له: مرحبًا، أيها الصبي، ماذا هناك؟ هل أنت غاضب مني؟ ماذا يفترض بي فعله؟ تعال يا "جوي"، أخبرني بما يحدث معك.

وعندئذ، صاحت الأم: "إن هذا ما أخبرته بأنه يجب القيام به بالضبط".

ومثل كثير من أمهات الأولاد الذين يمرون بمرحلة ما قبل الشذوذ، فإنها شعرت بحدسها بما كان يجب القيام به، إلا أنها لم تكن الشخص الذي كان يجب عليه التصرف، بل كان الأب هو من ينبغي أن يتصرف.

وهنا سأضع وصفًا للآباء الذين صادفتهم في العلاج، يشبه الوصف الذي أكتبه في كل مكان:

بوجه عام، من الممكن أن نصف هؤلاء الآباء بأنهم كانوا يتجنبون التفاعل العاطفي، ويكشف التنقيب في ماضي هؤلاء الآباء عن أنهم كانوا يرتبطون عادة بعلاقة سيئة مع آبائهم، وكان هؤلاء الآباء يميلون إلى إفساح المجال أمام زوجاتهم في الأمور العاطفية، إلى جانب الاعتماد عليهن بوجه خاص كمرشدات، ومترجمات، ومتحدثات.

وبينما كان هؤلاء الرجال يعربون عن أملهم الصادق في أن يتحول أبناؤهم إلى الحياة الجنسية السوية، فإنهم كانوا يفشلون في الارتقاء إلى مستوى الالتزام طويل المدى لمساعدة أبنائهم نحو تحقيق ذلك الهدف.

في الجلسة الأولى المشتركة، صرح أب بأن ابنه البالغ من العمر 15 عامًا أخبره بخيبة أمله فيه، ولعدة شهور بعد ذلك، كان الأب يأخذ الابن إلى موعد الجلسة بدون أن يتحدث معه ولو بكلمة واحدة في السيارة.

والأدهى من ذلك، أنه رغم ما كان يبديه هؤلاء الآباء في كثير من الأحيان من صفات اجتماعية، إلا أنهم كانوا يميلون إلى عدم تكوين صداقات قوية مع الذكور، بل إنهم كانوا يفتقرون إلى القدرة على المواجهة الانفعالية مع الذكور على الدوام، وكانوا يرون تفادي تلك المواجهات كمثال على "الرجل الأمريكي المثالي"، وفي الواقع، فقد تكوّن لديّ انطباع سريري عن هؤلاء الآباء كمجموعة، وهو أن لدى هؤلاء الآباء قصورًا واضحًا في قدرتهم على التواصل العاطفي مع الذكور.

وبدا من الواضح أن السمة المشتركة بين آباء الرجال الشواذ هي العجز عن استحضار القدرة على حل مشكلات علاقاتهم مع أبنائهم، وبدلاً من التواصل بقوة، فإن هؤلاء الآباء كانوا يميلون إلى الانسحاب والتجنب والشعور بالألم.[25]

آلام الفرص المهدرة:

في السيرة الذاتية القصصية "لا أبكي على أب" المنشورة على هيئة مقتطفات أدبية مختارة لشخصيات شاذة جنسيًا، نشعر بمدى حزن أحد الأبناء الشواذ الذي يعرف أنه كان مسؤولاً إلى حد ما عن رفض والده له، الرجل الذي أراد تكوين علاقة قوية مع ابنه، ولكنه للأسف، لم يجدها.

يصف المؤلف "فيليب جامبون" التجربة الغريبة التي مر بها عندما لم يكن قادرًا على البكاء في جنازة والده؛ فيقول: "لم تكن علاقتي بوالدي قوية، ولقد

أخبرني أصدقائي الشواذ جنسيًّا بأن هذا هو حال الأبناء الشواذ مع آبائهم".

ويستطرد "جامبون" ليصف أيضًا تفسير معالج نفسي شهير شاذ جنسيًّا لحالة الاغتراب الشائعة هذه، وهو تفسير قائم على الافتراض القائل بأن الشخص الشاذ "يولد شاذًّا": "إن الأب يشعر بحدسه بشذوذ ابنه وينأى بنفسه، بدلاً من المواجهة المباشرة مع عدم الانسجام والخزي اللذيْن يشعر بهما حيال هذا الكائن الغريب في العائلة".

ويعترف "جامبون" بأن والده كان رجلاً طيبًا، ويبدو أنه كان يشعر بالحيرة تجاه عدم قدرته على الشعور بالحب نحو والده أو حتى البكاء في جنازته، يقول "جامبون" بطريقته الهادئة الخاصة: "لم يتخل أبي عني مطلقًا، وطوال كل السنين التي كنت لا أتحدث فيها عن شذوذي الجنسي، لم يكن أبي يتردد مطلقًا في الترحيب وحسن معاملة أصدقائي- "رفاق السكن"- الذين كنت أحضرهم إلى المنزل".

ويقول أيضًا: "إنني لم أفتش في ذاكرتي مطلقًا بحثًا عن أجوبة لسبب عدم شعوري بالارتياح مع والدي"، وفي بعض الأحيان يتساءل "جامبون" عما إذا كانت المشكلة هي خوف والده اللاواعي من الشذوذ الجنسي (مشيرًا إلى نظرية "الشخص الشاذ يولد هكذا" والتي من المفترض أن يرفض فيها الأَبُ الابنَ غير المنسجم جنسيًّا، مما يؤدي إلى الإحساس بالاغتراب)، بينما يلوم "جامبون" أمه وجدته- في أوقات أخرى- على محاولاتهما المقصودة للتسبب في حدوث الاغتراب في علاقته بأبيه؛ "لقد كانتا توجهاني بأن أظل بعيدًا عنه".

ويعترف "جامبون" أيضًا: "لا يبدو أن أيًّا من هذه التعميمات يبدو كافيًا".

ومع اجترار ذكريات الماضي، يدرك "جامبون" أن والده كان رجلاً طيبًا وكان يهتم به بالفعل، وكان يحاول التواصل معه، وكان يريد الأفضل له، من خلال تحفيزه على تحمل المزيد من المخاطر ومعالجة مشكلات الحياة بالمزيد من القوة، ويندب "جامبون" حظه قائلاً: "من خلال استعادة شريط الذكريات، أتساءل عما إذا كنت غير مستعد لمثل هذا النوع من العلاقات الحميمة مع والدي الذي كان يبدي رغبة دائمة بأن يحظى بها معي".[26]

وكما في القصة التي كتبها "جامبون"، فإن الكثير من الآباء يشعرون بالرفض من قبل أبنائهم، ومع ذلك، يمكننا القول بأن جميع الآباء يشعرون بالرفض من قبل أبنائهم بين حين وآخر، والفرق أن والد الصبي الذي يمر بمرحلة ما قبل الشذوذ يكون على الأرجح من هذا النوع من الرجال الذين يقبلون هذا الرفض، وينفضون أيديهم، ويخفقون في محاولات التواصل وفهم الطفل واختراق مقاومته، (أو كما في حالة "جامبون": تقوم قريبات الأم بالعمل على إفساد العلاقة بين الابن وأبيه)، ولأسباب متنوعة يفشل الأب في اجتياز هذا العائق، وبدلاً من ذلك يلجأ إلى الانعزال والصمت والرفض.

وفي السنوات التي تعقب ذلك، فإن هذا الإهمال من الممكن أن يكلف كلاًّ من الأب والابن الكثير.

يعبر "دان"- وهو مريض شاذ يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا- عن حزنه لفرصة ضائعة من هذا القبيل قائلاً:

«كان أبي مثل تمثال "لينكولن" التذكاري: يجلس وحده في جمود وانعزال، لم أكن أريد أن أرتمي بين أحضانه، كان يبعث في نفسي خليطًا من مشاعر الخوف والنفور أيضًا، لقد كنت أبدو مثل ذلك الطفل الصغير وأنا أقول: إنني أخاف من هذا "الذئب الكبير الشرير"، ولكن الحقيقة أنه كان لا يعرفني وأنا أيضًا لا أعرفه.

كل ما كنت أريده حقًّا هو والدي، هكذا كان الأمر، وإنني لأبكي حتى الآن على السنوات التي أدركت ضياعها، فأنا لا أستطيع العودة إلى زمن الطفولة».

ولن تتغير الحال بهذا الابن أبدًا؛ فعندما سيبلغ السبعين من عمره، لن يصبح رجلاً مختلفًا، وسيبدو الأمر كالتالي: "لماذا يجب عليّ أن أزعج نفسي بمحاولة إقامة علاقة معه؟ إنه لا يعرفني؛ وأنا لا أعرفه!

ثلاثة أنواع من الآباء:

من خلال عملي مع رجال من ذوي التوجهات الجنسية الشاذة، لاحظت أن الوضع النفسي لغالبية الآباء يبدو في المعدلات الطبيعية، وبعد التأكيد على هذا الأمر من الضروري أن نكرر أن الآباء- كمجموعة- يعتريهم قصور بالغ في ناحية واحدة؛ وهي: عدم القدرة أو عدم الرغبة في مواجهة انفصال أبنائهم الوقائي وفي

إعادة اندماجهم في عالم الذكورة.

وخلف هذا التصنيف، ينقسم الآباء إلى ثلاث فئات شخصية عريضة:

الآباء غير الناضجين:

يتسم مثل هؤلاء الرجال بالصحة وسلامة العقل بصورة أساسية؛ ومع ذلك- أثناء الفترة الحرجة للتطور الجنسي (مرحلة الهوية الجنسية) في حياة أبنائهم- كان الآباء يجهدون أنفسهم في العمل، وكانوا يخفقون في رؤية عواقب هذا الأمر، وفي كثير من الأحيان، يكون هؤلاء من نوعية الرجال الذين أصبحوا آباء بسرعة، والذين وجدوا أنفسهم وسط أمواج من الأعباء الزوجية والعائلية والمالية؛ ونتيجة لذلك، فإن الأبناء من ذوي الطبيعة الحساسة- إن كان لديهم مثل هؤلاء الأبناء- سوف يدفعون الثمن.

الآباء النرجسيون "الأنانيون":

ربما يحمل الرجل السوي في الأساس صفات شخصية نرجسية، ولكن في أشد حالات النرجسية تطرفًا، يرى الرجل ابنه امتدادًا له (مثل "شيء ذاتي نرجسي")، ويستخدم الصبي لإشباع احتياجاته الخاصة، ويعترف الأب بوجود الصبي عندما يظهر هذا الصبي صفة أو مظهرًا أو مهارة أو نوع الشخصية الجذابة التي يقدرها الأب شخصيًّا، فإذا كان الصبي يتمتع بمثل هذه الصفات، فإن الأب سيضع الابن في مكانة عالية، وسيعامله كما لو كان لا يخطئ مطلقًا، أما إذا كان الصبي يفتقر إلى هذه الصفات، فإن الأب يرى أن هذا الابن ليس موجودًا في العائلة أساسًا، وعادة ما يتنصل هذا الأب من المسؤولية عن مشكلات ابنه، وهذا هو أكثر أنواع الآباء مقاومة عند المواجهة، ومن المرجح ألا يبدي هذا النوع من الآباء تعاونًا في أي نوع من أنواع العلاج.

الآباء غير المؤهلين:

ربما يكون هؤلاء الآباء من أعظم المعيلين لعائلاتهم، وربما يتسمون بالكفاءة العالية في عالم العمل، ولكنهم بصفة عامة مقصرون في الجوانب العاطفية فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية الحميمة، ولا يملكون سوى القليل ليقدموه إلى الآخرين، وهم لا يملكون نبعًا من العواطف التي يمكن أن تفيض على الآخرين، وعلى خلاف الآباء النرجسيين الذين يتنصلون من المسؤولية، يعترف هؤلاء الرجال بأخطائهم

بكل سهولة، ويعربون عن أسفهم، ولكن لا يحدث أي تحسن في علاقة الأب بابنه على مستوى ثابت، وبعد أن يذعن الأب من جانبه لبذل جهد بحسن نية على الدوام ولمدة قصيرة، فإن العلاقة تظل بلا تغيير جوهري.

ولقد قال لي أحد العملاء: "إن والدي كان لا شيء، كان صفرًا؛ حيث كانت أمي تتخذ كل القرارات، فقد كانت أمي تتمتع بشخصية قوية، وكان أبى قليل الكلام، وأنا لا أتذكر حتى وجود والدي في المنزل، وإذا كان موجودًا بالمنزل، فإنه يكون موجودًا بجسده فقط، وهذا كل ما أتذكره عنه".

إن الآباء المقصرين عاطفيًّا يعتمدون على الآخرين عمومًا، وعلى زوجاتهم بصفة خاصة، لتفسير المواقف الاجتماعية، وإخبارهم بالطريقة المثلى للتصرف، أما الآباء أنفسهم، فإنهم يكونون غير قادرين على تعزيز التزام طويل المدى بالاستمرار في مشاركة ومساعدة أبنائهم على التغيير.

قصة "أليكس":

القصة التالية مقتبسة من مذكرات "أليكس"، وهو رجل يبلغ من العمر اثنين وأربعين عامًا، وهو يخضع للعلاج من الشذوذ الجنسي تحت إشرافي، كان أبوه قويًّا ونشيطًا، ولكنه كان ذا شخصية سلبية، بينما كانت أمه شخصية ضعيفة تعتمد على الآخرين بشكل مرضي وتحبه حبًّا جمًّا رغم ما به من عيوب، وكان "أليكس" ينحاز لأمه في الدفاع عنها:

«لقد علمنا أبي إظهار كامل الاحترام له، فقد كان لا يسمح بالتقليل من شأنه، وإذا قال: إنه يجب إنجاز شيء ما، فمن الأفضل أن تقوم به حتى لا يصيبك الأذى، وإذا لم نفعل ما يفترض أن نقوم به، فإنه كان يعاقبنا ويجعلنا نخشاه. وفي بعض الأحيان، كان يضربنا، ورغم أن هذا كان لا يتكرر كثيرًا، فإنه كان يجعل الرعب يدب في أوصالي، وكان يعاقبنا أيضًا بالحرمان من بعض الأشياء التي يراها امتيازات، والذهاب إلى النوم بدون عشاء، لقد كانت لديه طريقة يشعرنا بها أنه لا نفع منا.

كان أبي بعيدًا جدًّا عن صورة الأب المثالي، وكلما كبرت، رأيت المزيد من عيوبه. ومع ذلك، كان ينظر إلى نفسه بفخر على أنه رجل صالح مما كان يجعلنا نشعر بعدم أهميتنا في نظره.

وكانت أمي تحب أبي حبًّا شديدًا، وتقدس الأرض التي يمشي عليها، ورغم أنها كانت تحبنا كلنا نحن الأطفال كثيرًا جدًّا، فإنها كانت تحبه أكثر منا؛ ولأن أمي كانت عاطفية جدًّا، فإنها لم تكن تستطيع تحمل أن تكون على علاقة سيئة مع أبي، وكانت لا تقف في وجه أبي دفاعًا عنا بصورة مباشرة، وإنما كانت تحاول أن تدفعنا إلى فعل الصواب حتى لا نلقى التوبيخ منه، ولكن عندما كان أبي يصب علينا جام غضبه، فإنني لا أتذكر أن أمي كانت تفعل أي شيء لحمايتنا منه، لقد كانت تخاف منه مثلنا نحن الأطفال».

خلاصة القول: أن أهم شخص في عملية العلاج الناجح للصبي الذي يعاني الارتباك الجنسي هو الأب؛ ولقد بحث المحللون النفسيون عن تأثير الأمهات العطوفات على أبنائهن الشواذ جنسيًّا؛ وظهر أن العلاقة العاطفية الوثيقة المبالغ فيها مع الصبي كانت سببًا لشذوذه الجنسي، ومع ذلك، يرى معظم اختصاصيي العلاج الإصلاحي- في الوقت الحالي- أن أكثر شخصية مهمة في حدوث الشذوذ الجنسي لدى الذكور هي شخصية الأب، لماذا؟ لأن علاقة الأم بالابن لا تمثل أية مشكلة ما دام الابن يقتدي بالأب في طريقة الارتباط بالمرأة، إن الأب يقوم بتدعيم شخصية الولد الذكورية بحيث يقترب من الأنثى، ولكن لا يذوب فيها، ويظهر الأب للابن كيف يقترب من المرأة بدون التضحية باستقلاله الذكوري.

ما يقوله الباحثون الآخرون:

هناك دليل طبي يشير إلى أن الحالات الواضحة لاضطراب الهوية الجنسية لدى كل من الصبية والفتيات تحدث في كثير من الأحيان بسبب الشعور بالإحباط الشديد والضغوط الحادة داخل الأسرة- والتي تنتج من بعض الأحداث الخارجية، أو عن التفاعلات المثيرة للإحباط بين الطفل ووالديه- والتي تقع خلال المرحلة المبكرة للنمو عندما يجب أن ينمو لدى الطفل إحساس متكامل حول الذات؛ كذكر أو أنثى، ولقد قدم هذا الدليل مؤلِّفَا كتاب "اختلال الهوية الجنسية والمشاكل الجنسية في مراحل الطفولة والمراهقة".

يصف المؤلفان "كينيث تسوكر" و"سوزان برادلي"، أكثر الخصائص شيوعًا بين الصبية الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية؛ وهي: تجنب ألعاب الاشتباكات، أبوان يخفقان في تثبيط السلوك المغاير للجنس، ووجود أب منعزل.

ويقول هذان المؤلفان: إنه من المرجح أن يكون الصبي المضطرب جنسيًّا ذا طبيعة حساسة لحالات الوالدين المزاجية؛ لأنه وُلِدَ بطبيعة حساسة وتفاعلية لا تجيد التعامل مع المواقف التي تثير الضغوط والتحدي، وربما يكون هذا هو العامل المزاجي الذي يدفع الصبي المضطرب جنسيًّا إلى تجنب ألعاب الاشتباكات، ويشعر مثل هؤلاء الصبية بصورة عامة بأنهم ليسوا في مثل كفاءة الذكور، ويعانون من مشكلات التفاعل مع أقرانهم من الذكور، ويميلون إلى تفسير كل نقد على أنه تعبير عن الرفض، ويقول "تسوكر" و"برادلي": إنه ربما يكون أحد العوامل الأخرى داخل مجموعة معينة من الصبية هو أنهم يتسمون بجاذبية مدهشة، ويتمتعون بحساسية متطورة جدًّا.[27]

ويقول المؤلفان: إن أمهات مثل هؤلاء الصبية يشعرن بالخطر في بعض الأحيان خاصة من العدوان الذكوري؛ ولذلك فإنهن يعارضن السلوكيات الصاخبة والألعاب الخشنة التي يميل لها الصبية، ونتيجة احتياجهن الخاص الشديد إلى الاهتمام والرعاية المتبادلة، تشجع الأمهات أبناءهن على اتباع مثل هذه السلوكيات التي تلائم الفتيات وتعزز الخصال الأنثوية.

وقد لاحظ الباحثان أن الآباء يسايرون تسامح زوجاتهم عن السلوكيات المغايرة للجنس، رغم شعورهم بعدم الارتياح لما يحدث أمام أعينهم، ويقول المؤلفان: إن هذا النوع من الآباء يجد صعوبة في التعبير عن مشاعره، ويشعر بعدم كفاءته عاطفيًّا، ويؤدي به هذا الضعف إلى صعوبة التواصل مع الابن المضطرب أو تقديم المساعدة الفعالة له، ويتعامل مثل هؤلاء الآباء مع مشكلات الأسرة من خلال الانسحاب والانشغال في العمل لساعات طويلة وفرض العزلة على نفسه.

ويعتقد المؤلفان- في مثل هذه الحالات- "أن تقدير الوالدين لمكانة ابنهما كذكر، وإحباط السلوكيات المغايرة للجنس، تتيح التخلي عن الحلول الدفاعية تدريجيًّا، ويساعد على بناء الثقة في هوية الصبي الجنسية .[28]

الأب والإبن _ الاهتمام بالعلاقة

إنني أوصي بأربعة أمثلة من الأنشطة من أجل الآباء الذين يريدون تطوير علاقات أكثر حميمية مع أبنائهم:

1. ألعاب الالتحام البدني مع الأب هي طريقة جيدة لاختراق حاجز الحياء

والخجل الذي يرتبط بالصبية الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية. والأهم من ذلك، أنها تعتبر وسيلة فعالة تمكن الآباء من تقوية علاقتهم بأبنائهم، والهدف من ذلك هو تشجيع الصبي على إظهار "قوته" قليلاً، وعندما يلعب الأب دور "الطرف الضعيف"، فإن هذا يتيح للابن أن يشعر بالقوة والخشونة والشراسة.

2.الاستحمام مع الأب مفيد للصبية الصغار، ومن الممكن- في بعض الأحيان- ضم باقي الإخوة الذكور، ومن الأفضل البدء في ذلك عندما يكون الصبية صغارًا؛ لأنه عندما يقترب الأبناء من سن البلوغ فإنهم سيشعرون بالخجل من التعري أمام والدهم لأول مرة، (وربما يشعر بعض الآباء بعدم الارتياح من هذا النشاط، اعتمادًا على موقفهم من التعري من مرحلة طفولتهم)، إن الاستحمام مع الأب وباقي الذكور في المنزل سيعزز من شعور الصبي بالارتياح والاستقرار مع هويته الشائعة ومع تركيبه التشريحي، ويُذهب الإحساس بالافتتان والغموض نحو التركيب التشريحي الذكوري الذي من الممكن أن يسبب الإثارة الجنسية الذكورية عند الوصول إلى مرحلة البلوغ.

3.خروج الابن من المنزل في رحلة بصحبة الأب فقط، يعتبر شيئًا مفيدًا؛ وحتى مهمة الذهاب إلى المتجر، أو حتى ملء خزان السيارة بالوقود (دع الابن يضخ البنزين بنفسه)، فمن الممكن أن تساعد هذه الرحلات السريعة على شعور الابن بخصوصية تجمعهما معًا، ويمكن للأب شراء الآيس كريم والدخول في مناقشة مع الابن بخصوص شيء يستمتع به حتى تصبح الرحلة ممتعة.

4.في وقت النوم، يجب أن يكون الأب هو الشخص الذي يضع الابن في السرير ويغطيه، وحتى عندما تشترك الأم في ذلك، يجب أن يكون الأب هو آخر من يلقي على الصبي تحية النوم، ويطفئ الأنوار، وبالنسبة للصبية الصغار، من الممكن أن يستدعي وقت النوم الشعور بالقلق وقابلية التعرض للإصابة، وهذا يظهر في صورة الاعتماد والالتصاق بالآخرين، ويجب أن يكون الأب هو الشخص الذي يوفر الدعم العاطفي والاطمئنان بعد فترة من تلاوة الأدعية بهدوء بجانب السرير، أو قراءة الكتب الدينية، أو الدردشة.

ربما يتردد بعض الصبية الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية في الانخراط في مثل هذه الأنشطة التي يشترك فيها مع أبيه في بادئ الأمر، ولكن هذا لا يقلل

من أهميتها، ونادرًا ما يشير مرضاي من الشواذ البالغين إلى أنهم شاركوا مثل هذه الأنشطة مع آبائهم.

ينبغي أن يتم تشجيع الآباء على التواصل البدني مع أبنائهم، والانخراط في أنشطة بدنية معهم، وأنا أؤكد أهمية الألعاب المنزلية التي تتسم بالخشونة؛ لأن الاتصال الطبيعي في فترة الطفولة بالرجال هو ما كان ينقص عملائي من الشواذ البالغين، ومن المعروف أن المنافسات البدنية أو أي أنشطة مشتركة تزيد الارتباط بين الصبية والرجال، وإذا كانت هذه الأمور تثير الشعور بالمتعة والمرح، فإن هذا سيعمل على تقوية العلاقة بين الأب وابنه، إن ألعاب الاشتباكات- مثل المصارعة- مهمة جدًّا بين الأب وابنه.

وإذا كانت هناك إعاقة جسدية تؤثر على الأب، فإن هذا لن يؤثر على نمو الابن، فإذا كان في إمكان الأب إظهار العطف، ولكنه لا يستطيع المشاركة في ألعاب الاشتباكات، فربما يمكن ممارسة هذا النوع من الأنشطة مع الأخ أو أي شخص آخر.

ويصف الكثير من الرجال الذين يلجؤون لاستشارتي- عند الدخول في العلاج كأشخاص بالغين- أنهم كانوا يشعرون بالإثارة الجنسية أثناء لعب المصارعة، وهم غير قادرين على الاشتراك في هذه الرياضة الذكورية الطبيعية بدون تدخل الإحساس بالإثارة الجنسية، وفي الحقيقة، هناك الكثير من الإعلانات "الشخصية" في صحف ومجلات الشواذ تطلب "رفيقًا للعب المصارعة معًا"، فإن ما يفترض بأنه نشاط تنافسي صحي طبيعي تحول على أيدي الرجال الشواذ إلى سلوك يثير الإثارة الجنسية، ويرجع أصل هذا التشوُّه إلى الحاجة غير المشبعة إلى الاتصال الصحي مع الذكور، وكما يخبرنا "ريتشارد وايلر":

«إن الرسالة الثقافية واضحة: الرجال الحقيقيون لا يتلامسون، وللأسف، فإن هذا الحظر يسري في كثير من الأحيان على الآباء والأبناء، وحتى على الصبية الذين ما زالوا صغارًا، ويسري على الإخوة الذكور والأصدقاء المقربين، ويبدو أن الرجال في ثقافتنا يخافون من أن يوصموا بأنهم شواذ، أو مِن أن يتسببوا في جعل أنفسهم أو أي شخص آخر من الشواذ إذا قاموا باحتضانهم، أو إمساك أيديهم، أو لمسهم. ولكن الشيء الذي يخافون منه هو نفسه الذي يساعدون في

صنعه- مجتمع من الصبية المحرومين من اللمس الذين يكبرون وهم في اشتياق لأن يحتضنهم أي رجل!

إذا لم يتم إشباع الحاجة إلى اللمس والاحتضان في فترة الطفولة، فإن الأمر لا يذهب في طي النسيان بحجة أن الصبي يكبر ليصبح رجلاً، فبالنسبة لنا، فإن هذه الرغبة أساسية جدًّا، وتم إنكارها لفترة طويلة، لدرجة أن بعضنا يبحث عن ممارسة الجنس مع أي رجل في الأوقات التي نحتاج فيها بالفعل إلى الاحتضان فحسب، فنحن فقط لا نعرف طريقة أخرى يمكننا بها الاستمتاع بالتلامس العادي الذي نشتاق إليه.

إن حاجة الصبي إلى الاتصال البدني مع أبيه هو أمر يجب التركيز عليه، ولقد أخبرني أحد مرضاي من الشواذ بذكرى في فترة طفولته اشتاق فيها إلى لمسة أبيه الحانية:

«لقد كنا نزور أبي أثناء الإجازات الصيفية في منطقة "أبالاتشيا"، وفي تلك الأيام الحارة والليالي الخانقة، كان أبي يرقد على الأريكة بدون أن يرتدي قميصًا، ويقرأ روايات المغامرات، وأتذكر أنني كنت أرقد بجانبه، وألمس بطنه المشعر، وأتذكر أيضًا أنني كنت أحاول لفت انتباهه بدون التسبب في إثارة غضبه، ولكنه كان مستغرقًا في القراءة، ولقد أدركت الآن أن كل الأنشطة الجنسية الشاذة كانت تدور حول رغبتي في هذا النوع من الاتصال الجسدي مع والدي.

وفي بعض الأحيان، عند محاولة إقامة علاقات قوية تكسوها المودة، فإن هؤلاء الصبية يحاولون الاتصال البدني مع آبائهم، ولكنهم يفاجؤون من رد الأب: "إن هذا لا يبدو شيئًا جيدًا"، وربما يخبرني الأب بأنه عندما يحتضنه ابنه ذو الميول الأنثوية، فإن هذا يشعره بقليل من الانزعاج الذي تشوبه الرومانسية أو الإثارة، ويقول مثل هذا الأب عن هذا: "إن هذا يبدو كأن فتاة تحتضن والدها"، وأنا أنصح مثل هؤلاء الآباء بأن يتبعوا شكلاً آخر من الاحتضان والتواصل الدافئ والحقيقي الذي يتسم أيضًا بالرجولة والاحترام للفروق الجنسية والحدود بين الأجيال.

وعندما يظهر أي طفل رد فعل سلبيًّا بقوة تجاه المحاولات التي تقوم بها للتأكيد على هويته الجنسية الحقيقية، فإن هذا مؤشر على أن هناك حاجة ماسة للاستشارة المتخصصة، وتتضمن العلامات التي توجب عليك الاستعانة بالإرشاد

والمساعدة المتخصصة الحزن الطويل، والغضب، والشعور بالألم، والاستياء، والقلق، والاستغراق في التفكير بصورة مخيفة.

أبعد من الأب والأم:

يجب ألا يشعر الآباء والأمهات بأنهم وحدهم ولا معين لهم في محاولاتهم لمساعدة طفلهم المضطرب جنسيًّا، ومن الممكن أن يؤدي الشعور بالخجل والإحراج- في كثير من الأحيان- إلى منع الآباء والأمهات من طلب المساعدة من الآخرين الذين لهم مكانتهم المهمة للتدخل في حياة أبنائهم، ولنفكر للحظات قليلة فيمن يوجد بجانب الأب والأم، والذي يمكنه تقديم يد المساعدة للصبي.

غالبًا ما يكون تأثير الإخوة الأصغر سنًّا ضئيلاً مقارنة بالإخوة الأكبر سنًّا، وعادة ما يكون الصبي الذي يعاني اضطراب الهوية الجنسية قريبًا من أخته الأكبر منه سنًّا؛ وربما يعجب بها إعجابًا شديدًا، وإذا كانت الأخت ناضجة بما فيه الكفاية، فيمكن تشجيعها على تعزيز جهود الوالدين، ومن الممكن الاستفادة من تأثير البنات الأكبر سنًّا على الصبي في بناء ثقته الذكورية، ويعد الإخوة الذكور مهمين جدًّا أيضًا.

طوال حياته المهنية، عمل "فرويد" مع مجموعة صغيرة فقط من الرجال الشواذ؛ ولكنه قال: "إذا كان لدى الشخص الشاذ جنسيًّا أخ أكبر منه، فإنه عادة ما يخشاه، وتتسم علاقتهما بالعداء"، ولقد رأيت الأمر يتأكد أمامي مرات ومرات، وغالبًا ما ينظر الشخص الشاذ إلى أخيه الأكبر، بالطريقة نفسها التي ينظر بها إلى والده؛ باستياء وفزع، ومن الممكن أن يتحول الخوف من الذكور الآخرين إلى هاجس لا يستطيع الفكاك منه.

ويتذكر الكثير من مرضاي هذه المقولة: "لقد كنت ابن أمي، بينما كان أخي ابن أبي"، ولكن هذا التقسيم كان غير معلن: "لقد كان أبي وأخي يجتمعان معًا هناك، بينما كنت أنا وأمي وأختي نجتمع معًا هنا". وهكذا، يصبح من المهم إشراك الأخ الأكبر، ولقد كنت أشعر بالدهشة من تعاون الإخوة الذين يبلغون من العمر ثلاث عشرة سنة، ويمكنك إشراك الأخ الأكبر- بدون الحاجة إلى الكشف عن كل مخاوفك- وسيقدم هذا الأخ دعمًا قويًّا في بناء الشخصية الذكورية للصبي الذي يعاني ارتباكًا في هويته الجنسية؛ فيمكن القول للأخ الأكبر: "إن أخاك

سيصعب مهمتك في التواصل معه؛ فبسبب خجله وشعوره بالاضطراب لا يشعر بالراحة مع أصدقائه، إننا نحتاج إلى مساعدتك لمساعدته في التغلب على هذا الأمر".

إن الاستعانة بالأقارب والأصدقاء والجيران في عملية التدخل مع الصبي الذي يعاني ضعف التقدير لهويته الجنسية، سوف تزيد من عدد اللاعبين المؤثرين ويجنب الوالدين محاولة عمل كل شيء بأنفسهما، ومن الممكن لبعض الكلمات الصادقة ولكن الحذرة عن الموقف (إن الصبي "لديه مشكلة في الشعور بأنه من الرجال")، مع طلب لعب دور القدوة وتقديم المساعدة في المشاركة في الألعاب الرياضية- أن تؤدي إلى إحداث فارق كبير.

ومن الممكن أيضًا أن يلعب مدرس الرياضة البدنية دورًا مهمًّا ومحوريًّا في عملية العلاج، وسوف يحتاج الوالدان إلى التعبير عن همومهما إليه، وسيساعد المدرس المتعاطف والمتعاون- في أي رياضة كانت: كاراتيه، أو سباحة، أو كرة القدم، أو كرة بيسبول للصغار- على إضافة بُعْدٍ إيجابي إلى جهد الفريق الذي يحاول الوالدان تكوينه، إن الصبية يحتاجون إلى وجود الشخصيات الذكورية في حياتهم، ويجب أن تتسم هذه الشخصيات بالقوة، والرقة، والصبر، والتشجيع.

ويلعب المعلمون دورًا أساسيًّا في هذه الجهود، وعادة، عندما ترسل المدرسة صبيًّا إلى الاختصاصي النفسي للعلاج، فإن ذلك يرجع إلى أن سلوك الصبي تسبب في إحداث الفوضى في الفصل، ومع ذلك، فإن معظم الصبية المضطربين جنسيًّا يكونون "صبية صغارًا لطفاء" لا يرى عليهم أي سوء، ومع الأسف، فإن المعلمين لا يتلقون التدريب على تحديد العلامات الدقيقة لارتباك الهوية الجنسية، ورغم ذلك، فإنني أعتقد أنه من المهم أن تخبر المعلمين بمخاوفك، ومن غير الضروري استخدام كلمة "شاذ جنسيًّا"؛ فيمكن الاكتفاء بعبارة "مسائل خاصة بهويته الجنسية"، أو حتى "ضعف التقدير لهويته الجنسية".

وحتى إذا كان لدى المعلم أو المعلمة مفاهيم سياسية معدلة، فإنهما سيتبعان الفطرة والإدراك السليم، وسوف يقومان بمد يد العون، وسوف يصاب الوالدان بالدهشة من عدد المعلمين الذين سيبدون استعدادًا للمساعدة.

ابدأْ بتوضيح الأمر بالقول: "إننا نريد أن يتواصل ابننا بطريقة أفضل مع باقي

الصبية، لقد لجأنا الآن إلى الاستشارة المتخصصة، ونحن نقدر تقديمك للمساعدة التي ستكون بمثابة دعم لخطة العلاج الموضوعة، هل في إمكانك تشجيع ابننا على اللعب مع الصبية الآخرين، ومساعدته على التقليل من أنشطته الأنثوية؟".

وسوف تقوم شبكة الدعم بدور مؤثر في الوقاية من الشذوذ الجنسي، وفي الحقيقة، لا يمكن التقليل من أهمية الحاجة إلى تكوين الصداقات مع الصبية الآخرين، وبعيدًا عن الأهمية البارزة للأب- التي تأتي بعدها أهمية الأم والعائلة- فربما يثبت الصبية الآخرون أنهم أكثر الأشخاص الذين لا يمكن الاستغناء عنهم في عملية العلاج.

وسوف نتحدث في الفصل التالي عن أهمية الأصدقاء الذكور في حياة الصبي الذي يعانى اضطراب الهوية الجنسية.

5
الأصدقاء والمشاعر

«لقد كنت أتطلع إلى العالم الخارجي للصبية الذين في مثل سني

مثل السجين الذي ينظر إلى العالم من خلف القضبان الحديدية لزنزانته.

لقد كنت أشعر بأنني مسجون داخل نفسي، وكنت أتحرق شوقًا للخروج».

مالكوم بويد

مؤلف

عندما يقترب الصبي المضطرب جنسيًّا من سن البلوغ، فإنه عادة ما يمر بعدد قليل من الأحداث التي تغير مجرى حياته والتي تقنعه بضرورة أن يصبح شاذًّا جنسيًّا، ولقد وصف لي أحد مرضاي إحدى تلك اللحظات قائلاً:

"إنني أتذكر جيدًا اللحظة التي عرفت فيها بأنني شاذ جنسيًّا، كنت في الثانية عشرة من عمري، وكنا نأخذ طريقًا مختصرًا إلى الفصل الدراسي، فكنا نمشي عبر الصالة الرياضية، ثم نعبر من غرفة خلع الملابس، وخرج وقتها من الحمام صبي أكبر مني سنًّا، كان مبتلاً وعاريًا، وقلت لنفسي وقتها: يا للروعة!".

ولقد سألت هذا المريض عما كان يشعر به بالضبط وقتها؟ فأطرق المريض مفكرًا، ثم قال: "لقد شعرت وقتها بأنني تمنيت لو كنت مكانه".

إن احتياجات النمو الطبيعية التي لا يتم إشباعها هي التي تجعل أي صبي يميل إلى المرور بتجربة الإعجاب هذه، ومن خلال التأثير المتزايد للثقافة الداعمة للشذوذ الجنسي، تُفسر مشاعر الإعجاب الذكوري على أنها تعني: إذن يجب أن أكون شاذًّا جنسيًّا.

وعندما كان هذا المريض نفسه صبيًّا صغيرًا، كان يعاني مرض الربو وكان ضعيف البنية، ومن الواضح أن هذا الصبي الذي كان خارجًا من الحمام، كان يمثل الصورة المثالية التي يتمناها هذا المريض لنفسه؛ ولذا، فمن الممكن أن تدفع

سنوات من الشعور بعدم التشابه مع الصبية الآخرين- صبيًّا يبلغ من العمر عشر سنوات، أو إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة سنة إلى المرور بتجربة "الإعجاب" هذه، ويعتبر هذا التحول علامة مميزة في "المرحلة الانتقالية الحرجة للشعور بالإثارة الجنسية"، عندما تتحول احتياجات الصبي للاتصال بجنسه إلى الانجذاب الجنسي.

ويصف الناشط المثلي "أندرو سوليفان" شعوره بعدم الانتماء والمخاوف الناتجة عن ذلك، فحتى اليوم، ما زال يشعر بالألم إثر الكلمات التي قالها له أحد زملاء الدراسة؛ فيقول: "إنني أتذكر أول مرة طرأ على ذهني احتمال أن أكون شاذ جنسيًّا، لقد حدث هذا في سن العاشرة تقريبًا، وكنت قد نجحت في تجنب التمرين الأسبوعي للعب كرة القدم في مدرستي الابتدائية.. لقد كنت أشعر بالاشمئزاز من هذه اللعبة، وهذا يرجع جزئيًّا إلى عدم إتقاني لها، ويعود إلى حد ما أيضًا إلى شعوري وقتها بأنني لا أنتمي إلى هذا الجو العام المحيط بها"، وعندما رأت إحدى رفيقاته في الدراسة تردده في الانضمام إلى باقي الصبية، حاولت مضايقته، مشيرة إلى أنه ربما يكون في الحقيقة "بنتًا تختبئ في ملابس ولد"، يقول "سوليفان": "لقد كان لكلماتها صدى كبير في نفسي، في وجود ما أحس به من مخاوف خاصة داخلية، لدرجة أنني ظللت أتذكرها بوضوح لعقدين من الزمان بعد ذلك".[1]

كسر نطاق العزلة:

إن تكوين العلاقات مع الصبية الآخرين يعتبر من أكبر التحديات التي تواجه تنمية تقدير الصبي لهويته الجنسية، وفيما يلي بعض المقتطفات من المذكرات اليومية الخاصة بإحدى الأمهات، بعدما اقتنعت بأن ابنها البالغ من العمر أربع سنوات- ويدعى "ويل"- قد امتنع بطريقة وقائية عن التواصل مع الصبية الآخرين:

10 فبراير:

ذهبت مع زوجي اليوم لاستشارة الدكتور "إن"، وكان الأمر محبطًا بدرجة رهيبة، فلقد كان سلوك "ويل" يتطابق تمامًا مع الصبية الآخرين الذين يمرون بمرحلة ما قبل الشذوذ، فعندما كان يلعب بصندوق الرمال، فإنه كان دائمًا ما يتظاهر بأنه يطبخ شيئًا ما، ولم يقم مطلقًا ببناء طرق؛ مثلما يفعل الكثير من الصبية الأسوياء،

وكان يبكي عندما يضطر للعب مع الصبية الآخرين، وكان يتجنبهم.

15 مارس:

لقد حاولت بكل جدية أن أبحث عن بعض الصبية الصغار الذين لا يتسببون في إثارة الخوف كثيرًا، ومؤخرًا، أبدى "ويل" رغبة كبيرة في البقاء مع الصبية في الفصل في رياض الأطفال، ومع ذلك، فما زال يشعر بالخوف؛ حيث تراجع عشر خطوات كبيرة إلى الخلف تعبيرًا عن عدم رغبته في العودة إلى الخارج للعب أثناء الفسحة مع باقي الأطفال بعد أن سخر منه أحد الصبية.

ويقوم "ويل" مؤخرًا ببذل الجهد بالفعل لكيلا يجري بطريقة أنثوية، فقد كان معتادًا على الجري مع رفع ذراعيه عاليًا على جانبيه، ولقد أخبرته بأن في إمكانه الجري بصورة أسرع إذا حرك ذراعيه بجوار جانبيه، ولقد نجحت هذه الطريقة، ولقد كنت أحاول تشجيعه أيضًا على التحدث بنبرة هادئة منخفضة؛ حيث كان يميل إلى عدم استخدام صوته الطبيعي كثيرًا، وبدأ في تقليد أصوات الأطفال الرضع، ولقد تدربنا اليوم على نطق جمل باستخدام "صوته الحقيقي"، ولقد أخبرته بأن صوته هذا هبة له من الله.

إنه لا يزال خائفًا من اللعب الخشن، ولكنه يحرز تقدمًا في كل يوم، ومنذ أن بدت عليه الحماسة لأن يكون مثل خاله "بوب" أكثر من أن يكون مثل أبيه، فقد أخبرت أخي بما يمر به من مشكلات وطلبت منه أن يمنح ابني المزيد من الاهتمام عندما يأتي لزيارتنا، والآن، أصبح أخي حريصًا على احتضانه واللعب معه عندما يرى كل منهما الآخر.

18 مارس:

تحسنت مهارة "ويل" في لعب الكرة، وأصبح يستمتع بها أيضًا لفترة قصيرة، وأصبح أخي "بوب" يقضي معه الكثير من الوقت، وأخبرني أخي بأنه سيأخذه مع ابن أختي "سامي" الذي يبلغ من العمر ثماني سنوات إلى ملعب جولف مخصص للصغار، ويتميز "سامي" بأنه طفل طيب، وصبور، وأنا أتمنى أن يتعلم منه "ويل" شيئًا.

22 مارس:

طلب "ويل" أن يذهب للعب مع ابن خالته "برينتون" اليوم، وكنا أكثر من سعداء بالسماح له، كان "برينتون"- الذي يكبر "ويل" بعامين- "صبيًّا مثاليًّا بكل معنى الكلمة"؛ حيث كان يتسم بالقوة الفعلية، والمهارة الحقيقية في ممارسة الرياضة، وعندما عاد "ويل" إلى البيت، سألته عما إذا كان يريد الذهاب واللعب مع "برينتون" مرة أخرى، إلا أنه لم يكن متحمسًا لذلك، ولكن بعد أن شجعته، أخبرني في النهاية بأنه سيذهب، بشرط أن تذهب أخته معه، هذه بداية جيدة على الأقل.

ومثل والدة "ويل"، يجب عليكم أن تتذكروا دائمًا أن بجانب أفراد العائلة المقربين، هناك تأثير الأقران الذكور ضمن المؤثرات المهمة في حياة الابن، ويمثل الأصدقاء الذكور عاملاً أساسيًّا في تكوين الهوية الجنسية الذكورية ونمو الاتجاه نحو ممارسة الجنس الطبيعي في المستقبل، ولقد أبرزت دراسة مهمة تأثير صداقة الذكور، حيث اكتشفت أن تأثير رفاق الدراسة الذكور على الصبية- حتى في رياض الأطفال- يكون أقوى من تأثير المعلمين البالغين أنفسهم.[2]

ولقد اكتشف الطبيب السريري "ريتشارد فريدمان" أيضًا أنه في كثير من الأحيان تشوه الصداقة الذكورية بطريقة مؤلمة في مرحلة مبكرة من الطفولة من حياة الشواذ الذكور [3]، ويعتقد الدكتور "فريدمان" أن هذا الانعزال عن الصبية الآخرين يلعب دورًا محوريًّا في نمو الميول الشذوذ لدى الرجال.

ولقد لاحظ الكثير من الباحثين الآخرين الذين يدرسون الشذوذ الجنسي لدى الرجال غياب علاقات الصداقة الحميمة في فترة الصبا [4]، ويتذكر معظم الشواذ الإحساس "بعدم وجود علاقات ودية" مع الرفاق الآخرين والإحساس بعدم القدرة على مجاراتهم في أنشطتهم وألعابهم، وهذا يمهد الطريق أمام شعور النفس بالدونية الذكورية، مما يؤدي بدوره إلى ظهور الرغبة الرومانسية وإضفاء المثالية على الذكور الآخرين.

وأستطيع القول من خلال خبرتي الطبية: إن غياب الصداقة الحقيقية الحميمة في فترة الصبا هو أمر شائع جدًّا.

وفي الحقيقة، يرى الطبيبان السريريان "جيرارد فان دن آردفيج" و"ريتشارد فيتسجبونز"، أن غياب الأصدقاء في مرحلة الصبا من الممكن أن يكون عاملاً حاسمًا في تشكيل التوجه الجنسي للصبي، وفي الواقع، فإنهما يعتقدان أن هذه

المشكلة ربما تكون أكثر تأثيرًا من علاقة الصبي بوالديه.[5]

ويصف "ريتشارد وايلر" كيف يظل الرجال الذين يسردون قصصهم على موقعه الإلكتروني محافظين على عزلتهم الوقائية، بدلاً من تكوين علاقات مع الرجال الآخرين والتماثل معهم:

«بسبب ما نشعر به بالعجز كذكور، فإننا نشتاق إلى أن يقبل الآخرون وجودنا ويدعمونه، وخاصة هؤلاء الذين تعجبنا درجة الذكورية البادية عليهم كثيرًا.. وفي الوقت الذي نبدي فيه الإعجاب الشديد ببعض الصفات الذكورية الخاصة أو الذكورة بوجه عام، فإن الكثير منا يخافون من الصبية أو الرجال الآخرين.

ولأننا ولدنا بشخصيات لطيفة ورقيقة، كان من السهل على الكثير منا أن يشعروا بالاختلاف عن الأقران الذين تستهويهم الألعاب الخشنة، أو أن يشعروا بالرفض من قبلهم، لقد وصلنا إلى درجة الخوف من توبيخهم وسخريتهم اللاذعة، وإلى الشعور بأننا لا يمكن أن ننتمي إلى هؤلاء، وأصبح الكثيرون منا يخشون أرض الملعب، ويشعرون بأننا لا نقدر على منافسة الذكور الآخرين».

لقد دفعهم الخوف إلى عدم الثقة في الرجال الذين كانوا في أشد الحاجة إليهم في ذلك الوقت؛ كي يكونوا معلمين لهم وأمثلة يحتذون بها:

«لقد كنا نخاف من التعبير عما في صدورنا إلى الرجال الآخرين، وكنا نخشى أن "نظهر" على حقيقتنا، وكنا نخاف من طلب المساعدة، لقد كنا نخشى الوثوق بالرجال، ونخشى رفضهم لنا أو سخريتهم منا، ونخشى ألا يكونوا أهلاً لثقتنا، ونخشى ألا يوفوا بعهودهم معنا، ونخشى ألا يظهروا الاهتمام الحقيقي، وكان بعض منا يشعر بالقلق أو بالرعب من مجرد الوجود بجوار الرجال، أو الذهاب إلى ملعب كرة البيسبول معهم، أو محاولة الدخول معهم في حوار من القلب للقلب، وعلى الرغم من خوفنا منهم، فإننا كنا نجري وراءهم».

ويتذكر كل مرضاي- بدون استثناء تقريبًا- الشعور بعدم الأهلية، مما رسخ في أنفسهم هذا الانطباع المدمر: "إنكم لستم مثل الصبية الآخرين"، على سبيل المثال، يتذكر "روجر"- وهو مريض يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا- حادثة وقعت عندما كان عمره اثني عشر عامًا:

«لقد تم اختياري أخيرًا للعب كرة البيسبول، وكانت الكرة قادمة في اتجاهي، ولكنني لم أستطع التقاطها، وسقطت على مقربة مني، أعتقد أنني حاولت أن أبدو متماسكًا، ولكنني مشيت إلى الكرة بدلاً من الركض نحوها، وكان الجميع يصرخون فيّ، وقال أحد زملائي في الفريق: إنني أمشي مثل الفتيات، وشعرت وقتها بالذل والهوان؛ وبقيت للحظات بدت كأنها دهر مترددًا لا أعرف ماذا أفعل: هل أذهب إلي ذلك الصبي وأضربه أو أهرب أو أظل واقفًا، لقد كانت هذه هي أسوأ لحظة في حياتي».

تخيل ما قد يشعر به صبي له أب يبتعد عنه وأقران يضايقونه أيضًا، تخيل ما قد يشعر به الصبي عندما تُطلق عليه ألفاظ مثل: أحمق، أو جبان، أو طفل صياح، أو ابن أمه، أو يوصم بأي عدد من النقائص الأخرى، وفي كثير من الأحيان، تكون الجدة أو الأم أو الأخت هي الشخص الوحيد الذي يجد عنده مثل هذا الصبي الحب والعطف، ولأنه يميل إلى أن يكون رقيق المشاعر، فإنه يصدق الأوصاف التي يطلقها عليه زملاء الدراسة، ويتخلى عن بذل الجهد لإثبات أنهم على خطأ، وحتى الإساءة اللفظية فقط تؤكد خوفه الدفين بأنه ليس "صبيًّا حقيقيًّا".

إن الرجل الذي سترد قصته فيما يلي يحمل مثل هذه الذكريات عن الطفولة، وهو مريض لديّ يعاني الشذوذ الجنسي الآن في سن الرشد:

«كانت سنوات طفولتي ومراهقتي تتشابه إلى حد كبير مع كثير من الناس: التجنب والنفور من لعب كرة القدم الأمريكية، والبيسبول، وكرة السلة، والكثير من الاستنكار الصامت من جانب أبي، والابتعاد عن ألعاب الاشتباكات الخشنة؛ وعدم وجود الأصدقاء المقربين الذين يمكنني مشاركتهم في أي شيء؛ وكذلك مرض الربو؛ وعدم الاكتراث والانعزال العاطفي- حتى عن إخوتي وأقاربي!

ويا له من أمر مدمر أن تعتقد في مثل هذه السن الصغيرة أنك لست أهلاً لأن تكون رجلا! أن تصبح الابن الذي لا يتشرف به أي أب!

وعندما وصلت مرحلة البلوغ والرغبات الطبيعية المصاحبة لها، وتحركت الشهوة الجنسية تجاه الذكور، بقية القصة تصبح معروفة.

ولقد كنت أبحث عن الشعور بالارتياح في مشاهدة التلفاز والأفلام السينمائية، وقراءة الكتب، والاستماع إلى الموسيقى، ورغم حبي لسماع سيمفونيات "باخ"،

و"موتسارت"، و"هايدن"، إلا أن الموسيقى وحدها لا يمكن أن تكون أبدًا الترياق الشافي للشعور بالوحدة، ومثل كثير من الناس، اخترت أن أعيش في صمت، وكان هذا الصمت يؤلمني كثيرًا ويجثم على صدري بطريقة تعجز الكلمات عن وصفها».

أخبرني "رودي"- وهو رجل شاذ جنسيًّا- بأنه عندما كان في المدرسة الابتدائية كانت أمه تمشط له شعره وتسرحه بطريقة مميزة، وتستخدم مثبتًا ليحافظ على شكله، وكان الصبية يستهزئون به بسبب شعره الذي كان يبدو غريبًا وخشنًا، كان "رودي" يخرج في كل صباح وهو يرتدي قميصًا أبيض نظيفًا، ملتزما بنصائح أمه جيدًا، كان يعود إلى المنزل كل يوم مبكرًا ومحافظا على نظافة القميص الأبيض بالدرجة نفسها، أصبح "رودي" معجبًا بصبي آخر ما زال يتذكر قسمات وجهه بوضوح حتى اليوم، كان هذا الصبي على النقيض من "رودي"؛ فقد كانت بشرته سمراء، وكان شعره طويلاً ومجعدًا على نحو واضح، وكانت الفوضى تسود ملابسه، وكان صوته عاليًا، ويتذكر "رودي" أن هذا الصبي كان يبدو مثل "همجي صغير"، وحتى الآن، ما زال يشعر بالحنين الرومانسي إلى قسمات الوجه الذكوري الطبيعي الذي حرم من تجربته بسبب أدائه لدور "الولد الرائع الصغير" طوال عمره.

ويبدو أن الإعجاب بمثل هذه الصور "المحظورة" يتكرر كثيرًا كموضوع شائع في حياة الشواذ، وينجذب الكثير من الشواذ إلى الحانات التي يرتدي فيها الرجال ملابس الشرطة، والجنود، وأفراد العصابات الذين يركبون الدراجات النارية، ويرتدون قبعات جلدية ويمسكون بالسلاسل، ولقد قال لي أحد مرضاي: "في النهار، يعمل الكثير من هؤلاء الرجال الذين يرتدون هذه الملابس محاسبين صغارًا".

التمثيل والخيال ورموز الشذوذ:

كثيرًا ما نرى في عالم الرجال الشواذ الإعجاب بالصور الأنثوية ولعب أدوار الرموز الأنثوية، وكثيرًا ما نرى أيضًا الاستغراق في التخيل، والانهماك في المسرح، وحب التمثيل بين الصبية في مرحلة ما قبل الشذوذ (كما بين الرجال الشواذ)، وكان الكثير من مرضاي أيضًا يعزفون على البيانو عندما كانوا أطفالاً، ومن المحتمل بالطبع أن يرجع بعض من هذا الاهتمام بالموسيقى والمسرح إلى الإدراك الطبيعي للصبي الذي ولد بطبيعة حساسة، ولكن في كثير من الأحيان يصبح التخيل- على

الأخص- وسيلة للهروب، وطريقًا لتجنب التحدي الذي تثيره المشاركة في عالم يتطلب هوية جنسية واضحة.

ويشعر الرجال الشواذ بالانجذاب نحو الصور الأنثوية المثيرة للإعجاب والجدل، ولا يختارون الرجال رموزاً لهم؛ فيشعرون بسحر شخصيات نسائية يتسمن بالصرامة والحزم والإغراء مثل "جودي جارلاند" و"باربرا سترايساند" و"بيتي ديفيس" و"بيتي ميدلر"؛ أو شخصيات مأساوية أُسيء فهمهن مثل "مارلين مونرو" و"جودي جارلاند" و"الأميرة ديانا".

وعندما كان هؤلاء الشواذ أطفالاً، كانت تأسرهم صور كرتونية مثل الأميرة الهندية "بوكاهونتوس" وعروس البحر الصغيرة و"سندريللا"، وكانت مسايرة الرموز الأنثوية تتيح لهم النفاذ إلى التصورات الأنثوية السرية لعالم الطفولة، مما كان يسمح لهم بالهروب من تحدي تنمية قدراتهم الذكورية.

ويتساءل "توم هيس"- كبير المحررين سابقًا في "عين على العائلة"، وهي مؤسسة كنسية تهتم بشؤون الأسرة-: "لماذا ينجذب الرجال الشواذ إلى عالم ديزني في شهر يونيو من كل عام؟"، إن كل من يشكك في أن الاضطراب الجنسي هو أساس الشذوذ الجنسي لدى الرجال سوف تزول شكوكه بعد أن يرى احتفال ديزني السنوي بيوم الشاذين، ويقول "هيس" ملاحظًا: "إن الإعجاب الشديد برموز عالم ديزني- مثل "أليس"- هو أحد الأمور المفضلة التي تجذب انتباه الشواذ الذين يتقاطرون على ديزني في يوم الشواذ في كل عام".

ويقول "هيس" أيضًا: "تنزل "سنووايت" ومعها الأقزام السبعة من عربة الغابة المسحورة وابتسامة عريضة تعلو وجوههم، ويدعون الكثير من الأطفال تحت سن السادسة للانضمام إليهم والرقص معهم"، ولكن في هذا اليوم- يوم الشواذ- هناك رجل يرقص بمرح مع "سنووايت" بينما يرتدي تاجًا من الماس لفتاة صغيرة، ويقول "هيس": "وهناك أيضًا آلاف الشواذ الذين يشاهدون ذلك، والذين يظهرون الفرحة مثل الأولاد الصغار.. فهناك بحر من الرجال الذين يصفقون ويهتفون في إعجاب شديد" [6]، وهناك رجل آخر يقفز عاليًا، وهو يضع شريط زينة منقطًا للشعر على رأسه، متراقصًا على أنغام الموسيقى وهو يرتدي ملابس "أليس".

ولقد أخبرني أحد مرضاي البالغين بأنه لمدة عشر سنين- من سن الخامسة عشرة إلى الخامسة والعشرين- كان لا بد أن يتواصل مع "جودي جارلاند" في كل يوم، فإما أنه كان يستمع إلى أغانيها المسجلة (كان يمتلك كل ألبوماتها)، أو كان يتأمل صورتها الفوتوغرافية قبل أن يتمكن من مغادرة شقته ويذهب إلى العمل؛ لقد كان يرى هذه الصورة الأنثوية رمزًا يخفف عنه ما كان يشعر به.

يناقش أحد المشاركين في كتاب "روح شاذة"- وهو كتاب مشهور في أوساط الشاذين- حبه الخاص بالرموز الأنثوية، ويوضح أيضًا سبب ارتدائه فستانًا في بعض الأحيان:

«ارتدائي الملابس النسائية هو بمثابة تأكيد على أن لي الحق أن أكون أي شيء أختاره من الأنماط التقليدية الممكنة في الكون.. عند الفصل بين الرجال والنساء، أحب أن أبقي على السياج الفاصل بينهما، حتى أكون قادرًا على الإحساس بخبرات كلا الجانبين، ولكي ألفت الانتباه إلى أن الحواجز بينهما مصنوعة.. فمن الذي يقول: إن الرجال الشواذ لا يستطيعون ارتداء قطعة معينة من الملابس؟ أو لا يستطيعون التزين بأدوات التجميل؟ لم لا؟!

والمشكلة هي أن الناس يصرون على اتباع أحد الأمرين، وهذا يشبه النظام الثنائي للإدراك، [ولكننا] لن نتقمص دور الأنثى القديمة، كن طموحًا! فهذا جزء من توجيه نفسك إلى اتباع نمط تقليدي، إن هناك الكثير من الناس.. خذ مثلاً المطربة والممثلة "بيت ديفيس"، أما أنا فأختار ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى، إن بينهما خصائص مشتركة؛ فهما تثيران الإعجاب بتصرفاتهما غير المعتادة، وتتسمان بالغطرسة وبغموض هويتهما الجنسية إلى حد ما.[7]

ويقول الرجال الذين يمثلون أدوار الشخصيات الأنثوية: إنهم يفعلون ذلك لأنه ينفس عنهم ما يشعرون به من صراعات وضغوط داخلية، وهناك بعض الرجال الذين يحتفظون بمجموعة كاملة من الملابس الداخلية وقمصان النوم النسائية المنتقاة من كتالوج "فكتوريا سيكرت"، ويرتدون هذه الملابس بعيدًا عن الأنظار للتنفيس عما يشعرون به من ضغوط يسببها اضطرارهم لتقديم الصورة الذكورية إلى العالم، ولقد رأينا جميعًا الرجال الشواذ في العربات التي تجرها الخيول في الاحتفال المسمى بـ"استعراض التفاخر" أو في الحانات وهم يرتدون أحذية ذات

كعب عال ويضعون شعرًا مستعارًا، إن هؤلاء الرجال يلجؤون إلى خيار التخيل مرة أخرى- تخيل الميول الأنثوية سرًّا في مرحلة الطفولة، عندما قرروا أنهم ليسوا مضطرين إلى الاختيار بين أن يكونوا إما ذكورًا أو إناثًا؛ فيمكنهم أن يكونوا الاثنين معًا، ولكن التركيب البيولوجي (على مستوى الهوية الجنسية) هو قدر محتوم، فإن عواقب خيار التخيل لا ينتج عنها تأنث حقيقي، وإنما إحساس متغلغل بالسخط من العجز الذكوري.

وها نحن نتذكر ملاحظة الناشطة المثلية "كاميللي باجليا" التى تقول: إن "الرجولة مفهوم خادع ومحفوف بالمخاطر، وهو مفهوم يتحقق بالتمرد على الأنوثة، ولا يثبته سوى الرجال الآخرين" [8]. ولا يزال الرجال الذين يشعرون بعجز الهوية الجنسية يتشبثون سرًّا بالتماثل الأنثوي الذي كان ملائمًا للأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة، ولكن هذا يعزلهم عن مواجهة التحدي السوي للعالم ذي القطب الجنسي الأحادي.

هل هناك نهاية لنظام الهوية الجنسية؟

يتذكر الرجال الشواذ الهوية الجنسية بوصفها مصدرًا للألم في فترة الطفولة؛ ولذا، فليس من المستغرب أن يكون إلغاء التمييز على أساس الهوية الجنسية هو أحد المطالب الرئيسية في ثقافة الشذوذ، وكثيرًا ما يدعو مؤيدو الشذوذ الجنسي إلى "إنهاء العمل بنظام الهوية الجنسية"، ويطرح "داريل بيم"- وهو عالم نفسي يجهر بهويته الشاذة- رؤيته للمجتمع المثالي قائلاً: "عندما تسود "ثقافة تلغي الهوية الجنسية"، سيكون من المحتمل أن يكون كل شخص (ذكرًا كان أم أنثى) محبوبًا لكل شخص آخر" [9].

وفي الوقت الذي يصل فيه الرجال الشواذ إلى سن الرشد، فإن الكثير منهم يشعرون بمزيج من كره الذات (الذي يسمونه الرهاب المبطن للشذوذ الجنسي)، والرغبة الملحة في الوصول إلى الذكورة عن طريق شريك مثير جنسيًّا، ووجود نزعة دفاعية للاحتفال بارتباك الهوية الجنسية وكأنها تمثل الحالة الأرقى والأسمى، ويحتوى كتاب "روح شاذة"، الذي يتناول مقتطفات أدبية مختارة، لمجموعة من الكتاب الشاذين، تمجيدًا لما يدعون أنه تفوق الرجال الشواذ؛ لأنهم يحملون "روحًا مزدوجة"، ويوضح أحد الكتاب الأمر قائلاً: "إن الشواذ من الرجال والنساء يمثلون

ركناً أساسيًّا في بناء المجتمع الصحي، كأناس تحرروا من مسؤوليات التناسل.. وكأناس يلفتون الانتباه إلى حدوث اندماج داخلي بين الذكر والأنثى- انحراف مقدس- من الممكن أن تتطلع إليه كل الكائنات".[10]

ويقول كاتب آخر: "إن ممارسة الجنس هو طريق لتحقيق سعادة الروح، ولقد اتبعت سبلاً لتحقيق هذه السعادة طوال حياتي.. الثنائية الجنسية أمر طبيعي؛ فالطبيعة متحررة جنسيًّا، والروح ثنائية الهوية في كل شخص.. والشعور بالسعادة يجعلنا كالآلهة".[11]

ويعرب كاتب آخر عن موافقته على الرأي القائل بتفوق حالة الشذوذ الجنسي قائلاً:

«أعتقد أن مستقبل العالم، وأمل العالم، يعتمد علينا نحن؛ فالرجال الذين يحبون بعضهم هم الوحيدون القادرون على إنقاذ هذا الكوكب، إن هذا الأمر مهمتنا، إنه هدفنا؛ فنحن نتمتع بنوع مختلف من الطاقة التي لا يتمتع بها غيرنا، إن العالم يتطلع إلينا رغم أنه لا يدرك قدراتنا.

ولأننا نعيش بين الهويات الجنسية، فنحن نعيش أيضًا بين المادة والروح، بين هذا العالم والعالم الآخر.. فليس هناك ما يمنعنا [من ممارسة الحب مع بعضنا]، فليست هناك لعنة أو سجن، أو أي نوع من التسميات النفسية يستطيع فعل ذلك؛ لأن الطاقة التي بداخلنا بالغة القوة، إن هذه الطاقة تتيح لنا أن نغذي أرواحنا ونثري ثقافتنا».[12]

ولقد بدأ تغيير المواقف نحو الهوية الجنسية ينتشر بالفعل خارج نطاق أدب الشذوذ الجنسي، وانتقل إلى ساحات القضاء، فقد أعرب بعض القضاة عن أن "نظام الهوية الجنسية" هو تمييز مجحف، ولقد أصدرت محكمة في مدينة "بروكتون" بولاية "ماساشوستس" الأمريكية- حكمًا يسمح لفتى في المدرسة الثانوية بحضور الصف الدراسي وهو يرتدي ملابس الفتيات، وكانت المدرسة قد فصلت هذا الصبي فصلاً مؤقتًا ثلاث مرات بسبب استخدام دورات المياه الخاصة بالفتيات، وارتداء حمالة للصدر، وارتداء شعر مستعار، وارتداء تنورة ضيقة، وحذاء بكعب عال، وبسبب إمساكه لأرداف صبي آخر.

ولقد شخصت الاختصاصية المعالِجة حالة هذا الفتى على أنها اضطراب في

الهوية الجنسية، وقالت: "أرى أنه من الضروري طبيًّا وسريريًّا أن يرتدي هذا الفتى الملابس التي تتناسب مع هويته الأنثوية"، وأخبرت المحكمة بأنه إذا لم يتم السماح له بارتداء ملابس مثل الفتيات، فسوف يصاب بالصدمة والهلع، وما كان من القاضية في هذه القضية- وهي سحاقية بارزة- إلا أن توافق على رأي الاختصاصية المعالِجة للفتى، وأن تشير إليه بضمير المؤنث "هي".[13]

إن إجراء عمليات جراحية للتحول الجنسي هو موضوع قام المجتمع الشاذ- لأسباب تتعلق بالعلاقات العامة- بالتقليل من شأنه منذ فترة طويلة، ويشك نشطاء الشذوذ في أن الناس يشعرون بأن هناك شيئًا "غير طبيعي" عندما يعتقد الصبي أنه فتاة، ولكن مع النجاحات السياسية التي تحققت مؤخرًا لحركة الشذوذ، فإن الجهود السابقة لتقديم الشواذ من الرجال والنساء "كأصحاب هوية طبيعية مثل الأسوياء جنسيًّا" تتراجع تدريجيًّا مفسحة المجال أمام أسلوب أكثر جرأة، لقد بدأ نشطاء الشذوذ في تكوين جماعات ضغط تطالب بإقرار قوانين جديدة تؤكد حق الأشخاص المتحولين جنسيًّا في ارتداء الملابس وتعريف أنفسهم في مجال العمل وفقًا لهويتهم الجنسية المفضلة.

وعلى النقيض من ذلك، يقول "ديل أوليري"- مؤلف كتاب " أجندة الهوية الجنسية"، إنه يجب على المجتمع أن يقاوم التضليل الذاتي:

«إن الفتى الذي في مدينة "بروكتون" بولاية "ماساشوستس" لا تجب الإشارة إليه بالضمير "هي"، ولا يهم في ذلك عدد القضاة والاختصاصيين المعالجين الذين يدعون بأنه كذلك، بل هو في الحقيقة فتى يعاني اضطرابًا حادًّا في الهوية الجنسية ؛ ولذلك فهو في أمس الحاجة إلى المساعدة الجادة، وللأسف، فإن الكثير من اختصاصيي الصحة العقلية والطبية يرون أن تقديم الدعم لهذه الصورة المضللة يعتبر أساسًا للعلاج- بدلاً من العمل على إيجاد علاج لهذا النوع من المشكلات النفسية، والأدهى من ذلك، أنهم يتمادون في ضلالهم من خلال السماح بإجراء عملية جراحية تستهدف "تغيير" جنس الفرد.

إن المرضى الذين يعانون الاعتقاد بأنهم رجال محبوسون في أجساد النساء (أو أنهم نساء محبوسات في أجساد الرجال) يحتاجون إلى مساعدة حقيقية، إن قطع الأجزاء الخاصة بجسم الرجل، وتكبير حجم الثدي، وحقن الجسم بالهرمونات

الأنثوية، وقص اللحية لن تجعل من هذا الرجل امرأة- بل ستجعل منه شيئًا أقل من شخص خصي، إن إجراء العملية الجراحية لن يغير من حقيقة أن كل ذرة وكل خلية في جسد هذا الرجل تظهر بوضوح الجينات الذكورية.[14]

ويشير "أوليري" أيضًا إلى أن كل هذه الجهود هي جزء من حركة اجتماعية تهدف إلى إثارة البلبلة حول الهوية الجنسية للفرد وزعزعة استقرار الحياة الجنسية السوية".

هل هي مجرد لامبالاة بالهوية الجنسية؟

يقول الطبيب النفسي "ريتشارد فيتسجبونز": إن الطفل الذي يعاني ارتباك الهوية الجنسية لا يشعر في الحقيقة بعدم اللامبالاة نحو الهوية الجنسية، وبعبارة أكثر دقة: فإنه يرفض رفضًا واضحًا الهوية الجنسية التي يجب أن تكون هويته الخاصة.

إن الأطفال الذين يمرون بمشكلات اضطراب الهوية الجنسية لا يعيشون في عالم محايد على مستوى الهوية الجنسية، حيث يلعب الصبية والفتيات بالدمى نفسها، إن هؤلاء الأطفال المضطربين يرفضون أنواعًا معينة من الألعاب والملابس؛ لأنها مرتبطة بالفعل بهويتهم الجنسية الخاصة، ويقومون في الوقت نفسه بأنشطة معينة؛ لأنهم يرتبطون عقليًّا بالجنس الآخر، كما أن الصبية الذين يعانون مشكلات حادة في الهوية الجنسية ربما يستخدمون الملابس الأنثوية لمجرد الشعور بالقبول أو لتلطيف حدة الشعور بالقلق، ويصيبهم الغضب والانزعاج عندما يحرمون من هذه الأشياء.

وربما يتساءل بعض الآباء قائلين: "وما الخطأ في أن يلعب أي صبي بالدمى؟" الإجابة هي أن المشكلة تكمن في أن مقدار ما لا يفعله الصبي- أن يتعلم أن يكون صبيًّا سويًّا بين الصبية- يتساوى مع مقدار ما يفعله- من أجل الهروب إلى العالم الأنثوي.[15]

إن المشاعر التي يصفها الرجال الذين يعانون الشذوذ الجنسي لا تدل (كما تزعم حركات الشذوذ كثيرًا) على اتجاه متطور أكثر رقيًّا نحو التأنث، فهي ليست مشاعر صحية أو إيجابية أو صريحة، كما يقول اختصاصي علم النفس "داريل بيم"؛ بل إنها مجرد "لامبالاة بالهوية الجنسية"، [16]إنها مشاعر تعبر عن ارتباك في

الهوية الجنسية وشعور بالاغتراب.

ويصف "ريتشارد وايلر" سبب وجود هذه المشاعر بين الذكور وبعضهم بعضًا قائلاً: «إن بعضنا يبدأ في النظر إلى الرجال بقصد أو بدون قصد على أنهم أدنى درجة.. مثل "إنسان الكهف" الأقل "تطورًا"، وفي كثير من الأحيان، نخضع للظاهرة النفسية الشائعة التي تقول: إننا ننتقد الأشياء التي نحسدها كثيرًا.. أو نخاف منها كثيرًا».

ويذكر "دان"- وهو مريض سابق- مثالاً آخر يوضح تجربة اغتراب الهوية الجنسية:

«كان لدينا منزل ريفي قديم خارج مدينة "سيوكس"، وكان في هذا المنزل باب سري متداعٍ يفضي إلي درجات سلم تصدر صريرًا عند النزول إلى القبو الذي تغلفه الرطوبة الخانقة، وكان أبي يهرب منا ويقضي ساعات طوالاً في ورشته الموجودة هناك، وكان محرمًا عليَّ أن أذهب إلى هناك، فربما أكسر أدواته أو أصاب بأذى، وهذا ما كان يقوله لي أبي؛ ولذلك كنت أرقد على بطني؛ لأنظر إلى أسفل وأشاهد ما يفعله أبي.

والشيء الذي لن أنساه أبدًا هو مشاعر الفضول التي كانت تتنازعني إزاء ما كان يجري هناك بالأسفل، وفي النهاية، سمح أبي لأخويّ اللذين يكبرانني سنًّا بمساعدته؛ حيث كانوا يتسامرون ويعملون ويضحكون، إن الغموض الذي كنت أشعر به كان لا يدور حول ما يحدث هناك في القبو فحسب، بل كان الأمر الأكثر غموضًا هو شخصية أبي، فإلى اليوم، لا أفهمه بالفعل.

ولو كان عليّ أن أرسم صورة واحدة تمثل مرحلة طفولتي بالكامل، لرسمت نفسي وأنا أنظر إلى الظلام بالأسفل حيث يوجد والدي وأخواي».[17]

إن هذا الجوع والنهم للاهتمام والعطف وقبول الذكور الآخرين، والاشتياق إلى المشاركة بطريقة الذكور في التعلم والاستكشاف"، تتحول في مرحلة المراهقة المبكرة إلى رغبات جنسية، وعندما تبدأ هذه الاحتياجات في اتخاذ طابع جنسي حاد، فإن الصبي ربما يفسر هذه الرغبات بـ"أنه شاذ جنسيًا"، خاصة إذا وجدت هذه الفكرة الدعم من برامج استشارات الشواذ في المدرسة أو في غرف الدردشة على الإنترنت، وكما يقول "ريتشارد وايلر":

«لقد كنا نرى أنفسنا بالغي السمنة أو النحافة أو القصر أو الغرابة أو الضعف أو الرقة، أو نرى أننا لا نتمتع بحسن المظهر المناسب، أو لا نتمتع بقدرات رياضية كافية- أو أية صفات أخرى نتطلع إليها بإعجاب في الرجال الآخرين ولكننا نرى أنها تنقصنا نحن.

كان أكثر من مجرد النظر للنفس بدونية، بل إنه تقليل من شأن هويته الجنسية أيضًا، خلل في صميم الإحساس بالهوية الجنسية يترتب عليه بناء أحكام خاطئة عن الصورة الذهنية للنفس ككيان كامل، معالم الفحولة كانت تبدو واضحة على الرجال الآخرين بشكل تلقائي وعفوي، ولكنها لا تأتينا بطريقة طبيعية أبدًا، لقد كنا نتطلع إليها ولكننا كنا في حيرة من طريقة تحقيقها، وعندما نكون وسط الذكور الآخرين، كنا نشعر بالاختلاف والوحدة».

ويصف المؤلف "ويليام آرون" هذا الموقف نفسه في سيرته الذاتية:

«إن ما أسهم في انتكاستي وسقوطي في الشذوذ الجنسي هو أنني كنت واحدًا من هؤلاء الأطفال الذين يتسمون برقة المشاعر والميول "الفنية"، والذين لا يتمتعون بالموهبة أو بالاهتمام بأي من الممارسات "الذكورية" المعتادة، لقد كنت أكره الأنشطة البدنية- وعلى رأسها الرياضة والألعاب- وعندما كنت ألعب وأسعى لأكون جزءًا من المجموعة كنت أفشل بشكل مريع في الأداء بشكل جيد، وكنت أعاني لفترة طويلة بعد ذلك الشعور بالخزي لعدم النجاح، لقد كنت حالة تقليدية لدرجة أنني شعرت (فيما بعد) بأنني لا أنتمي إلى عالم الذكور، وكنت أشعر بالراحة والقدرة عندما أكون في بيئة يسودها الغموض والسرية».[18]

وربما تظل رغبات الصبي الذي يمر بمرحلة ما قبل الشذوذ معه طوال عمره- بجانب الصورة الذهنية للنافذة- رمز الانفصال العاطفي، يصف "مالكوم بويد" طبيعة هذا الانفصال في كتابه "أنزع قناع الوجه":

«حينما وصلت إلى سن المراهقة، كنت شابًّا ضعيف البنية، أقرأ الكثير من الكتب، وأتسم بحدة الطباع وحب الوحدة بشكل ملحوظ، وعادة ما كانت تنتهي صداقاتي القليلة مع الفتية الآخرين بطريقة مفاجئة وبدون تفسير، وكنت أعتقد أن ذلك خطئي أنا؛ نتيجة لفشلي الشخصي في الحفاظ على العلاقات، وكنت أتطلع- في كثير من الأحيان- إلى العالم الخارجي للصبية الذين هم في سني، كسجين

ينظر من خلف القضبان الحديدية لزنزانة، لقد كنت أشعر بأني مسجون داخل نفسي، وكنت أتحرق شوقا للخروج».[19]

مضاعفة إمكانيات الرجولة:

إنني أعتقد أن الإشارات الضمنية للآباء والأمهات في هذه الدراسات في غاية الوضوح، ولكي ينمو الصبية وينمو معهم إدراك سليم بأنفسهم كذكور، يجب تشجيعهم على التغلب على مخاوفهم، وهناك الكثير من الطرق التي يمكن استخدامها لمساعدتهم على تحقيق ذلك.

عندما يرتبط الصبية بآبائهم بطريقة جيدة، ويبدؤون في تلمس الخصال التي تجعل رفقتهم مثيرة، وممتعة، ومنعشة، فإن هذه العلاقة تستحث فطرة الصبي الذكورية الخاصة به، وهكذا، يكتشف الابن- من خلال أبيه- الشعور بالحرية وقوة الاختلاف عن الأم، والاستغناء عنها والدخول إلى عالم الرجال، وفي النهاية الوصول إلى نضج الحياة الجنسية السوية عند البلوغ.

وتتمتع تجمعات الصبية بقوة فريدة في تفعيل الإمكانيات الذكورية في كل منهم، وربما تكون قد لاحظت- كوالد- كيف أن تفاعل الصبية بطريقة خشنة تبادلية تثير التحدي يؤدي إلى زيادة قوتهم، ومن خلال إحداث التوازن بين المنافسة والتعاون- المضايقة، والسخرية، والإهانة، واستخدام القوة البدنية، وتقديم العون، وإظهار العطف- نرى عملية "دعم متبادلة"، وربما يشعر المراهق رقيق المشاعر بالألم والارتباك بسبب المضايقات والتعليقات الساخرة التي يتوسع فيها الذكور بحسن نية، إن الصبية سوف يقللون من شأن بعضهم بصورة متبادلة، ثم سيرفعون من الروح المعنوية لبعضهم بفضل وجود الحب الصارم الذي يميز الحنان والعطف الذكوري، وهذا يختلف تمامًا عن الطريقة التي تتصرف بها الفتيات معًا، وتظهر هذه الطريقة الذكورية الفريدة في الارتباط في فيلم "قف بجانبي"؛ الذكور يتعلمون المرونة العاطفية من بعضهم، والثقة في الرجال الآخرين، وهذه أمور يفتقدها الصبي في مرحلة ما قبل الشذوذ.

وهناك طريقة أخرى لمساعدة ابنك، وهي مساعدته على اكتساب المهارات الأساسية في الرياضة التي يستمتع بممارستها- وغالبًا ما تكون رياضة فردية مثل السباحة أو الجري أو ركوب الدراجات- حيث يمكنه أن يتعلم تقبل المخاطر

الضرورية ليشعر بأنه ينتمي لعالم الذكور، وربما لن يصبح الصبي الذي يتسم برقة المشاعر لاعب كرة قدم أمريكية، ولكن هذا لا يعني أنه يجب عليه أن يستسلم ببساطة لما يشعر به من خوف ويلجأ إلى أنشطة الفتيات أو إلى اللعب بمفرده والعيش في عالم الخيال.

ما الذي يجب على الأم (أو الأب) القيام به؟

تخبرنا والدة "ويل" في مذكراتها بالمزيد عن كيفية تقدم ابنها، ومؤخرًا أثر التدخل الإيجابي للوالد بصورة مثيرة على الطريقة التي يشعر بها "ويل" تجاه نفسه:

«21 مايو:

كان "ويل" مريضًا في الأسبوع الماضي، وبسبب هذا رأيت الكثير من السلوكيات الارتدادية للشذوذ، ولم أعرف هل يرجع هذا إلى ما أبديته كأم من اهتمام به، أم إلى مشاهدته التلفاز معظم الأوقات، أم كل هذه الأسباب مجتمعة؛ لقد تظاهر بأنه الأميرة "تودستول"، ولكنه استيقظ ليجد نفسه مصابًا بالحمى وقام بالنداء على والده وليس عليّ، وهذه علامة أخرى مهمة.

27 مايو:

خرجنا في نزهة في إجازة "يوم الشهداء"، ولعب "ويل" البيسبول مع مجموعة من الصبية، ولم يستطع ضرب الكرة على الإطلاق، إنني أعلم أن هذا كان بسبب اهتزاز ثقته بنفسه أمام الصبية الآخرين؛ لأنه عندما يلعب مع والده، كان يستطيع أن يضرب الكرة جيدًا، ولقد شعرت بالألم لرؤيتي هذا.

17 يونيو:

ذهب "ويل" إلى صيد السمك مع والده، فلقد نصح الدكتور "نيكولوسي" زوجي بأن يمنح "ويل" شيئًا يتطلع إليه، وكانت رحلة الصيد هي هذا الشيء.

23 يونيو:

لا يزال "ويل" غير متحمس للعب الرياضة، وربما لم يكن متحمسًا مطلقًا، ولكنه يلعب- قليلاً- البيسبول، وكرة السلة، وكرة القدم، ولعبة الكيك بول الشبيهة بالبيسبول،

وعندما كان يلعب مع والده لم يكن سيئًا، حيث أصبح أكثر قوة في ركل وتوجيه اللكمات لكيس اللكم، إني أرى مستقبلاً إيجابيًّا معقولاً من هذه الناحية، ويلعب "ويل" كل ليلة مع والده، رغم أن هذا ليس الشيء المفضل لديه، ثم ينامان أثناء مشاهدة مباراة لكرة القدم.

2 يوليو:

لقد بدأ "ويل" التخييم اليوم، وكنت أشعر بالخوف الشديد من إرساله هناك؛ كنت أخشى ألا يكون مستعدًّا حينئذ للخروج إلى عالم الذكور بمفرده، لقد كنت أشعر كأني أرسل خروفًا للمسلخ، كان أمامي مهلة حتى نهاية الأسبوع الأول لأستعيد ما دفعته من رسوم مقابل دروس التخييم، ولقد أبقيت على هذا الاختيار خوفًا على حياته، فلقد كنت متأكدة من أنني سأقوم بإلغاء هذا الأمر، ولكن الأمر سار بشكل جيد، وأعجب به "ويل" كثيرًا ولم يكن خائفًا من الذهاب على الإطلاق! ولقد خصصوا له رفيقًا يسمى "إيفان"، وكان يلعب دائمًا مع الصبية (وكانت هناك فتيات في مجموعته أيضًا) عندما كنت أذهب لرؤيته، ومع ذلك، ما زال يفتقد الثقة بنفسه ولا يزال يتحدث عن السحر وعالم ديزني.

20 يوليو:

كان "ويل" راكبًا على دراجته عندما قال لصبي كان يلعب معه: "المس هذه الورقة، إنها سحرية، إنها ستحولك إلى فتى"، وقد فسّر الدكتور "نيكولوسي" هذه العبارة بأن "ويل" يرغب في أن يكون فتى، ولكنه يرى أن هذا سيتحقق من خلال الخيال فقط.

1 سبتمبر:

أصبح "ويل" مشهورًا بين الصبية في معسكر التخييم، وكان هو الصبي الوحيد من معسكر التخييم الذي دعاه رفيقه "إيفان" إلى حفل عيد ميلاده، وقالت والدة "ديفيد": إن "ديفيد" يتحدث طوال الوقت عن الأشياء الممتعة التي فعلها هو و"ويل" معًا، ولقد حصلت على المعلومات نفسها من والدين آخرين لصبي يدعى "برايان"، وفي الوقت نفسه، يمكنني القول بأن علاقة "ويل" مع والده قد أصبحت رائعة.

ولقد قام زوجي بخطوة إيجابية كبيرة اليوم؛ حيث أعطى "ويل" بعضًا من قمصانه ليرتديها، وارتداها وكان فخورًا جدًّا بذلك، وقبل ذلك، كان يرفض ارتداء أي شيء يشبه أشياء والده، ولقد كان من الممكن أن يوافق على ارتداء شيء من ملابسي الخاصة، قبل أن يوافق على ارتداء شيء من ملابس والده، ولقد حصل "ويل" على صندوق أدوات للعب من والده، ويتطلع الآن إلى تقديم المساعدة في إصلاح الشاحنة، واستمر هو ووالده في الاستحمام معًا كلما كان ذلك ممكنًا، وأنا أشعر بالسعادة البالغة الآن، وقد نام "ويل" في الليلة الماضية مع كرة السلة الجديدة الخاصة به».

وكما يمكنكم أن تروا؛ فقد بدأ "ويل" في إحراز تقدم جيد عندما قام والداه بثلاثة أشياء محددة، وعلى كل أب وأم أن يتبع خطا والدي "ويل"؛ وهاهي الأشياء الثلاثة التي يجب على الوالدين فعلها من أجل مساعدة ابنهما:

1. الأب: بذل الاهتمام.
2. الأم: التراجع.
3. كلا الوالدين: إدخال صبية آخرين في الصورة.

ويجب على الوالدين الاستفادة من إحضار الصبية الآخرين حول أبنائهم، فكما رأينا، فإن الصبية الذين يمرون بمرحلة ما قبل الشذوذ لا يكون لديهم أصدقاء مقربون من الذكور في العادة، فيميل هؤلاء الصبية إلى التحفظ والحذر والانعزال العاطفي عن الأصدقاء الموجودين بالفعل، ويغيب عن هؤلاء الصبية الصداقات الحميمة المنبسطة والمشاكسة التي تميز العلاقات بين معظم الصبية الذكور.

إن هؤلاء الصبية الذين يتصفون برقة المشاعر لا يعرفون كيفية التواصل مع الذكور؛ ولذلك فإنهم يلجؤون إلى مصاحبة الفتيات بدلاً من ذلك؛ لأن هذا يبدو أسهل بالنسبة لهم ويشعرهم بمزيد من الأمان، ويمكنك مساعدة ابنك من خلال إعاقة تكوين الصداقات مع الفتيات بشكل غير مباشر، والعمل بهمة على اختيار وتشجيع تكوين الصداقات مع الذكور.

ويشكو لي الكثير من الآباء والأمهات من أنه ببساطة لا يوجد الكثير من الصبية في الجوار، فإذا كان الأمر كذلك، وجب على الوالدين أن يوصلوا هؤلاء الصبية بالسيارة ذهابًا وإيابًا بحيث يمكن للابن تكوين صداقات معهم، وأنا أشجع الآباء

على أن يستضيفوا- كلما أمكن- صبيًّا أو اثنين لقضاء الليل مع ابنهم.

ولكن هناك نصيحة مهمة: في بداية العلاج، لن يشعر الصبي الذي يعاني اضطراب الهوية الجنسية بالراحة لوجوده مع اثنين من الصبية، ومن الممكن أن يشعر بأنه مهمل بينهما؛ لذا فإنه من الأفضل أن يكون مع الابن صبي واحد فقط حتى يمكن للابن توجيه الانتباه إليه- ويمكن القول بأنه ينبغي أن يكون مع الابن صبي واحد فقط؛ حتى يمكن لهذا الصبي توجيه الانتباه إلى الابن، وهذا هو الأهم.

ويمكننا القول مرارًا وتكرارًا: إن تكوين الصداقات مع الصبية هو أمر لا يقدر بثمن، وسوف ترون سريعًا كيف يستجيب الابن بقوة لهذه العلاقات الذكورية، إنه سيشعر بالخجل في بداية الأمر، ولكن حالما يقل شعوره بالقلق، فسوف تلاحظون الرابطة العاطفية وفي بعض الأحيان، يصبح هناك إحساس بالاعتماد العاطفي، لا يمكن إشباعه إلا من خلال رابطة صداقة قوية ومستمرة.

تحذير: تجنب مجموعة الدعم هذه:

هناك مجموعة يجب على الآباء والأمهات الحذر منها وتجنبها، وهي مجموعة (آباء وأصدقاء الشواذ والسحاقيات)، وهذه مؤسسة تقدم الدعم لتأكيد الهوية الشاذة، ولقد أوصت الصحفية "آن لاندرز" وحتى وزارة التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية بالاستعانة بهذه المؤسسة، وتقترح الكثير من المدارس والوكالات الاجتماعية على العائلات اللجوء إلى هذه المؤسسة، التي لها فروع في خمسين ولاية أمريكية، ويزيد عدد الأسر الأعضاء المشتركين فيها على سبعين ألفًا.

وفي عام 1998، طلبنا شراء الكتيب الصادر عن هذه المنظمة وكان بعنوان "كن نفسك.. أسئلة وأجوبة للشواذ والسحقيات وثنائيي الميول الشباب"، ويحتوى على قائمة بالكتب الموصى بها للمراهقين الشواذ، وتكشف النظرة الفاحصة لهذه الكتب الموصى بها- رغم ذلك- عن أسلوب متناسق يتسم بالتطرف الاجتماعي والجنسي لإرشاد الأطفال.

وتصف القصص- التي تستخدم ضمير المتكلم وتستهدف المراهقين- بلغة إباحية، السعادةَ التي تغمر فتاة صغيرة حينما تتعرض للإغراء الجنسي على يد معلمتها السحاقية، والعلاقات الشاذة بين المراهقين والرجال الأكبر سنًّا، والدلائل الإرشادية المفصلة لممارسة العادة السرية، ويجد المراهقون بصفة

خاصة التشجيع في هذه الكتب على اتباع مشاعرهم فقط دليلاً إلى السلوك الجنسي المناسب، وأداةً مساعدةً على تحديد الصواب والخطأ بأنفسهم، وطريقًا إلى "الاستمتاع" بالتجارب الجنسية، علاوة على ذلك، تشجع هذه الكتب المراهقين على النظر إلى الأشخاص المتدينين المتمسكين بالتقاليد على أنهم أشخاص يتصفون بالوضاعة والنفاق، بينما تشجعهم في الوقت نفسه على النظر إلى الوعي بالشذوذ الجنسي على أنه شيء "مقدس".

وإذا قامت مجموعات تربية الأطفال بتزكية كتب مشابهة للمراهقين الأسوياء، فإن هذا سيعتبر انتهاكًا للمعايير الأخلاقية للمجتمع.

وتبدو بعض الكتب الموصى بها بريئة المظهر، حيث تبرر للمراهقين تجربة الشذوذ الجنسي بالنغمة المعتادة "هذه طبيعتي.. وهذا ما أنا عليه"، بل إن هناك كتبًا أخرى تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث تمجد ممارسة الجنس مع الحيوانات، وتلجأ إلى السحر، وتقدس النساء الفاتنات، وتبجل السعادة الجنسية كشكل ديني، والممارسة الجنسية مع مئات الشركاء، والحفلات الجنسية الماجنة والانغماس في المواد الإباحية .

ويوصي كتيب هذه المؤسسة الشباب المتدين بقراءة كتاب "بحثًا عن جذور روح وطبيعة الشاذ"، وهو كتاب يضفي "القداسة" على ممارسة الشذوذ الجنسي، وفي هذا الكتاب، تروى الحكايات التي تستخدم ضمير المتكلم، عن رجال يسخرون- بسعادة- من قسمهم بالتبتل في معهد تعليم اللاهوت، وعن رجل بلغ ذروة النشوة الجنسية خلال توهمات تصوفية، وعن شعور اختصاصي علاج نفسي بالتلذذ الجنسي من خلال تعذيب الذات والآخرين باستخدام آلات وأدوات حادة كأنها تجربة صوفية، ويصف كاتب آخر في مقتطفات أدبية مختارة بعنوان "مقدس" زنا المحارم بين الإخوة الذكور والآباء والأبناء.

وبعد أن قمنا بتقديم شكوى ضد هذه المنظمة- بسبب قائمة الكتب التي توصي بقراءتها- إلى وزارة التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية، لم يتم- على خلاف ما كنا نتوقع- حذف هذه المنظمة من قائمة الوكالات التي توصي الحكومة بالاستعانة بها، ولكن مجموعات تربية الأطفال حذفت بالفعل هذه القائمة الموصى بقراءتها للمراهقين من الطبعة التالية لمنشوراتها.

ولقد أخبرتنا أم صبي شاذ جنسيًّا، بأنه في اجتماعات أحد الفروع المحلية للمؤسسة يتوقعون من كل المشاركين- آباءً وأمهات- أن يظهروا "توجهًا موافقًا"، فكتبت تقول:

«كان أعضاء المجموعة يتشاركون الملاحظات والتعليقات الإيجابية، حيث شاركتنا أم لابن يبلغ 29 عامًا مصاب بمرض الأيدز، وأخبرتنا بفخر بأنه في الليلة الماضية قام ابنها بارتداء ملابس نسائية والتصرف بأنوثة لأول مرة في حانة للشواذ، ولقد أوضحت لنا أنها وصلت إلى هذه الحالة من الشعور "بالفخر" بعد شهور من التشجيع من رفاقها من أعضاء المجموعة الذين "ساعدوها" على اعتناق هذا التوجه؛ لتتقبل تمامًا سلوك ابنها الشاذ وتشجعه.[20]

مؤسسة "الأبوة المنظمة" لم تعد جديرة بالثقة:

لا يستطيع أي منكما- أيها الأب أو الأم- النظر إلى نصائح منظمة "الأبوة المنظمة" أو موقعها الإلكتروني للمراهقين، حيث تشجع هذه المنظمة المراهقين على التحايل على سلطة الآباء والأمهات فيما يتعلق بالأمور الجنسية، وهي تبدي حماسًا شديدًا للتوجه نحو الشذوذ الجنسي ("إنه أمرٌ رائع")، بالإضافة إلى التحرر الجنسي بصفة عامة، ويقول موقع المجموعة الإلكتروني للمراهقين:

«في الواقع، لا تستطيع صفحة أي موقع إلكتروني أن تخبرك بما إذا كنت جاهزًا "لممارسة الجنس" أم لا، كما لا يستطيع أن يفعل ذلك أفضل صديق أو رفيق أو رفيقة، أو أب أو أم أو أخ أو مستشار أو حاخام.. حسنًا، أرى أنك قد فهمت الفكرة، إن الشخص الوحيد الذي يمكنه إخبارك بالوقت المناسب لذلك هو أنت.

والحقيقة هي: إذا كنت فتاة سحاقية، أو فتى شاذًا، أو شخصًا سويًّا، أو ثنائي الميول الجنسي، فإن هذه طبيعتك، وهذا شيء لا بأس به؛ لذا، لا ترهق نفسك؛ لأن الإنكار لن يساعد على تغيير ما يجعلك تشعر بالإثارة».[21]

ثلاثة أنواع من الرياضة:

عندما يحاول الوالدان إيجاد طريقة لأنشطة جديدة يمارسها أبناؤهم، فغالبًا ما أتحدث معهم عن أنواع مختلفة من الرياضات المتاحة.

إن ارتباط الأولاد "بالعمل" والرياضة- شئنا أم أبينا- هو أكثر أشكال "العمل" شيوعًا وتوافقًا مع الذكور في ثقافتنا، وفيما يلي ثلاث فئات من الرياضة تم تقديمها وترتيبها وفقًا لفائدتها:

1- **الرياضات الفردية**: مثل السباحة، وركوب الدراجات، والجري، والتزحلق على الأرض بلوح التزحلق، والتزلج على الجليد، وعلى الأرض بأحذية التزلج.

وتمنح هذه الرياضات الصبية الإحساس بالاتصال بأجسادهم الذكورية، وهذا أمر مهم؛ حيث يرجع جزء من حالة الشذوذ الجنسي لدى الرجال إلى شعور المرء بالاغتراب عن جسده الذكوري، وفي هذا النوع من الرياضات، تتاح الفرصة أمام الصبي لاكتشاف كفاءته البدنية من خلال تحدي نفسه.

2- **رياضات التنافس الفردي**: مثل التنس، وكرة المضرب.

وفي هذه الرياضات، يتجاوز الأمر عبارة "أنا ضد نفسي"، لينتقل إلى دفع الصبي إلى التنافس مع نظير له، وفي كثير من الأحيان، يخاف الصبي الذي في مرحلة ما قبل الشذوذ من الدخول في منافسة مباشرة مع صبي ذكر آخر، في الواقع، إنه يخشى أن يضع نفسه في مقارنة مع القوة الذكورية لأي صبي آخر، وهنا تساعد رياضات التنافس الفردي هذه على تقديم فرصة بديلة لفكرة "أنا ضده".

3- **رياضات التنافس الجماعي**: مثل البيسبول، وكرة القدم الأمريكية، وكرة السلة، وكرة القدم، والكرة الطائرة.

ويعتبر هذا النوع من الرياضات هو أفضل الأنواع للأبناء؛ لأنه يشتمل على فوائد الفئتين السابقتين بالإضافة إلى إتاحة فرص إضافية لتكوين علاقات مع المجموعة، وفي هذه الفرق الرياضية المتنافسة، يرتبط الصبي بمجموعة من الصبية ضد مجموعة أخرى، ويجب على الصبي وقتها أن يعمل عضوًا في الفريق، وأن يعلم أن أداءه سوف يؤثر على أداء الفريق كله، والآن، أصبح الأمر "نحن ضدهم".

وقد يواجه الوالدان صعوبات- في بعض الأحيان- في تحديد المدى الذي يحفزون عنده أبناءهم، ما مقدار التحديات التي يستطيع أن يواجهها الأبناء؟

ويبحث الوالدان عن إجابة لهذا السؤال: "هل نحن نضع الصبي تحت الكثير من الضغوط؟ أم أننا لا نحفزه بما فيه الكفاية؟".

إن طريقة تحديد التوازن المناسب هو أمر يتسم بصعوبة خاصة؛ حيث إن هؤلاء الصبية غالبًا ما يتصفون بالتحفظ والتردد في التعبير عن مشاعرهم، وكثيرًا ما يحجمون عن قول الحقيقة؛ لأنهم يرغبون بشدة في إدخال السرور على والديهم، خاصة عندما تصبح حالة الأنوثة لديهم مشكلة معروفة وواضحة.

وكما هي الحال مع أي نشاط إصلاحي، يجب عدم إجبار الصبي على عمل أي شيء لا يرغب به، وعندما يُجبر الصبي على المشاركة في أي نشاط ويخفق فيه (خاصة أمام الصبية الآخرين)، سوف ينتج من هذا تجربة شعورية مؤلمة، وسوف تعزز هذه التجربة تداعي الأفكار السلبية ، وستعمق شعور الصبي بالضعف وعدم الكفاءة؛ لذا، يجب تشجيع الصبي بطريقة فعالة، ولكن إذا أبدى رفضًا شديدًا، فهذا يعني أنه غير مستعد لممارسة هذا النشاط، ومن الأفضل- حينئذ- أن يعامل الصبي بلطف، وأن يشجع على تجربة رياضة أخرى أقل صعوبة.

بعض الإرشادات العامة:

هناك قواعد عامة يمكن الاسترشاد بها عند تقييم مدى الحاجة للتدخل في إجراءات علاجية أو وقائية، فيما يلي أربعة اقتراحات قد تكون مفيدة جدٌ في هذا الخصوص:

1- ينبغي عليك العمل مع مستشار أو معالج تشعر معه بالراحة، يشاركك تحقيق أهدافك نحو ابنك، ويكون قادرًا على إجراء تقييم موضوعي للأمر.

2- لتفادي تعريض الصبي لضغوط وأحمال زائدة قد تأتي بنتائج عكسية، امنحه حق التراجع عن أي نشاط إذا رغب في ذلك؛ فحاجة الصبي إلى الدعم والتشجيع الإيجابي تتساوى في الأهمية مع الانخراط في النشاط المرغوب فيه.

3- عند تنمية السلوك الذكوري، يجب معرفة أن التعزيز الإيجابي (المدح والتشجيع) له تأثير أكثر فاعلية من التعزيز السلبي (الإكراه والتخويف)، ومع

ذلك، سيكون من الضروري إظهار عدم الرضا بلطف وبصورة ملائمة مع السلوك الذي يدل على الأنوثة بشكل بارز، ورغم ذلك، هناك قاعدة ذهبية تقول: إن النتائج التي يمكن تحقيقها على المدى الطويل من خلال الاستجابات الإيجابية من قبل الوالدين للسلوك الذكوري أفضل بكثير من نتائج الاستجابات السلبية للسلوك الأنثوي.

4- لابد لنا من أن نميز بين التشهير والتصحيح؛ فالتشهير يتعلق بالشخص، بينما التصحيح يتعلق بالسلوك، ويوضح التصحيح أن هناك سلوكًا معيناً سيئًا؛ بينما يظهر التشهير أن الشخص نفسه سيئ؛ إن الرسالة التي يجب أن تصل إلى الصبي هي: "أن أمك وأباك يريدان منك تعديل هذا السلوك أو ذاك، ولكنهما يشعران دائمًا بأنك تبلي بلاء حسناً في جميع الأحوال".

وهناك جملة معينة- يمكن إضافة بعض التعديلات عليها لتتناسب مع كل موقف على حدة- من الممكن أن تكون أداة مناسبة يستخدمها الوالدان مع الصبي الذي يعاني اضطراب الهوية الجنسية:

"(اسم الصبي)، إن هذا (التصرف أو النشاط أو الحركة) يختص بالبنات، وأنت صبي!".

وهذه الجملة لها ثلاث فوائد:

- أنها مختصرة وصريحة (بدون وعظ).
- أنها تستخدم لغة "الصبي والفتاة"؛ حيث تتحدى تصورات الصبي المتأنثة والتي تقول: "إنني ذو طبيعة فريدة؛ يمكنني أن أكون صبيًّا، أو فتاة، أو كليهما".
- أنها تركز على السلوك الظرفي، وليس على الشخص (الأمر الذي من الممكن أن يثير الشعور بالخزي إذا أحس بأن الجملة موجهة إلى شخصه).

إن جملة "ولكنك صبي!" ينبغي أن تصدر بنبرة تشجيعية، فالرسالة التربوية الصادرة من الوالدين هي: "أننا نذكرك بطبيعتك، وأنت جيد على هذا النحو".

عندما يعاود السلوك الأنثوي الظهور:

يلاحظ الكثير من الآباء والأمهات وأفراد الأسرة، وجود علاقة بين تزايد الضغوط النفسية في حياة الصبي وبين ظهور السلوك الأنثوي مرة أخرى، ولقد تحدث معي صبى يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، عن أخيه "آندي" البالغ من العمر سبع سنوات، قائلاً:

«لقد كنت أعتني بأخي الأصغر لساعات قليلة، وجاء بعض من أصدقائي لزيارتي، وبمجرد دخولهم، شعر "آندي" بعدم الارتياح، لم يكن يعرف ماذا يفعل؛ ولذلك فقد قام بتصرف أنثوي، ولقد انفجر أصدقائي في نوبة من الضحك، وكنت أعلم وقتها أن "آندي" قد شعر بالإحراج من تصرفه، ولكن كان يبدو أنه لا يعرف شيئًا آخر ليفعله، لقد بدا الأمر كأنه لا يعرف كيف يكون هادئًا فحسب».

إن "آندي" لم يكن يعلم كيف يتعامل مع القلق الناتج عن وجوده بصحبة ذكور أكبر سنًّا؛ ولذلك لجأ إلى وسيلة دفاعية؛ هي هذا السلوك الأنثوي الذي يبعث في نفسه الراحة.

كما أشارت أم أخرى لصبي يعاني اضطراب الهوية الجنسية إلى ملاحظة مشابهة، حيث قالت: «يمكنني معرفة طبيعة اليوم الذي قضاه ابني في جمعية الشبان المسيحيين من خلال تصرفاته، إذا تصرف بأنوثة أعلم أنه يشعر بالإحباط، وعلى الجانب الآخر، إذا كان متحمسًا ويتحدث بحيوية، أعلم أنه كان جيدًا في لعب كرة القدم».

ولقد ذكرت هذه الأم ملاحظة مهمة؛ حيث قالت: "يتصرف بأنوثة في مقابل شعوره بالحماس والتحدث بحيوية"؛ فعندما لا يتصرف الابن مضطرب الهوية الجنسية بطريقة أنثوية تزيد درجة التواصل العاطفي لديه؛ ويزيد احتمال تواصله مع الآخرين، ويشعر بـ"وجوده الحقيقي"، وهناك شيء أحادي الجانب حول التأنث في مرحلة الصبا؛ وهو أنه يرجع إلى حد كبير إلى كونه وسيلة دفاعية أكثر من أن يكون تعبيرًا عن الهوية الحقيقية للصبي، ويلاحظ الكثير من الآباء وجود درجة غير طبيعية من الإحساس بالخجل أو من التصرفات المبالغ فيها من قبل الصبي الذي يتشبه بالفتيات بشكل واضح، وفي الحقيقة، يشير الباحثون إلى أن هؤلاء الصبية يتصرفون بالفعل بطريقة أنثوية أكثر من الفتيات أنفسهن.[22]

عندما يتجاوز سلوك الصبي مرحلة عدم الانسجام الجنسي وينتقل بوضوح إلى

سلوك أنثوي مبالغ فيه، فإنه سيكون واضحًا أنه يفتقر إلى الغنى الفطري الطبيعي الذي تتصف به السلوكيات الأصيلة التي تنبع من الذات، وهي هذه الصفات التي تنبع من داخل الصبي الذي يشعر بذاته الحقيقية، ويمثل هذا السلوك شكلاً من أشكال الاختباء والهروب من مواجهة التحدي الذي يثيره التفرد الذكوري، ويفعل الصبي ذلك من خلال لعب وتمثيل الأدوار التي تشبه إلى حد كبير الأدوار الخيالية التي يتخيل فيها نفسه وهو يتصرف مثلها عندما يجلس أمام شاشة التلفاز بلا حراك، وهو يشاهد شخصيات ديزني الأنثوية أو المحايدة جنسيًّا.

هل ستُكلَّل جهودك بالنجاح؟

إن الآباء والأمهات الذين يتصفون بالحكمة سوف يقدمون أفضل ما لديهم لمساعدة أبنائهم وبناتهم على الشعور بالراحة مع هوياتهم الجنسية- ذكورًا وإناثًا- وعلى تكوين صداقات قوية وحميمة مع رفاق من الجنس نفسه، ورغم ذلك، فإن الجهود المضنية التي تبذلها لمساعدة ابنك قد تأتي مصحوبة بمشاعر المرارة والإحباط، وليس هناك ضمانات لما ستسفر عنه.

ومن المحتمل ألا تؤدي جهودك الحثيثة- من أجل مساعدة ابنك- إلى أن يصبح ذا توجه جنسي سوي، وإذا حدث هذا- رغم عدم موافقتك المحتملة على أسلوب الحياة الشاذة (ومن الممكن أن توضح هذا جيدًا)- فإننا نأمل أنكما كوالدين محبين لأولادهما، سوف تحافظان على وجود علاقة قوية مع أطفالكما، ويجب أيضًا ألا تفقدا الأمل في حدوث تغير علاجي في وقت ما في المستقبل.

وها نحن نرى من خلال مذكرات والدة "ويل"، أنها قد بدأت في النهاية تجني ثمار جهدها الخاص؛ فابنها مستمر في التقدم- رغم أنه يسير بصورة متقطعة- ولكنه يسير إلى الأمام، وهي تختتم كلامها بالقول: إن جهودها لمساعدة ابنها على الشعور بإحساس أفضل نحو نفسه عندما يكون بصحبة الصبية الآخرين، قد آتت ثمارها، وأن الأمر كان يستحق بذل الجهد:

«لقد شعرت بالإحباط بالفعل، وبدأت أتساءل عما إذا كان يجب عليّ أن أترك هذا الأمر لبعض الوقت، ولكنني كنت أعلم أنني لن أتوانى عن بذل الجهد في سبيل تحقيقه، خاصة بعدما رأيت مدى التقدم الذي أحرزه "ويل" ومدى الراحة والثقة اللتين بدأ يشعر بهما نحو نفسه؛ لقد بدأت أُكْثِر من احتضانه في الآونة

الأخيرة حتى يعلم أنني أحبه كثيرًا، ولقد لعب اليوم كرة السلة مع الصبية، ويمكنني أن أضيف أنه قد دعا صبيين حقيقيين (واثقين من هويتهما الذكورية) إلى المنزل، ورغم أنه كان أقل اندفاعًا منهما وأكثر تحفظًا، إلا أنني أعتقد أن هذا جزء من شخصيته وذكائه ليكون أكثر جدية، ولقد كنت في غاية السعادة لرؤيته يتعامل معهما بطريقة جيدة للغاية».

6
التعامل مع المراهقة

«إن عالم الشواذ طائش، مليء بالاحتفالات الصاخبة..

فقط لو أبقينا الجنس بعيداً واستمتعنا بالرفقة الطيبة التي كنت دوما أتطلع إليها.. هل يمكننا ذلك؟».

صبي في الخامسة عشر من عمره

«أي أب أو أم أو معلم أو صديق أو وزير؛

هذا الذي من الممكن أن يشجع طفلاً على ممارسة سلوكيات تهدد الحياة؟!».

بوب ديفس

أحد أعضاء المجلس الاستشاري

لمؤسسة "الهجرة الدولية"

بصوت يشوبه القلق وأنفاس متقطعة قالت لي عبر الهاتف: "دكتور "نيكولوسي"، أنا قلقة جدًّا بشأن ابني "كيث"؛ إنه يتراسل عبر الإنترنت مع فتى أكبر منه سنًّا، ابني في الخامسة عشرة من عمره فقط، وبعد أن قرأت بعضًا من الأشياء التي قام بكتابتها إلى هذا الشاب، أخشى أنه.. حسناً.. ربما يكون في طريقه.. مممم.. لعلاقة جنسية شاذة من نوع ما.. أنا لا أعلم ماذا أفعل! هل يمكنك مساعدتي؟!".

إن الصبي الذي يقلل من تقدير هويته الجنسية يخفي توقعات سرية وغير واقعية عن صداقاته مع الذكور، فهو يبحث عن علاقة عاطفية حميمة ويبحث عن شعور عميق بالاعتماد المتبادل، وهذا الأمر قد يؤدي إلى نفور الرفيق الآخر، وقد يؤدي إلى العكس من ذلك ويتطور التواصل بينهما، وينتقل إلى مرحلة الإثارة الجنسية المتبادلة.

لم يكن "كيث" يريد أن يأتي لمقابلتي، لقد كان يعارض فكرة العلاج بشدة، ولقد قامت والدته- مثل كثير من الأمهات- بقراءات موسعة في هذا الموضوع، وبعد أن وجدت أحد كتبي في المكتبة العامة، واكتشفت أن عيادتي ليست بعيدة عن منزلها، عندها قررت أن تتصل بي هاتفيًّا، ورغم أنها ووالد "كيث" كانا يتلهفان على أن يتلقى ابنهما المساعدة، كانت لديهما شكوك في جدوى العلاج.

وأخيرًا، أحضرا "كيث" لتلقي العلاج، وقد دخل عيادتي وكان يبدو عليه الغضب والتحفظ والشك، و كان يشعر بالاستياء لأن والديه "يجبرانه" على التغيير، و بألم عميق لعدم احترامهما لمشاعره، وعدم تقبلهما له كما هو أو كما يريد هو.

قبل مقابلتنا الأولى، أرسل لي "كيث" الرسالة التالية عبر البريد الإلكتروني:

«أنا لا أثق بك، ولا أحترمك، ولا تتوقع مني إتاحة المجال لتكوين علاقة بيننا، أنت بالنسبة لي خلاصة كل الأشياء التي لا أحتاجها في حياتي في هذه اللحظة، والصورة التي أراك عليها- سواء كانت جيدة أم سيئة- هي أمر حاسم ومهم بالنسبة للعلاقة بين العميل ومستشاره، أشعر بالمرض والتعب من عدم احترام الآخرين لمشاعري وعواطفي وأفكاري بسبب صغر سني، أو ما يفترضونه من قلة نضجي أو بسبب ميولي الجنسية، وإذا كنا سنعمل معًا، يجب عليك قبول مشاعري كأمر واقع.

إنك تجلس مكانك، وتحلل شخصيتي وشخصية كل من يدخل عيادتك، من تظن نفسك؟! من أعطاك الحق لتفعل ذلك؟! هل هي الشهادة المعلقة على الجدار؟! أم "خبرتك" السابقة؟! أم هؤلاء الرجال الذين يفترض أنك قد حولتهم إلى أسوياء جنسيًّا؟! لا شيء مما سبق يمنحني الشعور بالأمان لأدعك تتحكم في حياتي».

ورغم ما كان يشعر به "كيث" من غضب وارتياب، فقد قرر أن يأتي ويحضر جلسة واحدة فقط، ولقد علمت أن "كيث" معجب بشدة بـ"لوك" الفتى الآخر الأكبر

سنًّا الذي يتراسل معه وعمره أربع وعشرون سنة، كان "لوك" المطرب الرئيسي في فرقة روك محلية، وكان "كيث" في حاجة إلى شخص يستمع إليه ويظهر الاحترام لمشاعر الانجذاب القوية التي يكنها لهذا المطرب.

وقد خصصت الجلسة الثانية لنا معًا لأوضح له أن بإمكاني أن أمنحه ما لم يستطع والداه أن يمنحاه- فأنا أستطيع أن أتفهم وأؤكد مشروعية مشاعره نحو "لوك"، وكان من الواضح أن افتقار "كيث" إلى الإحساس بمشروعية مشاعره هو السبب الرئيسي وراء ما يشعر به من غضب وألم تجاه والديه. وفي الحقيقة، يمكنني القول بصدق: إنني قد تفهمت بالفعل شعوره العميق بالحب وبالإعجاب والانجذاب الرومانسي، كان "لوك" يمثل الفتى الذي يعجب "كيث" ويتمنى أن يصبح مثله، إن تفهمي لمشاعر "كيث" نحو "لوك" سيكون الأساس الذي سننطلق منه لبناء علاقة تسودها الثقة.

وفي جلستنا الثانية، عبّر "كيث" عما يشعر به من غضب تجاه والديه بسبب منعهما له من رؤية "لوك"، وفي محاولة مني للتمييز بين الاحتياجات العاطفية وبين الرغبات الجنسية، سألت "كيث": "أخبرني يا "كيث"، إذا كنت تتمتع بالحرية الكاملة، ما الذي قد ترغب في أن تفعله مع "لوك"؟".

صمت "كيث" مفكرًا للحظة وابتسامة حزينة تعلو وجهه. ثم قال: "كنت سأقود السيارة معه على الطريق السريع الممتد على ساحل المحيط الهادئ، وكنت سأفتح كل نوافذ السيارة، وكنا سنستمع معًا إلى المذياع بصوت مرتفع"، ثم أطرق مفكرًا وأضاف قائلاً: "إن ما أريده حقًّا هو أن نقضي الوقت معًا، وأن أكون أفضل صديق لـ"لوك"".

سألته: هل يمكنك أن تتخيل يا "كيث" لو قال لك "لوك": "إنني معجب بك بالفعل- كصديق- إنك أفضل صديق لديّ، ولكنني لا أرغب في ممارسة أي شيء جنسي، فهذه الأمور لا أهتم بها، دعنا نكن أصدقاء فحسب؛ دعنا نفعل أشياء ممتعة معًا؟"، هل ستشعر بالرضا لو قدم "لوك" هذا الاقتراح؟

هز "كيث" رأسه مؤكدًا: "بالتأكيد!".

كان هذا الإدراك نقطة تحول بالنسبة لـ"كيث"، وبعد ذلك، أصبحت قادرًا على

إعطائه صورة عن نوع العلاقة التي اعتقدت أنه يتطلع إليها بالفعل، هذه العلاقة التي كان يُنْظَر إليها بطريقة خاطئة كدليل على أنه لابد أن يكون قد "ولد شاذًّا"، ولقد اتضح بعد ذلك أن سبب غضب "كيث" تجاه والديه كان ينبع من حقيقة أنهما لم يتقبلا مشاعره- مشاعره العاطفية المثالية، وحتى مشاعره بالاعتماد على "لوك"- ورغم أن ممارسة الجنس كانت تبدو ممتعة ومشوقة بالنسبة له، إلا أن إحساسه العميق بالحاجة لروابط حميمة هو الذي دفعه إلى الاعتقاد بأنه شاذ جنسيًّا.

وفيما بعد، طلبت من "كيث" أن يرسم صورة لنفسه، فيمكننا أن نعرف الكثير من خلال ما يرسمه عن نفسه، رسم "كيث" نفسه في شكل أقرب ما يكون إلى شكل المهرج؛ مما يعكس رؤيته لنفسه كشخص لا يمكن التعامل معه بجدية- ذكر ناعم وغير فعال، وقد رأينا صورة لشخص بالغ الأنوثة- شخصية أحادية الأبعاد، تعبر عن الصورة الذاتية التي يراها المراهقون- الذين يمرون بتجربة الشذوذ الجنسي- لأنفسهم، وهذا يعكس فكرتهم عن أنفسهم؛ حيث يرون أنهم يفتقرون إلى الذكورة، والتفرد، والنضج العاطفي.

ورغم أن "كيث" لم يكن لديه أصدقاء مقربون من الذكور، فإنه كان يدخل في القليل من علاقات الصداقة الحميمة مع الفتيات، وكانت أقرب الفتيات إليه فتاة تسمى "أنيت"، وقد قال مفسرًا هذه العلاقة: "إنها تقف بجواري دائمًا"، لقد كنت أعلم أن "كيث" كان في حاجة ماسة إلى تكوين صداقات حميمة مع ذكور أسوياء جنسيًّا، ومع رفاق وليس مع رفيقات مثل "أنيت"، ومثل كثير من الصبية الذين يواجهون الموقف نفسه، كان "كيث" يفتقر إلى المهارة في ممارسة الرياضة، وكانت لديه ذكريات مخجلة عن محاولاته الأولى للتنافس مع الآخرين.

وكان كثير من مسائل الهوية الجنسية لديه مرتبكة ومختلطة بمسائل أكبر تتعلق بالهوية الشخصية وبالكفاءة: "من أنا؟"، كان المحور الرئيسي الذي تركز عليه الحديث في الجلسات الأولى، كان "كيث" يبدي اهتمامًا بالغًا بالمظهر، وفي رحلته للبحث عن ذاته، سعى إلى أن يحظى بالقبول وسط مجموعات من الشباب الذين يشاركونه الاهتمام بموسيقى الروك الصاخبة، وسرعان ما أدرك أن انشغاله بالمظهر الخارجي المثالي لم يكن سوى وسيلة دفاعية ضد بعض التجارب المؤلمة أثناء المراهقة المبكرة، والتي بدأت مع الأب ثم امتدت لتشمل الصبية الآخرين.

وبتوالي الشهور، بدأ "كيث" ليس فقط في الفهم، ولكن في استعادة تجربة الألم العميق للرفض من قبل الذكور الآخرين، وبدأ يدرك كيف أن شعوره بالألم العاطفي كان مرتبطا بتعلقه واعتماده على صديقه "لوك"، وأصبح من الواضح حينئذ أن "لوك" كان يمثل الصورة المثالية التي كان يتطلع إليها "كيث"، فكان "لوك" يمثل الصفات الجسدية والشخصية التي يتمناها "كيث" في نفسه، ورغم مشاعر الإعجاب التي يكنها "كيث"، فإن الغيرة ستدخل حتمًا في هذه العلاقة.

وخلال الشهور التالية، وبعد أن أمضى الكثير من الوقت مع صديقه "لوك"، أصيب "كيث" في النهاية بخيبة أمل- "بدقة أكثر: اكتشف الحقيقة"- فقد وجد أن "لوك" أيضًا لديه نقائصه ومخاوفه الخاصة.

وبعد أن توصل إلى هذا الاكتشاف، دخل "كيث" في علاقة صداقة مع اثنين من الذكور الأسوياء جنسيًّا، واستمر في تنمية قدرته على تقييم دوافعه بطريقة موضوعية وأمينة، وكان من الواضح أنه يحرز تقدمًا هائلاً، وبعد ذلك بعدة شهور، وبعد علاقة جنسية عابرة مع صبي آخر اتضح له بصورة جلية أن ما يحتاجه ليس له علاقة بممارسة الجنس، وقد بدأ في النظر إلى بقايا مشاعره الجنسية الشاذة كـ"علامة على الاحتياجات الأخرى"، وفي النهاية انتهى العلاج بفهم "كيث" لنفسه وامتلاكه للأدوات التي تعالج هذه الاحتياجات بصورة مباشرة، مما سيساعده على تجنب الشعور بالإثارة الجنسية في العلاقات المستقبلية مع الذكور.

الطريق الطويل الشاق عبر المراهقة:

المراهقة هي مرحلة عنفوان النمو العاطفي والجسدي وتشكل الهوية الشخصية، هي وقت التمييز بين القيم المتصارعة، ووقت التخفف من السلطة الأبوية، إنه وقت تشرب القيم الخاصة بالأقران، وبالمجتمع، وبالثقافة الشبابية بشكل عام والاندماج فيها، والتحدي الرئيسي في هذه المرحلة هو في تنمية الإحساس بالذات كإنسان بالغ في العالم، وكشخص مستقل في المجتمع.

المراهق الذي يعاني اضطرابًا وحيرة تجاه مشاعره الجنسية، يجب عليه مواجهة هذه المشكلة بشكل مباشر، في منتصف مرحلة المراهقة لا يعود بإمكانه تجاهل الصراعات الشهوانية التي كان يكبحها أو ينكر وجودها، وربما يبدأ في تجربة مع غرف الدردشة الخاصة بالشواذ، والمواد الإباحية على الإنترنت، وممارسة

الجنس عبر الهاتف، وفي النهاية قد يمارس سلوكيات الشذوذ الجنسي بحثًا عن تأكيد ذكوري.

وخلال هذه المرحلة الانتقالية الحرجة، يكون الشاب الصغير سهل الانقياد وعرضة للتأثير السلبي والانحراف، وفي ثقافة هذا العصر، يجد المراهق تشجيعًا كبيرًا على الاستكشاف الجنسي، بل حتى الممارسة الفعلية ، ولقد أخبرني مؤخرًا اختصاصي نفسي مدرسي في شمال فيرجينيا بأن عدد حالات المراهقين الذين يبلغون عن معاناتهم من مشكلات في الهوية الجنسية قد تضاعفت خلال عام واحد [1]، كما أشار الكثير من مستشاري المدارس إلى رؤية عدد متزايد من الطلاب الذين يعتقدون أنهم ثنائيو الميل الجنسي أو شواذ جنسيًّا.

وكشفت دراسة حديثة منشورة في دورية "مجلة أبحاث الجنس" عن ارتفاع مفاجئ في ممارسة وتجربة الشذوذ الجنسي، وقد أشارت الدراسة نفسها إلى أن نسبة النساء اللواتي اعترفن بممارسة الجنس مع نساء أخريات في الولايات المتحدة الأمريكية قد زادت خمسة عشر ضعفًا خلال عشر سنوات في الفترة من 1988 إلى 1998، وتضاعفت النسبة بين الرجال الأمريكيين خلال الفترة نفسها؛ حيث ارتفعت نسبة الرجال الذين اعترفوا بأنهم مارسوا الشذوذ الجنسي من 2% عام 1988 إلى 4% عام 1998، في حين ارتفعت النسبة بين النساء ارتفاعًا كبيرًا من 0.2% عام 1988 إلى 3% بعد عشر سنوات.[2]

ويعتقد أن طريقة تقديم حياة الشواذ في التلفاز لها دور مؤثر في التشجيع على تجربة الشذوذ الجنسي، وتقول مؤلفة هذه الدراسة: إن الصور الإيجابية للشواذ في وسائل الإعلام سهلت على الكثيرين التعرف على رغباتهم الجنسية الشاذة والتصرف بناء عليها، وقد لاحظت المؤلفة أن بعضًا من هذه الزيادة يرجع إلى انخراط أناس أسوياء جنسيًّا في تجربة الشذوذ الجنسي.

الهوية الشاذة أصبحت صرعة العصر:

لقد ظهر أيضًا من خلال بحثي السريري الخاص أن هناك نسبة متزايدة من المراهقين الصغار الذين يثيرون الأسئلة والشكوك حول توجهاتهم الجنسية؛ فقد تزايد عدد المراهقين الذين يخبرون والديهم بأنهم شواذ، وهم لا يزالون في سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة، لقد كان من المعتاد أن يحدث

التحول بداية من منتصف مرحلة المراهقة إلى أواخر العشرينيات من العمر، وأحيانًا في سن متأخرة عن هذا، أما الآن فقد أصبح التحول يحدث في بداية مرحلة المراهقة ومنتصفها، وأصبح هناك المزيد والمزيد من المراهقين الذين يعلنون عن شذوذهم الجنسي لأصدقائهم ووالديهم، وليس هناك شك في أن هذا يرجع إلى الحضور الطاغي لهوية الشذوذ الجنسي بوصفه شيئًا عصريًّا، وتعبيرًا عن توجه متصادم ورافض للثقافة العامة.

ومنذ سنوات قليلة ماضية، ظهر مقال استفزازي في صحيفة "نيويورك تايمز"، يصف اجتماع الآباء والأمهات مع هيئة التدريس في مدرسة "سبينس" في مكان خاص يطل على حديقة "سنترال بارك"- حيث أعلنت مجموعة من البنات في الصف الثامن الدراسي أنهن ثنائيات الميل الجنسي، وقد استعانت المدرسة بمعالج نفسي من جامعة "هارفارد"- وهو الدكتور "جوستين ريتشاردسون" (وهو رجل شاذ جنسيًّا)- لكي يطمئن الآباء والأمهات بأن تجربة السحاق هي أمر شائع في مرحلة المراهقة.[3]

وأصبح هناك عدد قليل- ولكنه متزايد- من الطلاب الذين "يعلنون" عن شذوذهم في هذه المدارس، أو على الأقل يقولون: إن الثنائية الجنسية أمر عصري، ولقد تم تقديم الدكتور "ريتشاردسون"- الذي يقال بأنه "ينتسب إلى عائلة عريقة، ويختار كلماته بعناية، ويمتاز بالهدوء والحزم"- على أنه "مستشار اختيار" مسائل الشذوذ في المدرسة، وهذا لأنه يمتاز "برجاحة العقل والصراحة"، حسبما ذكر مدير المدرسة!

وطلب الدكتور "ريتشاردسون" من الآباء والأمهات أن يقولوا لبناتهم الصغيرات في سن التاسعة بأنهن في المستقبل ربما يمارسن الجنس مع بنات مثلهن، موضحا "أنها فكرة جيدة أن نذكر أن الناس يمارسون الجنس مع أشخاص من النوع نفسه في بعض الأحيان، وأن نذكر للفتيات بأنهن عندما يكبرن ربما يكون لديهن أصدقاء وصديقات يفعلن ذلك- وأن نذكر أنه من المحتمل أن يقمن هن أنفسهن بهذا الأمر".

ولقد أبدت والدة فتاة في الصف السابع بعض الملاحظات الذكية بعد الاجتماع مع الدكتور "ريتشاردسون"؛ حيث قالت هذه الأم: "إن الأمر يبدو كأنهم يقدمون

الشذوذ الجنسي للأطفال على أنه شيء جيد لكي يمارسوه.. مدارس البنات تفخر بأن "البنت تستطيع أن تفعل أي شيء"، ويبدو أن الأمر قد وصل إلى حد يقول: "من الذي يحتاج إلى الرجال؟"".

ووافق الدكتور "ريتشاردسون" على أن الطلاب يخبرونه في كثير من الأحيان بأن "الاتصال بالجنسين هو أمر شائع"، وفي الواقع، فإن موضوعات المثلية الجنسية والاتصال بالجنسين تمثل تركيزاً ثقافيًّا مناهضًا يجذب الطلاب الذين يشعرون بالتمرد في مرحلة المراهقة.

هل الشذوذ متغير طبيعي في الفطرة الإنسانية؟

هل الشذوذ الجنسي يمثل شيئًا من طبيعتك، كما هي الحال عندما تكون آسيويًّا أو مسنًّا أو أسود اللون؟ أم أنه شيء تفعله مثل الإفراط في تناول الطعام أو المشروبات الكحولية؟

يتحدث الناشطون عن حركة حقوق الشواذ على أنها حركة نضال مدني؛ مما يجعلها أكثر جاذبية للمراهقين المتمردين، ويضع الناشطون الشذوذَ- الذي هو في الواقع حالة نفسية- على قدم المساواة مع السلالات والأعراق البشرية التي تمثل صفات طبيعية لا تخضع للقيم والأخلاق، ولكن في الحقيقة، فإن "الشذوذ الجنسي" لا يعبر عن "طبيعة المرء" أكثر من أية نزعة سلوكية أخرى، فهل هناك مغزًى من جراء القول: "إن الخجل يعبر عن طبيعتي"، أو: "إن إثارة الضوضاء تعبر عن طبيعتي"، أو: "إن الإفراط في تناول الكحوليات يعبر عن طبيعتي"؟! لا يجوز لنا تحديد هوية "الناس" بحسب سلوكهم وطباعهم النفسية، ومن ثم الإصرار على ألا ينتقد أحد هذه الخصائص والطباع.

وقد قامت حركة الشواذ جنسيًّا بتحويل الجدال حول السلوك إلى، جدال حول الهوية، من أجل تقديم المعارضين بصورة المعتدين على الحقوق المدنية للشواذ؛ ولقد نجح نشطاء الشذوذ في تحقيق هذه المعادلة من خلال الاختيار الدقيق لكلماتهم، ومن خلال الإشارة إلى الأفراد الذين ينجذبون للشذوذ الجنسي على أنهم "أقلية جنسية" و"أناس" و"مجتمع".

ولقد أصابت الحيرة الكثير من الآباء والأمهات بسبب ادعاءات حركات نشطاء الشذوذ الجنسي؛ فقد أدت هذه الادعاءات إلى شعورهم بالذنب والتخلف لمحاولتهم

تشجيع أطفالهم على انتهاج حياة جنسية سوية، وربما تبدو محاولاتهم- بصورة غير مباشرة- مخالفة للحقوق المدنية للشواذ؛ لأنه يقال إن الشذوذ الجنسي هو الذي يحدد هوية الشخص.

المراهقون الشواذ.. الانتحار والمشاكل العقلية:

يستمتع المراهقون دائمًا بعقد المقارنات مع الأجيال الأكبر سنًّا؛ خاصة عندما يربطون بين تمردهم وبين النضال من أجل الحرية، وحق تقرير المصير، وتحقيق العدالة للأقلية المحرومة، ولكن التحدي الحقيقي الذي سيواجهه المراهقون سيكون أقل جاذبية من ذلك.

وقد أظهر عدد من الدراسات ارتفاع مستوى المشكلات السلوكية والنفسية بين الشباب الذين يعانون الشذوذ الجنسي، مقارنة بالشباب الأسوياء، وتشتمل هذه المشكلات على: الإفراط في تناول المشروبات الكحولية، والمخدرات، ومحاولات الانتحار، ومشكلات الخروج على القانون، وارتفاع نسبة الهروب من المنزل[5]، وقد توصلت دراسة حديثة إلى "دليل قاطع" على ارتفاع نسبة اضطراب القلق العام، ونوبات الاكتئاب القوية، وهواجس الانتحار، وحتى إدمان النيكوتين، ويعانى الصبية المتأنثون- بصورة خاصة- ارتفاع نسبة المشكلات النفسية، ومنها الإحساس العميق بالدونية.

وعندما نلقي نظرة عامة على هذه الدراسات، يبدو واضحًا أن المراهق الذي يعلن عن نفسه بوصفه شخصًا شاذًّا ترتفع نسبة إصابته بعدوى مرض الأيدز أو تعرضه لأمراض جنسية أخرى، وترتفع نسبة تعرضه للمشكلات النفسية؛ مثل التفكير في الانتحار، وسلوكيات تدمير الذات؛ مثل إدمان تناول المخدرات والمشروبات الكحولية، والاتجاه إلى البغاء.

وعلى الرغم من أن الاضطهاد الاجتماعي عامل مساعد، فإن الأبحاث لم تثبت أن هذه المشكلات الخطيرة ترجع إلى هذا العامل فحسب، وتعزز حقيقة أن هذه المشكلات لا تقل في المدن المشجعة للشذوذ مثل "سان فرانسيسكو" والبلاد المتسامحة معهم مثل "هولندا" من وجهة النظر القائلة: إن هناك عوامل أخرى جوهرية ترتبط بحالة الشذوذ الجنسي.

وفي كثير من الأحيان يحصل نشطاء الشذوذ- الذين يقدمون "برامج المدارس

الآمنة" للمدارس العامة- على الدعم والمساندة من خلال استخدامهم أرقامًا تظهر أن ثلث المراهقين الشواذ يحاولون إنهاء حياتهم بالانتحار [6]، ويزعم مؤيدو هذه البرامج أنه يمكن علاج مشكلة محاولة الانتحار هذه بطريقة واحدة فقط، وهي أن يعرب المجتمع عن تقبله الكامل للشذوذ الجنسي، ورغم استخدام هذه البرامج إحصاءاتٍ مبالغًا فيها وغير دقيقة، فإن ما قلناه سابقًا عن ارتفاع نسبة المشكلات النفسية التي يتعرض لها المراهقون من ذوي الهوية الشاذة هو حقيقة واقعة، وهكذا، تظهر أهمية دراسة العوامل المساعدة الأخرى المحتملة.

وقد قام فريق بحثي يرأسه "جاري ريمافيدي" بإجراء مقارنة بين مجموعة من المراهقين الشواذ وثنائيي الميول الجنسية الذين حاولوا الانتحار، بمجموعة أخرى مماثلة لم تحاول الانتحار، ووجدوا أن 44% من محاولات الانتحار يعود سببها إلى "مشكلات أسرية تتضمن الخلافات مع أفراد الأسرة، والمشكلات الزوجية بين الوالدين، وحالات الطلاق، وإدمان الكحوليات" [7]، وفي الواقع، فمن المعروف منذ زمن طويل أن الشذوذ الجنسي يرتبط بوجود مشاكل وخلل في الأسرة التي نشأ فيها [8].

ويبدو أن الادعاء بأن محاولات الانتحار ترجع إلى الظلم الاجتماعي فقط (أو حتى بصورة أساسية) هو مجرد تبسيط مخل لهذه المشكلة الكبيرة والمعقدة، ولقد كشفت دراسة "ريمافيدي" عن أن المراهقين الشواذ الذين يحاولون الانتحار يعانون أيضًا مجموعة من المشكلات المعقدة التي تتضمن التالي:

- **العلاقات الأسرية الممزقة:** 27% فقط ممن يحاولون الانتحار يعيشون بين والدين متزوجين، في مقابل 50% ممن لم يحاولوا الانتحار.
- **العنف الجنسي:** تعرض 61% ممن يحاولون الانتحار إلى العنف الجنسي، في مقابل 29% ممن لم يحاولوا الانتحار.
- **الإعلان المبكر عن الهوية الشاذة:** ترتفع نسبة محاولة الانتحار بين الأشخاص الذين يعلنون عن اتجاههم إلى الشذوذ الجنسي أو الاتصال بالجنسين في مرحلة مبكرة.
- **النشاط الجنسي المبكر:** المراهقون الذين حاولوا الانتحار مارسوا

النشاط الجنسي في سن صغيرة.

- **إدمان المخدرات:** تبلغ نسبة محاولي الانتحار الذين كانوا يتعاطون المخدرات 85%، رغم أن نسبة 63% ممن لم يحاولوا الانتحار كانوا يتعاطون المخدرات أيضًا.

- **الأنشطة غير القانونية:** 51% من محاولي الانتحار كانت لهم سوابق مع القانون ودخلوا السجون، في مقابل 28% فقط ممن لم يحاولوا الانتحار.

- **البغاء والدعارة:** تورط 29% من محاولي الانتحار في أعمال الدعارة، في مقابل 17% ممن لم يحاولوا الانتحار.

- **اضطرابات الهوية الجنسية:** أكثر من ثلث محاولي الانتحار من الذكور (36.6%) تم تصنيفهم على أنهم يتشبهون بالفتيات، في مقابل نسبة 17.7% ممن لم يحاولوا الانتحار لم يتم تصنيفهم هكذا.

الصبي المتشبه بالفتيات أكثر عرضة للمخاطر:

تشير الإحصاءات إلى أن المراهقين الشواذ ينغمسون بدرجة خطيرة في تناول المخدرات والنشاط الجنسي المبكر، وأن المراهقين الشواذ الذين يتم تصنيفهم على أنهم متشبهون بالفتيات هم الأكثر عرضة لمحاولة الانتحار، وإدمان المخدرات، والتورط في أعمال البغاء والدعارة، والتعرض للاعتقال، وللمشكلات الصحية الخطيرة المرتبطة بالممارسات الجنسية الشاذة غير الآمنة.

وتقول مؤلفة كتاب "أجندة الهوية الجنسية": "المأساة هي أن الصبية الذين يتعلمون أن يسعدوا بكونهم صبية ذكورًا تقل احتمالات معاناتهم من رفض الأقران وإلقاء اللوم على الآخرين، وهي الأمور التي تقطع أواصر الارتباط بالهوية الجنسية ؛ وبالتالي تعوق تجربة الدخول في علاقات ذكورية طبيعية".

وتقول أيضًا:

"إن العلاج موجود لهؤلاء الأطفال، ولكنّ اختصاصيي العلاج النفسي يستخدمون في كثير من الأحيان الأسلوب المعدل سياسيًّا: قبول المرء لذاته شخصًا شاذًّا جنسيًّا، بدلاً من التعامل مع أساس مشكلة الاغتراب عن الهوية الجنسية".

إن الآباء والأمهات الذين يشعرون بالقلق تجاه علامات الشذوذ التي تظهر على أطفالهم- غالبًا ما يخبرهم أطباء الأطفال بأنه لا داعي للقلق، وأنه ليس هناك علاج متاح، وأن جينات الطفل قد حكمت عليه بأن يكون شاذًّا جنسيًّا- رغم أن العلماء البحثيين يعرفون أنه من المحتمل أن يحدث الشذوذ بسبب مجموعة من السمات المزاجية؛ مثل رقة المشاعر، أو تجنب المخاطر، أو المؤثرات البيئية المحيطة، أو الأنماط السلوكية المكتسبة، ويعرفون أن الشذوذ ليس أمرًا "وراثيًّا" ومحددًا سلفًا مثل لون العين...

ولقد كشفت الإحصاءات عن أن 61% من المراهقين الذين يعلنون عن شذوذهم وحاولوا الانتحار، مروا بتجارب تعرضوا فيها للاستغلال الجنسي، وربما لا يدرك الصبي في بعض الأحيان أن التجربة الجنسية المبكرة تعتبر استغلالاً، ولكنه قد ينظر إليها على أنها تأكيد على شذوذه الجنسي، وربما يخفق البالغون في رؤية الحادثة على أنها استغلال عندما يكون المستغل طفلاً أو مراهقًا من النوع نفسه، إن ممارسة الجنس مع النوع نفسه تدفع الطفل الذي يتطلع إلى جذب الانتباه والعطف، وتأكيد هوية الشذوذ الجنسي- في كثير من الأحيان- إلى اتباع نمط من العادات الجنسية طويلة المدى.

وفي وقتنا الحاضر، تطلق المدارس تحذيرات مشددة بشأن المخاطر التي ينطوي عليها التدخين، وأصبحت شركات التبغ عرضة للمساءلة القانونية في بعض الحالات عن الأضرار الناتجة، وفي يوم من الأيام، ربما يقرر الوالدان اللذان يشاهدان ابنهما وهو يموت بسبب مرض الأيدز- مقاضاة طبيب الأطفال؛ لأنهما عندما أحضرا طفلهما للعلاج من اضطراب الهوية الجنسية، أخبرهما هذا الطبيب بألا يقلقا، وأنه لا يوجد ما يمكن عمله، وربما يقرر والدا طفل آخر أن يرفعا دعوى قضائية ضد النظام المدرسي الذي صنف الطفل على أنه شاذ غير قابل للتغيير، وحوله إلى مجموعة متخصصة في دعم الشواذ؛ حيث انتقلت إليه عدوى مرض الأيدز، وفي كلتا الحالتين، ربما يساعد التشخيص والعلاج المناسبان على منع وقوع نتيجة سلبية.[9]

"جرب إن كانت هذه الهوية الجنسية تناسبك":

فتح الأبواب لمراهق مرتبك:

إن أطفالنا يتعرضون لنظام من القيم التي تخبرهم بأن الشذوذ الجنسي شيء لا بأس به؛ فهو مجرد تكملة للممارسة السوية للجنس، ولكن الطبيب النفسي "جيفري ساتينوفر" يحذر قائلاً:

«إن الآثار المترتبة لمثل هذه المجموعة من القيم على مراهق سريع التأثر، وبالطبع محب للاستكشاف، وربما يعاني الاضطراب- تتضمن شعور المراهق بأنه ليس هناك سبب من أي نوع يمنعه من خوض التجربة والتأكد مما إذا كان هذا الأمر يناسبه أم لا، إن الأمر بسيط؛ الباب مشرع، وسيعبر منه عدد معين من الأشخاص، وسوف يعرضون أنفسهم لمخاطر جسيمة في سن لا تمنحهم القدرة على اتخاذ قرارات صحيحة حيالها.. ولقد علمنا من مقال كتب مؤخرًا في نشرة للطب النفسي أن نسبة 30% من كل الشباب الشواذ الذين يبلغون من العمر 20 عامًا سوف يتعرضون لعدوى مرض الأيدز أو سوف يموتون بحلول الثلاثين من عمرهم.[10]

وربما تحدث تجربة الشذوذ الجنسي نتيجة الشعور بالإعجاب الشديد بالأقران، أو التعلق العاطفي، أو الحاجة إلى الانتماء، أو البحث عن السعادة، أو حتى لمجرد الفضول، وربما يحدث الشذوذ تعبيرًا عن القلق حيال الانتقال إلى مرحلة البلوغ، أو وسيلة لتجنب تحديات العلاقات الاجتماعية الناتجة عن الممارسة الجنسية السوية، وربما يلجأ المراهق- الذي يشعر بعدم الكفاءة الاجتماعية، أو بالتعرض لضغوط شديدة من أجل مواعدة الفتيات، أو باضطراب دوافعه لممارسة الجنس السوي- إلى الانخراط في سلوك شاذ جنسيًّا في ظل غياب البدائل الأخرى.

إن استغراق المراهق في التفكير في موضوعات الشذوذ الجنسي يجب أن يثير القلق الشديد لدى الوالدين، وهذا يتطلب التدخل المتخصص المناسب، وقد يصاحب هذا التفكير- في بعض الأحيان- الإحساس بالذنب، وإدانة الذات، والتفكير في الانتحار أيضًا؛ خاصة إذا كان الوالدان أو أحدهما، ينتقد بشدة ما يمر به المراهق من صراعات حول الهوية الجنسية؛ ولذا، فإنه يجب عليك أن تأخذ تعبير ابنك أو ابنتك عن الاكتئاب والتفكير في الانتحار على محمل الجد، ولكنني أعتقد أن الاستجابة المناسبة هي التأكيد على هوية الابن أو الابنة كإنسان، وفهم حاجة الطفل القوية إلى الارتباط العاطفي بجنسه نفسه، مع الإحجام عن تأكيد مشاعر الانجذاب الجنسي وتشجيعها بوصفها سلوكًا طبيعيًّا مرغوبًا فيه.

وعندما نفكر في أن تجربة السلوكيات الجنسية الشاذة تؤدي إلى تعزيز وتقوية هوية الشذوذ الجنسي، فإننا ندرك الأهمية الكبرى للتدخل المبكر؛ فإن هذا هو أفضل وقت للخضوع للعلاج ومعالجة هذه الاحتياجات العاطفية التي تعتبر أساس السلوك الجنسي الشاذ، وعندما لا يتلقى المراهق المضطرب جنسيًّا العلاج فإنه تقل قابليته للاستجابة للعلاج.

كيف تتجلى عملية الهوية الجنسية للمراهق:

على خلاف علاج الطفل الصغير، الذي يركز على علاج الهوية الجنسية، يواجه العلاج في مرحلة المراهقة مشكلتين إضافيتين؛ تتمثل المشكلة الأولى في التعامل مع سلوك الشذوذ، والأخرى هي قضية: هل يختار المراهق هوية شاذة؟ أم لا؟

السلوك الجنسي الشاذ:

تسمى مرحلة النمو الحرجة التي تضع الأساس للسلوك الجنسي الشاذ: "مرحلة الشهوانية الانتقالية" [11]، وخلال السنوات العشر الأولى من حياة الطفل، تكون احتياجات الهوية الجنسية والاحتياجات العاطفية للجنس نفسه غير مشبعة عند الصبي الذي يمر بمرحلة ما قبل الشذوذ، وفي بداية مرحلة البلوغ تقوم الهرمونات بتحفيز الرغبات الشهوانية، ثم تتولى الأحاسيس الجنسية تلبية الحاجة للحب، وهي الحاجة التي لم تُلَبِّ تلبيةً طبيعية.

إن الاحتياجات للعاطفة ولتحديد الهوية خاصة هي- تحديدًا- ما يصنع هذه الطبيعة الجبرية التي تتميز بها الرغبة في ممارسة الشذوذ الجنسي، وبسبب عدم إشباع هذه الاحتياجات في فترة الطفولة، يتطور السلوك الشاذ إلى أن يصبح نمطًا من العادات ذات الطابع الجبري أو القسري، وتعزز مواد الشذوذ الإباحية (المتاحة الآن على شبكة الإنترنت) وإمكانية الوصول لشركاء (من السهل إيجادهم من خلال "البحث على الإنترنت")؛ من إدمان هذه السلوكيات الشاذة.

الهوية الشاذة:

تقدم الثقافة الشعبية حياة الشواذ بصورة إيجابية، بل بصورة جذابة وساحرة أيضًا؛ حيث تحتوى الكثير من المدارس على أندية ومنظمات للشواذ والسحاقيات، وهناك برامج استشارية مؤيدة للشذوذ الجنسي تشجع كل المراهقين على تجربة

هوية الشذوذ الجنسي أو الاتصال بالجنسين.

إن التجربة المثيرة للبهجة الناشئة عن "المجاهرة بالشذوذ الجنسي"، وأن يرى المرء نفسه ضمن الأقلية المضطهدة التي تطالب بالعدالة الاجتماعية- تجذب المراهقين الذين يتسمون بالمشاعر الرومانسية الرقيقة، وبالنسبة للشباب الذين يشعرون بأنهم يساء فهمهم ولا يلقون التقدير المناسب من الوالدين والشخصيات المسؤولة، فإن مفهوم الثقافة السرية مع شباب مضطهد مثلهم- "أين يمكن أن أجد من يقبلني على طبيعتي"- يعتبر جذابًا بطريقة تفوق الوصف.

ولأن الثقافة السرية لمجتمع الشذوذ تعلي من منزلة الشباب، فإن الشاب الذي يتوق إلى الانضمام والدخول في عالم الشذوذ سوف يجد الاهتمام المتملق بسرعة، خاصة من الشواذ الأكبر سنًّا.

ويعرف اختصاصيو الصحة العقلية أن الكثير من السلوكيات الشاذة لدى المراهقين تأتي من باب التجربة وليست التزامًا ببعض الأشكال الدائمة لهوية المرء الذاتية، ويقر هؤلاء الاختصاصيون بأن غالبية المراهقين يرون أن تجربة الشذوذ مجرد مرحلة فضول متعلق بالنمو يتلاشى عندما تسود الاهتمامات الجنسية السوية، ويدرك هؤلاء الاختصاصيون أنه مع التوجيه المناسب، فإن الشباب سيمكنهم فهم المعنى الحقيقي لما يشعرون به من رغبات جنسية.

ولكن في الوقت الحالي، فإن رغبة المراهق الطبيعية في الانتماء إلى مجتمع يظهر القبول له- مع الإمكانية المتاحة للممارسة الجنسية الشاذة- من الممكن أن تقود أي شخص مضطرب إلى تعميق هويته الشاذة، وفي الحقيقة، فقد أخبرني عدد ليس بالقليل من مرضاي من الشواذ بأنهم كانوا يفترضون دائمًا بأنهم أسوياء جنسيًّا إلى أن مروا بتجربتهم الأولى مع الشذوذ؛ وبعد ذلك، اعتقدوا أن ما كانوا يشعرون به من سعادة خلال تلك التجربة لا بد أن يكون إثباتًا لأنهم شواذ جنسيًّا.

وقد أشارت دراسة بحثية قومية بعنوان "الجنس في أمريكا" إلى أن هناك 2-3% من الرجال البالغين شواذ جنسيًّا، بينما مرت نسبة 10-16% من جميع الرجال بمرحلة الشذوذ الجنسي في مراحل سابقة من حياتهم [12]، فما الذي كان سيحدث لو وجد هؤلاء الرجال- الذين جربوا فقط- الإقرار على أنهم "شواذ" من مستشار المدرسة أو من برنامج الشواذ أثناء هذه الفترة الانتقالية؟!

ولقد وجدت دراسة أخرى مهمة أن أكثر من ربع الأطفال في سن الثانية عشرة لا يعلمون على وجه التأكيد ما إذا كانوا أسوياء أو شواذ جنسيًّا، ولقد أجرت هذه الدراسة التي تمت في عام 1992 استفتاءً ضم 34707 مراهقين في ولاية "مينيسوتا" الأمريكية، ونشرت في الصحيفة العريقة "طب الأطفال".[13]

وهذا يعني أن البرنامج المدرسي الخاص بالاستشارة حول الشذوذ الجنسي، الذي يطمح إلى إثبات هوية كل مراهق ينجذب إلى جنسه نفسه ودعمها، سوف يكتشف أن نحو ربع المراهقين الصغار يعانون في الحقيقة ارتباك الهوية الجنسية، ولكن أكثر الأمور إثارة للخوف هو أنه من الممكن أن يتم التأكيد على الهوية الشاذة لمثل هؤلاء المراهقين، إذا صدَّق على شذوذهم مستشار مدرسي وهم في سن الثانية عشرة من عمرهم.

ويرجع أحد أسباب التكرار المتزايد لحدوث الارتباك الجنسي- كما ذكر من قبل- إلى ما يتعرض له الأطفال من تغطية إعلامية جذابة لصور الشذوذ الجنسي، وتعرض مواقع الإنترنت، والتلفاز، والأفلام، وموسيقى الروك، ومجلات المراهقين، وحتى المكتبات العامة رسائل جذابة مؤيدة للشذوذ الجنسي، ويرى بعض المراهقين المضطربين هذه الرسائل مغرية جدًّا.

ومؤخرًا، اتصل صبي مراهق بأحد ضيوف برنامج حواري على المذياع (عالم نفسي)، وقال: إنه يشعر بالانجذاب نحو الرجال، ولكن هذا يشعره بالاضطراب؛ لأن مذهبه الديني يحظر الشذوذ الجنسي، و نصحه عالم النفس بأن يقبل نفسه على أنه "شاب شاذ جنسيًّا"، وفي حال لم يستطع التوفيق بين هويته الشاذة "الطبيعية" وبين ديانته، يمكنه التفكير في التخلي عن هذه المعتقدات الدينية والتحول إلى مذهب ديني آخر يعترف بالشاذين!

إن هذا النوع من النصائح- والافتراض غير الدقيق بأن تجربة هذا الشاب تعني أنه شاذ "بطبيعته"، وأن المشاعر الجنسية لها الأفضلية على الاعتناق القوي للمعتقدات الدينية- يمثل التحيز الأعمى والمعلومات المضللة التي تسربت إلى ثقافتنا.

الصبية المراهقون والسلوكيات الخطرة:

هناك سبب آخر يدعو للقلق؛ لقد استطاع علماء الأعصاب مؤخرًا فهم العادات

الخطيرة للمراهقين بصورة أفضل، عادةً ما كانت التصرفات الطائشة التي يتسم بها الصبية- وبالأخص المراهقون- تفسر بأنها شكل من أشكال التمرد [14]، ولكن اكتشف الباحثون مؤخرًا أن هذه التصرفات التي تتسم بالتهور ترجع في الأساس إلى تغيرات النمو التي تحدث في المخ.

يمر المخ أثناء فترة المراهقة بعملية إعادة بناء هائلة، فالقشرة الأمامية الجبهية العصبية، التي تعمل مركزاً لإصدار الأوامر في المخ، تفقد تقريبًا نصف الوصلات العصبية الموجودة بها، وبناء على ذلك، تتحول مهمة اتخاذ القرارات إلى مناطق أخرى في المخ تحكمها ردود الأفعال العاطفية.

ويقول أحد علماء النفس: إن هذه التغييرات الهائلة تجعل المراهقين أكثر ميلاً للتصرف بطريقة متهورة، وفي الوقت نفسه، يحدث انخفاض في مستوى هرمون الدوبامين في المخ خلال سنوات المراهقة؛ مما يقلل من قدرة المراهق على الشعور بالسعادة؛ ونتيجة لذلك، ينجذب المراهقون نحو السلوكيات التي تبعث في أنفسهم النشوة والإثارة حتى لو كانت مدمرة، مثل: تناول المشروبات الكحولية، وتعاطي المخدرات، وممارسة الجنس بشكل محفوف بالمخاطر.

احذر برامج استشارات الشذوذ في المدارس:

إذا كان المخ يقود ابنك المراهق إلى التورط في سلوكيات متهورة، فهل هذه المرحلة من النمو مناسبة لكي يقوم برنامج استشارات مدرسي بتقديمه إلى مجتمع الشواذ؟ حين تكون هرموناته في حالة ثورة، وحين يجعله مخه ميالاً إلى تقبل المخاطر؟!

إن هناك أمورًا تبعث على السخرية بصورة لا يمكن السكوت عنها؛ ففي الوقت الذي تمحى فيه السيجارة من صورة شخصية عامة خشية أن يكون قدوة سيئة، يتم تعريف المراهق في مدرسته على أسلوب حياة ثبت أنه أكثر خطورة من التدخين!

وأثناء تأليف هذا الكتاب، ازدادت نسبة انتشار عدوى الأيدز في مدينة "سان فرانسيسكو" بصورة تزيد على ضعف النسبة منذ ثلاث سنوات مضت؛ وهذا لأنه تم التخلي عن ممارسة الجنس الآمن، ولقد أشارت صحيفة "لوس أنجليس تايمز" إلى "أن واحدًا من بين كل عشرة شباب من الشواذ جنسيًّا أو ممن يتصلون

بالجنسين قد أصيب بعدوى مرض الأيدز [15]، في مدينة لوس أنجليس وخمس مدن أخرى"، وأفاد تقرير آخر ارتفاع نسبة الإصابة بصورة أكثر خطورة بين الشباب الشواذ من الأمريكيين الأفارقة الذين يعيشون في المدن الكبرى؛ حيث إن واحدًا من بين كل ثلاثة شباب يحمل عدوى الأيدز.[16]

وأشارت صحيفة "لوس أنجليس تايمز" إلى أن شعبة الخدمات الصحية بمقاطعة "لوس أنجليس" قد اجتمعت مع 53 رجلاً شاذًا جنسيًّا وثنائي الميل الجنسي يحملون مرض الأيدز، واكتشفت أن نصف هؤلاء الرجال "قد مارسوا الجنس في أماكن عامة؛ مثل دورات المياه العامة أو الأندية، مع عدة شركاء بدون أن يخبروا شركاءهم بحالتهم الصحية، وبعضهم لم يكونوا يستعملون الواقي الذكري"، وكشفت دراسة مسحية مشابهة في مدينة "لوس أنجليس" عن أن 31% من 113 رجلاً ممن يتصلون بالجنسين قد استمروا في ممارسات جنسية خطيرة، "حتى بعد أن علموا بأنهم يحملون فيروس مرض الأيدز".[17]

وأشار مقال آخر، في صحيفة "لوس أنجليس تايمز" إلى ارتفاع الإصابة بعدوى مرض السيلان الشرجي بين الرجال الشواذ والمتصلين بالجنسين في مدينة "سان فرانسيسكو" بنسبة 44% أثناء الثلاث السنوات الأخيرة، بينما ارتفعت الإصابة بمرض الزهري بين الرجال الشواذ والمتصلين بالجنسين في مدينة "لوس أنجليس" بنسبة أكبر من 1.680%.[18]

وأشارت الصحيفة أيضًا إلى أن مدينة "سان فرانسيسكو" تعتبر "سباقة في مجال النشاط الجنسي بين الشواذ"، على مستوى الأمة الأمريكية.

وعند النظر إليها بصورة شاملة، فإن هذه المعلومات لها دلالة خاصة، فنحن لدينا دليل الآن على أن المخ في فترة المراهقة يدفع المراهق إلى اتباع سلوكيات شديدة الخطورة، ولدينا دليل على أن الشباب الشواذ ينخرطون في ممارسات جنسية غير آمنة؛ وبناء على ذلك كله، ألا يجب على المربين إعادة النظر في الحكمة من تقديم المراهق الذي لديه استفسارات جنسية إلى مجتمع الشواذ من خلال برامج إرشاد مدرسية؟!

إن المدارس تعمل بكل ما أوتيت من قوة لتجنيب الطلاب التوجه نحو المخدرات والكحوليات، وهكذا، يجب عليهم أن يفهموا الحكمة من تأجيل تعريض المراهق

لأسلوب حياة محفوف بالمخاطر الشديدة.

العلاقة بين الاعتداء الجنسي وبين الهوية الجنسية:

يحذر الكاتب "بوب ديفيس" والكاتبة "أنيتا وورثين"، من أن التعود المبكر على ممارسة الشذوذ الجنسي قد يكون له تبعات طويلة المدى، ولقد تولى الاثنان مناصب قيادية في مؤسسة "الهجرة الدولية"، وهي مؤسسة دينية كانت تدعم الشذوذ الجنسي في السابق.

وتقول "أنيتا وورثين": إن ابنها الذي يحيا الآن حياة شاذة، قد انجذب إلى هذا النمط من الحياة في سن السادسة عشرة عندما تعرض للتحرش الجنسي على يد المرشد المدرسي، ويوضح "ديفيس" و"أنيتا" الأمر قائليْنِ:

«إن الاستغلال الجنسي هو أحد العوامل المكونة المهمة التي تؤدي إلى السحاق لدى النساء... ومن المثير للعجب أنه أمر شائع أيضًا بين الرجال الشواذ حيث يقول أحد القادة الكنسيين: إن نصف الرجال الذين يأتون طلبًا للمساعدة كانوا ضحايا للاستغلال الجنسي، والذي عادة ما يقترفه ذكر آخر.

وفي السواد الأعظم من الحالات، يكون المستغلُّ هو أحدَ أفراد الأسرة أو صديقًا موثوقًا به، وليس شخصًا غريبًا يتربص بضحيته في مكان مظلم من الشارع، وفي حالات قليلة، يكون المستغل سيدة أكبر سنًّا، وأيًّا كانت التفاصيل، فإن استغلال ثقة المرء في مثل هذه الحالات المؤثرة يسبب خرابًا على مستوى هائل يمتد تأثيره مدى الحياة..

وفي حالة الرجال، فإن الاستغلال الجنسي (من ذكر أكبر سنًّا) عادة ما يسبب للصبي الضحية ارتباكًا شديدًا حول هويته الجنسية، فيتساءل الصبي الضحية: لماذا وجدني جذابًا بهذه الطريقة؟ هل هناك شيء ما يعيبني؟ وعادة ما يشعر الصبي الذي يتعرض للاستغلال عدة مرات ببعض المتعة الجسدية، وربما يسعى إلى تكرار العملية مع صبية آخرين في سبيل مضاعفة الشعور بالسعادة الجنسية والحميمية الجسدية».[19]

وفي الحقيقة، فقد اكتشفت دراسة كبرى أن الاستغلال الجنسي في فترة الطفولة يضاعف ثلاث مرات من احتمال أن يثبت المرء هويته الشاذة [20]، واكتشفت

دراسة أخرى أن الصبية الذين يؤكدون شذوذهم هم أكثر احتمالاً للانخراط في ممارسة الجنس مع ذكور آخرين قبل سن البلوغ [21]، مقارنة بالصبية الأسوياء جنسيًّا.

وقد كشفت دراسة حديثة صدرت في مجلة "أرشيف السلوك الجنسي" واشتملت على 942 شخصًا بالغًا لم يخضعوا للعلاج النفسي، أن 46% من الرجال الشواذ و22% من النساء السحاقيات، قد تعرضوا للاستغلال الجنسي الشاذ، في مقابل 7% من الرجال الأسوياء و1% من النساء السويات.[22]

وبالنظر إلى كل هذه الأمور مجتمعة، نجد أن هذه الدراسات تشير إلى أنه من المحتمل وجود علاقة بين الصدمة الجنسية المبكرة والتوجه نحو الشذوذ الجنسي فيما بعد.

إن التعرض للاستغلال الجنسي على يد شخص بالغ يثير في الطفل مشاعر مختلطة: من الخوف، والإثارة، والمتعة الجنسية، والغضب، وترتبط هذه المشاعر معًا، وتدفع الصبي الذي يتم استغلاله إلى الانجذاب- في حالات متفاوته- إلى إعادة تمثيل العلاقة الجنسية في وقت لاحق- حينما يصلون إلى سن البلوغ- مع طفل آخر أو مراهق صغير، وتؤدي هذه المشاعر المشوشة- مع ارتباط الجنس بموضوعات التحكم والسيطرة- إلى إثارة الاهتمام بموضوعات ممارسة الجنس مع التلذذ بتعذيب الذات والآخرين، والسيطرة، و"الملابس الجلدية التي تدل على ذلك"، والتي نراها بكثرة في ثقافة الشذوذ الجنسي.

أبحاث التحرش بالأطفال.. ما الذي تجاهلته؟

لقد رأينا في السنوات القليلة الماضية ظهور بعض الدراسات العلمية التي تدعي بجرأة أن الصبية الذين يمارسون الجنس مع رجال أكبر سنًّا، لا يتعرضون للأذى من هذه التجربة، وهناك دراسة حديثة قام بها "بروس ريند" الذي كان كاتبًا رائدًا لمقال نشرته الجمعية الأمريكية للطب النفسي، تسبب في إثارة فضيحة علنية نتيجة لما تعرض له من انتقادات على يد المضيفة الإذاعية الدكتورة "لورا سكليزنجر"، ولقد أدت الانتقادات الشديدة التي وجهتها الدكتورة "لورا" إلى هذه الدراسة، إلى توجيه الكونجرس الأمريكي توبيخًا إلى الجمعية الأمريكية للطب النفسي.

ولقد اكتشف "ريند"- في دراسة ثانية- أن تقدير الذات والهوية الجنسية

الإيجابية في إحدى مجموعات التحكم كان يتساوى مع ذكور- في السن نفسها ما بين الثانية عشرة والسابعة عشرة- انخرطوا في ممارسة الجنس مع رجال أكبر سنًّا، ويقول "ريند": "إن الصبية الصغار في المجموعة قد أظهروا رغبة واستعدادًا إيجابيًّا لا يقل عما أظهره المراهقون الأكبر سنًّا"، إن ردود أفعال هؤلاء الصبية (بعد ذلك صاروا شبابًا في الجامعة) الذين دخلوا في علاقة جنسية مع رجال كانت "إيجابية في المقام الأول".[23]

ولم يستخدم "ريند" مصطلحات مثل "التحرش" أو "الاستغلال الجنسي"؛ لأنها تستدعي إلى الذهن معاني أخلاقية، واستخدم بدلاً منها مفهوم العلاقات الجنسية بين شخصين من عمرين مختلفين، ودراسته الثانية سكبت مزيدًا من الوقود على نار الصراع المشتعل بين بعض علماء النفس حول أن الاعتداء الجنسي على الأطفال- الذي يتم "بالتراضي"- ربما لا تكون له آثار نفسية.

وبعيدًا عن أن هذه الدراسات لا تستطيع اكتشاف "الأضرار"؛ لأنها كانت تنظر إلى المؤشرات الخاطئة، فإنها تشير إلى موضوع أكثر أهمية: كيف سيتم استخدام هذه الأبحاث؟

من الواضح أن هذه الدراسات سوف تستخدم لتقليل السن القانونية للتمييز والإدراك، وسوف تستخدم أيضًا من أجل مناقشة تخفيف العقوبات على المتحرشين جنسيًّا بالأطفال، وعلى كل حال، إذا لم يكن هناك ضرر نفسي قابل للقياس نتيجة ممارسة الجنس بين صبي ورجل، خاصة إذا كان هذا التصرف قد تم "بالتراضي"، إذن لماذا ينظر إلى اللواط بالأطفال على أنه فعل غير قانوني؟ إن أبحاثًا مثل بحث "ريند" سوف يستخدم بلا ريب في ساحات القضاء فيما يسمى "دليلاً قاطعًا" لتعزيز تطبيع اللواط بالأطفال.

في عام 1994 أعادت الجمعية الأمريكية للطب النفسي تعريف الاعتداء الجنسي على الأطفال في العدد الرابع من الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات، بأنه يصبح مرضًا عقليًّا إذا شعر المستغل بالحزن والضيق جراء تصرفاته، أو إذا تأثر عمله أو تأثرت علاقاته الاجتماعية سلبيًّا.

ومن خلال إعادة تعريف الحالة بهذه الطريقة، فإن الجمعية الأمريكية للطب النفسي تمهد الطريق- حتى لو بدون قصد- إلى جعل ممارسة الجنس بين الأطفال

والبالغين شيئًا طبيعيًّا، من خلال إتاحة المجال أمام الدليل التشخيصي لإمكانية وجود مستغل للأطفال ذي طبيعة نفسية سوية.

وفي نسخة منقحة من العدد الرابع من الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات، قامت الجمعية الأمريكية للطب النفسي- ربما خشية الإحراج أمام الرأي العام- باستعادة المفهوم القديم للاعتداء الجنسي على الأطفال، الذي بمقتضاه يتم تشخيص حالة أي شخص ينساق وراء رغبات الاستغلال الجنسي للأطفال على أنه مصاب بمرض عقلي.

يجب أن يتذكر الآباء أن علم النفس هو مشروع تقوده وتوجهه المعتقدات والقيم، إن طريقة تفسيرنا للبيانات تعتمد على نظرتنا للعالم، وما يتوقع (أو في الحقيقة يأمل) الباحثون في إيجاده من خلال هذه البيانات، ولكن الأكثر أهمية من كل ذلك: أنه يجب علينا أن نتذكر أن المسائل النفسية والشخصية والروحانية، تتداخل بعضها مع بعض بطريقة لا مفر منها؛ وهذا يعني أن علم النفس ليس بمقدوره إعطاء رأي أو موقف يتعلق بالصحة النفسية دون أن يستند هذا الرأي أو يتلون بالقيم والمعتقدات التي يحملها من يتصدى لهذه المهمة.

ماذا لو اكتشف باحث آخر أن الصبية والمراهقين الذين تعرضوا للتحرش الجنسي يشعرون "بتقدير الذات بالدرجة نفسها" التي يشعر بها الصبية الذين لم يتعرضوا لذلك؟ هل يعني هذا أن نتجاهل الفروق في الخصائص الشخصية والجوانب الروحانية الموجودة بين المجموعتين؟ على سبيل المثال: ربما نتساءل عما إذا كان هؤلاء الصبية الذين تعرضوا للاستغلال الجنسي قد نشؤوا وسط بيئة أخلاقية سيئة، أو ربما نتساءل عما إذا كانوا قد تخلوا عن معتقداتهم الدينية في فترة طفولتهم، ووصل نموهم الروحي إلى طريق مسدود؛ هل يعد هذا أمرًا "ضارًّا"؟ وهل من الممكن أن يكون لدى هؤلاء صعوبات في فهم جنسهم وتقديره والفروق بين الأجيال؟ وهل سيحيا هؤلاء حياة تركز على ممارسة الجنس فقط، بحيث ينخرطون في ممارسات جنسية شاذة غير آمنة، ويتحرشون جنسيًّا بصبية أصغر منهم سنًّا كما حدث معهم؟! إن مثل هذه العوامل لم تخضع للبحث والقياس في هذه الدراسات التي اكتشفت "أضرارًا ضئيلة أو لا تذكر" للاعتداء الجنسي على الأطفال، ولكن من الواضح أن هذه الدراسات يمكنها أن تترك بسهولة انطباعًا خاطئًا بأنه ليس هناك فرق بين

الذكور الذين تعرضوا للاعتداء والذين لم يتعرضوا له، وهكذا فإن الاعتداء الجنسي على الأطفال لا ضرر منه.

التنوع الجنسي.. التقدير مقابل التساهل:

ينجذب المراهقون في كثير من الأحيان إلى الأبعاد السياسية والاجتماعية البراقة لهوية الشذوذ الجنسي، ويعجبون بالفكرة الجذابة للمشاركة في النضال ضد "السياسات الظالمة"، وبفضل معرفة الطبيعة العاطفية المنفعلة للمراهقين، عادة ما تطلق البرامج المؤيدة للشاذين "نداءً للمقاومة" حتى يشارك الطلاب في جدول أعمال سياسي كبير إلى جانب الموضوعات الشخصية التي يتعامل معها المراهقون، وهكذا تحولت البرامج التي كان من المفترض أن تكون موجهة لمعالجة القضايا الخاصة بالشباب، إلى محاولة تجنيد هؤلاء الشباب لخدمة الحركات السياسية التي تنادي بحقوق الشواذ جنسيًّا، وهكذا يصل المراهق إلى الاعتقاد بأن اضطهاد المجتمع هو الشيء الذي يحول بينه وبين السعادة.

إن الكثير من برامج المدارس العامة، مثل "مشروع 10" في ولاية "كاليفورنيا"، يتم تصميمها لتعليم الطلاب تقدير تنوع الممارسات الجنسية، وليس التساهل معها فحسب، فمن جانب هذه البرامج تعالج اهتمامات مشروعة (احتياجات الطلاب المرتبكين جنسيًّا)، ولكن من جانب أخر، فإنها تجاوزت الدور المفترض وهو تقديم الدعم العاطفي وأصبحت تقدم الدعم والتعزيز لأسلوب حياة الشذوذ الجنسي، من خلال تقديم الشذوذ الجنسي بوصفه عاملاً طبيعيًّا يعارض نظام القيم لدى الكثير من الأسر.

إن شبكات المعلومات التي يعتمد عليها "مشروع10" هي منظمات مثل "مركز الخدمات الاجتماعية للشواذ والسحاقيات"، ومنظمة "أطفال الليل"، و"خدمة المعلومات الجنسية في لوس أنجليس"؛ وكلها تقدم خدمات اجتماعية تدعم هوية الشذوذ الجنسي.

ولكننا نتساءل: كيف يمكن لهذه المؤسسات أن تساعد طفلاً اختار أن يقاوم الشذوذ الجنسي؟ إن مثل هذه المجموعات سوف تخبر المراهق بأن الشذوذ الجنسي "يمثل هويته"، وأن حالته ثابتة غير قابلة للتغيير؛ لماذا لا تتضمن قائمة دليل" مشروع 10" أيًّا من خدمات الجمعيات الكنسية ومراكز الاستشارة التي

تشجع الحياة الجنسية السوية؟!

يقول الدليل: إن الهدف من المشروع هو "توفير المعلومات لتنمية الإحساس لدى كل الطلاب وهيئات التدريس بوجود احتياجات واهتمامات خاصة بهذه الأقلية من الشباب" [24]، ولكن الحقيقة أن هدف "مشروع 10" هو دفع الطلاب والآباء والأمهات وهيئات التدريس والمجالس المدرسية، إلى تجاهل القيم الأخلاقية التقليدية من خلال تغيير طريقة تفكيرهم تجاه الشذوذ الجنسي، ومن خلال تقويض سلطة الوالدين والسلطة الدينية، وهناك أمر واضح: أن الآباء والأمهات الذين لا يقتنعون بفلسفة "مشروع 10" المؤيدة للشذوذ الجنسي، سوف يواجهون تمييزاً بغيضًا، وسوف يخوضون معركة صعبة.

لقد انتقد قادة الجمعيات الكنسية- التي كانت مؤيدة للشذوذ الجنسي في السابق- هذه البرامج بشدة، ويقول "بوب ديفيس" العضو بمنظمة "الهجرة الدولية": إن توجيه المراهق ليدخل إلى عالم الشذوذ الجنسي هو خطأ فادح، وهو يسأل قائلاً: "أي أب، أو أم، أو معلم، أو صديق، أو وزير؛ هذا الذي قد يشجع الطفل على الانخراط في سلوكيات خطيرة على حياته؟!".

ويوافق "آلان ميدينجر"- مؤسس منظمة "الكنائس المتجددة "- على هذا الرأي قائلاً: "إن أخذ طفل مضطرب جنسيًّا وتوجيهه إلى حياة قد تؤدي إلى مقتله هو عمل إجرامي بحت".[25]

إذا كانت لديك مخاوف نحو الميول الجنسية لابنك المراهق أو ابنتك المراهقة، فلا تتردد في مناقشة الأمر معه أو معها؛ يجب أن تحاول إيجاد طريقة لمناقشة هذا الموضوع، وربما تجد أنه أو أنها ترسل إليك إشارات لطلب المساعدة.

ولقد أخبرتني إحدى الأمهات قائلة: "لقد وجدت بعض المجلات الإباحية للشواذ جنسيًّا مخبأة تحت سرير ابني، وهو يعرف أنني أنظف هذا المكان"، لقد كان من الواضح أن هذه طريقة غير مباشرة من هذا الشاب لإخبار والديه بشيء لم يستطع أن يبوح به صراحة، وتقريبًا بدون استثناء، يعترف المراهقون بأنهم يشعرون بالارتياح عندما يعلم آباؤهم في النهاية بما يشعرون به من صراعات.

حكاية "ديف":

يبلغ "ديف" من العمر ستة عشر عامًا، والده شاذ جنسيًّا، ويعيش في حي جميع سكانه من الشواذ في مدينة "نيويورك"، وقد تعرض "ديف" للتحرش الجنسي بين الثامنة والحادية عشرة من عمره على يد عمه، وحدث الطلاق بين والدي "ديف" عندما بلغ الثانية عشرة من عمره، وذهب الفتى للعيش مع أمه وزوجها الجديد، وعلى الرغم من أن والدة "ديف" كانت توليه العناية والاهتمام، فإنها كانت تميل إلى الإفراط في التدخل في حياته وفرض السيطرة عليه بدرجة ما، أما زوجها الثاني فكان يقضي وقته عادة خارج المنزل؛ حيث كان ينشغل بممارسة هواية الجولف والبولينج، وقد تضمن جزء كبير من علاج "ديف" حث والدته على التراجع قليلاً حتى يستطيع أن يجد هويته الخاصة.

وعند لحظة معينة، انفجر "ديف" غاضبًا بسبب أمه المفرطة في السيطرة وزوجها الانتقادي، وبسبب الإيذاء الجسدي واللفظي المستمرين من أخيه الأكبر، لدرجة أنه فر هاربًا من المنزل، وذهب إلى مدينة "نيويورك" للعيش مع والده وأصدقاء والده لمدة تقترب من الأسبوعين، ولحسن الحظ، تمكن "ديف" من رؤية بعض المظاهر الشائعة للحياة في منطقة متمدنة يقطنها الشواذ جنسيًّا عن كثب، لقد أصابه الغثيان مما رأى، فلقد شعر بالنفور من دورات المياه، والمواد الإباحية، وممارسات الجنس الشاذة، ثم رجع وهو مقتنع بأن حياة الشذوذ الجنسي ليست هي ما يريده على الإطلاق، على الرغم من الأفكار التي كانت تراوده عن الانجذاب لجنس الذكور، وأصبح من الواضح أنه يريد التغيير.

كان "ديف" مسيحيًّا مخلصًا وقويًّا؛ ولذلك فقد عملنا بعناية مع قس كنيسته الذي تفهم مشكلة "ديف" وحاجته إلى الصداقة، ولقد أوصل القس "ديف" بقس الشباب في الكنيسة، وأتاح له فرصة الذهاب إلى المعسكر الصيفي، وأوجد له طريقة للانضمام إلى فريق البيسبول، وشجعه على المشاركة في الأنشطة الجماعية مع الفتية الآخرين في الكنيسة.

إن "ديف" ليس رياضيًّا، ولكنه تلقى التشجيع لكي يعبر حالة الوهن التي كان يشعر بها، كانت الكنيسة تحتوي على مبنى خدمي وترفيهي، وهكذا استطاع "ديف" أن يقضي بها المزيد من الوقت، وهذا أبقاه بعيدًا عن أجواء المنزل المتوترة، وعندما عاد للاستشارة، وجد أن زوج أمه يستطيع أن يعطيه بعضًا من التقدير الذكوري الذي يحتاج إليه.

ولقد رسم "ديف" صورة، عندما طلبت منه أن يريني نوع الرجل الذي ينجذب إليه، وعندما نظرنا إلى الصورة، وجدنا صورة مبالغًا فيها لرجل خارق مفرط الذكورة، كان الرسم يصور جسدًا مفتول العضلات، وكانت الفحولة بادية على جسد الرجل، وعند وصف الرجل الذي في الصورة، كتب "ديف": "إنه في العشرين من عمره، وذو جسد قوي، ووسيم، ورياضي، ومتدين، ومرح، ومنطلق، ويتصف بالجاذبية، ويستمتع الآخرون بصحبته... وطيب السريرة، ولطيف، ولكنه قوي في حالة الضرورة، يغازل البنات من أجل المزاح، ويجيد إلقاء النكات، ومشهور بين الناس، لا يرتدي قميصًا، ولكنني لا أعلم ما إذا كان عاريًا أم لا، وهو إنسان طبيعي يحيا حياة جنسية سوية تمامًا".

ثم تخلى "ديف" عن هذه الصورة فيما بعد، وقد أوضح لي أنه لم يعرف ماذا يفعل بمنطقة الأعضاء التناسلية؛ ولذا ترك مكانها فارغًا؛ ولو وضع بنطالاً قصيرًا على الرسم، هل "سيصبح قبيح الشكل" أم لا؟ وقد اعتقدت أن هذا المأزق يعتبر تصويرًا جيدًا لما يشعر به من صراع حول هويته الجنسية، لقد كان يشعر بالتناقض نحو الهوية الذكورية، وكان لا يزال جاهلاً بطريقة التعبير عن هذه الهوية بطريقة مناسبة.

الانطباع السيئ عن الجسد، والانجذاب للشذوذ:

هناك صورة أخرى رسمها شاب صغير ضعيف البنية يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، وسنطلق عليه "ماثيو"، لقد كانت الصورة تمثل نوع الرفيق الذي قد يعجب به "ماثيو" إعجابًا شديدًا في الغالب، ولقد وصف هذا المراهق الفنان هذا الشكل الرائع الذي قام به من خلال الرسم الحر، فقال: "هذا رسم لرجل بين العشرين والخامسة والعشرين من عمره، و"يتمتع بلياقة بدنية عالية"، وهو رجل قوي، وتبدو عليه علامات الذكورة بالفعل؛ وتبدو نظراته رائعة، وهو يبدو عميقًا نافذَ البصيرة، لو رأيته في الشارع، لقلت في نفسي: "إنه رجل مثالي"، ولكنني لا أعرفه في الحقيقة، إنه غامض؛ وهو يمثل كل شيء أفتقده في نفسي؛ وهو ما أتطلع إلى رؤيته في رفيقي، ما أتطلع إلى رؤيته في القدوة التي أتبعها". في الحقيقة: كان الرسم صورة مثالية للذات.

وينتشر بين الشواذ الانطباع السيئ عن صورة الجسم، وقد أجرى الدكتور

"ريتشارد فريدمان" والدكتور "لينور شتيرن"، دراسة ضمت سبعة عشر رجلاً شاذًا لم يتلقوا علاجًا نفسيًّا، وقد كشفت هذه الدراسة عن أن ثلاثة عشر منهم عانوا بشدة في مرحلة المراهقة من الإحساس بمشاعر سلبية تجاه أجسادهم، ولقد وصف عشرة من المشاركين أنفسهم بأنهم يتسمون بالنعومة وترهل الجسم، بينما وصف كل المشاركين بنيتهم الجسمانية بأنها تشبه "أجساد الفتيات"، ووصفت كل الحالات المشاركة نفسها بأنها تمتلك أجسادًا هشة من السهل أن تتعرض للأذى، وأعرب كل المشاركين عن مخاوفهم من المشاركة في رياضات الالتحام، خشية الإصابة الجسدية.[26]

وقد أفاد ثلاثة عشر مشاركًا في الدراسة نفسها عن الشعور بالخوف الشديد والدائم من الدخول في شجار مع الصبية الآخرين أثناء فترة الصبا والمراهقة المبكرة، وكان هذا الخوف يقترب في الحقيقة من الاستجابات التي تتسم بالرعب، ولقد توصل الباحثون إلى نظرية مفادها أن "قدرًا معينًا من الأعمال العدوانية بين الأقران تقلل من احتمالات حدوث حالة مستمرة من الشذوذ الجنسي".[27]

وفى الواقع، فإن الصبي الذي لا ينظر بعين الإعجاب إلى قوة الذكور الآخرين، ولكن يسعى إلى تطويرها في نفسه، تقل لديه احتمالات أن يتحول إلى شاذ جنسيًّا.

المجاهرة؟ أم البحث عن علاج؟

بالنسبة لأولاد مثل "كيث" و"ديف" و"ماثيو"، فإن أهم سؤال يجب عليهم مواجهته في حياتهم هو "الكشف عن شذوذهم أو عدم الكشف عنه؟"، وهناك عدد ليس بالقليل من الرجال الذين لجؤوا إلى استشارتي، قرروا ترك العلاج واعتناق هوية شاذة بالفعل، ومع ذلك، فإن "كيث" و"ديفيد" و"ماثيو" جميعهم قد فهموا جيدًا طبيعة ما يشعرون به من انجذاب نحو جنس الذكور خلال عام واحد تقريبًا من العلاج الإصلاحي الفردي والجماعي، وبينما كانوا يعززون إحساسهم الخاص بالذكورة وينمون علاقات الصداقة مع ذكور أسوياء، فإنهم أحسوا بانخفاض هائل فيما يشعرون به من شذوذ جنسي، وكلما مر الوقت، أصبح أسلوب الحياة الشاذة خيارًا يتباعد عنهم شيئًا فشيئًا.

وكما أخبرني "كيث": "لقد اعتدتٌّ على التطلع بغيرة إلى هؤلاء الصبية الذين

"بالخارج"، لقد كنت أظن أنهم يتسمون بالشجاعة والصدق، وأن بإمكانهم أن يتصرفوا على طبيعتهم، وأنا الآن لست متأكدًا مما إذا كان هذا هو ما أريده لنفسي".

أما التدخل العلاجي للشذوذ الجنسي في مرحلة المراهقة، فيجب أن يكون على نطاق عريض وبصورة فردية؛ لأن مشاعر المراهق للانجذاب نحو الجنس نفسه تنبع من مصادر مختلفة ومتعددة؛ فربما يعاني المراهق من مشاعر متناقضة نحو الفتيات، وربما يحمل مشاعر الغيرة والخوف نحو أقرانه الذكور، وربما تؤدي السخرية القاسية والتهكم بين الأقران إلى أن يقتنع الصبي بالفكرة القائلة: "إن ما يقولونه عني صحيح تمامًا؛ لذلك يمكنني أن أتقدم وأعلن أنني شاذ الهوية"، وفي الوقت نفسه، فإن توفر الفرص لممارسة الجنس "الشاذ" يصعب من مهمة الوصول للقرار الصائب، وعلى النقيض من ذلك، فإن الرغبات الجنسية السوية (إذا كان لدى الصبي أي منها) سوف تتطلب اتباع طقوس اجتماعية أكثر تعقيدًا- مثل المواعدة- مع احتمال التعرض للرفض.

ومنذ أن أثر المفهوم الشائع والخاطئ "لقد ولدوا هكذا" على كثير من اختصاصيي العلاج النفسي، فربما يرون أن مهمتهم أصبحت مجرد مساعدة العميل على تقبل توجهاته الجنسية "الطبيعية"، سواء كانت سوية أم شاذة فحسب، ومن خلال هذا السيناريو الساذج، يقدم المعالج الدعم للمراهق لكي "يكتشف تدريجيًّا هويته"؛ لأن الصبي جاء له لكي يعرف ويقبل توجهاته الجنسية التي يفترض أنها فطرية ومحددة سلفًا، إن الافتراض بأن التوجهات الجنسية تتكون منذ لحظة الميلاد، يجعل من المستحيل تغييرها، إن هذه الخرافة الشائعة- التي لا تستند إلى أية حقيقة علمية- أسهمت في تحول الكثير من الأفراد إلى اتباع أسلوب الحياة الشاذة بعد أن أخبرهم المعالج بأنه ليس هناك أمل في التغيير.

وفي الحقيقة، فإن احتمالات التغيير مرتفعة جدًّا، وفي دراسة حديثة شاركت بنفسي في إجرائها، وتم نشرها في دورية "تقارير نفسية"، وضمت 882 رجلاً وامرأة، أفادوا بأنهم حققوا الاستفادة بدرجة ما من جراء تغيير توجهاتهم الجنسية الشاذة [28]، وعلاوة على ذلك، هناك دراسة أخرى حديثة (شاركت في إجرائها أيضًا) منشورة في الدورية نفسها أيضًا، تظهر أن هناك بالفعل اختصاصيي صحة عقلية

يعتقدون أنه يمكن إعادة تشكيل التوجهات الجنسية من خلال العلاج.[29]

بناء الثقة مع المراهقين:

يحاول المراهق التشبث بهويته الجنسية فيما تتأجج داخله مشاعر الغضب والتمرد والألم، وعلى الرغم مما قد يبديه المراهق المضطرب الشاذ جنسيًّا من قبول ومسايرة لما هو عليه، فإنه يكون مترددًا حيال أي شخص بالغ يريد أن يسبر أغوار حياته الخاصة؛ ولذا يلجأ المراهق إلى فرض نطاق من السرية حول نفسه لتفادي تدخل الآخرين، وهكذا، يمكننا أن نتوقع توجيه أصابع الاتهام ونظرات الريبة نحو الوالدين والمعالجين.

ولحسن الحظ، فإن رغبة المراهق في أن يراه ويفهمه ذكر آخر هي أعمق من رغبته بالتواري والاختباء، ولقد وجدتٌّ هذا الأمر صحيحًا على الدوام: أن أكثر ما يرغب فيه الرجل الشاذ هو أكثر ما يخشاه أيضًا؛ وهو أن "يراه ويهتم به" حقًّا ذكرٌ آخر؛ ولذلك، فإن أول خطوة في العلاج هو تقديم قبول غير مشروط بحيث لا يكون المراهق في حاجة لإخفاء إحساسه بالعار أو مشاعره وميوله المتناقضة.

ويحتاج هذا الشاب إلى أن يسمع الرسالة التالية من والديه: "إننا نحبك، ومهما صنعت في حياتك فلن يغير من هذه الحقيقة، وسوف نبذل قصارى جهدنا لاحترام مشاعرك وتفهٌّم وجهة نظرك أيًّا كانت الاختيارات التي تقوم بها، ولكن لأننا نرغب لك في الأفضل، فإننا نريدك أن تفكر بجدية في إمكانية التغير؛ فنحن لا نعتقد أن أسلوب حياة الشذوذ الجنسي هو اختيار حكيم".

فصل الاحتياجات العاطفية عن الأحاسيس الجنسية:

قام والدان بإحضار ابنهما البالغ من العمر ستة عشر عامًا بعد وقت قصير من اعترافه لهما بأنه شاذ جنسيًّا، جاء الصبي معهما إلى الجلسة الاستشارية، بعد أن أبدى ممانعة كبيرة، وعلى الرغم من أن هذا الشاب الصغير كان يعارض فكرة العلاج، فقد حدثت نقطة تحول في العلاج في الجلسة الثالثة، عندما سألته: "أخبرني، متى لا تشعر بالإعجاب نحو الشذوذ الجنسي؟".

فأجابني بسرعة: "عندما ألعب كرة القدم".

ومنذ تلك اللحظة، استطاع أن يدرك أنه عندما يشعر بالقبول والارتباط مع رفاق

آخرين- خاصة على المستوى الجسدي- فإن اهتماماته وأفكاره الجنسية الشاذة تختفي، وفي الأوقات التي يشعر فيها بالعزلة الاجتماعية والوحدة، والرفض من أقرانه الذكور، فإن خيالات الشذوذ الجنسي تطفو على السطح وتصبح هاجسًا يسيطر عليه، ومن خلال التفكير مليًّا في هذا النمط المتكرر، استطاع هذا المراهق أن يدرك أن ما كان يعتقد بأنه جزء أساسي وفطري من "هويته الحقيقية" هو في الحقيقة مجرد رد فعل ظرفي لما يشعر به من عدم كفاءة هويته الجنسية.

ومما يثير الدهشة: أنه في كثير من الأحيان يفكر المراهق الذي يعاني اضطراب الهوية الجنسية- الذي يعاني من إعاقة جسدية أو قدرات محدودة (مثل مرض الربو)- في أن هذا يمنعه من أن يحظى بالقبول الكامل من أقرانه، وبمقدور كل من المعالج والوالدين مساعدة مثل هذا المراهق على إجراء تقييم واقعي لمحدودية إمكاناته الجسدية، وكيف أنه يستغل هذا الأمر ذريعة للانغماس في حالة دائمة من الشعور بالدونية، وهكذا يؤدي التركيز المفرط على هذا الأمر إلى التسبب في أن يرى المراهق نفسه غير جدير بأن يوضع في مقارنة مع الصبية الآخرين.

ومع تواصل عملية العلاج، يبدأ المراهق في فهم أن مشاعر الانجذاب الشاذة هي في الحقيقة مجرد محاولات لتعويض ما يعانيه من احتياج عاطفي- احتياجاته الطبيعية والصادقة تمامًا (والتي لا يتم إشباعها) لجذب الانتباه، والعطف، والاستحسان الذكوري. إن الكثير من المراهقين يرون أن الخيالات الجنسية الشاذة والارتباطات الرومانسية هي حوافز تعويضية (ولكن يساء توجيهها رغم ذلك عندما تكتسي بطابع الإثارة الجنسية) نحو تحقيق تكامل الهوية الجنسية.

وعلى مر السنين، كان نشطاء الشذوذ يشعرون بالغضب عند سماعهم مصطلح "العلاج الإصلاحي"؛ فكانوا يقولون لي: "هل تحاول إصلاحنا، كما تحاول إصلاح سيارة أو جهاز راديو؟"، في الحقيقة، لا يعالج "الإصلاح" شيئًا يحدث للعميل، ولكنه يتحدث عن طبيعة حافز الانجذاب الجنسي لنفس النوع، والذي يشكل في نفسه محاولة لاستعادة الصحة، إن هذه الاحتياجات العاطفية الحقيقية للجنس نفسه تسعى في طلب تحقيقها والوفاء بها (وهكذا، فإن هذه الاحتياجات تعتبر "إصلاحية" بطبيعتها)، ولكن المرء يسعى إلى إنجاز مهمة إصلاح هذا النقص من خلال اتباع طريقة انهزامية لا تحقق المطلوب منها، بالتحديد من خلال الجنس.

ويكتشف عملائي في الحقيقة أن مفهوم الشذوذ الجنسي يمثل حافزًا تعويضيًّا للشعور بالراحة، إنهم يدركون لأول مرة أنهم ليسوا "غرباء"، أو "غريبي الأطوار"، أو "فاسدين أخلاقيًّا"، ولكنهم يسعون إلى استكمال هوياتهم الطبيعية، ولكن بطريقة غير موجهة توجيهًا صحيحًا.

يجب على الآباء والأمهات والمستشارين- على حد سواء- أن يبعثوا برسالة واضحة إلى المراهق مفادها أن في إمكانه مناقشة مشاعره الشاذة بكل حرية؛ فهو لديه ميل طبيعي وصحي لإقامة علاقات صداقة مع الذكور الآخرين والوجود بالقرب منهم، إن إجراء حوار حول مثل هذه المشاعر لهو أمر مقبول ومهم، ويجب ألا تثير هذه الموضوعات مشاعر الخجل، ولكن يجب علينا أن نكثر الحديث حول ما يعنيه من أن تتحول هذه المشاعر إلى ممارسات جنسية، ماذا تعني هذه الرغبات؟ أو ما دلالتها بالنسبة لابنك المراهق؟! ما الذي يتطلع إليه حقًّا في رفاقه؟ كيف يمكن أن تغير ممارسة الجنس من البحث عن الصداقة وتغير من إحساسه بنفسه وهويته؟

كثيرًا ما أسأل المراهقين: "ماذا يعني الشذوذ الجنسي بالنسبة لك؟" أو: "ما الذي سوف تستفيده من مثل هذا السلوك؟"، وكثيرًا جدًّا ما يقولون: إن ما يبحثون عنه لا يتعلق بالممارسة الجنسية الحميمية مع النوع نفسه، بقدر ما يتعلق بالحاجة إلى الشعور بالانتماء، والشعور بأنهم يمثلون شيئًا خاصًّا في حياة أحد الأصدقاء المميزين من الذكور.

ويجب على المعالج أو الوالدين أن يقيموا وجهات نظر المعلمين، أو قصص وسائل الإعلام، أو مواقع الإنترنت التي تعرف الطفل على الشذوذ الجنسي: هل يعتبر هؤلاء المعلمون أو المستشارون المدرسيون ردة الفعل المعارضة للشذوذ الجنسي على أنها مجرد خوف أو "رهاب الشذوذ الجنسي" فحسب؟ هل يشيرون إلى الأفراد من ذوي التوجهات الجنسية الشاذة على أنهم "فئة طبيعية من الناس"؛ وهكذا يتساوى أي نقد موجه نحو أسلوب الحياة الشاذة مع التعصب الأعمى المتطرف؟!

ولكن ألا تعبر أجسادنا عن شيء مهم يتعلق بتصميم الحياة الجنسية البشرية والغرض منها؟ هل سيكون من الطبيعي إذا اختار شخص ما أن يشرب- مثلاً-

باستخدام ماصة يضعها في أنفه؟ أو هل هناك حكمة في طبيعة تركيب أجساد الرجال والنساء المختلفة جنسيًّا، وطبيعة "التوافق المثالي" التي تساعد على قيام حياة جنسية سوية بين الرجل والمرأة؟ إن كل هذه الأفكار تساعد على إجراء نقاش فعال.

تصحيح بعض الخرافات العامة:

يمكنك مساعدة ابنك المراهق من خلال كشف حقيقة بعض الخرافات الخاصة بالشذوذ الجنسي.

مؤخرًا، أخبرني شاب ذو هوية شاذة، يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، أخبرني بفخر أن "إبراهام لينكولن" كان شاذًّا، لقد قرأ هذا في مجلة للشواذ، ولحسن الحظ، كنت قد سمعت هذه الشائعة من قبل، وهكذا أمكنني أن أقدم لهذا الشاب الحقيقة التاريخية؛ ففي عهد "لينكولن" كان أصحاب الفنادق يتوقعون من المسافرين أن يتشاركوا الفراش، ولكن الحقيقة هي أن قيام "لينكولن" بهذا الأمر لا يعني أنه شاذ جنسيًّا، ولقد كنت قادرًا على أن أستخدم هذا التشويه لصورة "لينكولن" لأقدم درسًا موضوعيًّا حول تسييس التاريخ.[30]

إن تعليم المراهقين يقتضي تصحيح هذه المعلومات الخاطئة الشائعة على نحو واضح وجلي، والتي تتضمن الخرافات التالية:

- "يتم تحديد التوجه الجنسي بطريقة بيولوجية- فإذا كنت شاذًّا، فستبقى شاذا إلى الأبد". وفي الواقع فإن تخلص الكثيرين من الشذوذ لهو شهادة حية على خطأ هذه الخرافة.

- "يمكن للرجال الشواذ أن يتمتعوا بعلاقات طويلة المدى مع شخص واحد فقط". وفي الواقع يعترف الباحثون الشواذ الآن بأن توقعات الإخلاص الجنسي في العلاقات الشاذة بين الرجال تزيد من احتمالات انهيارها بدلاً من تقويتها.[31]

- "قبلت كل الثقافات والمجتمعات عبر التاريخ الشذوذ الجنسي، ومجتمعنا هو الوحيد الذي يعاني من رهاب الشذوذ الجنسي". وفي الحقيقة لا توجد ثقافة واحدة ساوت بين الشذوذ الجنسي والحياة الجنسية السوية.

- "الحيوانات أيضًا شاذة جنسيًّا". يرجع علماء الأحياء السلوكيات الجنسية

الشاذة في الحيوانات إلى ضغوط الأسرة، والملوثات البيولوجية، والترويض، وعدم وجود الجنس الآخر، والتلاعب في الهرمونات؛ سواء تفسير الروائح أو النداءات الجنسية، والتعبير عن السيطرة، والممارسة الجنسية غير الناضجة، ولكن هذا لا يعني النظر إلى هذه السلوكيات على أنها طبيعية.[32]

- "تتسم محاولات تغيير التوجهات الجنسية بالخطورة؛ وهي لا تؤدي إلا إلى زيادة الشعور بالتعاسة، والاكتئاب، وأحيانًا الانتحار". إن الشعور بالاكتئاب الحاد بسبب الفشل في التغير ممكن الحدوث، كما يحدث عندما يفشل العلاج مع أية مشكلة أخرى؛ مثل السمنة، وفقدان الشهية للطعام، وإدمان المشروبات الكحولية، أو إدمان المخدرات. ولكن لكي نضع هذه المخاطرة في سياق أفضل، تذكر أنه يمكن أن يقدم المرء على محاولة الانتحار عندما يعلم أنه لا يستطيع أن يتغير.[33]

- "يتشابه الأشخاص ذوو التوجهات الشاذة مع الأسوياء جنسيًّا في كل النواحي النفسية والعاطفية، ويختلفون فقط في التفاصيل الصغيرة لخياراتهم الجنسية، وكمجموعة فإن الشواذ يتمتعون بالصحة مثل الأسوياء". وفي الحقيقة اتضح أن الرجال والنساء من الشواذ يعانون نسبة أعلى من محاولات الانتحار، والإفراط في إدمان المخدرات، والاضطرابات النفسية.[34]

إن هذه الخرافات وغيرها الكثير تقتضي التعليم والتثقيف والتصحيح لهذه المعلومات، إن أي شاب يواجه تحدي اتخاذ اختيار جوهري في أسلوب الحياة يستحق أن يجد معلومات دقيقة لكي يتخذ قراراته المصيرية بوعي وإطلاع.

الفارق بين المبتهج والشاذ:

(في الثقافة الأمريكية عبارة (gay) تعني في الأصل المبتهج أو الزاهي، ولكن في القرن السابع عشر أصبحت تطلق على الشخص الذي يبحث عن الملذات الجنسية بتحرر ودون قيود، سواء من الذكور أو الإناث؛ فالمومس التي تمتهن البغاء والرجل الذي يطارد النساء أو زير النساء، جميعهم يطلق عليه (gay)، وطرأ تحول على استخدام هذا العبارة في منتصف القرن الماضي، حيث بدأ ينتشر استخدامها كصفة تطلق على الشواذ، وبمرور الوقت ومع التسامح الذي أظهره المجتمع الأمريكي تجاه الشذوذ، تحول استخدام العبارة من صفة إلى اسم يطلق على الشخص ذي الميول الجنسية الشاذة. والمؤلف هنا يتحدث عن صراع المصطلحات في الحرب الإعلامية، ولجوء نشطاء الشذوذ إلى استخدام مصطلحات محايدة أو إيجابية لوصف الشخص الشاذ).

(المترجم)

إن أحد الأمور المهمة في علاج الشذوذ الجنسي هي توضيح الفرق بين المسميات، فلا يعني شعور المرء بمشاعر جنسية شاذة فحسب ضرورة تسميته "مبتهجًا"، وعلى خلاف الشذوذ الجنسي الذي يصف توجهًا جنسيًّا، فإن كلمة "مبتهج" هي هوية اجتماعية وسياسية، تعني في جوهرها أن "هذه هويتي، وهذا ما أكون عليه بالفعل، ويمكنني أن أعيش مع مشاعر الانجذاب الجنسي لنفس النوع بدون الإحساس بأية اضطرابات داخلية".

لا يختار كل الأشخاص الذين يحملون مشاعر جنسية- نحو النوع نفسه- هوية "مبتهج"، إن الخلط بين "شاذ" وبين "مبتهج" يرجع إلى المفاهيم الشائعة التي يتم تشجيعها داخل ثقافتنا، وبصورة متزايدة داخل مدارسنا العامة، ويجد الصبي المضطرب جنسيًّا التشجيع على مسايرة إحساسه بالدونية الذكورية واضطراب الهوية الجنسية، وعلى الانضمام إلى الأشخاص الذين يعانون من المشكلات نفسها، ولكن من خلال القيام بهذا، يفصل الصبي نفسه عن غالبية المجتمع المتمسك بالتقاليد، وينضم إلى نسبة تتراوح بين 2% و4% تقريبًا من السكان، بينما يبعد نفسه عن النسبة المتبقية التي تبلغ من 96% إلى 98%.

ونحن هنا سنبدي اعتراضنا على مصطلح "الطفل المبتهج" ومصطلح "الشاب المبتهج"؛ لأسباب عملية محددة؛ فالأطفال والمراهقون صغار جدًّا في السن على أن يفهموا بصورة واضحة هوياتهم الشخصية، وهوياتهم الجنسية على وجه الخصوص، وهم لا يملكون القدرة بالتأكيد على أن يفهموا الآثار الصحية والاجتماعية- المستمرة مدى الحياة- المترتبة على تبني هوية مبتهج.

وهناك قضية أخرى فلسفية: هل هناك بالفعل شخص شاذ؟! أم أننا جميعًا خلقنا لنحيا حياة سوية، مع وجود بعض الأشخاص الذين لديهم معاناة مع الميول الشاذة ؟! هل يمكن بناء هوية شرعية على عجز وقصور نفسي؟! إن هذا أمر فلسفي أكثر من كونه موضوعًا علميًّا.

إن من الخطأ أن نقدم الدعم للمراهق لكي يطلق على نفسه لقب "شاذ" قبل الأوان، ومع وضع هذا في الاعتبار، آمل أن تتذكروا أبناءكم المراهقين بأنه يجب

عليهم أن يفهموا الموضوع أولاً قبل أن يطلقوه على أنفسهم، ولا يهم ما تقوله "دير آبي" أو "آن لاندرز" في عموديهما الصحفيين؛ بأنه يجب تشجيع المراهقين وإبقاء كل الخيارات مفتوحة أمامهم.

نظرة داخلية على قلب المراهق:

كان "برايان" يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا عندما بدأ كتابة هذه المذكرات اليومية التي استمرت ستة أشهر، وتمنحنا هذه المذكرات نظرة عن كثب إلى شاب يشعر بالوحدة الشديدة، وهو يلجأ إلى أحلام اليقظة والخيالات والهروب من الواقع؛ سبيلاً للتعامل مع ما يشعر به من وحدة وحزن، ومع الإحساس بكونه غير محبوب، وكان حلمه يدور حول وجود من يحبه، سواء كانوا "مجموعة من الأصدقاء" أو كان رجلاً خاصًّا جدًّا، وكان الرجل الذي يحلم به دائمًا يمثل في الحقيقة الصورة المثالية التي يتخيلها لنفسه؛ بمعنى آخر: رجل قوي وبارز بين الآخرين.

كان الاكتئاب يمثل مشكلة مستمرة لـ"برايان"، مع الشعور بالوحدة، وسوء تقدير الذات، والشعور بأنه ليس هناك من يحبه أو يهتم لأمره، ولعل سماحه للقراء بالاطلاع على يومياته هو بلا شك دليل على ما يتحلى به من كرم، ومحتوى هذه اليوميات يكشف عن حاجته القوية لأن يشعر بالتقدير والحب من جانب شاب مميز بعد سنين من الانعزال عن أقرانه الذكور.

وأثناء تقدم "برايان" في العلاج الفردي والجماعي، أوضح ما يعتمل في نفسه من صراع شديد بين رغبته في التواصل مع الآخرين، وميله إلى الابتعاد عنهم كطريقة دفاعية:

«**6 أبريل:** حلمت مرة أخرى بأني وسط مجموعة من الأصدقاء، لو كان فقط لديّ شخص أحبه وأهتم به، ويبادلني المشاعر نفسها، شخص أطول مني، وممشوق القوام، وبهي الطلعة، شخص يجعلني أشعر بالأمان، وبأنني محط رغبة واهتمام.

9 أبريل: إنني أتساءل عما قد أشعر به جراء تقبيل فتى آخر فحسب، أو جراء أن يمسكني أو يحتضنني شخص يحبني بالفعل، وأنا أحب كل الفتيان على اختلاف ألوانهم: أبيض أو بني أو أسود، ولكنني أخشى أنني لا أملك سوى النظر إلى الجمال الذكوري من بعيد؛ حيث تملؤني الرغبات والخيالات التي لا تتحقق.

20 أبريل: لا أعرف لماذا، ولكن مؤخرًا أشعر بأني مكتئب قليلاً، يبدو أن كل مَن في المدرسة يخرجون ويقومون بأشيائهم الخاصة معًا، وأنا دائمًا الشخص الذي يترك في الخلف، أحتاج لشخص، أي شخص، أريد شخصًا حقيقيًّا يرفعني عاليًا، ويمسكني بذراعيه ويضمني، لأشعر بالأمان والطمأنينة، وبأني معتنًى بي ومحبوب.

كل يوم أشعر بالوحدة أكثر وأكثر، أتمنى لو تحولت كل أحلامي إلى حقيقة، وأن أجد حولي كل هؤلاء الأصدقاء، وأن أجد ذلك الشخص عندما أقول له: "أحبك"، يرد قائلاً: "وأنا أيضًا أحبك". لو.. لو.. لو..!

19 مايو: لقد شعرت بالملل الشديد اليوم، كان كل ما فعلته هو مشاهدة التلفاز، ولم أستطع التفكير في شيء آخر أقوم به، واستمررت في الحلم بمعلمي الجديد، المعلم "جاكسون"، كم يبدو وسيمًا! في الحقيقة، أنا لست على يقين ما الذي يشدني إليه، أظن أنه بسبب أنه الرجل الذي أحتاجه تمامًا؛ فهو طيب، ولطيف، وجذاب، ويجعلني أشعر بأني موجود، لم أشعر بأن أحدًا عرف بأني موجود منذ زمن طويل.

5 يوليو: حضرت اليوم أول جلسة علاجية جماعية، كنت متوترا بشدة، ولكن كلما بدأ أحدهم بالحديث، أشعر بالانسجام مع ما كل ما يقولونه، شعرت شعورًا طيبًا لوجودي حول أناس كانوا يعرفون ما أشعر به ويفهمونه تمامًا.

أحد الرجال في المجموعة- ويدعى "توم"- قال شيئًا أحسست أنه حقيقي جدًّا؛ لقد قال: "إن الرجل الشاذ أمامه خياران ليملأ نفسه عندما يشعر بالفراغ، فمن جانب: يستطيع أن يأكل طعامًا لا قيمةَ غذائيةً له؛ وهذا يمثل ممارسة الجنس، وعلى الجانب الآخر: هناك الطعام الصحي الذي يمثل العلاقات العاطفية الحميمة، ويمكن لهذا الرجل اللجوء إلى الحل السريع ويأكل الطعام الذي لا فائدة فيه، والذي سيجعله يصاب بالمرض بعد ذلك، أو يمكنه تناول الطعام الصحي الذي سيجعله يشعر بالرضا على المدى الطويل وسيحقق له الفائدة"، أعتقد أن "توم" ربما كان محقًّا.

21 يوليو: انتهت جلسة العلاج الجماعي منذ وقت قليل، لقد تحدثت كثيرًا خلال هذه الجلسة، وقد أخرجت الكثير من القضايا، وكل فرد حقيقة ساعدني، راقت

لي لأن كل واحد يفهم ما كنت أقوله، وحاولوا مساعدتي بقدر ما استطاعوا.

وأنا حقيقة بحاجة لبعض المساندة من الرجال الأسوياء، ولكني خائف أنهم لن يساندوني حتى لو أخبرتهم بأنني أتلقى العلاج رغبة في التغيير.

25 يوليو: حسنًا، لقد كنت أسرح متخيلاً فتًى لا وجود له أصلاً، أسمه "آدم"، أنا لا أعرف كيف يبدو شكله إلا في أحلامي، ولكن التفكير فيه يمنحني الشعور بالسعادة، أظن أنه ليس هناك اختلاف بين هذا وبين الأحلام الأخرى، أكره أن أكون وحدي جالسًا أمام التلفاز بمفردي.

29 يوليو: الآن أنا لا أعلم ما إذا كنت أريد التغيير أم لا، أنا أتساءل: "حتى لو أردت التغيير، فهل يمكنني ذلك؟"، أظن أنني أريد فقط أن أكون على علاقة مع فتًى وأرى كيف سيبدو ذلك، ربما ينجح ذلك!

أشعر بأني مضطرب جدًّا؛ فمن جانب: أنا أفكر في نوع الحياة التي تربيت على الاعتقاد بأنها الصواب مع زوجة وأطفال في يوم من الأيام، وكم سيسعدني ذلك، ولكنني بعد ذلك أفكر كم سيكون رائعًا لو ارتبطت بعلاقة حب مع رجل، وهكذا فأنا لا أعرف.

لقد كانت أمي من أجبرني على الذهاب إلى تلقي العلاج، ولقد أحببت العلاج نوعًا ما، أنا في حيرة شديدة، ولا أعرف ما يجب عليّ فعله.

2 أغسطس: لقد كان العلاج الجماعي حقيقة لطيفًا؛ حضر "جاك" و"مارك"، ولقد تأثرت بالفعل بـ"جاك" والأشياء التي قالها.

وقال "مارك": "جميعنا بحاجة إلى الحميمية مع الرجال، وهذا أمر جيد تمامًا، ولكن المشكلة تأتي عندما آخذ خطوة أبعد: ممارسة الجنس"، وقال: "إن هناك خيطًا رفيعًا يفصل بين الحب وممارسة الجنس، هناك خيطٌ بلا شك، سيكون رائعًا لو استطعت فقط تلبية احتياجاتي العاطفية وعدم الذهاب أبعد من ذلك، إنها الحقيقة، في أعماقي لا أريد الجنس، أريد الحب والحميمية، الاحتضان والشعور بالأمان والطمأنينة، هذا ما أحتاج إليه وما أرغب فيه.

3 أغسطس: والدي سيعود من أوروبا غدًا، أنا لست متلهفًا تمامًا لهذا الأمر، لقد كان لطيفًا عندما اقتصر الأمر عليّ أنا وأمي وأختي فقط في البيت، نادرًا أي

جدال، لقد كنت سعيدًا جدًّا؛ أنا آسف، ولكن هذا ما أشعر به.

لقد كنت وحيدًا مؤخرًا، وسرحت متخيلاً "آدم".

6 أغسطس: لقد كنت أفكر في ذلك الفتى الرائع "جاك" وما قاله في جلسة العلاج الجماعي الأسبوع الماضي، لماذا أخدع نفسي هكذا؟ إنه محق، مثل أنني لن أقابل الفتية الذين أحلم بهم وأعيش في سعادة إلى الأبد، إن عالم الشاذين طائش مليء بالاحتفالات الصاخبة، فقط لو أبقيت الجنس بعيدًا واستمتعت بالرفقة الطيبة التي كنت أتطلع إليها دومًا.. هل يمكن ذلك؟ حسنًا، عمري خمسة عشر عامًا الآن، من يعرف؟».

من الواضح أن "برايان" يقف على مفترق طرق في حياته، إن إحساسه بالوحدة والانفصال عن الآخرين سيدفعانه إلى قبول الارتباط العاطفي أينما وجده، بعد الاستماع لشاب شاذ آخر يرزح تحت اكتئاب حاد وهو يتحدث عن مشاعر اليأس وكره الذات يتحدث اختصاصي العلاج النفسي "ريتشارد فيتسجبونز" بمرارة قائلاً- بعد أن استمع إلى شاب ذي توجهات جنسية شاذة وهو يعبر عما يشعر به من اكتئاب شديد ويأس وكره للذات-: "إنني لا أعلم ما الذي سوف يملأ هذا الفراغ الذي يسببه عدم الإحساس بالقبول من قبل الأقران، أو عدم الإحساس بالحب سواء من قبل الأب أو الأم، ما الذي سيملؤه؟".[35]

إن المعالج لا يستطيع أن يوفر هذه الاحتياجات العاطفية القوية وحده، إن هذا الموقف يحتاج إلى وجود دار العبادة، والعائلة، والأقران المهتمين؛ حتى لا يضطر الشاب- الذي يشعر بالوحدة والنبذ- إلى البحث عن حلول لاحتياجاته داخل مجتمع الشاذين.

دراسة "سبيتزر" التاريخية: التغيير ممكن!

في مايو 2001، تم الإعلان عن دراسة جديدة، في المؤتمر السنوي للجمعية الأمريكية للطب النفسي في مدينة "نيو أورليانز" الأمريكية، أطلق عليها الكاتب العلمي في وكالة أنباء "أسوشيتدبرس": "قنبلة علمية جديدة"، ولقد جذبت هذه الدراسة أنظار وسائل الإعلام على مستوى العالم؛ فقد توصل الدكتور "سبيتزر"- الطبيب النفسي البارز الذي قاد الفريق الذي أزال الشذوذ الجنسي من دليل الطب النفسي للاضطرابات في عام 1973- إلى أن بعض الأشخاص لديهم قابلية

لتغيير الميول الجنسية الشاذة (وليس فقط السلوكيات الجنسية الشاذة)، وقال الدكتور "سبيتزر": "مثل كل الأطباء النفسيين، كنت أعتقد أنه بالإمكان مقاومة السلوكيات الشاذة- ولكن لا أحد بمقدوره تغيير الميول الجنسية، ولكنني الآن أؤمن بأن هذا ليس صحيحًا- فبعض الأشخاص يمكنهم التغيير، وقاموا به بالفعل".

تغيير وجهة نظر الدكتور "سبيتزر" بدأ قبل ذلك بكثير، بدأ تحديدًا في يوم افتتاح المؤتمر السنوي للجمعية الأمريكية للطب النفسي في عام 1999، عندما انتبه لوجود مظاهرة لمجموعة من الشواذ السابقين في مدخل مبنى المؤتمر، حيث كان المتظاهرون يعترضون على قرار الجمعية الأمريكية للطب النفسي بمنع تقديم العلاج للمساعدة على التحول من الشذوذ الجنسي إلى الجنس السوي، وكان المتظاهرون يحملون لافتات تقول: "إن الشواذ يمكنهم التغير- لقد فعلناها- اسألونا!"، وكانت هناك لافتات أخرى تقول: "لا تجبروني على اتباع أسلوب حياة كان يقتلني جسدًا وروح"، وكانت هناك لافتة أخرى تقول: "لقد خانت الجمعية الأمريكية للطب النفسي أمريكا عندما جعلت العلم يخدم السياسة"، ولقد قام بعض الأطباء النفسيين بتمزيق الأوراق التي سلمت إليهم من المعارضين، بينما توقف آخرون ليقولوا لهم كلمات قليلة جدًّا لتشجيعهم.

ولقد شعر الدكتور "سبيتزر" بالشك يملأ قلبه، ولكنه قرر أن يكتشف بنفسه ما إذا كان التوجه الجنسي قابلاً للتغيير أم لا، وهكذا، بدأ في البحث عن الأشخاص الذين يزعمون أنهم قاموا بالتغيير من الانجذاب نحو الشذوذ الجنسي إلى الانجذاب نحو الجنس السوي، وأن التغيير استغرق خمس سنوات على الأقل، ولقد استعان الدكتور "سبيتزر" بأشخاص بمعرفة الجمعية الوطنية للبحث وعلاج الشذوذ الجنسي، والجمعيات الكنسية لمساعدة الشواذ، إلى جانب أطباء سريريين متنوعين يعملون في مجال الممارسة العملية الخاصة.

قابل "سبيتزر" 200 شخص (143 من الرجال، و57 من النساء) كانوا راغبين في التحدث عن تاريخهم الجنسي والعاطفي، بما في ذلك إفادتهم الذاتية عن تحولهم من الشذوذ الجنسي إلى الجنس السوي، ولقد قال معظم المشاركين: إن اعتقاداتهم الدينية كانت مهمة جدًّا في حياتهم، وأصبح ثلاثة أرباع الرجال والنساء متزوجين أثناء وقت إجراء الدراسة، ولقد سعى معظمهم إلى التغيير؛ لأن أسلوب

الحياة الشاذة لم يقدم الإشباع العاطفي لهم، كثير منهم شعر بالاضطراب جراء علاقات شاذة عاصفة وغير أخلاقية، تتعارض مع قيمهم الدينية، ورغبتهم في أن يكونوا (أو أن يظلوا) متزوجين.

ولم تأت جهود هؤلاء المشاركين نحو التغيير بنتائج إيجابية في أول سنتين، ولقد قال المشاركون: إنهم قاموا بفحص العلاقات الأسرية وعلاقات الطفولة، وفهموا أن المشكلات التي أوقعت في هذه العلاقات أسهمت في حدوث اضطرابات الهوية الجنسية، وفي تكوين توجهاتهم الجنسية، ولقد ذكر المشاركون أيضًا أن العلاقات الموجهة المنضبطة، وأساليب العلاج السلوكية، والعلاج الجماعي كانت وسائل مساعدة بشكل بارز.

ولقد أصيب الدكتور "سبيتزر" بالدهشة عندما علم أن نسبة 67% من الرجال قد قاموا بممارسة الجنس السوي بطريقة فعالة، على الرغم من أنهم لم يشعروا أبدًا بأنهم كانوا يشعرون بالانجذاب إلى الجنس الآخر قبل أن يقوموا بعملية التغيير، أو نادرًا ما كانوا ينجذبون إليه، ولقد أعرب كل المشاركين تقريبًا عن شعورهم الحالي بأنهم أكثر ذكورة (بالنسبة للرجال) أو أكثر أنوثة (بالنسبة للنساء).

وقد خلص دكتور "سبيتزر" إلى الاستنتاج التالي: "على خلاف المعرفة الشائعة الآن، فإن هناك بعض الأفراد المتحمسين جدًّا قد استطاعوا- من خلال القيام بمجموعة متنوعة من الجهود للتغير- إحداث تغيير جذري في الكثير من مؤشرات الميول الجنسية، واستطاعوا القيام بوظائف الجنس السوي بكل كفاءة".

تغييرُ الميول تدريجيٌّ.. ويتحقق بتواصل الجهود:

لقد أضاف الدكتور "سبيتزر" أمرًا مهمًّا وهو: أن التغيير من الشذوذ الجنسي إلى الجنس السوي غالبًا ليس مسألة "إما/أو" (أبيض أو أسود) ولكنه يحدث من خلال العمل المتواصل- بحيث يكون هناك تقليل بطيء ومستمر للشذوذ الجنسي، وفي الوقت نفسه نمو وتوسع لإمكانيات الجنس السوي التي تظهر بدرجات متنوعة، وأكد الدكتور "سبيتزر" أن تغيير التوجه الجنسي بالكامل- أي منع كل التخيلات ومشاعر الانجذاب الجنسية الشاذة (التي تعتبر هدفًا غير واقعي في معظم أساليب العلاج بصورة عامة)- ربما يكون أمرًا نادر الحدوث، ومع ذلك، فعندما لم

يغير المشاركون من توجهاتهم الجنسية بالفعل- على سبيل المثال، كان التغير الذي حدث معهم يتعلق بالتحكم السلوكي والهوية الذاتية، ولم يحدث تحول حقيقي في مشاعر الانجذاب- فإنهم ذكروا تحسنًا عامًّا في الصحة العاطفية والوظائف العاطفية.

وتعد دراسة الدكتور "سبيتزر" هي أكثر بحوث تغيير الميول الجنسية تفصيلاً حتى الآن، ولقد ختم بحثه بالتالي: "إن من حق المرضى أن يكتشفوا إمكانياتهم الجنسية السوية".

ولقد أصدر الدكتور "سبيتزر" تعليقًا مهمًّا عندما قال أيضًا: "لو كان ابني شاذًّا وأبدى رغبة في التغيير، فسوف أدعمه في طلب العلاج ومحاولة تغيير توجهاته من الشذوذ الجنسي إلى الجنس السوي".[36]

ولكن هل سيواصل المراهق العلاج؟

إن الشباب الذين يواصلون العلاج الإصلاحي- مثل "برايان"، المراهق الذي شاركنا مذكراته اليومية- هم الذين يوافقون على أن رغباتهم الجنسية الشاذة ليست في الواقع سوى تعبير عن احتياج أعمق للذكور- فهم يبحثون عما نسميه العوامل الثلاثة؛ وهي: العناية، والتوكيد، والعطف- وبتواصل الاستشارات والجهد الذاتي سوف يسلك الكثيرون طريقًا يساعدهم على تجاوز مشاعر الانجذاب الشاذ، ولكن واقعيًّا: يجب علينا الإقرار بأن هناك الكثير من المراهقين الذين سينسحبون من العلاج ويتخذون قرارًا بإثبات هويتهم الشاذة.

إن الطريق نحو التغيير طويل وكثير المنعطفات، وستصاحبه إغراءات متواصلة ليستسلم ويتوقف عن بذل الجهد لإحداث التغيير، خاصة عندما يتقاطع طريقه مع "رفيق مميز"، وبالرغم من ذلك، حتى لو حدثت انتكاسة- انتكاسة قد تستمر شهورًا أو سنوات- يبقى هناك أمل، وكل ما يستطيع الوالدان أو المعالجون فعله هو إعطاء الخيارات للمراهق؛ ولكن القرار النهائي يعود إليه، أما استخدام أساليب الإشعار بالذنب أو التلاعب أو القوة أو الإكراه، فلن تحرر المريض من مشاعر الانجذاب للشذوذ الجنسي، بل ستسبب له مزيدًا من الاغتراب.

ومن المهم أن نتذكر أن التغيير مسألة تقليل من مشاعر الشذوذ الجنسي، وزيادة مشاعر الانجذاب نحو الجنس السوي، إن التغيير يتحرك ببطء، وبشكل

تدريجي متواصل وسوف يكون هناك بلا شك ارتدادات، المسألة ليست: "كان شاذًّا، وصار الآن سويًّا". ومثل كل عمليات التغير النفسية: التحول لا يمكن أن يكون كليًّا. وواقعيًّا: ستبقى بعض مشاعر الانجذاب والإغراء طوال العمر.

يتضح التغير تدريجيًا في ثلاثة جوانب:

- الهوية الذاتية: (الإدراك: "أنا رجل سوي، فقط لدي مشكلة مع الشذوذ").
- السلوك الجنسي: ("أنا لن أنقاد لهذه الإغراءات").
- الانجذاب: (لا أشتهي رجلاً آخر).

في الفئتين الأوليين التغيير يكون أسهل، أما تحقيق التغيير في المجالات الثلاثة كلها فيعتبر أمرًا أكثر صعوبة، والفئة الأخيرة- على وجه الخصوص- سوف تتغير بدرجات متفاوتة، وسوف تتقدم بشكل تدريجي مع مرور الوقت.

وأنت أيها الوالد، سوف تستمر (وأنا أتمنى ذلك من كل قلبي) في إظهار الحب والبقاء بالقرب من طفلك حتى لو لم يسعَ أو ينجزْ تغييرًا، سيظل ابنَكَ- أو ستظل ابنتَكَ- مهما حدث، مدركًا أن هناك جوانب في حياتك عنيدة تقاوم التغيير (أو أنك في الحقيقة قررت ألا تحاول التغير)، فإن هذا سيجعل من السهل عليك تقبل الشعور بخيبة الأمل في حياة طفلك، ومع ذلك، يجب ألا تفقد الأمل في أن ابنك- أو ابنتك- سيتحول لحياة جنسية سوية.

في هذه الحياة، سوف نكافح:

ليس هناك شخص يعرف الانتكاسات والانتصارات "أفضل من "جون بولك"، مؤلف السيرة الذاتية "الحب ينتصر"، هجر "جون" حياته السابقة، وكان رجلاً شاذًّا يرتدي ملابس النساء، ويمتهن البغاء مثل مومس في مجتمع الشواذ، لكي يتزوج من سحاقية سابقة ويكوِّنا عائلة، وعندما ظن أنه حل جميع مشكلاته مع الشذوذ، وبوصفه المتحدث باسم "حركة الشاذين السابقين المسيحية"، تعرض لانتكاسة عندما وجد نفسه منجذبًا لزيارة حانة للشواذ مرة واحدة أخيرة، وشاهده نشطاء الشذوذ وشهروا به في وسائل الإعلام.

ينظر إلى تجاربه في إطاريهما النفسي والديني ليعطي خلفية عن سقوطه

المذل أمام الرأي العام؛ يقول: «إننا نرتكب خطأ عندما نعتقد أن أيًّا من صراعاتنا العميقة قد انتهى؛ في لحظة معينة من حياتنا، في الحقيقة، نبقى بشرًا ضعفاء، سواء كان صراعنا مع الشذوذ، أو الكحول، أو الطعام، أو المخدرات، أو حتى مع كبريائنا».

وشهادته تكشف نفاذ البصيرة الذي وجده في إيمانه الديني الراسخ:

«لقد بدأت عملية الانعتاق من الشذوذ قبل أكثر من نحو 14 عامًا، ولأسباب متنوعة أصبحت أحد أبرز الأفراد في هذه الحركة، وأظن أن هذا يعود إلى حقيقة أن زوجتي كانت سحاقية، كان في ذلك نوع من الغرابة، كلانا يملك قصصًا مثيرة، وعلى مدى تسع سنين كنا متزوجين، وكنا في واجهة الإعلام نتحدث ونشعر بالإثارة؛ لأن الله سخرنا لنشر هذه الرسالة.

ولكن ذلك له جانب سلبي؛ لأنه يغذي كبرياءك، وجسدك، وكرامتك، وكل الأشياء المحطمة داخلك، عندما أتيت للعمل مع "الكنيسة" جمعية عين على الأسرة، منذ ثلاث سنوات، أصبحت هذه الأمور أكثر وضوحًا، الناس كانوا يريدون مني التحدث في كل مكان، وشعرت كأنني دمية ينتهي بها المطاف أن يقال لها: "تعالي لتدلي بشهادتك، تعالي لتلقي كلمة هنا، طيري إلى هناك"، وفي هذه الأثناء، كانت مشاعري رائعة تجاه كنيستي.

ثم بدأت أقول: إنني رائع جدًّا، أردت أن أهرب من حياتي، أردت أن أهرب من كل شيء، سمعتي، أردت إيقاف طاحونة الروتين القاتل، واعتقدت أنني أرغب في العودة إلى حانة الشواذ، حسنا، بالطبع؛ لأن الله يحبني فهو لن يمنحني رسنًا طويلا لكي لا أذهب بعيدًا، وتم اكتشافي هناك.

أعتقد أنه عندما تتواصل عبر وسائل الإعلام ذات المساحة المحدودة والضيقة، ويسألونك: "هل تغيرت وتغلبت على الشذوذ الجنسي؟"، يكون من الصعب أن تجيب بـ"نعم" أو "لا"؛ لأن الحياة الجنسية ليست قضية أبيض وأسود، إنها تسير بشكل تفاعلي، بالنسبة لي لا يهم من أنت، هناك تفاعلات في النواحي الجنسية، والصراعات الجنسية، والإغراء الجنسي، والسلوك...

وأنا أعتقد أن الشذوذ الجنسي يحتوي على عنصر وثني، ولكنني لا أعتقد أنه ابتدأ منه، ولكنه انتهى به المطاف هناك، نحن نعلم أن قضايا الشذوذ الحقيقية

تبدأ في مراحل مبكرة من الطفولة عند أغلب الناس، الرغبات هي النتيجة النهائية لكثير من الاختلالات الوظيفية- الاعتداءات الجنسية في بعض الأحيان، والتحرش، ورفض الأقران، وعدم الارتباط بطريقة جيدة مع الأب بالنسبة للولد، ومع الأم بالنسبة للبنت، والهجران- هذا هو جوهر الشذوذ الجنسي، ويبدأ الأمر عندما يبدأ الفرد بالشعور بالاغتراب، وأنه غير محبوب، ومنطوٍ، هنا تأتي الوثنية، عبادة أشخاص آخرين من أجل إشباع هذه الاحتياجات.

وأنا أعتقد أن ما قمنا به في حركتنا هو الرد على النحو الذي أرادته منا وسائل الإعلام من خلال القول: "نعم، لقد تغيرت، كل شيء غسل جيدًا، وانتهيت من هذا الأمر، كل شيء مرتب وظريف، وها أنا أعيش مع زوجتي ولدينا طفلان رائعان".

أعتقد أننا أدركنا فشل هذا النوع من الإجابات، القادة- بمن فيهم أنا- بحاجة أن يقولوا بأنه في هذه الحياة قد تكابد، ولكن الله يستطيع أن يمنحك الانتصار على هذه المعاناة، وهذا هو التناقض: فنحن نستطيع أن نعيش حياة الانتصار في خضم الصراعات والمعاناة.

يجب عليّ القول بأن العام الماضي كان أصعب مرحلة في حياتي، ولكنها أيضًا كانت الأفضل في حياتي- وأنا أوصي بها بشدة، [يضحك]، أقصد أنني أوصي الناسَ بشدة بأن يسمحوا للرب بأن ينتشلهم من الانكسارات.[37]

خيار إسقاط العلاج:

عندما يأتي إليّ المراهقون طلبًا للعلاج، فإن آباءهم وأمهاتهم يكونون هم من أحضروهم في الغالب، سواء أعلن المراهق عن هويته الشاذة، أو أن الوالدان اكتشفا سلوكياته واهتماماته الشاذة، فعندما يكتشف الوالدان مواد إباحية خاصة بالشواذ في غرفة نوم ابنهم المراهق، أو خطابات أو بريد إلكتروني يشير إلى الإعجاب الشديد بالجنس نفسه، فإن هذه الأمور في كثير من الأحيان تنبههم لوجود مشكلة، ربما تخامر الشكوك الأمهات لفترة من الوقت بأن هذا الولد المؤدب المطيع والوحيد له جانب غامض.

وعندما تستبد الشكوك بالأمهات حيال سلوك أبنائهن فإنهن عادة يلجأن إلى القيام بتحريات للتحقق من الموضوع، وهو ما يدخلهن في دوامة أزمة أخلاقية، هن يردن احترام خصوصية الطفل، ولكنهن يخشين من تجاهل مشكلة قد تكون خطيرة،

فتقر إحدى الأمهات قائلة: "أنا أتلصص، وأعترف بهذا، ولكني مستعدة لفعل كل شيء لإنقاذ ابني"، معظم الآباء والأمهات يتفهمون بسهولة المشاعر التي تمر بها هذه الأم، ومع ذلك، فإن الالتزام بعمل "كل شيء" ربما يؤدي في النهاية إلى رفض شديد من المراهق.

وعندما يتبنى المراهق هوية شاذة، يرسل بعض الآباء والأمهات المراهق إلى المعالج وهم يتوقعون أن المعالج سوف يقوم "بإصلاح" المراهق أو "تغييره"، إذا لم يبد المراهق نوعًا من الاستعداد للتعاون، لا يجب إجباره على المشاركة.

ويقدم "ريتشارد وايلر" تفسيرًا جيدًا لهذا الأمر فيقول:

ينجذب بعض الآباء والأمهات- بوجه خاص- بحسرة وألم لتولي عملية علاج أبنائهم نيابة عنهم، وهذا لن ينجح، فيجب أن يقرر الابن بنفسه أنه يريد التغيير، وعندما يفعل ذلك، يجب أن يتولى السيطرة، وبإمكانك أن تتابعه؛ وتقدم له الدعم والتشجيع، ولكنك لا يجب أن تدير له حياته.

والآن، إن القول بأنك لا تستطيع إصلاحه لا يعني أنك لا تستطيع تقديم الدعم له، فيمكنك أن تكون مصدرًا هائلاً للدعم من خلال تهيئة بيئة تمتلئ بالحب والرعاية، وهذا يمكن أن يكون عاملاً مساعدًا في عملية العلاج.. وبطريقة ما، يشعر الكثيرون منا بأنهم "محبوبون" لتخلصهم من الشذوذ إما من قبل الرب أو أفراد العائلة أو الأصدقاء أو كل هؤلاء.

إذا لم يرغب المراهق في تلقي العلاج، كل ما يمكن عمله هو تقديم المعلومات، فيمكننا أن نمنحه الفرصة ليقوم بقرار مستنير؛ وهذا يعني أن يتخذ قرارًا مصيريًّا يحدد مسار حياته بناء على معلومات دقيقة.

وحتى عندما يقرر ابنك المراهق طلب العلاج، يجب اتباع سياسة الباب المفتوح، وهذا يعني أن في إمكانه أن يرحل في أي وقت يشاء وأن يعود أيضًا في أي وقت يشاء.

عدد من المراهقين الذين حضروا لعيادتنا من أجل الاستشارة، منحوا أنفسهم الفرصة للاستماع لخيار العلاج الإصلاحي، وبعد ذلك رفضوا الدعوة، وأسباب الرفض كانت مختلفة:

كان هناك شاب متورط بشدة في علاقة مع رجل شاذ يكبره سنًّا، وكان يخشى فقدان الشعور بالأمان الذي كانت تمنحه له هذه العلاقة. آخرون أصبحوا مأخوذين ومسحورين بالهوية الشاذة أو ثقافة الشذوذ السرية. كثير من الشباب عمقوا ميولهم الشاذة حتى بدا احتمال تخليهم عنها مخيفًا جدًّا؛ ("إذا لم أعد شاذًّا، فماذا أكون؟"). وفي كل الحالات، إذا استمر العلاج بأي حال من الأحوال، فيجب أن تتقدم العلاقة العلاجية رويدًا رويدًا، مع الكثير من الدعم والقليل من المواجهة المباشرة.

يرفض الكثير من الآباء والأمهات- مثلكم- أن يتركوا أبناءهم بكل بساطة لنمط حياة يتضمن ترويضًا مؤلمًا، وعلاقات خيانة طويلة الأمد، وارتفاع نسبة التعرض لأمراض خطيرة، واعتناق ثقافة شاذة متطرفة تركز على ممارسة الجنس، والمسؤولية الاجتماعية الخطيرة، إنه في صالح طفلك أن تعمل جاهدًا على مضاعفة احتمالات أن يصبح سويًّا.

ولقد تحدث "آلان ميدينجر"- الزعيم السابق لإحدى كنائس الشاذين- عن التغير الحادث في حياته قائلاً: "لقد أصبحت حرًّا كي أشعر بالحب، ونزعت الجنس من كل احتياجاتي العاطفية غير المشبعة"، وهو يؤكد كلامه بالقول: "إن التغير الحقيقي الدائم من الممكن حدوثه؛ لأنني رأيته يحدث مئات المرات".[38]

وكما يقول الباحث الدكتور "سبيتزر": "لو كان ابني أنا يعاني الشذوذ الجنسي، كنت سآمل أن يستكشف إمكانية التغيير".

وكما أخبرني أحد الآباء مؤكدًا: "أن العيش السوي جنسيًّا لهو أمر به ما يكفي من الصعوبات!".

7

من المسترجلات.. إلى السحاقيات

«نموذج الأنثى المثالية- المبدعة، والمتحدثة، والفطنة، والمتفتحة، والمتعاطفة، والمتواصلة ماديًا وروحيًا- قد ضاعت بشكل ما».

ديانا إيلر- بويكو

مستشارة، سحاقية سابقًا

بقدر ما تسمح به ذاكرتها، استطاعت "جيسيكا" أن تخفي إعجابها الشديد بمعلماتها خلف شخصية تتسم بالقوة والسخرية، كل يوم، بعد انتهاء المدرسة الابتدائية- عندما لا تكون تمارس الرياضة مع الصبية- كانت تنْزَوِي في غرفتها لكي تعيش في عالم خيالي، مكان وهمي تكون فيه البطلة القوية والحامية الشجاعة التي تعتني بمعلمتها المفضلة أو ابنة الجيران الصغيرة، من وقت لآخر كانت تكتب خيالاتها في صورة قصص درامية كانت تخفيها في أحد الأدراج في حجرة نومها.

وعندما وصلت إلى المدرسة الإعدادية، كانت "جيسيكا" تستخدم اسم "جيس" وترتدي ملابس الصبية الذكور مثل الجينْزِ والقمصان القطنية والأحذية الرياضية، وكانت تخفي معالم الأنوثة الآخذة في التشكل على جسدها بعناية تحت طبقات سميكة من الأقمشة داكنة اللون، كانت "جيسيكا" رياضية رائعة؛ لذلك بدا تركيزها على لعبتي السوفت بول، واللاكروس منطقيًّا للجميع، ولكن الأمر الذي لم يكن منطقيًّا- مع ذلك- هو امتناعها الغاضب عن ارتداء التنورات والفساتين، كما أحجمت عن إطالة شعرها ليغطي أذنيها، وكيف أنها لا تلقي بالاً للتلميحات المتكررة باستخدام أدوات الزينة والتجميل أو التطيب بالعطور النسائية أو ارتداء الملابس النسائية الداخلية، ولقد كانت تصف نفسها بتسميات مثل: "سحاقية"، و"دايك"؛ وهي التسميات التي كثيرًا ما كانت تسمعها تستخدم كشتائم في حرم المدرسة الثانوية.

كانت "جيسيكا" تنظر إلى أمها باحتقار؛ حيث كانت تراها ضعيفة الشخصية، وكانت العلاقة بينهما لا وجود لها من الأساس، وكان الشيء الوحيد الذي تتشارك

فيه الاثنتان هو عدم الثقة المتبادل، كانت والدة "جيسيكا" غارقة حتى أذنيها في واجباتها المنزلية (وكثيرًا ما تدفعها نوبات الاكتئاب الحادة إلى البقاء طريحة في فراشها)، ولم يكن لديها من الوقت ما تمنحه لابنتها التي تعاني من اضطراب في الهوية الجنسية، وكانت هذه الأم رقيقة شديدة الأنوثة كثيرة المرض، وكانت تنظر إلى ابنتها على أنها مجرد "متمردة ومتشبهة بالصبية الذكور، ولا يرجى برؤها"، وعلى الجانب الآخر، كانت الفتاة تبدي إعجابًا شديدًا بأبيها الغائب معظم الأوقات.

بدأت "جيسيكا" العلاج، واكتشفت أنها شابة مخلصة لديها رغبة حقيقية- تتوارى خلف دفاعاتها الخارجية- في أن تفهم مشاعرها المتضاربة حول قبول هويتها الجنسية.

بعد فترة من الوقت، أخبرتني بأن خالها يتحرش بها جنسيًّا منذ سنوات طويلة، ولقد أنكرت الأم بشدة حدوث الاستغلال الجنسي المتكرر، الذي ارتكبه أخوها، والذي اتضح أنه بدأ حتى قبل أن تبلغ الفتاة الخامسة من عمرها، وقالت الأم بعناد: "إنه لا يمكن أن يرتكب مثل هذه الأفعال أبدًا، إن "جيسيكا" تختلق هذه القصص لتجذب الانتباه، لا يمكنك أن تثق أبدًا في القصص التي تخبرك بها".

وأنا أعتقد أن سبب الاضطراب الرئيسي لحدوث الشذوذ لدى النساء هو رفض الفتاة غير المقصود لهويتها الأنثوية، فالنساء اللواتي تحولن إلى السحاق قررن- على مستوى اللاوعي- أن كونهن إناثًا: إما أن يكون شيئًا غير مرغوب فيه، أو غير آمن. وفي بعض الأحيان، يرجع هذا الأمر إلى ما تمر به الفتاة من تحرش جنسي مبكر على يد أحد الذكور، وفي أوقات أخرى (السيناريو الأكثر شيوعًا)، يحدث هذا التحول لأن الأم تظهر أمام ابنتها كشخصية: إما أن تكون سلبية، أو ضعيفة؛ فالأم النرجسية المتحكمة التي تجبر ابنتها على اتباع سلوكيات نمطية متزمتة (تقدم لابنتها صورة شخصية سلبية)، والأم المكتئبة، أو المسيئة، أو غير المؤهلة تقدم شخصية أنثوية ضعيفة، ويمثل هذان المثالان أكثر السيناريوهات التي تتم ملاحظتها شيوعًا بين أمهات النساء السحاقيات، وربما تكون هناك عوامل بيولوجية قد مهدت الطريق أمام حدوث اضطراب الهوية الجنسية عند بعض السحاقيات، ومن المحتمل أن يكون عند قلة قليلة منهن.

ولقد وصفت إحدى المريضات- كانت سحاقية في السابق، ثم تزوجت ورزقت

بأطفال- التوزيع غير المتوازن للقوى والذي كان أمرًا واضحًا في عائلتها وكان عاملاً في رفضها غير المقصود للتماثل مع الأنوثة:

«لقد كنت دائمًا ما أنظر إلى أمي على أنها شخصية ضعيفة، بينما كان أبي ذا شخصية قوية وساحرة، وما زلت أتذكر عندما كنت صغيرة كيف كنت أفكر: "أنا لن أكبر لأكون مثل أمي"، وما زلت أتذكر أيضًا عندما قررت أن أتصرف وأظهر مثل أبي وإخوتي الذكور، كان لإخوتي الكثير من الأصدقاء، وكانوا يقومون بأنشطة رياضية، بينما كان أبي هو الشخص الذي يدير الأمور، والوحيد الذي يستمتع بحياته، كان أبي ذكيًّا وساخرًا نوعًا ما، وكان يبدو دائمًا أنه يعرف كل الإجابات، وكانت أمي تمكث بالبيت، وكانت معجبة بأبي إعجابًا شديدًا.

ولا يبدو أنني قد تجاذبت أطراف الحديث مع أمي كثيرًا، إنها لم تفهمني حقيقة، وبالرجوع إلى الماضي، يمكنني القول بأنني أيضًا لم أحاول أبدًا أن أفهمها».

وتخبرنا "جين بوير" أيضًا- وهي سحاقية سابقة- عن حياتها العائلية المبكرة؛ حيث كان أبوها المتعسف يفرض نفوذه، وكانت "جين" هي الأخت الكبرى لثلاثة أطفال؛ ولذلك اضطرت "جين" إلى رعاية إخوتها الصغار، إلى جانب رعاية أمها المكتئبة والمنطوية على نفسها، ونما بداخلها شعور قوي بالبغض لدور أمها كضحية سلبية:

«لقد رأينا أمي وهي تتعرض للضرب بشكل متكرر على يد أبي، وكان هناك الكثير من العنف داخل المنزل، ولأنني كنت الكبرى بين أربعة إخوة، فكان لزامًا عليّ أن أرعى أمي التي لم تكن مدمنة كحول فحسب، بل كانت تشعر بالعجز الشديد.

كانت أمي تقوم بدور سلبي للغاية، وكانت هناك أوقات تكون فيها ثملة وتبكي وكيس الثلج على وجهها، كان وجهها ملطخًا بالدماء وكانت عيناها سوداوين، وكانت تقول: "أنا لا أعرف ما إذا كان يجب عليّ أن أتركه"، ويستمر هذا الأمر بدون انقطاع».

وبعد ذلك- وفي وقت مبكر من سن الخامسة- وجدت "جين" نفسها تعجب بالنساء القويات المتشبهات بالرجال اللاتي قابلتهن- على النقيض تمامًا من الأنثى

المضطهدة في عائلتها التي قررت "جين" أنها لن تكون مثلها أبدًا، وفي مرحلة تالية من حياتها، أدركت "جين" أنه من المحتمل أن تكون أمها قد فعلت أفضل ما تستطيع فعله في مواجهة الأزمات القوية التي واجهتها، ومع ذلك، قالت "جين": «أنا أعلم أن هناك الكثير والكثير من المرات التي كرهت فيها ما أراه منها، وحتى أخواتها البنات كن يشبهنها كثيرًا، لقد كن سلبيات وضعيفات الشخصية، ولم يكن يمتلكن الكثير من العزم والإرادة».

وهكذا قررت "جين" (بدون قصد) عندما كانت طفلة أنه إذا كان هذا ما يعنيه أن أكون امرأة، فإنني لا أريد أن أكون امرأة.، تقول: "المرأة بالنسبة لي ترمز للضعف... وعندما كبرت، تورطت في علاقات مع نساء أخريات؛ حيث كانت هؤلاء النسوة يتسمن بالوحشية والعنف والشدة".

وفي كل الشجارات العائلية، كانت "جين" تقف في صف أبيها- وهي ظاهرة يطلق عليها فرويد اسم "التماثل مع المعتدي"، وهذه آلية نفسية بدائية للبقاء وهي تتساوى مع القول: "إذا كان هناك شخص يؤذيني، فسأحبه على هيئته هذه حتى لا يصيبني الأذى، وسوف أكون الشخص الذي يدير الأمور"، وتكمل "جين" كلامها قائلة: «كان أبي معتادًا طوال الوقت على أن يقول أشياء تحط من قدر النساء، إنه كان يكره النساء بالفعل، فهو يراهن مجرد أدوات لممارسة الجنس فحسب، ولقد كان أبي معتادًا على أن يطلق على النساء ألفاظًا بذيئة».

وتقول "جين" أيضًا: «كان [أبي] فظًّا، وكان مسيطرًا، بينما كانت أمي ضعيفة لا حول لها ولا قوة، ولم أرد أن يكون لي أية علاقة بمثل هذا الأمر».

ولقد تزوجت "جين" فيما بعد وتبنت طفلاً، ولكنها استمرت في انجذابها رومانسيًّا نحو النساء القاسيات اللواتي يتسمن بـ"الوحشية"، والتي تبدو دومًا ضعيفة أمامهن وتسقط في تبعيتهن، وفي إحدى الليالي- من أجل المرح- شجعت إحدى الصديقات "جين" على الذهاب معها إلى حانة للنساء السحاقيات، وسرعان ما وجدت نفسها عالقة في أسلوب حياة من الممكن أن يدمر زواجها، فلقد وجدت "جين" نفسها تنجذب باستمرار إلى النساء اللواتي يتسمن "بالقوة والوحشية الشديدة"، واللواتي كن يمثلن كل شيء لم يكن موجودًا في أمها، وتحدثت "جين" عن نفسها وصديقاتها المحبات فقالت: «عندما نكون معًا، كان الناس ينظرون إلينا

كأننا رجل وامرأة».

وفي وقت من الأوقات- وبدافع من إدمان الكحول والإحساس بالاكتئاب الشديد- لجأت "جين" إلى استشارة معالج نفسي لترى ما إذا كانت هناك طريقة يمكن من خلالها التوفيق بين حياتها العائلية، ومعتقداتها الدينية القوية، وزواجها، ومشاعر الانجذاب نحو الجنس نفسه؛ فتقول: «لقد أخبرني الناس بأنني [ولدت على هذه الشاكلة]، وهكذا فكرت قائلة لنفسي: يا إلهي، إذا كنت قد ولدت على هذه الشاكلة، إذن يجب عليّ أن أهجر زوجي، ولا بد أنني سوف أجرح أطفالي؛ لأن الناس يقولون لي: إنني لو عدت لزوجي فلن أجد الطمأنينة والسلام».

وقد أخبرت المعالِجة- التي كانت هي نفسها سحاقية- "جين" بأنها يجب أن تكون صادقة مع نفسها، ويجب عليها أن تعيش حياتها السحاقية، تقول "جين":

«عندما غادرت في النهاية، كنت مقتنعة تمامًا بأن هذه المعالِجة لن تجعلني أعيش في طمأنينة وسلام، لقد كانت تتحدث عن الرجال، وتقول أشياء مثل: فقط لمجرد أن لديهم عضوًا ذكريًّا! ولقد أسهبت في التحدث لوقت طويل عن الكثير من القضايا العالقة مع الرجال، الكثير من الغضب نحو الرجال، وعن الكثير من القضايا العالقة مع والدتها أيضًا، وعن الكثير من الألم.

وهكذا خرجت من هذا اللقاء وأنا أفكر: إنها لا تعيش في سلام، إنها تعيش انكساراتها وتعاني من ضعف العزيمة، وهذا ما تفعله، إنها لا تعترف بأي شيئًا».

وعندما لجأت "جين" إلى معتقداتها الدينية، توصلت في النهاية إلى القناعة التي غيرت مجرى حياتها تمامًا: "إن حب السحاق شيء زائف، ونحن نسعد بسهولة بالشيء الزائف".[1]

وهكذا قررت "جين" أن "تعيش خارج انكساراتها"، وأن تترك محبوبتها السحاقية، وأن تعمل نحو التغيير، وأن تعيد تكريس نفسها لزواجها وعائلتها.

الأنثى المجروحة نفسيًّا:

يميل الشواذ من الذكور إلى اتباع نمط نمو يمكن التنبؤ به نسبيًّا، كما أوضحنا في الفصول السابقة، ولكن نمط الشذوذ لدى النساء يصعب التنبؤ به، والتحولات التي تطرأ عليه واردة جدًّا- خلال حياة المرأة- مع دورات من الحياة الجنسية

السوية، كثير من النساء السحاقيات يعتقدن أن حياتهن الجنسية والخيارات المتعلقة بها هي امتداد لاهتماماتهن الأنثوية السياسية، وبالرغم من ذلك، فإنني أعتقد أن الطريق المعتاد الذي يؤدي إلى السحاق لدى النساء هو تشكل موقف أو اتجاه نفسي متردد نحو الأنوثة بسبب أحداث وتجارب سابقة، ويبعث برسالة مفادها: "أن المرأة شيء غير آمن وغير مرغوب فيه".

وربما تكون هذه النفسية الأنثوية المجروحة هي السبب وراء وجود الكثير من النساء السحاقيات اللواتي يؤيدن القضايا الأنثوية السياسية؛ تقول المعالِجة النفسية "ديانا إيلر- بويكو"- وهي متزوجة و سحاقية سابقة-:

«تحترم ثقافتنا بصفة خاصة الذكورة: القوة، والسيطرة، والإنجاز، والكفاح، ويتسبب هذا في معاناة كثير من النساء من حدوث انفصام عصابي عن طبيعتهن الحقيقية، وتقوم المرأة بكبت ما تشعر به من آلام وجروح داخل النفس، وتبدأ في التماثل مع الصفات الذكورية؛ ثم تصبح عدوانية وعالية الصوت بسبب الأماكن التي لم تعالج في نفسيتها الأنثوية المجروحة، وأصبحت الكثير من النساء اليوم يشعرن بالاكتئاب، والإحباط، والأداء المفرط.

وتقوي حركة الشذوذ عند النساء موقفها من خلال الاعتماد على نظرية المساواة بين الجنسين؛ حيث يمكنك أن تسمع في مجتمع النساء السحاقيات عبارات من قبيل: "لست بحاجة إلى رجل، يمكنكِ أن تفعليها بنفسك"، أو: "ما فائدة الرجال؟ إنهم يريدون شيئًا واحدًا فقط، من يحتاج إليهم؟". وهذا يضاف إليه التمرد على فكرة السماحة والتقبل هو جزء من حركة السحاق عند النساء.

ومع ذلك، فإن السماحة والتقبل هو جوهر الأنوثة، وبدلاً من تأييد الحرب ضد الرجال، يجب علينا أن نستحضر روح الأنثى الواهبة للحياة».

تترك الكثير من الأمهات- دون أن تدري- انطباعات سيئة عن الأنوثة لبناتهن، وتفسر "إيلر- بويكو" هذا الأمر قائلة:

«إن الأمهات اللواتي لا يستطعن تكريم الأنوثة في طبيعتهن يصبحن بلا فائدة، ومتبلدات الإحساس، ومكتئبات، وغاضبات، ومقهورات- فإنهن يعشن طقوسًا عصبية يستخدمنها لملء ما يشعرن به من فراغ في صميم أنفسهن، وتصاب مشاعر بناتهن بالجرح من جراء ذلك، وسوف تحمل البنات جرح الروح الأنثوية هذا

إلى جيل آخر».

وربما تسعى مثل هذه الشابة الصغيرة إلى الارتباط العميق بالأنوثة من خلال إقامة علاقة قوية مع الجنس نفسه، وتسعى النساء بطبيعة الحال إلى الإبداع، والهدوء، والشعور بالتوازن، ولكن تقول "إيلر- بويكو": «عندما تقترب امرأة محرومة الهوية الجنسية من امرأة أخرى، فإن مشاعر الشذوذ ربما تطفو إلى السطح؛ لأنها تعتقد أن الأمر يثير لديها نوعًا من المشاعر الجنسية، وتكتسي هذه التجربة العاطفية الثرية بالطابع الجنسي، وهذا على الرغم من أن الأمر لا يتعلق بالنشاط الجنسي كثيرًا».

إن المرأة السحاقية تشعر بأن علاقاتها الجنسية الشاذة تحقق لها شيئًا جيدًا حيث تشعر بـ"الإشباع" والارتباط بالشيء الذي فقدت الاتصال به- طبيعتها الأنثوية:

إن ارتباط المرأة السحاقية بامرأة أخرى يأخذها داخل حياتها الباطنية، وداخل هذا الجزء من نفسها، حيث تبدأ تجربة الشعور بطبيعتها الأنثوية.

ولكن عندما ترفض المرأة طبيعتها الأنثوية، فإنها تدفع ثمنًا غاليًا؛ لأنها عندما تسعى إلى الارتباط مع نساء أخريات، فإنها تحاول الارتباط مع نفسها- وهذا النوع من الارتباط لن يساعد على الشعور بالسلام مع نفسها في النهاية، وعندما تكون المرأة السحاقية في صحبة امرأة أخرى، فإنها تحصل على وهم الإحساس بالاكتمال فقط، "فالشبح"- الذي يمثل احتياجات النمو الحقيقية والتي لم يتم إشباعها أبدًا- سوف يستمر في مطاردتها.[2]

آلية أسرية في السحاق: نظام العائلة الأنانية:

الدكتورة والمحللة النفسية "إيلين سيجال" هي مشرفة سابقة في مركز نيويورك للتدريب على التحليل النفسي، ومؤلفة كتاب "الحياة الجنسية للأنثى: خيار بلا إرادة "[3]، تقول "سيجال": إن مريضاتها السحاقيات يتفقن في نمط متوقع بشكل مدهش؛ حيث نشأن في نظام أسري أناني نرجسي؛ "حاول أن يجبر هوياتهن الناشئة على اتباع أشكال سلوكية مثالية متزمتة غريبة عليهن".

وتقول "سيجال" أيضًا: إنه من خلال تعرضهن للتشكيل والتأثير من قبل توقعات

الوالدين، فإن هؤلاء النسوة يشعرن "بالكبح الشديد لنمو الذات"، وعندما ترفض هؤلاء النسوة أمهاتهن كنموذج يحتذى للهوية، فإنهن يرفضن الأنوثة التي تمثلها أمهاتهن، وتقول "سيجال": إن مريضاتها السحاقيات كنّ غير قادرات على إكمال مرحلة الانفصال والتفرد- بنجاح- والتي يؤسس الطفل خلالها إحساسه الذاتي بالاستقلال والأمن والتفرد.

وعلى الرغم من وجود بعض الشخصيات التي تبدو أحيانًا متوافقة بصورة جيدة في الظاهر، فإنهن "يكنّ غير قادرات على مسايرة أي من الوالدين"، وعلى مستوى نفسي، فإنهن لا "يعترفن" بأجسادهن الأنثوية أبدًا، وعلى الرغم من أن كل المريضات لم يظهرن التشبه بالصبية الذكور بطريقة سافرة، فإنهن أظهرن علامات اضطراب الهوية الجنسية، وفي ظل الأجواء المتوترة التي تسود النظام الأسري النرجسي، والتي يتوقع فيها الوالدان من الطفل أن يقوم بتحقيق توقعاتهما، ولا يتعلم الطفل أبدًا كيف يكون فردًا مستقلاً، نجد أن الكثير من النساء يدخلن في صراع طويل مع الشك والاضطراب في سبيل تكوين هوياتهن الشخصية الخاصة بهن.[4]

وعلى الرغم من معرفة الدكتورة "سيجال" بأن هذا النمط الأسري لا يقدم تفسيرًا لكل أشكال الشذوذ الجنسي عند النساء، إلا أنها تفاجأت بمدى شيوع هذا النموذج بين مريضاتها اللواتي تقابلهن خلال ممارستها لعملها، ولقد استخدمت الدكتورة "سيجال" كلمات فظة لتصف بها أمهات النساء السحاقيات اللواتي قابلتهن أثناء ممارستها الشخصية:

«إن الفتاة الصغيرة التي تتحول إلى الشذوذ الجنسي لم تحصل على فرصة لتصنع نفسها أبدًا، إنها تكون صنيعة أمها التي تحب نفسها وتنتظر من ابنتها تعزيز هذا المفهوم..

ويبدو أن الأمهات كنّ يستخدمن أطفالهن الإناث كامتداد لأنفسهن؛ فيحتجن إليهن بشدة أحيانًا، وينكروهن بشدة في أحيانًا أخرى..

وعندما تحاول هؤلاء الفتيات الصغيرات التحول إلى آبائهن، فإنهن لا يجدن الحال أفضل بكثير، ولأن الآباء مشغولون بأعمالهم، فإنهم ينتبهون إلى بناتهم بصورة متقطعة، ويبالغون في تحفيزهن، ثم يتبين أنهم نسوا أنهن موجودات

بجوارهم.

يستجيب هؤلاء الآباء- عندما يقتطعون جزءًا من وقتهم- لبناتهم، وكأنهن أشخاص يجب عليهم أن يتشكلوا وفقًا لرؤيتهم الذكورية الخاصة.

وتصف الدكتورة "سيجال" أمهات مريضاتها السحاقيات بصورة عامة بأنهن غير ناضجات، وضعيفات عاطفيًا، ومنعزلات عن احتياجات بناتهن، ولم تعامل هؤلاء الأمهات بناتهن كأشخاص مستقلين وكاملين، ولكنهن كنّ يعاملن الفتيات على أنهنّ امتداد نرجسي لأنفسهن، وعلى هذا النحو، فإنهن كنّ يتوقعن من الفتيات أن يقمن بإشباع احتياجاتهن؛ ونتيجة لذلك، لم يكتسب هؤلاء الفتيات إحساسًا مستقرًّا بالنفس أو بالهوية الجنسية.

ولقد أشارت مريضات الدكتورة "سيجال" السحاقيات إلى علامات الاضطراب الجنسي في فترة الطفولة، على النحو التالي:

«لم تظهر أي منهن رغبة أو اهتمامًا في اللعب بالدمى أو الاشتراك في الألعاب الأسرية المعتادة، وكان لديهن نفور واضح من الملابس الأنثوية العادية.

وهناك مؤشر قوي يثير القلق وهو رفض الفتاة أن تتبول وهي جالسة، أو أن تصر على التبول وهي واقفة، وهناك أسباب أخرى تثير القلق الشديد مثل تأكيدها أن لديها عضوًا ذكريًّا أو سوف ينمو لديها عضو ذكري، أو أنه موجود بالفعل لدى الفتيات الأكبر سنًّا، وتعبر الفتاة عن عدم رغبتها؛ لأن ينمو ثدياها أو أن يأتيها الحيض».[5]

ولقد حاولت مريضات الدكتورة "سيجال" السحاقيات- اللواتي لم يستطعن التوافق مع أمهاتهن- في فترة المراهقة أن يصلحن انطباعاتهن الجسدية المشوهة من خلال البحث عن شريك حميم يشبههن، ولأنهن كن قادرات على أن يرين أعضاءهن الجنسية في صورة متكاملة مع أجسادهن، فإنهن ينمين إنكارًا عميق للاختلافات الجنسية ("تستطيع النساء فعل أي شيء يفعله الرجال"، أو: "من ذا الذي يحتاج إلى الرجال؟")، ويتطور هذا الاتجاه إلى موقف سياسي ليتحول إلى نظرية المساواة بين الجنسين المتطرفة ولإظهار الاستياء من الرجال المتحكمين في السلطة.

ومن خلال عملي مع الرجال، اكتشفت وجود هذه الظاهرة- إنكار العملاء الشواذ

من الذكور لأجسادهم الذكورية، وفي الحقيقة، نتفق أنا والدكتورة "سيجال" على أن مهمة العلاج الأساسية هي ضرورة أن "يطالب" كل من الشواذ من الرجال والنساء بحقهم في أجسادهم الذكورية أو الأنثوية- هذه الأجساد التي انفصلوا عنها عاطفيًّا- كجزء من إحساسهم الجوهري بذواتهم.

الأضرار: أنانية الهوية الجنسية:

يقول المحلل النفسي "جيرالد شونيفولف": "إن نرجسية الهوية الجنسية هي حالة ينظر فيها المرء إلى جسده كموضوع يثير الرغبة"، ويرى "شونيفولف" أن هذا يمثل الأعراض الأساسية التي تصف حالة الشذوذ الجنسي: "تنمو نرجسية الهوية الجنسية ردٌّ فعل على الإحساس بالدونية نحو جنس المرء، وربما يتم تعريفها بأنها الحب أو الاهتمام المفرط بجنس المرء، أو بأعضائه التناسلية، أو بهويته الجنسية، والبغض الشديد للجنس الآخر".[6]

وكثيرًا ما نرى مجموعات عمل مشتركة من الشواذ والسحاقيات في تكتل سياسي للاعتراض على المجتمع الأبوي، فالسحاقيات اللواتي يشعرن بجراح في أرواحهن الأنثوية- واللواتي يشعرن بأن المطالبة بطبيعتهن الأنثوية أمر غير مأمون- سوف ينجذبن بقوة نحو الحركات السياسية التي تدعم "سلطة المرأة" وتدين المجتمع الأبوي، وتنضم النساء السحاقيات إلى مجموعات عمل مع الرجال الشواذ الذين يشاركونهن الشعور بالغضب؛ لأنهم (أي الرجال) شعروا بالألم والجرح من قبل أقرانهم الذكور، وشعروا طويلاً بالرفض عندما كانوا بين الرفاق الذكور، وخاصة فيما يتعلق بالرجال الأسوياء المتحكمين في السلطة.

وهكذا، ليس من المستغرب أن نجد تحالفًا سياسيًّا بين الشواذ والسحاقيات لدعم الأهداف النسائية:

لقد قام عدد من الرجال والنساء الشواذ "مرضى" بتسييس مشاعرهم نحو الشذوذ الجنسي، ولم يعد الأمر يقتصر على النظر إلى هوياتهم الجنسية بمثالية، بل امتد إلى النظر إلى الشذوذ الجنسي أيضًا، فيؤمن الشواذ بأنهم أطيب قلبًا، وأكثر إنسانية، وأكثر نقاء، وأفضل أخلاقًا من الأسوياء جنسيًّا، وكثيرًا ما يعبرون عن هذا الإحساس قائلين: "لو أحب الأسوياء السلام مثل الشواذ، لأصبح العالم مكانًا أفضل".[7]

مزيد عن آليات الأسرة:

كما توضح الدكتورة "سيجال"، فإنه من الممكن أن تدفع الأم النرجسية- التي تتدخل في سعي ابنتها نحو الاستقلال والتفرد- ابنتها في اتجاه السحاق، ولكن ما زال هناك طريق آخر يؤدي إلى السحاق وهو التعرض لألم شديد على يد أحد الذكور، وتبعث هذه التجربة بنفس الرسالة: "إنه أمر غير مأمون أن تكوني أنثى"، ويقول المعالج النفسي "ريتشادر فيتسجبونز":

إن عددًا من النساء اللواتي تورطن في علاقات مع الجنس نفسه كان لديهن آباء يتسمون ببرود المشاعر أو التعسف، أو يدمنون الكحوليات؛ ونتيجة لخبرات الطفولة والمراهقة المؤلمة، يكون لدى هؤلاء النساء سبب قوي للخوف من التعرض للإيذاء من قبل الرجال.

وربما تجد النساء اللواتي تعرضن للاستغلال الجنسي أو الاغتصاب في مرحلة الطفولة أو المراهقة، أنه من الصعب أو من المستحيل أن يضعن ثقتهن في الرجال، وهكذا، ربما يبحثن عن نساء أخريات من أجل الإحساس بالعطف ولإشباع رغباتهن الجنسية.[8]

ويوافق الدكتور "تشارلز سوكاريدز" على أن الفتاة التي تشعر بالانجذاب للسحاق تخفي إحساسها بعدم الأهلية الجنسية، يقول: "خلال ممارستي العملية، اكتشفت أن السحاقيات لديهن شعور قوي بالدونية عندما كن فتيات صغيرات، وسوف يساعد أي شيء يستطيع أن يقوم به الوالدان ليجعلا أطفالهما يشعرون بالفخر بهوياتهم- كشباب، أو كشابات- في عملية العلاج".[9]

رفض الهوية الجنسية:

حظيت ظاهرة تشبُّه الفتيات بالصبية الذكور بقليل من الاهتمام الطبي؛ وذلك لأن هناك عددًا قليلاً جدًّا من الفتيات اللاتي يعانين اضطراب الهوية الجنسية مقارنة بالصبية الذكور، كما أن الفتاة المتشبهة بالذكور لا تجذب الدرجة نفسها من الانتباه مثل "الصبي المتأنث"، وتتمتع الفتيات الآن في الثقافة المعاصرة بحرية تجربة مجموعة كبيرة من عوامل عدم الانسجام الجنسي، بينما يتعرض الصبية المتأنثون للرفض أو التهميش (ويظلون هكذا)؛ ولذا، فلا بد أن تبدي الفتاة سلوكيات شاذة أكثر تطرفًا من الصبي قبل أن يطلب الوالدان المساعدة

المتخصصة لها.

وهناك نقطة أخرى، وهي أن سلوكيات التشبُّه بالذكور لدى الفتيات غالبًا ما تكون في الواقع مجرد مرحلة عابرة، بينما السلوكيات الشاذة عند الصبية لا تكون كذلك [10]، وينخرط الكثير من الفتيات بصورة طبيعية في ممارسة الأنشطة الذكورية، أو ربما يفضلنها أثناء طفولتهن، مع الحفاظ على الهوية الأنثوية الأساسية، وفي وقت لاحق، ستقوم هؤلاء الفتيات بتنمية اهتماماتهن الأنثوية عند اقترابهن من سنوات المراهقة.[11]

وهكذا، كما تقول الدكتورة "سلمى فرايبرج" في كتابها الرائع عن الأطفال: "عندما تصبح شخصية الفتاة تحت سيطرة الاتجاهات الذكورية، وعندما تتبرأ من أنوثتها، في هذا الوقت فقط نكون في حاجة إلى الشعور ببعض القلق نحو مستقبل نمو الطفلة".[12]

وهناك نسبة ضئيلة من الفتيات اللواتي يواصلن السلوكيات المتشبهة بالذكور ورفض أنوثتهن خلال مرحلة المراهقة، ومثل هؤلاء الفتيات تزداد الاحتمالات لديهن لأن يصبحن سحاقيات أو ثنائيات الميل الجنسي[13]. ويعتبر التنافس الشرس مع الإخوة الذكور والصبية الآخرين- خاصة في مجال الألعاب الرياضية البدنية- مؤشرًا آخر على أنه ربما تكون هناك صعوبات دائمة في التوافق الجنسي.

وهنا يصف الدكتور "جورج ريكرز" حالة لفتاة متشبهة بالذكور تمت إحالتها للعلاج:

لقد تمت إحالة "بيكي" للعلاج النفسي وهي في سن السابعة وأحد عشر شهرًا، من خلال ممرضة متخصصة في العلاج النفسي حيث قامت بتقييم حالتها بناء على طلب من أمها، وكان لدى "بيكي" أختان أصغر سنًا، تبلغان من العمر: عامين، وستة أعوام، وكان والد الفتاة غائبًا عن البيت بسبب الطلاق.

ولفترة طويلة حسبما تستطيع الأم أن تتذكر، كانت "بيكي" ترتدي سراويل الذكور فقط، وكانت غالبًا ما ترتدي أحذية رعاة البقر، وفي الوقت نفسه، كانت ترفض باستمرار ارتداء أي ملابس أنثوية مثل الفساتين، وكانت لا تبدي اهتمامًا بالحلي والمجوهرات النسائية.

وكان استخدام "بيكي" لمستحضرات التجميل الأنثوية- كما تتذكر والدتها-

يقتصر على رسم شارب أو لحية على وجهها عدة مرات، وكانت "بيكي" تظهر ملامح الذكورة في حركاتها، وتصرفاتها، وطريقة مشيها. وذكرت أنها مارست العادة السرية علنًا، وأنها كانت تحك جسدها في أجساد الفتيات الأخريات في بعض الأحيان، وكثيرًا ما كانت تتكلم بصوت خفيض جدًّا، وكان صوتها يشبه "الرجال".

وكانت "بيكي" قد أعربت عدة مرات عن رغبتها في أن تكون ذكرًا، وكانت تقوم بأدوار الذكور أثناء لعبها، وبالطبع كانت تفضل رفقة الصبية الذكور في اللعب، وكانت لا تتجاوب بطريقة جيدة مع الفتيات الأخريات، وكانت تقوم بسلوكيات عدوانية جدًّا، وكانت علاقتها سيئة جدًّا مع أختها التي تبلغ من العمر ست سنوات، والتي كانت تظهر ميلاً تقليديًّا نحو أنشطة اللعب الأنثوية.[14]

ولقد أشارت الدكتورة "سيجال" إلى أن مريضاتها السحاقيات لم يلعبن أبدًا ألعاب الفتيات المعتادة، مثل القيام بإلباس الدمى، وألعاب رعاية المنزل، ولكنهن بدلاً من ذلك كن يشتركن في ألعاب ورياضات بدنية تليق بالذكور، وتصف الدكتورة "سيجال" العلاج لثلاث من مريضاتها اللواتي كنّ يعانين من اضطراب الهوية الجنسية.

على الرغم من معرفة هؤلاء الأطفال بنوعهم البيولوجي- أي أنهم يفهمون تمامًا أنهم إما أن يكونوا ذكورًا أو إناثًا- إلا أنهم لا يعرفون معنى أن يكونوا صبية أو فتيات في إطار حياتهم الخاصة، وفي الحقيقة، تقول الدكتورة "سيجال": إن الكثيرات من مريضاتها قد ابتعدن عن طبيعتهن الأنثوية بشكل لافت للنظر مع الاتجاه الذي أطلقت عليه اسم "الانتصار المطلق" رفض أنوثتهن بطريقة علنية ومتبجحة.

دور الآباء والأمهات:

يقول الدكتور "روبرت ستولر"- وهو باحث رائد في مجال مشكلات الهوية الجنسية في مرحلة الطفولة عند كلا الجنسين-: إنه إذا كان هناك أحد يرغب في أن يعزز الهوية الجنسية لفتاة، فيجب أن تكون هناك علاقة حميمة بين الأم والابنة، مع وجود أب لا يعزز توافق ابنته معه، وفي الحقيقة، فإن العلاقة الصحية مع الأم تمثل أهم أساس في عملية اندماج الأنوثة مع الجنس السوي.

وفي دراسة "ستولر" التي ضمت مجموعة من الإناث المسترجلات، اكتشف أن

العلاقة العاطفية الحميمة تكون ضعيفة جدًّا مع الأم، وقوية جدًّا مع الأب [15] . وفي بعض الحالات، كان الأب يصاب بخيبة الأمل لحصوله على فتاة، وكان يعاملها كما لو كانت ذكرًا، مما كان ينتج عنه "الاختيار المكره" وهو أن تتخلى عن طموحاتها الأنثوية في سبيل حب الأب.

الاكتئاب الشديد عند الأم:

كثيرًا ما تكشف الدراسات التي تتناول الفتيات اللواتي يعانين من الاضطراب الجنسي الشديد حدوث انقطاع مؤلم في العلاقة بين الأم والفتاة، ويظهر في معظم الحالات أن هذا يرجع إلى إحساس الأم بالاكتئاب الشديد، ويرى الأب- الذي يتولى مسؤولية تربية الطفلة حينما تتراجع الأم- ابنته "صديقًا" له، ويشجعها على أن تتصرف مثله وأن تشاركه نفس الاهتمامات، وعندما يتضاءل تأثير الأم، فإن مثل هؤلاء الفتيات يكتسبن الصفات الذكورية في السنة الثالثة أو الرابعة من أعمارهن.

إن تاريخ الاكتئاب الشديد لدى الأمهات لهو علامة بارزة في تاريخ ست وعشرين فتاة يعانين اضطراب الهوية الجنسية، ولقد رَوى تاريخ هذا العدد من الفتيات الباحث "تسوكر" والباحثة "برادلي"، حيث كان نحو 77% من الأمهات يعانين تاريخًا مرضيًّا من الاكتئاب، وكان كل هؤلاء الأمهات قد أصبن بالاكتئاب عندما كانت بناتهن رضيعات أو عندما بدأن المشي، أي أثناء الفترة الحساسة لنمو الهوية الجنسية، وهنا نرى ظاهرة تقديم الأم نفسها ككائن سلبي أو ضعيف لتحديد الهوية، وقدم هذان الباحثان صورة مفصلة؛ كالتالي:

كانت لدى الفتيات صعوبة في تكوين رابطة عاطفية مع أمهاتهن، وفي بعض الحالات، كان يبدو أن الفتاة قد فشلت في التوافق مع أمها، أو فشلت في التمايز عنها، وذلك يرجع إلى أنها ترى أمها ضعيفة، أو فاقدة للأهلية، أو ميئوسًا منها، وفي الحقيقة، كانت الكثير من الأمهات يقللن من قدر فعاليتهن وتأثيرهن، وينظرن بعين الازدراء إلى دور الجنس الأنثوي.

وفي عدد قليل من الحالات، كان يبدو أن "مرض الابنة الشديد" أو طباعها الصعبة أثناء فترة الرضاعة، قد أفسدت علاقتها مع أمها.[16]

ومن المرجح أن ترسل الأم- التي تعرضت للإساءة والإيذاء على يد الرجال- رسالة مفادها أنه شيء خطير أن تكوني امرأة.

ولقد تعرضت ست من الأمهات للاستغلال الجنسي المتكرر والعنيف من المحارم، وأدت هذه التجربة إلى اختفاء أنوثة هؤلاء الأمهات وراء سحب كثيفة، مما جعلهن يشعرن بالتحفظ الشديد من الرجال والذكورة، وأدى إلى حدوث اختلال وظيفي في حياتهن الجنسية.

وعلى مستوى توريث الطباع النفسية، كان يبدو أن الرسالة الموجهة للفتيات هي أن كونهن إناثًا يعتبر شيئًا غير مأمون؛ لقد كانت هؤلاء الأمهات يعانين صعوبة في غرس الإحساس بالفخر والثقة في نفوس بناتهن لكونهن إناثًا.[17]

دور الأب:

إن أفضل دور يقوم به الأب لمحاولة تنمية الهوية الأنثوية لابنته هو أن ينظر إلى اختلاف هوية ابنته الجنسية نظرة ملؤها الاحترام والتقدير، وفي الوقت نفسه، يظهر الأب الحب والاهتمام الإيجابيين بحيث تشعر الفتاة بأنها تستحق أن تشعر بالحب من رجل آخر، وعلى النقيض من ذلك، فإن الأب الغائب أو المنعزل سوف يعوق قدرة الفتاة على أن تفهم الرجال بصورة صحيحة، وسوف يقدم لها صورة مشوهة عما تستحقه بالفعل وما يجب أن تتوقعه من أية علاقة لها مع الرجل.

ونحن أيضًا نرى في بعض الأحيان ظاهرة نفسية معروفة جيدًا- تطرقنا لها في وقت سابق- وهي "التماثل مع المعتدي"، عندما يقوم الأب أو الإخوة الذكور الأكبر سنًا بالتسلط بعدوانية على العائلة، وعندما تشعر الأم بالقمع على يد زوجها ولا تستطيع الدفاع عن نفسها، فربما تتخذ الابنة قرارًا بلا وعي وهو أنه من غير المأمون أن تطالب بهويتها الأنثوية، وإلا فستضع نفسها في موقف مماثل لموقف أمها تكون فيه عرضة للأذى والإساءة، وعوضًا عن ذلك، ترفض الفتاة أن ترتبط بالأم الميئوس منها، وتلجأ بطريقة دفاعية إلى التوافق مع الصفات الذكورية نفسها التي تخشاها، من أجل أن تتجنب الشعور بالقلق الشديد.

وهكذا ليس من المستغرب- كما لاحظ الباحث "تسوكر" والباحثة "برادلي"- أن الكثير من الفتيات المضطربات جنسيًّا بشكل واضح "يستغرقن في التفكير في خيالات السلطة، والعدوان، والحماية"[18]. وفي مرحلة البلوغ، ربما تتورط مثل هؤلاء النسوة في أنشطة جنسية شاذة ترتبط بالاستمتاع بتعذيب الذات والآخرين، أو "بالسيطرة" أو "باستخدام أدوات العنف الجنسي"، وهذه الأنشطة هي تعبير

وتنفيس لا شعوري عن تجاهل الهوية الجنسية؛ إن الفتاة التي لا تقدر على التوافق المأمول مع حب كائن من الجنس نفسه (الأم) سوف تخفي غضبًا شديدًا نحو الشيء نفسه الذي تحبه؛ لأنها- ترغب فيه من جانب- ولكنها على الجانب الآخر تشعر بالألم بسببه.

وفي الحقيقة، إن الاستمتاع بتعذيب الذات والآخرين شائع إلى حد ما في أوساط مجتمع السحاقيات، وكما لاحظت معالجة نفسية وناشطة سحاقية:

«إنني لا أستطيع أن أتذكر اللحظة التي بدأت فيها التنبه إلى أن إصدارات السحاقيات، والمقتطفات الأدبية الجنسية، والمؤتمرات والكتب؛ كانت في الواقع تشير إلى ممارسة الجنس مع تعذيب النفس والآخرين بطريقة إيجابية وكأنها تقرُّ بها.

وفجأة، بدا الأمر كأن الاستمتاع بممارسة الجنس مع تعذيب النفس والآخرين، قد أصبح اتجاهًا سائدًا، ويُحتفى به أيضًا، خاصة بين المراهقات السحاقيات، ويبدو أن السوط والسلاسل ولعب دور السيد والعبد، لم تعد تصيبنا بالصدمة، كما كان يحدث من قبل.

وبدلاً من التصدي لهذا الأمر، أصبحت الكثير من السحاقيات تتبنى هذا الأسلوب بوصفه شيئًا ساحرًا وجذابًا، وطريقة "للتحرر الجنسي" و"ممارسة الشذوذ الجنسي علنا".[19]

يجب التنبه هنا إلى أن كاتبة الملاحظات السابقة تشعر بالاضطراب بسبب الشعبية المتزايدة للاستمتاع بممارسة الجنس من خلال تعذيب الذات والآخرين في مجتمع السحاقيات، ليس لأن هذا ينتهك أية قواعد أخلاقية للاحتشام، ولكن لأن هذا يهدد تحقيق الأهداف السياسية لمجتمع السحاقيات، إنها تشعر بالقلق لأن هذه الممارسة "تعكس وتخلد الاتجاهات الظالمة نحو النساء، والأقليات، والأشخاص المحرومين اقتصاديًا في مجتمعنا".[20]

شبح الاعتداء الجنسي:

إن العلاقة السيئة للفتاة مع أمها وتجاوبها غير الصحي مع أبيها، تمثل قضايا رئيسية قطعًا فيما تشعر به من ارتباك جنسي، ولكن التقارير الواردة من المستشارين الذين مارسوا الشذوذ الجنسي في السابق، وزعماء الجمعيات الدينية

أيضًا؛ تدعم- على نحو متواصل- ملاحظةَ تكرار الاعتداء الجنسي للفتيات على يد أحد الذكور بنسبة تزيد على المعدل المتوسط، ولقد اكتشف زعماء كنيسة الشواذ السابقين- مثل "أنيتا وورثين" و"بوب ديفيس"- أنه في تاريخ السحاقيات اللواتي عرفوهن أو قدموا لهن المشورة، كان الاعتداء الجنسي هو أحد القواسم المشتركة بينهن بطريقة لافتة للنظر:

«في حالة النساء، من الممكن أن يؤدي الاعتداء الجنسي إلى الشعور بالخوف الشديد، وحتى إلى كره الرجال إذا كان مرتكب الجريمة ذكرًا؛ فلا يمكن "الوثوق" بالرجال بعد ذلك، ويؤدي احتياج المرأة القوي للتواصل مع شخص آخر إلى الدخول في علاقة حميمة مع النساء الأخريات، وغالبًا مع نساء تعرضن للجرح نفسه بطرق مشابهة، وهذا يمهد الطريق أمام حدوث علاقة سحاقية بين النساء.[21]

إن الصدمة الناجمة عن الاعتداء الجنسي من الممكن أن تكون لها آثار هائلة على حياة الشابة الصغيرة، فترى الفتاة- من وجهة نظرها- أن أنوثتها تتسبب في حدوث الاعتداء الجنسي عليها بطريقة أو بأخرى؛ وتبعًا لذلك، فإنها- لحماية نفسها- يجب عليها أن تتخلى عن الجانب الأنثوي المعرض للأذى، وعادة ما يكون رفضها لهويتها الأنثوية اختيارًا لا شعوريًا.

العلاقات بين السحاقيات والاعتماد العاطفي:

تلاحظ بعض كنائس الشواذ السابقين أن العلاقات بين السحاقيات قد تتصف ببعض خصائص "التعلق بعبادة الأوثان"، وعلى خلاف العلاقات الشخصية المفتوحة للرجال الشواذ، فإن العلاقة بين امرأتين تميل إلى الارتباط الشديد، وتصف المعالِجة النفسية "أندريا زيجلر- سمالز"- وهي سحاقية سابقة ومتزوجة الآن- مثل هذه العلاقات فتقول:

«إن العلاقات الأنثوية تميل نحو العزل الاجتماعي لا الاختلاط، ومن المعتاد أن تجنح السحاقية إذا ارتبطت بامرأة أخرى إلى تقليص اتصالها بأفراد الأسرة والأصدقاء السابقين، ويفيدهما هذا الانسحاب التدريجي في ضمان السيطرة والحماية ضد الانفصال والتهديدات الملموسة لعلاقتهما الهشة.

إن الدافع المسير للعلاقة بين السحاقيات هو الاحتياجات العاطفية التي تشعر بها المرأة نحو الجنس نفسه، ولا تكتسي هذه الاحتياجات بالطابع الجنسي، كما

هو الحال بالنسبة للرجال الشواذ، فترى النساء السحاقيات أن "الانجذاب العاطفي" له دور أكثر أهمية من الانجذاب الجنسي.

ويبدو أن هناك قابلية للارتباط القوي بصورة خاصة في إطار هذه العلاقات، ومع ذلك، فإننا ننظر عن كثب ونجد سلوكيات تشير إلى وجود علاقة هشة يسودها الخوف والقلق، على سبيل المثال: نرى الخوف من الهجر و/أو الازدراء، والصراعات المرتبطة بالسلطة (أو الضعف) والتحكم، والرغبة في الاندماج مع شخص آخر لضمان الإحساس بالأمان والأهمية.

وعلى الرغم من أن علاقات الشراكة بين السحاقيات تكون أطول عمرًا- بصفة عامة- من مثيلاتها بين الرجال الشواذ، فإن العلاقات بين السحاقيات تميل إلى أن تكون مشحونة بالحدة العاطفية وإلى التماسك بـ"غِرَاء" الغيرة، وحب الامتلاك المفرط، وسلوكيات الاحتكار المتنوعة.

وخلال فترة العلاقة؛ فإن الأوقات السعيدة تكون جيدة جدًّا، وأوقات الصراع تكون بالغة القسوة؛ فقضاء أوقات طويلة معًا، والاتصال الهاتفي المتكرر، وتبادل بطاقات المعايدة أو الهدايا بطريقة مبالغ فيها، والتسرع في الانتقال إلى الإقامة معًا أو في دمج الموارد المالية- هي بعض الوسائل الدفاعية لتفادي الانفصال، في مثل هذه العلاقات نرى الارتباط الصحي الزائف؛ وهو الاعتماد العاطفي والتعلق المبالغ فيه، وكثيرًا ما نرى شكلاً من اليأس في الانجذاب العاطفي في المرأة التي تعاني من السحاق.[22]

مجمل القول: تكتشف الإناث توجهاتهن الجنسية في مرحلة متأخرة عن الرجال، وربما يعود هذا إلى عوامل عدة؛ منها أن الفتيات يملن إلى إظهار نشاط جنسي أقل، مقارنة بالصبية، ولأن الهوية الشاذة للفتاة عادة ما تنشأ بصورة تدريجية داخل إطار الارتباط العاطفي القوي، وليس نتيجة لتجربة الممارسة الجنسية، وعلى الجانب الآخر، فإنه تزداد فرص الصبية لأن يدركوا شذوذهم الجنسي من خلال التورط في تجارب جنسية شاذة.[23]

عمليات التحول الجنسي:

إن الاضطراب الجنسي لدى الفتيات لا يكون دائمًا واضحًا في شكل تصرفات مسترجلة وذكورية، ففي الحقيقة، فإن بعض السحاقيات يكنّ غاية في الأنوثة، ومع

ذلك، من الممكن أن تكون الصفات الذكورية عند بعض الفتيات غاية في التطرف.

وهاهو مثال لفتاة مراهقة تدعى "سيندي" تعاني اضطرابًا جنسيًّا شديدًا، ولم يؤد رفضها لهويتها الجنسية إلى اتجاهها نحو السحاق فحسب، بل أدى إلى حدوث رفض أكثر مأساوية؛ وهو رفضها لجسدها أيضًا.

كانت "سيندي" تبلغ الرابعة عشرة من عمرها وكانت تعيش مع أمها في مجتمع ريفي، لم تتزوج أمها أبدًا، ولكنها سكنت مع بعض العشاق من آن لآخر على مر السنين، ولا تحمل "سيندي" أي ذكرى لوالدها، ولم تلمس إلا القليل من العطف من أي شخصية ذكورية.

وعندما ظهرت "سيندي" في عيادتي للمرة الأولى، كانت ترتدي قميصًا رجاليًّا فضفاضًا، وبنطالاً من الجينْز بلون أزرق باهت، وحذاء ذا رقبة، جلست وهي تباعد بين ساقيها وتضع مرفقيها على ركبتيها، وكان صوتها وطريقة تواصلها يتسمان برجولة واضحة تمامًا، مثلما كانت إيماءاتها وتصرفاتها، وفي بعض الأوقات، كنت بحاجة لأذكر نفسي بأنها فتاة بالفعل.

ولقد أخبرتني بكل فخر بأنه لم يستطع أحد أن يجبرها على ارتداء فستان أبدًا، وقالت: إنها تشعر طوال عمرها أنها صبي، وتتمنى ذلك بالفعل، ولقد فتنت "سيندي" ببرنامج تليفزيوني ظهر مؤخرًا يدور حول العمليات الجراحية لتغيير الجنس من أنثى إلى ذكر، والآن فإنها فقط تجلس "في المنْزل" في انتظار أن تتمكن من الخروج منه وإجراء نفس العملية الجراحية.

ولقد أقرت "سيندي" بأنها ترتبط ارتباطًا عاطفيًّا قويًا بفتاة أخرى، وأن هذا الارتباط قد صاحبه ممارسة الجنس، "إنها ليست شاذة، إنها مجرد فتًى- مثل كل الفتيان- يبحث عن صديقة"؛ تعبيرها هذا ليس مجرد تمرد أو رغبة في إحداث الصدمة للآخرين، بل هو موقفٌ متشددٌ ومتعنتٌ يعبر عن اقتناع شخصي.

وعلى الرغم مما يبدو على "سيندي" من علامات الذكاء، فإن درجاتها الدراسية كانت سيئة، وكانت إحدى مشكلاتها في المدرسة أنها كانت تصمم على استخدام دورات المياه الخاصة بالذكور، وكانت علاقاتها الاجتماعية مقصورة إلى حد كبير على الصبية في المدرسة، وفي كل مناسبة كانت "سيندي" تذكر الناس من حولها بأن اسمها ليس "سيندي" بل "ريك"، وهو اسم اتخذته لتكريم نجم موسيقى الروك

الذي تعجب به، وكانت "سيندي" تشعر بالاشمئزاز من كل شيء أنثوي، بما في ذلك نضجها الجسدي كامرأة، وكانت ترتدي سترة ثقيلة لتخفي معالم صدرها، الذي قالت: إنها تكرهه!

كانت الغالبية العظمى من قرينات "سيندي" في المدرسة يرفضنها، وكان أصدقاؤها القليلون من الذكور: من المتمردين والمهمشين المتطرفين، والمنقطعين عن الدراسة، والمدمنين للمخدرات، وهكذا ليس من المستغرب أنها كانت تعاني حالات اكتئاب متكررة مصحوبة بالتفكير في الانتحار، وكانت كثيرًا ما تقرر أنها يجب أن تعيش كذكر، وإلا فستقتل نفسها.

إن حكاية سيندي هذه حالة مفيدة للتوضيح وجديرة بالملاحظة، ولكنها تظل شديدة التطرف، في مثل هذه الحالة، فإن مهمة المعالج هي أن يفهم العوامل البيولوجية والنفسية المتشابكة التي تسبب المشكلات للمريضة، وأن يحدد ما إذا كانت المريضة تريد العمل نحو المطالبة بطبيعتها الأنثوية أم لا، وحينما تبدي المريضة الموافقة، يمكن السير قدمًا في العلاج الموجه، وهناك الكثير من مثل هذه الحالات المضطربة التي تبحث عن معالج يدعمهن خلال عملية تغيير الجنس، وهذا شيء لا ندعمه، فنحن نؤمن بأن بتر أجزاء من الجسد لن يقدم حلولاً شافية على المدى الطويل.

احتياجات الرعاية غير المشبعة:

إن بعض السحاقيات لا يعانين كثيرًا من عدم إشباع الاحتياجات الأساسية لتحقيق الهوية بقدر حنينهن وتوقهن للرعاية والحنان، وتظل مثل هؤلاء النسوة محتفظات بالاحتياج- في اللاوعي- لإصلاح العلاقة الهشة بين الأم والابنة، وبالنسبة لهؤلاء، يرتبط الأمر بما يشعرن به من عجز في الشعور بالرعاية والحنان من الجنس نفسه، وتحكي المعالِجة النفسية "إيلر- بويكو"- وهي سحاقية سابقة- عن رغبتها التي لم يتم إشباعها، والتي أطلقت عليها اسم "قصتي الشخصية":

«قد تخبرني إحدى العميلات- في كلمات شبيهة قد تقل أو تكثر عن هذا- "بأن الارتباط بامرأة أخرى يبدو كأنه مثل إشباع لرغبة قديمة جدًّا، كأنه مثل العودة للوطن"، وعندما أسمع هذا، أعرف أنها تفتقد شيئًا أنثويًّا بداخلها، إن المثل الأنثوي الأعلى- المبدعة، والمتحدثة، والفطنة، والمتفتحة، والمتواصلة جسديًّا

وروحيًّا- قد ضاع بشكل ما.

وتسعى مثل هذه المرأة بالفعل إلى الارتباط بنفسها من خلال الوقوع يحب امرأة أخرى.

ومن خلال النظر إلى تطور الشذوذ الجنسي عند هذه المرأة السحاقية، يمكنني القول بأنها تسعى وراء الاندماج مع النموذج الأصلي "للأم الجيدة"».[24]

وكما أوضحت "إيلر- بويكو"، فإن الكثير من السحاقيات اللواتي يسعين وراء تغيير الجنس لا يواصلن العلاج، فترى هؤلاء السحاقيات أن التخلي عن الارتباط العاطفي المصاحب للعلاقة الشاذة شيء يثير مخاوفهن؛ مثل الموت، وتقول "إيلر- بويكو" أيضًا:

«يمكننا أن نقول لصبي مراهق: "حسنًا.. سيتم إشباع احتياجاتك العاطفية، وهذا لا يجعلك مضطرًّا إلى اللجوء للممارسة الجنسية الشاذة"، أما الفتاة- على الجانب الآخر- فربما تفهم أن المعالج يطلب منها التخلي عن علاقة تعتمد عليها كثيرًا وتشعر نحوها بالاحتياج الشديد، إنها تشعر كأنه لا يمكنها العيش بدون الشعور بالحب والاهتمام أو بدون "الطرف الآخر المهم"».

وربما تقول إحدى السحاقيات: "عندما أنخرط في ممارسة الجنس، يكون هذا هو الوقت الوحيد الذي أشعر فيه بأنني محبوبة وأن هناك من يهتم لأمري"، وبالنسبة للفتاة التي تعرضت للتحرش الجنسي على وجه الخصوص، فإن سلوكيات الشذوذ الجنسي تقدم لها الإحساس بالتحكم في العلاقة مع الشخص الآخر، وترى مثل هؤلاء الفتيات أن شذوذهن الجنسي هو طريق للوصول إلى السيطرة والسيادة في أي موقف ينطوي على التهديد، ويكون هذا هو الوقت الوحيد الذي يشعرن فيه "بالأمان".

قائمة الفحص للفتيات:

فيما يلي قائمة فحص أولية للآباء والأمهات الذين يخامرهم الشعور بأن ابنتهم ربما تكون مضطربة جنسيًّا، تمعن في الأسئلة التالية، ثم ناقشْها مع زوجتك، ثم مع معالجٍ مؤهل إن أمكن.

هذه القائمة لن تتوافق مع كل الفتيات في مرحلة ما قبل الشذوذ؛ حيث إن جذور

الشذوذ لدى النساء أكثر تعقيدًا مما لدى الرجال، ولكنها تقدم انطلاقة مهمة في بداية العلاج:

1. هل تظهر ابنتك علامات شذوذ جنسي واضحة؟
2. هل تبدي الرفض لجسدها الأنثوي؟
3. هل تذهب إلى أمها لتلقي عليها أسئلتها؟ هل تطلب من أمها أن تشاركها في عمل أشياء معينة؟ هل تعرض على أمها ما تمتلكه من الدمى وما تقوم به من ألعاب وأنشطة، أم هل تفضل الذهاب إلى أبيها؟ هل تتمتع بعلاقة مريحة وحميمة مع أمها؟ هل تستمتع بعمل "الأشياء الخاصة بالبنات" مع أمها؟
4. إلى أي مدى تتفاعل ابنتك مع البنات الأخريات؟ وهل تبدو مرتاحة بينهن؟
5. هل ترفض ابنتك فكرة أنها سوف تكبر وتتزوج ويصبح لديها أطفال في يوم من الأيام؟
6. في أي وقت، وكم عدد المرات التي لاحظت فيها أيًّا من السلوكيات التالية:
   - ارتداء ملابس الأولاد ورفض ارتداء ملابس البنات؟
   - إيماءات وتصرفات الجنس الآخر، بالإضافة إلى تغيير الصوت؟
   - تفضيل دمى الجنس الآخر وأنشطته؟
   - رفض/ أو عدم الاهتمام بالبنات وألعابهن؟
   - الإصرار على استخدام اسم ولد؟
   - هل يشجع الأب ابنته على تنمية أنوثتها؟

السيرة الذاتية "تشاستيتي بونو":

لجأ الشهيران في مجال الترفيه "سوني" و"تشير" إلى الطلاق عندما كان عمر ابنتهما "تشاستيتي" أربع سنوات، وكما تخبرنا "تشاستيتي" في سيرتها الذاتية التي صدرت تحت عنوان "نزهة عائلية"، وجدت نفسها عالقة عاطفيًّا بين أم متباعدة مستنكرة تميل إلى الانفجار غضبًا في نوبات لا يمكن التنبؤ بها، وبين أب غير موجود بشكل عام، وفي الوقت نفسه، كانت تحس بالاغتراب بين قريناتها الإناث، وتحكي "تشاستيتي"- التي أصبحت تعرف بنفسها على أنها سحاقية في الوقت

الحاضر- كيف أن والديها أوقعاها في شراك خلافاتهما الزوجية كطريقة ينتقم بها كل منهما من الآخر:

«بطريقة ما، أعتقد أنني كنت بمثابة الابن الذي لم يحظ به أبي أبدًا، وبينما كان أبي يشجعني على التشبه بالصبية الذكور، كانت أمي تصاب بالضيق، وأظن أنهما بطريقة ما كان ينفسان عن شعورهما بالإحباط من خلالي أنا: كان أبي يثير غضب أمي من خلال تشجيعي على التشبه بالذكور، وكانت أمي تشعر بالمزيد من الضيق عندما كانت تراني وأنا أقلد أبي».[25]

كانت "تشير" تشعر بالقلق بسبب ملابس ابنتها الذكورية وقلة صديقاتها من الإناث، ولقد باءت محاولات الأم بالفشل في إقناع ابنتها بارتداء تنورة أثناء الذهاب إلى المدرسة، وفي الحقيقة، لقد أقسمت "تشاستيتي" في وقت من الأوقات "على ألا ترتدي شيئًا أنثويًا مرة أخرى"، ومن الواضح أن علامات الشذوذ كانت واضحة عليها منذ ذلك الوقت.

عندما تأتي الفتاة للعلاج:

عندما يُكتشف أن الفتاة متورطة في علاقة سحاق، ربما ينصبُّ تركيز الوالدين على إيقاف السلوك الجنسي لابنتهما، ولكن الفتاة نفسها تشعر بالقلق البالغ نحو إحساسها بالوحدة، والاغتراب، والرفض، وسوء تقدير الذات؛ وهنا يستطيع المعالج المحنك أن يبدي الاهتمام بمشاعرها.

الشعور بأنه يساء فهمه بالمنْزل هو أكبر مصدر للتعاسة، إن الأب سيكون في حاجة إلى تقييم تدخله في حياة ابنته، وربما يتطلب منه هذا القيام بدور يقدم من خلاله المزيد من الدعم ويبدي القليل من التدخل، وفي الوقت نفسه، فإن الأم يجب عليها أن تطلع ابنتها على مشاعرها وتتحدث معها عن جوانب ضعفها، من أجل بناء علاقة يتبادلان فيها المشاعر بصورة أكبر.

إن السحاق- كما قلنا من قبل- يتبع نمطًا متناميًا لا يمكن تمييزه في فترة الطفولة، ويبدأ العلاج عادة بالطلب من الأم أن تفكر جيدًا في السطور التالية:

- ما الشكل الذي تبدو عليه علاقتي بزوجي؟
- كيف أشعر حيال أنوثة ابنتي؟

- كيف أقوم بتشجيع تعبير ابنتي عن أنوثتها النامية، ودعمه؟
- ما موقفي من علاقة ابنتي بأبيها؟
- هل أشعر بالتهديد من اهتمام زوجي بابنتي؟
- هل يبدو أن زوجي وابنتي يرتبطان بعلاقة خاصة تثير بداخلي مشاعر سلبية أو الإحساس بالقلق؟
- هل أشعر بالغيرة أو التنافس فيما يتعلق بعلاقة ابنتي مع أبيها؟
- هل يجعلني زوجي وابنتي أشعر كأنني مستبعدة من حياتهما؟
- هل من المجدي أن أتحدث مع معالج نفسي متخصص ومؤهل عن هذه الموضوعات، خاصة عن علاقاتنا الأسرية بشكل عام؟

يجب أن يقوم الوالدان اللذان يشعران بالاهتمام والقلق، بإجراء تقييم جاد وفوري لعلاقة الفتاة- التي تعاني اضطراب الهوية الجنسية- مع أمها، وبالقطع يجب أن يحدث هذا عندما تظهر الفتاة أعراضًا واضحة للاضطراب الجنسي، ويجب ذلك أيضًا في الحالات التي يكون عدم انسجامها الجنسي أقل وضوحًا وتصحبه علاقة عدائية أو متوترة مع الأم.

السحاق بسبب الإهمال:

يبدو أن بعض النساء ينمون بطريقة طبيعية كفتيات، ويستطعن القيام بوظائف الجنس السوي بصورة جيدة ويتزوجن، ولكن بعد ذلك- ومما يصيب جميع أفراد أسرهن بالدهشة- يدخلن في علاقة سحاق في فترة الرشد، ويفسر الدكتور "ريتشارد فيتسجبونز" هذا الأمر قائلاً: "إن المرأة رقيقة المشاعر التي تعانى من وجود احتياجات لم يتم إشباعها للحب والرعاية، ربما تتجه إلى الدخول في علاقة سحاق بسبب إحساسها بخيبة الأمل والوحدة، بعد أن تحررت من الوهم بسبب زواج فاشل أو طلاق" [26]، وربما تتأرجح مثل هؤلاء النساء بين علاقات السحاق وعلاقات الجنس السوي عدة مرات طوال حياتهن.

وتوضح قصص الحب الشهيرة بين الفنانة السحاقية "إيلين ديجنرز" ورفيقتها، وبين المغنية "ميليسا إيثرايدج" ورفيقتها؛ مرونةَ الانجذاب الجنسي وليونتَهُ عند بعض النساء؛ كان لكل من هاتين المرأتين عشيقة كانت تعيش حياة جنسية سوية،

ثم كشفت عن هويتها السحاقية وعاشت بها لعدة سنوات، ثم رجعت مرة أخرى فيما بعد لتعيش حياة جنسية سوية، ومثل هذه المرونة أكثر شيوعًا بين النساء مقارنة بالرجال.

مهام في عملية الشفاء:

تقوم المعالِجة النفسية "ديانا إيلر بويكو" بشرح عملية العلاج لإحدى مريضاتها البالغات، وتعمل الدكتورة "إيلر بويكو" على إعادة الارتباط تدريجيًّا مع الطبيعة الأنثوية الخاصة لدى المريضة، من خلال وصفها لطريقتها الخاصة من الخروج من الشذوذ الجنسي الذي كان لديها، وسوف يبحث كل من المريضة والمعالج عن العقبات- الموجودة في النمو النفسي للمريضة- والتي بدأت في "تقويض" الروح الأنثوية والتقليل من شأنها، وتقدم "إيلر بويكو" مزيدًا من الشرح قائلة: "بدلاً من أن تبحث المريضة عن امرأة أخرى، فإنني أحاول أن أربطها بما يوجد بداخلها، وعندما تشعر بالرضا والإشباع من خلال هذه الرابطة القوية، يمكنها الانتقال إلى الارتباط بالذكور".[27]

وكما قلنا من قبل، فإن هناك الكثير من العوامل التي تؤدي إلى السحاق لدى النساء أو الشذوذ الجنسي لدى الرجال؛ ولذلك يجب عليك ألا تتخذ موقفًا من ابنتك يلقي بمسؤولية السحاق بأكملها على كاهلها؛ فإن الهوية الجنسية للابنة تتشكل أيضًا من خلال تأثير القرينات، وطباعها النفسية، والاختيارات التي تقوم بها بنفسها، وربما المرور بتجربة الاعتداء الجنسي، وفي بعض الأحيان العوامل البيولوجية التي تؤثر على عدم انسجامها الجنسي.

وتعزز المؤثرات الثقافية أيضًا من الاتجاهات المتنامية لدى الابنة، فالثقافة التي نحياها الآن لا تقدم التعزيز الصحي المطلوب كي ينمو المرء داخل هويته السوية، وفي الفصل التالي، سنلقي نظرة عن كثب على السياسات الثقافية للشذوذ الجنسي، وكيف أن هذا يؤدي إلى المزيد من تفاقم مشكلة طفلك الذي يعاني اضطراب الهوية الجنسية.

8
سياسات العلاج

«لا شك أن المجتمع الذي يبلغ أقصى درجات التحضر والاستنارة

لا بد أن يتحرر من رهاب الشذوذ الجنسي والعنصرية ضده.

هذه قضية صحة عقلية من الدرجة الأولى».

الدكتور "جود مارمور"

الرئيس السابق للجمعية الأمريكية للطب النفسي

إن أحد أكبر التحديات التي يواجهها الآباء والأمهات، هو الحرب السياسية التي تدور رحاها حول الشذوذ الجنسي.

من موقفهم المؤيد للشذوذ الجنسي، تتمسك مؤسسات الصحة العقلية بوجهة نظر أحادية لا تتسامح مع أي معارض؛ فعلى سبيل المثال: تعترف الجمعية الأمريكية لعلم النفس بأن الشواذ جنسيًّا لم "يولدوا هكذا"، لكن قادة هذه الجمعية يرفضون إجراء البحوث على عاملي العائلة والمجتمع اللذين يشكلان الهوية الجنسية، لماذا؟ نسأل: لماذا؟ هكذا يرددون: "الأمر غير مهم".

إن تعقيد موضوع العلاج هو أفضل تعاطف متاح باستطاعة الآباء والمعالجين أن يشعروا به تجاه الألم الذي يتجرعه الطفل المرتبك جنسيًّا، وأعتقد أن هذا التعاطف يؤدي في الغالب إلى حالة من إنكار الواقع بحيث يميل البالغون إلى وصف الطفل المضطرب بأنه "طبيعي بشكل مثالي".

ومهما كانت الأدلة المقدمة لإثبات نقيض ذلك والتدليل على خلاف ذلك، فإن الكثير من الناس يستمرون في تبرير الانجذاب الجنسي إلى نفس النوع على أنه أمر طبيعي؛ لأن الشواذ جنسيًّا ببساطة "يولدون هكذا"!

وكما أوضحنا، فإن العلماء على يقين من أن الحجة القائلة بولادة الشواذ "على هذه الشاكلة"، هي محض هراء؛ فهم يدركون أن الميول الشاذة تنبع من تضافر مؤثرات بيولوجية واجتماعية وأسرية، تدعمها وتكرسها خيارات أسلوب الحياة، إلا أن حركة حقوق الشواذ قد أقنعت الكثير من الأطباء النفسيين بأن الشذوذ الجنسي أمر جوهري في أعماق هوية الشخص؛ وأي محاولة للتأثير على الطفل أو الطفلة ليتوجه نحو الجنس السوي هو بمثابة التعدي على حقوقهم.[1]

ما الذي يعرفه علم النفس عن التصميم البشري وأغراضه؟

في الأغلبية الساحقة من برامج الدراسات العليا في علم النفس السريري، يتعلم الطلاب أن الشذوذ الجنسي جزء من جوهر طبيعة الشخص، هل يعني هذا- إذن- أن الأطباء النفسيين يعرفون أمرًا ما عن الطبيعة البشرية ويجهله البقية منا؟ في الواقع، علم النفس لا يعرف شيئًا عن التصميم البشري والغرض منه يجهله البقية منا.

فبغض النظر عما قد تدعيه المهنة أو توحي به، فإن غالبية الناس لا يزال لديهم الوعي الفطري بأن أمرًا ما "ليس على ما يرام" في الشذوذ الجنسي، كما أنهم يعرفون أنه أمر غريب الأطوار ومحزن بالتأكيد: أن يفضل رجل ما وضع شعر مستعار وارتداء حذاء كعبه عال، أو أن يتوقع رجل ما أن باستطاعته أن يمنح طفلاً صغيرًا حب الأم ورعايتها، أو أن يرغب أب في "إرضاع" طفل رضيع باستخدام أداة ميكانيكية مربوطة في حلمته.[2]

ويشعر معظم الناس بشكل بديهي أن الشيء "الطبيعي" يجب- كما قال أحد الأطباء النفسيين منذ أكثر من خمسين عامًا- أن "يعمل بالتوافق مع تصميمه"[3]؛ فشعورنا بالصدمة والاشمئزاز عندما نرى رجلاً يحاول أن يرضع طفلاً صغيرًا مستخدمًا حلمته هو جزءٌ من "إحساس داخلي" غريزي عالمي تقريبًا متوفر لدى الجنس البشري ليحذرنا من وجود حواجز جنسية لا يمكن تخطيها إلا بخرق طبيعتنا، وبالطبع يرى المتدينون أن نفس "الغريزة الداخلية" يتم التأكيد عليها وتعزيزها من خلال الكتاب المقدس.

لسنوات طويلة نَمَتْ وازدهرت ثقافتنا في ظل التأثر بوجهة نظر عالمية مشتركة بأننا كائنات تم تصميمها على طبيعة معينة، حيث يسعى الناس لفهم أمر التصميم

بشكل بديهي؛ لذلك، عندما يولد طفل مصابًا- مثلاً- باضطراب قصور الانتباه، لا يقول الأطباء للطفل: "لقد ولدت على هذه الشاكلة، ومن ثم فإن قصور الانتباه لا بد أن يكون أمرًا طبيعيًّا وصحيًّا بالنسبة لك لتواجه الحياة"، إنهم عوضًا عن ذلك يساعدون الطفل على تعلم أساليب التركيز حتى يستطيع تحسين أدائه المدرسي.

إن كوننا كائنات تم تصميمها على طبيعة معينة لا يعني أننا نقتصر على العمل بشكل محدد في نطاق ضيق، فما زال بإمكاننا التضحية بوظيفة طبيعية في تصميمنا من أجل غرض أكثر سموًّا؛ على سبيل المثال، قد يختار أحد القساوسة أن يتعفف من أجل الرهبنة، أو قد يمكننا أن نوسع من نطاق وظيفة طبيعية- مثل استخدام الآلة الحاسبة لتطوير عملية حسابية نحسبها في عقولنا- ما دامت هذه الوظيفة الممتدة لا تفسد الغرض الأساسي لوجودنا، ولكن الشذوذ الجنسي يخرق تصميمنا الإنساني بتدميره من أجل غرض غير طبيعي؛ فبدلاً من أن يسعى للوصول "إلى الطرف الآخر" الذي تم تصميمه ليكون مكملاً له على الصعيدين النفسي والتشريحي، يقع الشخص ذو التوجه الشاذ جنسيًّا في غرام صورة مطابقة له.

إن المتمسكين بالتقاليد الذين يؤمنون بوجود نظام أخلاقي يقوم عليه تصميم الطبيعة يجدون أدلةً داعمةً في أبحاث العلوم الاجتماعية؛ لأن الدراسات توضح أن علاقات الشذوذ الجنسي بين الذكور- على الأرجح- تكون غير مستقرة ولا تدعم الزواج وتدمر الجسد، وهذا بالقطع ينبغي أن يكون إنذارًا بأن الجنس البشري لا يملك حرية مطلقة.

حدود العلم:

إن إساءة فهم الأشخاص المثقفين للأدلة العلمية الدامغة، هو أمر لا يتوقف عن إثارة الدهشة فينا؛ "إذا كان لك بالعلم صلة بأي شكل من الأشكال، فإنك لا تستطيع أن تتفق معهم"؛ هكذا تقول إحدى متخصصات الاستراتيجيات السياسية في الحزب الجمهوري، مشيرة إلى عدد من زملائها في الحزب أبدوا معارضتهم لنشطاء الشذوذ، إن هذه المرأة- وهي من المتحمسين لتطبيع الشذوذ الجنسي- قد شكلت وجهة نظرها بناء على المغالطة القائلة بأن "العلم قد أثبت أن الشذوذ الجنسي هو أمر طبيعي".

وعلى النقيض لما تعتقده هذه المرأة السياسية، لم يثبت العلم أي شيء من هذا القبيل، ولا يمكنه حتى أن يقوم بذلك؛ ذلك أن مصطلح "هذا ما نحن عليه"- ما هو طبيعي وصحي وقابل للتأقلم وتحقيق للذات وارتفاع للفاعلية بالمعنى الإنساني- ليس مصطلحًا علميًّا في النهاية، بل هو مصطلح فلسفي؛ إن العلم أداة لا تقدر بثمن، لكن قيمته تظل محدودة في الإجابة عن الأسئلة المهمة في الحياة: "من أين أتينا؟"، و"ما غايتنا في الحياة؟"، و"ما مشكلة العالم؟"، و"كيف ينبغي لنا أن نعيش؟"؛ فالعلم لا يدرك الروح البشرية، ولا يمكن للعلم أن يخبرنا بجوهر هويتنا: من نحن؟

كسب نشطاء الشذوذ الجنسي الكثير من الدعم في أوساط الرأي العام من خلال ترويج مفهوم أن "العلم أعاد فحص الشذوذ الجنسي، وتوصل إلى أن هذا الوضع طبيعي وصحي" [4]، وقد كان الإيهام بأن الطب النفسي علم لا يمكن إنكاره هو ما أتاح لأولئك الناشطين الفرصة لدحض الرأي العام والعلوم الدينية والتشريعات القانونية السابقة حول الشذوذ الجنسي.

إن البيانات العلمية تصف العالم وتقدمُ حقائقَ نحتاج إليها لترشدنا نحو فهم معين، إلا أن "هذا ما نحن عليه" بمعناها الشامل- جوهر هويتنا أو لب إنسانيتنا- أمرٌ لا يجب أن يحل إلا بالفلسفة والدين؛ فالعلم يقوم بوظائفه على مستوى وصفي فيما نطلق عليه: "أداة منضبطة"، إن منهج علم الفلسفة وعلم الدين هو ما يتيح لنا تصورًا أكبر يتخطى حدود العالم المادي، ليقدم لنا صورة عن "ماذا يعني أن نكون بشرًا مكتملين؟".

الأطباء الذين يقللون من شأن الدوافع الدينية:

عندما تم حذف الشذوذ الجنسي من الدليل العملي للطب النفسي في عام 1973، أشار الكثير من المراقبين إلى أنه لم يتم اكتشاف أي جديد بالنسبة للحياة الجنسية البشرية، وما حدث بالفعل هو أن مؤيدي الشذوذ الجنسي قد كسبوا تعاطف الأطباء النفسيين مع نشاطهم الاجتماعي، ويوضح الطبيب النفسي "جيفري ساتينوفر" الأمر قائلاً: "إن تطبيع الشذوذ الجنسي قد كان مثالاً تقليديًّا رضخت فيه الجمعية الأمريكية للطب النفسي لخطة "ضغوط جماعة الضحية"، وفي هذه الحادثة، لم يتم تقديم أي بيانات فعلية سواء "الإثبات" أن الشذوذ الجنسي

مرض، أو "الإثبات" أنه ليس كذلك".[5]

ومن غير المثير للدهشة أن معظم الآباء يعبرون بالفعل عن قلقهم من احتمالية أن ينمو طفلهم ليصير شاذًا جنسيًّا، أو ثنائي الميول، أو يتشبه بالجنس الآخر في الملابس، أو يتحول جنسيًّا؛ ولدعم هؤلاء الآباء تصدت مجموعة صغيرة من الأطباء للدفاع الصريح عن حق الآباء في التأثير على الهوية الجنسية لطفلهم وميوله الجنسية تبعًا لذلك.[6]

أحد هؤلاء المؤيدين- غير المتوقع- هو الدكتور "جود مارمور"؛ ونظرًا لشهرته رئيسًا سابقًا للجمعية الأمريكية للطب النفسي، فقد تولى قيادة هؤلاء الأطباء المؤيدين لتطبيع الشذوذ الجنسي في عام 1973، وهو مؤلف الكثير من الإصدارات المرموقة عن الشذوذ الجنسي، إلا أنه رغم اعتقاده بأنه ينبغي اعتبار الشذوذ الجنسي أمرًا طبيعيًّا، يصرح "مارمور"، بأن "قضية منع تطور [الشذوذ الجنسي] أيًّا كان ممكنًا- هو أمر مشروع ".[7]

وفيما يعد اعترافًا صريحًا ومفاجئًا، يقر "مارمور" بأن الشذوذ الجنسي يتطور غالبًا من خلال "سوء العلاقة مع شخصية الأب، والتي ينتج منها الفشل في تشكيل الهوية الذكورية بشكل كاف، وعلاقة قوية لكن متناقضة مع شخصية الأم"، لكن بعد الاعتراف بالأساس المرضي للجزء الأكبر من الشذوذ الجنسي، يعود "مارمور" ليرفض تصنيف نتاج هذا التطور على أنه اضطراب في النمو! لماذا؟ كل ما يقوله هو أنه يجب على المعالج النفسي "إزالة آثار الجراح" من الأشخاص "الذين حولتهم ظروفهم الحياتية المبكرة- دون أي خطأ من جانبهم- إلى الاستجابة الجنسية لأفراد من نفس نوعهم".[8]

وهو تصريح- لا شك- ينطوي على تناقض؛ لماذا ينبغي على الطب النفسي أن يضحي ويتنازل عن قناعاته العلمية ويتحول لوكيل يخدم نشطاء الشذوذ؟

ثم ينظر "مارمور" بازدراء إلى الأشخاص الذين يعتقدون أن الله قد خلق الرجال والنساء أسوياء جنسيًّا، حيث يتحدث عن "المتدينين الورعين" الذين يعتبرون أن إدانة الإنجيل لأفعال الشذوذ هي بمثابة "أمر من الله"[9]، وعلى الرغم من أنه يمطر وجهات النظر الدينية العامة بكلمات لاذعة، فإنه يتعاطف مع أي والد يرغب في أن يجنب طفله التطور نحو الشذوذ الجنسي؛ نظرًا للعيوب الاجتماعية

التي ينطوي عليها الشذوذ [10]، بعبارات أخرى: أي أن القيم النفعية (كالسعادة، والتوافق الاجتماعي) مقبولة، في حين يجب نبذ وجهة نظر الدين القائلة: "إن الناس قد خلقوا أسوياء جنسيًّا في تصميمهم، وتقع عليهم مسؤولية العيش بأسلوب يرضي خالقهم"!

أما الدكتور "كينيث تسوكر"- وهو طبيب شهير في مجال علاج اضطراب الهوية الجنسية عند الأطفال- فيخطو خطى مشابهة لـ"مارمور"؛ حيث يعتبر اضطراب الهوية الجنسية عند الأطفال اختلالاً في النمو، كما أنه يتفهم ويدعم رغبة أي والد في مضاعفة فرص نمو طفله ليكون سويًّا جنسيًّا؛ نظرًا للعيوب الاجتماعية التي تنطوي عليها حياة الشواذ، إلا أنه- كالدكتور "مارمور"- يستخف بالرفض الأسري القائم على أساس ديني [11]؛ فهو في الواقع، يتعامل بارتياب مع القناعة الدينية للأبوين بالنسبة للجنس- وهي نظام اعتقادي يتصور الكمال والرضا الإنسانيين بالتكامل والتباين بين الجنسين.

وعندما يهمِّش أطباء مثل "مارمور" و"تسوكر" القيم الدينية لمرضاهم ويحتقرونها، فإنهم يتجاوزون حدودهم؛ إنهم يفترضون ضمنيًّا أن العلم يعرف شيئًا مؤكدًا فيما يختص بالهدف من الجنس عند البشر، يجهله أيّ نظام للاعتقاد الديني.

عندما تفسر المعلومات لتناسب الأغراض الإيدلوجية:

نظرًا لأن المعالجين النفسيين هم- عادةً- أفراد مهتمون ومتحفزون للمساعدة، فإن غالبيتهم لا يرغبون في تفسير أي نتائج بحثية بطريقة قد تسيء إلى أي مجموعة ما من الناس.

على سبيل المثال: أشارت براهين جديدة إلى ارتفاع مستوى الإصابة بالأمراض النفسية بين الشواذ جنسيًّا، فنجد معظم علماء النفس لا يتحدثون عن السبب الواضح؛ وهو أن هذا الخلل قد يرجع إلى حالة الشذوذ الجنسي ذاتها [12]. وعوضًا عن ذلك، يلقي علم النفس باللوم بشكل روتيني على الاضطهاد الذي يتعرض له الشواذ في المجتمع.

لقد كسرت إحدى الدراسات الرائدة الحديثة هذا الحاجز من المقاومة الإيديولوجية؛ فالدراسة التي أوضحت ارتفاع مستوى المشكلات النفسية بين

الشواذ من الرجال والسحاقيات من النساء، قد فتحت الباب على مصراعيه للتفكير بين الباحثين في أن ارتفاع مستوى المشكلات النفسية بين الشواذ قد يرجع إلى العزلة وممارسة الجنس مع أكثر من شخص، ولما يلاقونه من صعوبة في العثور على شريك جنسي، وإقامة علاقة على المدى الطويل؛ وذلك لعدم استقرار علاقات الشذوذ الجنسي.[13]

كما ألمح باحث آخر في " أرشيف الطب النفسي العام " إلى أن الشذوذ- في بعده البيولوجي- قد يكون "خطأً بيولوجيًّا" [14]، لقد كان ذلك تصريحًا قويًّا، وعندما طرحت الدكتورة "لورا سكليسينجر" الفكرة نفسها في برنامج تليفزيوني حلت فيه ضيفةً، أحاطها نشطاء الشواذ على الهواء بكم من الازدراء، واستغلوا هذا التعليق في خارج السياق: "تقول د. "لورا": إننا أخطاء بيولوجية".[15]

ولكن مثل هذه الصراحة- كما سبق أن قلنا- أمرٌ غير معتاد؛ فالتفسير المطلوب سياسيًّا (وهو أكثر التفسيرات ضمانًا لترقي الطبيب النفسي في السلم الوظيفي!): أنه في أوساط الشواذ قد يكون الاضطهاد الاجتماعي هو المصدر الوحيد لارتفاع معدلات الاضطرابات النفسية ومشكلات تعاطي المخدرات.

فلسفة التحرر الجنسي تسيطر على الاتحادات المهنية:

لا يزال التوجيه السياسي وباءً يستشري في جمعيات الصحة العقلية لدينا؛ ففي المؤتمر السنوي للجمعية الأمريكية للطب النفسي عام 1999، تحدد موعد لعقد نقاش حول ما إذا كان التوجه الجنسي قد يمكن تغييره بالعلاج، إلا أنه تم إلغاء النقاش عندما انسحب اثنان من المتحدثين المدرجين بالقائمة، قائلين: إن موضوع الشذوذ الجنسي- وهو أمر يمكن تغييره- موضوع يمثل عبئًا سياسيًّا على كاهل أي اجتماع علمي؛ لقد تم تقديمنا أنا والطبيب النفسي "جيفري ساتينوفر" في الأساس على أننا أعضاء في تلك الهيئة، إلا أن الأطباء النفسيين المؤيدين للشذوذ الجنسي رفضوا المشاركة في حال شاركت أنا أو "ساتينوفر" في ذلك النقاش!.[16]

إذن، أنت تحضر دراساتك العليا وتعتقد أن الاتصال الجنسي السوي هو الفطري؟ أتمنى لك حظًّا موفقًا في شرح وجهة نظرك، ونشر أبحاثك، والتوافق مع زملائك، ومن الأفضل لك أن تحتفظ بوجهة النظر تلك لنفسك، وإلا فقد تجد نفسك

منبوذًا من قبل المنتدى الاجتماعي الذي تسعى جاهدًا لكسب تأييده؛ فعلم النفس يتكون من "قطيع من العقول المستقلة"- وفق القول المأثور- وكلٌ يتغنى بحب التنوع، بينما يصرون على أن تفكر كما يفكرون تمامًا.

هل هناك وعي مهني بوجود تناقض في الأمر؟ من موقعي- رئيسًا للجمعية الوطنية لأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي- تجرأت مؤخرًا عندما قامت "نورين جونسون"- رئيس الجمعية الأمريكية لعلم النفس- بنشر مقالة افتتاحية بارزة تنادي نداء يتقد حماسةً مطالِبةً بالحرية الفكرية؛ لقد قالت: "إنني أدعم بقوة عقد نقاش مفتوح في الجمعية الأمريكية لعلم النفس، بغض النظر عن قيمة أو قوة النقاش؛ فالنقاش أمر صحي، والاختلاف أمر صحي، والعلم المثمر الصحي يتطلب حرية التساؤل وحرية التعبير".[17]

ما الدوافع وراء تصريح "جونسون" المتَّقِدِ حماسةً؟ إنه- للأسف- ليس الاهتمام بالأشخاص الذين يسعون لتغيير التوجه الجنسي، لقد كانت الدكتورة "جونسون" في حقيقة الأمر مهتمةً بالصخب العام الذي أربك الجمعية؛ فقد نشرت الجمعية الأمريكية لعلم النفس مقالاً مفاده أن علاقات الشذوذ الجنسي التي يمارسها شخص بالغ مع الأطفال، في الغالب يتذكرها الطفل الضحية على أنها أمر إيجابي، وردًّا على موجة النقد العام، أبدت الجمعية أسفها عن المقال، أما نداء الدكتورة "جونسون" الحماسي بالحرية العلمية، فقد كان- بدلاً من ذلك- دفاعًا عن حق المؤلفين في مناقشة وجهة النظر في الشذوذ الجنسي بين الأطفال والبالغين بشكل ودي!

ومع ذلك، بعد أن حفزنا استعداد "جونسون" للتعامل مع هذا الخلاف، كتبت الجمعية الوطنية لأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي خطابًا مطالبةً بالسماح لنا بالإعلان عن لقاءاتنا العلمية في إصدارات الجمعية الأمريكية لعلم النفس، مثلما تفعل منظمات الشواذ، (وقد تم رفض طلبات الجمعية في السابق)، فماذا كانت النتيجة؟ لقد تلقينا ردًّا، ليس من رئيس الجمعية الأمريكية لعلم النفس، وإنما من "كلينتون آندرسون"- رئيس مكتب شؤون الشواذ والسحاقيات وذوي الميول الجنسية الثنائية، وللأسف، فإن "آندرسون" يمثل مجموعة مختلفة سياسيًّا: مؤيدي الشواذ؛ فهو يعارض بتعنت آراء الجمعية الوطنية لبحوث وعلاج الشذوذ الجنسي حول الشذوذ، كما أنه يرفض بشدة علاج الأطفال في مرحلة ما قبل الشذوذ؛ لقد

كان إرسال خطاب الجمعية الوطنية إلى "آندرسون" كإرسال شكوى عن مخالفة تنفيذ القوانين إلى مجلس المدينة فقط ليتم تحويلها إلى مأمور الشرطة، وبالطبع تم رفض الطلب.

ولو كانت الجمعية الأمريكية لعلم النفس ترغب حقيقة في الانفتاح العلمي، كان يجب عليها توجيه الدعوة لمؤسسات مثل الجمعية الوطنية لأبحاث وعلاج الشذوذ الجنسي؛ فالحرية العلمية تتطلب ضم ذوي الأفكار المختلفة عن معنى العملية الجنسية ومدلولها لدى الناس، ولكن الأبوين اللذين يكافحان بحثًا عن معالج يماثلهما في التوجه الفكري، قد يهمهما معرفة أن باب الجمعية الأمريكية لعلم النفس مازال حتى هذه اللحظة موصدً بشكل كامل أمام أية آراء بديلة.

الطبيعة نفسها عنصرية ضد الشذوذ:

يشجب عدد من المؤلفين- وغالبيتهم من نشطاء الشذوذ الجنسي- علاج اضطراب الهوية الجنسية، ومنهم من يهاجم العلاج على اعتبار أنه "عنصرية ضد الشذوذ"[18]، بالطبع قد يكونون على صواب، ذلك أن الطبيعة نفسها في الأساس تقوم على "العنصرية ضد الشذوذ"- أي أنها تتحيز للتباين الجنسي الذي يعد ضرورة لبقائنا؛ إن التكامل الجنسي هو القاعدة في بيولوجيا الحيوان والإنسان.

لكن لا يبدو أن الجميع يتفهمون ذلك؛ فلقد تلقيت مؤخرًا اتصالاً هاتفيًّا من أحد منتجي برنامج "أوبرا" يطلب مني المشاركة في حلقة عن المراهقين الشواذ، فأخبرت هذا المنتج قائلاً: "إنني لا أؤمن بوجود ما يسمى بـ"المراهقين الشواذ" على الرغم من وجود مراهقين أسوياء جنسيًّا لديهم مشاعر من الشذوذ الجنسي"، ساد على الطرف الآخر صمت المقابر، ثم سأل: "حسنًا، إن لم تكن تعتقد في وجود ما يسمى بالمراهق الشاذ، فهل تعرف أي طبيب نفسي آخر ليحضر برنامجنا؟".

كان من الواضح أن منتج البرنامج لم يكن لديه أية ذرة من الفضول ليعرف أسبابي لعدم الاعتقاد بوجود "المراهقين الشواذ" كفئة مختلفة من الناس؛ إنني أفترض أن كل البشر- وفق طبيعتهم- أسوياء جنسيًّا؛ إلا أن بعض الناس يعانون مشكلات الشذوذ الجنسي، بشكل أدق: إنني أعتبر أن كلمة "شاذ جنسيًّا" ما هي إلا وصف مختصر لشخص سويّ جنسيًّا يعاني مشكلة الشذوذ الجنسي".

أما ما قد يثير المزيد من الارتباك فهو استخدام مصطلح "مبتهج "؛ فعندما ألقي خطبة، فأنا أذكر المستمعين بالفرق بين كلمتي "شاذ" و"مبتهج"؛ فكلمة "مبتهج" هي مصطلح سياسي اجتماعي، ويقدم هوية إيجابية لميول الشخص للجنس نفسه، إن من يطلق على نفسه لفظة "مبتهج" يعتقد أن الميول الشاذة جنسيًّا تمثل حقيقته وجوهر طبيعته؛ أي أن الشخص عندما يطلق على نفسه لفظ "مبتهج" فتلك إحدى الاستجابات المتعددة الممكنة للانجذاب تجاه نفس الجنس، كثير من المراجعين لعيادتي يكون لديهم ميول جنسية شاذة لكنهم ليسوا شواذّ؛ فهم يعملون على تطوير إمكاناتهم الجنسية الطبيعية.

بالمناسبة.. ما الاضطراب النفسي؟

لقد عانى الطب النفسي كثيرًا ليجد تعريفا لمصطلح "الاضطراب العقلي"، وحتى يومنا هذا لم يتم التوصل إلى أي تعريف شامل.[19]

وفي السنوات الأخيرة، اتسعت قائمة الاضطرابات النفسية اتساعًا كبيرًا، وازدادت فيها البلبلة والتفكك، ولم يكن من المفاجئ أن الكثير من جماعات دعم الشذوذ الجنسي قد سعت لتطالب الأطباء النفسيين بتصنيف المزيد من الحالات على أنها اضطرابات [20]؛ فالمتطرفون من مؤيدي الحركات النسائية يصرون على أن التعصب لجنس الرجال ما هو إلا مرض عقلي؛ في حين يرى بعض الأطباء النفسيين السود أن العنصرية اضطراب عقلي؛ بينما يعتقد بعض الأطباء النفسيين الشواذ جنسيًّا أنه ينبغي تصنيف "الخوف من الشذوذ" على أنه اضطراب عقلي!.[21]

إن العلم بإمكانه تقديم الكثير من البيانات التجريبية المفيدة ليساعد الناس على حل مشكلاتهم في الحياة، ومع ذلك، فإنه بالقطع لا يمكنه تقديم إجابات علمية شافية لمثل هذه الموضوعات الأساسية؛ مثل "ما الغرض من ممارسة الجنس؟"، و"هل من الممكن أن يكون الشذوذ الجنسي جزءًا من جوهر هوية الشخص؟"؛ فعلى سبيل المثال: يقر عالما الاجتماع "ستيوارت كيرك" و"هيرب كوتشينز" أن آراءهما في هذا الصدد- كما هو الحال بالنسبة لرأي الجمعية الأمريكية للطب النفسي- ليست آراءً علمية خالصة، ولكنها في الواقع وجهات نظر ذات قيمة، إلا أنهما يشيران إلى أن الشخص العادي قد يسيء فهم الطب النفسي معتبرًا إياه

"ذروة العقلانية".[22]

إن معرفة "ما هو الشيء" لا تخبرنا بما "ينبغي أن يكون عليه الشيء"؛ وهذا هو الخلل الرئيسي في علم النفس، كما يذكرنا الدكتور "جيفري ساتينوفر"؛ أن علم النفس لا معنى له إذا لم يستند إلى إطار من القيم الأخلاقية.[23]

هل يمكن اعتبار الشذوذ خللاً في النمو؟

إن التصنيفات الخاصة بالجمعية الأمريكية لعلم النفس فيما يتعلق بتعريف الاضطراب العقلي هي "الألم" و"الإعاقة"، ونحن نرى بين الشواذ انتشار تعاطي المخدرات؛ حيث ترتفع معدلات الاكتئاب، ومحاولات الانتحار، والإدمان الجنسي؛ والأمراض الفتاكة التي تنتقل من خلال العملية الجنسية، بأي منطق يتم تعريف هذه العوامل السلبية على أنها عوامل صحية؟

في الغالب يقال: إن ارتفاع مستوى المشكلات النفسية في تجمعات الشواذ والسحاقيات هو بسبب اضطهاد المجتمع لهذه الفئة، من الناحية المنطقية، هناك بعض من الحقيقة في هذا الرأي، هل اضطهاد المجتمع هو أصل الحكاية؟ لقد تم إجراء إحدى الدراسات البحثية لقياس ما إذا كان الألم قد يقل في المجتمعات التي يتمتع فيها الشواذ بقدر أعلى من التساهل[24]، حيث قام الباحثون بمقارنة المجتمعات التي ترحب بالشواذ- مثل الموجودة في هولندا والدنمارك- بالمجتمعات التي تظهر العداء تجاه الشذوذ الجنسي، وتوصلت الدراسة إلى أن ارتفاع معدل الألم بين الشواذ موجود في جميع الثقافات، وليس فقط في الثقافات التي ترفض الشذوذ الجنسي.

مشكلة تعريف مصطلح الإعاقة:

دعونا ننظر إلى حالة الشذوذ الجنسي في ضوء مقاييس الجمعية الأمريكية لعلم النفس لتعريف الاضطراب، دون الاعتماد على قاعدة فلسفية لترشدنا، سوف ندرك أننا نكشف عن المزيد من الأسئلة أكثر من توصلنا إلى الإجابات، وفي الواقع، فإن معنى كلمة "الإعاقة" ذاتها قابل للنقاش بشكل لا نهائي.

ويشير المتخصصون في العلاج الإصلاحي إلى انتشار قضية تعدد العلاقات الجنسية في عالم الشذوذ، قائلين: إن هذا دليل على أن الشذوذ الجنسي في

الأساس أمر غير صحي، ويرد واضعو النظريات الشاذين جنسيًّا بإعادة تعريف تعدد العلاقات الجنسية بأنه أمر عادى وصحي للشواذ من الرجال، ويقول الناشط "جابرييل روتيللو"- المحسوب على الجناح المحافظ في مجتمع الشواذ-: "أعتقد أن تعدد العلاقات قد يكون بالنسبة للعديد من الناس أمرًا ذا معنى وينطوي على التحرر والمتعة".[25]

ويلي ذلك إشارة متخصصي العلاج الإصلاحي إلى خصلة الخيانة في علاقات الشذوذ "الملتزمة"، معتبرين أن هذه العلاقات دليل على الإعاقة العاطفية، وردًّا على ذلك، يقوم العلماء الشواذ جنسيًّا بإعادة تعريف معنى "الالتزام"؛ على سبيل المثال: درس اثنان من الأطباء الشواذ 156 علاقة شذوذ طويلة المدى، وتوصلا إلى أنه ليس هناك زوج من الشواذ استطاعا الحفاظ على الإخلاص الجنسي لبعضهما لمدة تزيد على خمس سنوات؛ لذا قام الباحثان بإعادة تعريف الالتزام الجنسي بشريك واحد على أنه أمر سلبي، قائلين: إنه ينطوي على تملك جنسي.[26]

مشكلة أخرى :هل نسمي فوضى الهوية الجنسية اضطرابا ؟

إننا نعتقد أن علاج الطفل الذي يعاني الاضطراب الجنسي هو أمر مبرر لعدة أسباب، والقائمة المفيدة التالية هي إعادة صياغة الآراء التي تبناها الطبيبان "تسوكر" و"برادلي" في كتاب "اضطراب الهوية الجنسية والمشاكل النفسية الجنسية لدى المراهقين والأطفال":

1. يسبب اضطراب الهوية الجنسية ألمًا لدى الطفل؛ وهو عدم القدرة على التكيف مع العالم الذي يتسم بوضوح المعالم الجنسية، حيث يعاني الطفل عادة من نبذ الأقران والكآبة وارتفاع معدل القلق الاجتماعي؛ نظرًا للمعاناة من التعامل مع عالم يتوقع سلوكيات تتوافق مع هوية الفرد الطبيعية.

2. يشير اضطراب الهوية الجنسية إلى سوء التكيف بشكل أكثر عمقًا؛ فبدلاً من أن يكون الوضع طبيعيًّا وحقيقيًّا، يحتمل تحوله إلى أعراض لمشكلة نفسية داخلية.

3. إن اضطراب الهوية الجنسية مؤشر قوي على الشذوذ الجنسي والتشبه بالجنس الآخر في الملبس والتحول الجنسي فيما بعد، وهي حالات يرغب الكثير من الآباء في تجنيب أطفالهم التعرض إليها.

وعلى الرغم من أن "تسوكر" قد قام بتعديل وجهات نظره مؤخرًا ليقر باحتمال وجود مشكلة تحول عصبي كامنة لدى بعض الأطفال، فإنه لا يزال مقتنعًا بأن علاج اضطراب الهوية الجنسية قد يكون فعالاً.

وكما ذكرنا من قبل، فإن مهنة الطب النفسي قد أحدثت تناقضًا داخليًا عند تصنيف اضطراب الهوية الجنسية على أنه مرض نفسي، بينما صنف نتاج هذه الحالة عند البالغين (الشذوذ الجنسي) على أنه أمر طبيعي. وعليه، لم يكن من المفاجئ أن يقول نشطاء الشذوذ الجنسي: "لماذا ينبغي أن يتلقى الطفل في مرحلة ما قبل الشذوذ تشخيصًا نفسيًّا وعلاجًا لحالة الشذوذ الجنسي، في حين يتم اعتبار الشخص البالغ الشاذ جنسيًّا شخصًا عاديًّا؟".

ويمكننا طرح السؤال بالصياغة التالية: "كيف يمكن لاضطراب أن يتم تشخيصه كمرض في مرحلة الطفولة، ثم يعتبر حالة طبيعية في مرحلة البلوغ؟".

ومن الواضح أن التفكير المتناقض هاهنا يذكرنا بأن مهنة الطب النفسي لا تزال عاجزة عن وضع تعريف ملائم لمصطلح الاضطراب؛ في حين يعمل نشطاء الشذوذ الجنسي خلف الكواليس مستغلين هذا الارتباك، لإزالة تشخيص اضطراب الهوية الجنسية، ولن يكون أمرًا مفاجئًا إذا ما نجحوا في ذلك في نهاية الأمر.

ارتباك الهوية في قلب قضية الشذوذ:

إن سبيلنا إلى النضج هو إما الذكورية أو الأنثوية؛ وهذا- في رأينا- هو أحد الأسباب وراء رؤيتنا لكثير من السلوك غير الناضج في مجتمع الشواذ، فبالنسبة للشواذ من الرجال: نرى اندفاعًا جنسيًّا، وأنانية نرجسية، وولعًا بالمظهر وارتفاع معدل تعاطي المخدرات والكحوليات، أما في حالة النساء: فنرى حالة من الاعتماد العاطفي المرضي، وعلاقات من نوع "لا أستطيع الحياة بدونك"، بالإضافة إلى معدل مرتفع مشابه من الاكتئاب وتعاطي المخدرات، وحال عدم توافر شعور من الاطمئنان الجنسي، يصبح الأمر أكثر صعوبةً عند تخطي عقبات مرحلة المراهقة والاستقرار في مرحلة النضج.

وإذا ما ساورت الشكوكُ أيَّ شخص بأن تشوُّهَ الهوية الجنسية ليس بجوهر قضية الشذوذ الجنسي، فإن إلقاء نظرة على كتابات منظّري الشذوذ سوف تضعه على الطريق القويم؛ "أوقفوا العمل بنظام الهوية الجنسية!": هذه إحدى صيحات

الحشود الأساسية لنشطاء الشذوذ الجنسي، وأحد أمثلة هؤلاء: الطبيب النفسي "داريل بيم" الذي يُعرِّف فكرة المدينة الفاضلة على أنها: المكان الذي يصبح فيه كل شخص حبيبًا لشخص آخر، في حين يصبح النوع غير ذي أهمية؛ كما يطرح تصورًا "لثقافة لا تقوم على الاستقطاب و هيمنة هوية جنسية معينة , ثقافة لا تفرض إقصاء للأطفال عن الجنس الآخر، أو عن أقرانهم من الجنس نفسه، ولن يكبر الأطفال لتنعدم لديهم الرغبة في الجنس؛ بل على العكس، سوف تتبلور خياراتهم الجنسية والرومانسية حول المزيد من التشكيل المتنوع في الصفات، قد يبقى الرجال على ولعهم بالشقراوات، إلا أن بعض هؤلاء الرجال (وبعضًا من السيدات) سيفضلون الشقر من أي من الجنسين".[27]

وبدلاً من الولوج إلى ما يسمى بالعالم "المثالي" حيث لا تشكل الهوية الجنسية أية أهمية، يجب على الطفل الذي يعاني الارتباك الجنسي أن يدخل واقعيًّا إلى العالم الحقيقي، حيث تمثل الفروق الجنسية حقيقةً بيولوجيةً في الحياة، فالطفل إن لم يتفهم الهوية الجنسية، فسوف يشعر أنه يلاقي سوء فهم من الآخرين، وبدوره لن يفهم العالم، وهناك في الحقيقة أدلة على أن الأطفال الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية يواجهون صعوبةً في إدراك التصنيفات الأساسية كذكور أو إناث.[28]

معاناة الصبي المتأنث حتى داخل عالم الشذوذ:

من المستحيل المبالغة في توضيح الأثر الاجتماعي السلبي لتشبه الصبي بالإناث؛ حيث تسبب هذه الحالة توترًا وحزنًا ووحدةً ورفضًا متعنتًا من الأقران، فالمراهقون الشواذ الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية أو المراهقون المتأنثون، يزداد عندهم احتمال محاولة الانتحار بشكل يفوق المراهقين الشواذ الآخرين (انظر الفصل السادس).

ويعتقد الكثير من خبراء الصحة العقلية أن مجتمعنا يدعم نظامًا من القوالب النمطية الجنسية العشوائية التي لا طائل منها؛ حيث يرون أن مهمتهم كمعالجين نفسيين هي تغيير المجتمع حتى يتقبل السلوك الجنسي المتعارض مع الطبيعة والشذوذ الجنسي، لكن هل يجري الاعتقاد في عالم الشواذ بأن الهوية الجنسية أمرٌ هامشي؟

في العادة يستخف الشواذ "بضيق أفق" الرجال الأسوياء جنسيًّا فيما يتعلق

بمعنى الذكورة، إلا أنه على الرغم من كل الخطب الرنانة التي يتغنون فيها بالتخلص من الأنماط الجنسية الجامدة، فإن الذكورة تظل النموذج المثالي لدى الشخص الشاذ جنسيًّا، وقد لاحظ الكثير من الباحثين- وبعضهم من الشواذ- هذه الظاهرة؛ ويشير أحد هؤلاء المراقبين إلى أن الذكورة هي "السمة الوحيدة الأكثر جاذبية" بين الشواذ من الرجال، كما يقول هذا الباحث: إن المتأنثين من الرجال "ينالون مرتبة دنيا، مقارنة بالشواذ من الرجال ذوي المظهر الذكوري".[29]

وفيما يلي ما لاحظه أحد علماء الاجتماع الذي درس المجتمعات الذكورية الشاذة جنسيًّا:

في عالم الشواذ: تعد الذكورة سلعة نفيسة، وأحد الأصول التجارية في البورصة الجنسية، وإذا كان هناك إجماع على أي موضوع معين في عالم الشواذ، فلا بد أن يكون على أفضلية الذكورة على الأنوثة، ويجري العرف في عالم الشواذ بأن الرجل يجب أن يكون ذكرًا، ينبغي على الفرد أن "يكون رجلاً" وليس متأنثًا، وعبارات مثل "أشباه الإناث هؤلاء يصيبونني بالاشمئزاز"، تتردد كثيرًا!

إن هذه الأفضلية للذكورة لا تتضمن الجاذبية الجنسية فحسب؛ ففي مجموعات الأصدقاء وجمعيات الشواذ التي قمت بدراستها تمييز طبقي، يرتبط بشكل كبير بقضية الذكورة والأنوثة، بوضع الذكور في قمة مراتب التدرج.[30]

وفي دراسة ضخمة عن الشذوذ الجنسي- والتي تعد مرجعًا بإجماع مؤيدي الشذوذ- قال الباحثان "بيل" و"فينبيرج" عن الشواذ من الرجال: "لقد كان جل اهتمام الكثير من المشاركين في الدراسة فيما يخص الشريك الجنسي المحتمل، هو درجة مطابقة هذا الشريك للصورة النمطية "للذكر".[31]

الجانب السياسي في برامج استشارات الشذوذ في المدارس:

إن أكثر برامج الإرشاد المدرسي لدعم الشواذ- مثل "مشروع 10" و"مشروع قوس قزح"- تفترض أنه إذا كان لدى الطفل مشاعر شذوذ جنسي، فإنه بالتالي شاذ لا محالة.

لنفرض أنك اكتشفت أن ابنك يشعر بالانجذاب نحو الذكور، وفي حالة من

الارتباك ذهب ليستعين بمستشار مشروع قوس قزح في المدرسة، وهذا المستشار- طبقًا للإرشادات العامة في برنامج "قوس قزح" لا بد أن يكون شاذًّا- حينها يقول هذا المستشار لابنك: "لا شك أنني أتفهم ما تمر به، لقد شعرت بذلك من قبل أيضًا عندما كنت في مثل عمرك، إن هذه المشاعر مفادها أنك شاذ جنسيًّا مثلي؛ بالمناسبة.. ليس عليك إخبار والديك، فإنهما لن يتفهما الأمر؛ لأنهما أسوياء جنسيًّا، كما أن هناك فجوة بين الأجيال، ومن المحتمل أن تكون لدى والديك قيم عفا عليها الزمن"!.

إن الكثير من الآباء ليسوا على دراية بهذا الأمر، فطبقًا لقوانين معظم الولايات، يمكن تقديم هذا النصح المسبب للخلاف والموجه للشذوذ دون الحاجة لإذن من الأبوين، فقد أصبح هذا الصبي الآن "واحدًا منهم" بسبب مشاعره وانجذابه، وما ينتج عن ذلك في الحال هو شرخ عميق في الأسرة؛ "نحن ضدهم"، أي: أن الطفل المرتبك ومستشار مشروع "قوس قزح" "في هذه الكفة"؛ وأم الطفل وأبوه والمجتمع والدّين والقيم الأسرية التقليدية "في الكفة الأخرى".

لقد أعدت الجمعية الوطنية للتربية والتعليم الاحتفال السنوي لتاريخ الشواذ والسحاقيات الذي يعقد لمدة شهر واحد، ليكون إحدى السبل لتقديم الشذوذ الجنسي إلى أطفالك على أنه أمر طبيعي وصحي، لقد عانى بعض العظماء عبر التاريخ لا شك من الشذوذ الجنسي، إلا أنهم لم يعلنوا بالضرورة أنهم "شواذ، ولم يفتخروا بذلك" (حتى ولو كان مصطلح شاذ موجودًا في عصرهم)، كما أن الكثير بلا شك قد رأوا أن رغباتهم المنحرفة كانت بلوى يجب عليهم أن يتخطوها، إلا أن الجمعية الوطنية للتربية والتعليم قد قررت تقديم هؤلاء الأشخاص بوصفهم مصادر للإلهام للأطفال المضطربين جنسيًّا.

وتؤكد المقررات الدراسية المتعلقة بتطور مرحلة المراهقة أن تجربة قدر معين من الشذوذ الجنسي هو أمر شائع، وأن غالبية المراهقين الذين مروا بهذه التجربة قد تخطوها في النهاية متجهين نحو الميول الجنسية الطبيعية، إلا أن الضرر الفعلي يقع حينما يتم تشجيع الصبية على أن يصنفوا مرحلة المراهقة على أنها مرحلة للشذوذ؛ حيث يجدون أن هناك شبكة كاملة تدفعهم للانغماس في هوية اجتماعية سياسية جديدة تمامًا، قبل عدة سنوات، لم يكن مصطلح "شاذ" يأتي مع بطاقة عضوية جاهزة.

"جو دالاس" هو معالج هاجم هذه البرامج التعليمية بضراوة، لقد عاش "دالاس" عدة سنوات شاذًّا، ومر بالتجربة المدمرة التي تقحم أي مراهق مضطرب جنسيًّا في نمط حياة لا يمكن لصبي في مثل هذا العمر إدراك ما أبعاده بشكل كامل، إنه يقول: "إن الاضطراب فيما يتعلق بالهوية الجنسية خلال مرحلة المراهقة أمر شائع حتى في أفضل الظروف، ولا يجب استغلال المراهقين بمقترحات متسرعة فيما يتعلق بطبيعة هويتهم الجنسية".[32]

ويستشهد "دالاس" باستبيان هيئة صحة المراهقين بـ"مينيسوتا" عام 1992، الذي تم إجراؤه على 34706 طلاب وطالبات، ووجد أن 25.9% من الأطفال في الثانية عشرة من العمر غير متأكدين من هويتهم الجنسية، سواء كانوا أسوياء أو شواذ، وفي ذلك دلالة على قابلية التأثر والاضطراب الشائعين في السنوات الأولى من مرحلة المراهقة؛ لذا، يقول "دالاس": "إذا ما تم تشجيع الأطفال خلال سنوات الاضطراب تلك على التجربة الجنسية، وإذا ما تم تعليمهم أن كل أشكال التعبير الجنسي مباحة من الناحية العملية، فإنه عندما يتم إلقاء هذه العبارة على مسامع الآباء: "لا تقلقوا، نحن لا نستغل الصغار؛ إذا لم يكن صغيركم شاذًّا، فإن هذه البرامج لن تجعل منه شاذًّا"، فهل من المتوقع أن يتقبلوها؟".[33]

والمفارقة هنا هي أن مشاعر المراهقين الجنسية تصبح أكثر حدةً عندما تصير هويتهم الشخصية أكثر هشاشةً وتذبذبًا، فقد يكون تصنيف الشخص لنفسه على أنه "شاذ" في مرحلة ما قبل النضج أمرًا مدمرًا في هذه المرحلة العمرية؛ لأن المراهقين ليسوا على استعداد لاتخاذ قرارات تنطوي على عواقب خطيرة ومهلكة في أسلوب الحياة.

الحقيقة بشأن "كينزي":

اتخذ البرنامج المدرسي "مشروع 10" اسمه هذا من الادعاء بأن نسبة 10% من السكان شواذ جنسيًّا، واتضح أن هذه النسبة التي تم طرحها في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي غير صحيحة؛ فقد أثبتت عدة دراسات أجريت مؤخرًا أن نسبة الشواذ بالنسبة لتعداد السكان هي 2% فقط. (إلا أنه مع ما يقدمه المستشارون المدرسيون الذين يتعاملون مع المراهقين ذوي الاضطرابات الجنسية، من دعم لنمط حياة الشواذ، فإن هذه النسبة سوف تزداد لا شك في

المستقبل)، مازالت نسبة الـ10% القديمة توفر قيمة عالية في الدفاع عن أن الشذوذ الجنسي يعد أمرًا طبيعيًّا، "لقد استخدمنا هذه النسبة عندما كان السواد الأعظم من الشواذ متخفين"؛ هكذا يدعي "توم ستودارد"- أحد الرؤساء السابقين "لصندوق لامدا للدفاع القانوني"، الذي يعترف صراحةً بقوله: "لقد كان ذلك لنخلق شعورًا بكثرة عددنا".[34]

وتفيد إعادة تقييم أعمال "كنزي" (وأكثر هذه التقييمات شهرةً ما قدمته د. "جوديث ريسمان" في كتابها "كينزي الجنس والاحتيال" بأن "ألفريد كنزي" الذي بادر بوضع نسبة الـ10%، كان قد خطط لتضخيم هذه النسبة حتى يدفع المجتمع نحو الانفتاح الجنسي، ومنذ عهد "كنزي"، كشفت دراسات أخرى عن أن النسبة الفعلية للشواذ أقل من هذا الرقم بكثير.

بعد تقييم إحدى عشرة دراسة بحثية من الدراسات الشاملة حول تفشي الظاهرة عام 2000، توصل عالِمَا النفس "ستانتون جونز" و"مارك يارهاوس"، إلى أن "نسبة الرجال الذين يبدون التزامًا شخصيًّا مؤكدًا بممارسة الشذوذ الجنسي تقل بكل تأكيد عن نسبة 3%".[35]

هل الأشخاص ذوو الميول الشاذة أكثرية؟

لقد كان العنصر الرئيسي الدافع لتطبيع الشذوذ الجنسي هو الشعار السياسي الذي مفاده أن "الشذوذ" يشير إلى فئة من الناس، تمامًا كما يشار إلى سلالة أو عرق، في السابق: جرى الاعتقاد بأن الشذوذ الجنسي هو حالة أو دورة نفسية، لكن منذ أن تم اعتبار الشواذ "فئة من الناس"، فقد أصبح الحديث مباحًا عن "الاستثناء" و"التمييز" والحاجة إلى العمل والحصول على نصيب من الإسكان.

إذن، هل يجب علينا- بالمنطق نفسه- أن نعتبر مؤيدي الحركة النسائية والاتحاد الأمريكي للحريات المدنية "جماعة"؟ ماذا عن الكاثوليك الرومان والمعمدانيين الجنوبيين؟ هل مجرد الاعتراف بمجموعة سكانية معينة يعتبر أساسًا لاعتبارها بشكل رسمي "جماعة" لها حقوقها القانونية ونصيب في الموارد وامتيازات أخرى؟

وعندما قالت الطبيبة النفسية الدكتورة "لورا سكليسينجر": إن جين الشذوذ الجنسي- إذا كان موجودًا- يجب اعتباره "خطأً بيولوجيًّا"، أحكم منتقدوها قبضتهم

على هذه العبارة في الحال، قائلين: "إن الدكتورة "لورا" تصفنا بأننا أخطاء بيولوجية!"، لقد أوحى هؤلاء النشطاء الذين يدعون أنهم "جماعة" أن الدكتورة "لورا" تشكك في حقهم في الوجود.

لنعد لمدرسة الحي.. لاحظت تغير المفردات!

بينما ترفع برامج تليفزيونية مثل أوبرا شعارات سياسية لـ"تأييد الشذوذ"، هيا ننْزل إلى المدارس لنرى ما يدور من نشاط سياسي.

في الوقت الحالي، يعمل نشطاء الشذوذ الجنسي على دعم مناهج برامج "قوس قزح" و"المدارس الآمنة"، من باب التسامح والتنوع، بينما تقدم دروس الصحة الشذوذ في مصطلحات محايدة، ويتعلم الأطفال كل أشكال ممارسة الجنس كما لو كانت جميعها بدائل طبيعية وصحية، ويتم طرح الشق الأكبر من هذا التوجه كضرورة لتجنب الكراهية والعنف.

إن إضفاء رؤية ضبابية على الواقع والمأمول من خلال الإحلال التدريجي للمصطلحات القديمة ذات المغزى الأخلاقي، فكلمات مثل: "الانحراف"، و"التحرش بالأطفال"، و"تعدد العلاقات الجنسية"، و"الزنا": إما أنها قد زالت أو في طريقها إلى الحذف بشكل سريع من الكتب الدراسية في العلوم الاجتماعية، وبدلاً منها، يسمع الطلاب مصطلحات جديدة مصححة؛ مثل ما يلي لوصف علاقات اللواط بالأطفال: "الجنس بين الطفل والشخص البالغ"، و"العلاقات الجنسية بين الفئات العمرية المتفاوتة"، و"الجنس عبر الأجيال"، وبدلاً من مصطلح "تعدد العلاقات الجنسية" صرنا نسمع مصطلحات مثل: "العلاقات الجنسية فوق الثنائية"، و"التعرض المتكرر للجنس"، و"العلاقات المفتوحة"، كما لو أن مصطلحًا مثل "التعرض للجنس"، قد يعبر بأي شكل من الأشكال عن علاقة حقيقية حميمية!

وما إن نَرَ تحولاً تجاه المصطلحات المحايدة، ندركْ أن فلسفة "الواقع يساوي المأمول" يتم الترويج لها مع هذه الكلمات، وبعد أن يتم تنقيح هذه الفكرة بشأن "الواقع" و"المأمول" ليناسب الثقافة العامة، يمكننا أن نطلق على ذلك "فلسفة برنامج أوبرا"؛ فهناك مجموعة من الأشخاص الذين يروون قصصهم، بينما تدير "أوبرا" الحوار بكل بساطة قائلةً: "حسنًا، ها هم"؛ إن فلسفة "أيًّا كان الوضع، فيجب أن يبقى كما هو" قد آتت ثمارها عندما توجه نشطاء الشذوذ بندائهم إلى

الجمعية الأمريكية للطب النفسي عام 1973، وما زالت فعالة حتى يومنا هذا على شاشات التلفاز في وضح النهار.

إليكم نموذجًا لكتابٍ دراسيٍّ كمثال "الفلسفة برنامج أوبرا": لقد قام اتحاد فرق عمل الشواذ والسحاق برعاية مؤتمر لطلاب الجامعات تحت اسم "إحداث التغيير" ويصفونه في نشرتهم كما يلي: "إن الجنس العام هو أمر واقعي في الحرم الجامعي، وسوف نطرح توجهًا جنسيًّا إيجابيًّا لتسهيل الحلول العملية دون إصدار أحكام سابقة"[36]، وقد برر الاتحاد ذلك قائلاً: "هذه الظاهرة المحددة موجودة، وهذا هو كل ما علينا أن نعلمه، ليس هناك أي متطلبات لتقييمها أو فهمها"، وعوضًا عن ذلك يبحث الاتحاد بكل بساطة عن سبل للاستجابة "دون إصدار أحكام سابقة" (أي بشكل مباح)؛ لوجود الجنس العام في المجتمع الجامعي، ويسمون ذلك توجهًا "جنسيًّا إيجابيًّا".

وترشدنا هذه الفلسفة "الجنسية الإيجابية" ذاتها إلى الكثير من الاستشاريين المرخص لهم بالعمل في مجال العلاج النفسي، وفي مهنة الطب، يؤيد بعض الأطباء الشواذ الجنسَ العام والعلاقات المفتوحة والجنس الجماعي بشكل فعلي كاستراتيجيات مفيدة للتخلص من الملل الجنسي؛ أحد المقالات المؤيدة لهذا التوجه ظهر في دورية العلاج النفسي واسعة الانتشار "شبكة العلاج الأسري"؛ حيث أوضح المؤلف أنه لا يتذرع بأية "ذرائع أخلاقية" لممارسة الجنس، وأنه بدلاً من ذلك يبحث عما "يفيد" في استمرار الشواذ من الرجال في علاقاتهم.[37]

وما الذي يتعامل معه شبابنا أيضًا؟ إن مؤسسة "أزمة الرجال الشواذ الصحية" هي مؤسسةٌ للجنس الآمن تقوم بنشر منشورات لفائدة الشواذ، خاصةً المراهقين والشباب منهم، وإذا كان الأمر مفاجئًا بأننا عندما طالبناهم بتصريح لإعادة نشر رسوم من إصداراتهم الرسومية لتعليم الجنس، قابلوا طلبنا برفضٍ قاطع.

في الواقع، كانت رسومات المنشور شديدة الانحراف حتى إنها لم تكن تصلح لإعادة النشر فعلاً، حيث يصف المنشور السبل "الآمنة" للتعامل مع الممارسات الجنسية الشاذة وغير الطبيعية وغير الصحية.

لأن القيم التي تحملها مختلفة :

إذن بوصفك والدًا، تقوم بخطوات قد تنجح في تأسيس ميول جنسية سوية لدى

طفلك، فإنه يجب عليك ملاحظة أن هناك أقلية صاخبة عالية الصوت تسعى مصرةً على أن التوجه الجنسي للطفل أمر لا شأن لك به، إلا أن هذه الأقلية لا تتحدث نيابة عنك.

في الفصل التالي من هذا الكتاب، سوف نلقي نظرةً على بعض نسخ لجلسات مع آباء لأطفالٍ مرتبكين جنسيًّا، بالإضافة إلى جلسة مع صبي مراهق يعاني ظهور أعراض انجذاب نحو الشذوذ الجنسي، كما أننا سوف نشجعك، أيها الوالد الذي يرفض القبول بفكرة أن أي الخيارات حول الهوية الجنسية أو الميول الجنسية متساوية ولا فرق بين

9
عملية العلاج

«أيها الآباء احتضنوا أبناءكم
إذا لم تفعلوا، سيقوم رجلٌ آخر بذلك يومًا ما».

الدكتور إيه. دين بيرد
عالم نفس

"إذا كان هناك شيء واحد قد تعلمته من كوني أبًا، فهو أن كل طفل مختلف عن غيره"؛ هكذا قال أحد عملائي وسأطلق عليه اسم "جوردون"، دخل مكتبي وألقى بنفسه على المقعد، ومسحةٌ من الاستسلام الحزين تعلو وجهه.

كان "جوردون"- المحلل المالي الناجح- والدًا لأربعة أبناء، يقول: "عندما تزوجت "جلوريا"، كنا نتشوق لتكوين أسرة، لم تكن علاقتي وطيدة بوالدي؛ لذلك أردت بالفعل أن أستشعر هذا القرب".

رُزق الزوجان بثلاثة صبية في تتالٍ سريع، كانوا جميعهم معجبين بوالدهم أيما إعجاب، ثم أتى "جيمي".

التفتت "جلوريا" التي كانت تجلس على المقعد الهزاز بجوار زوجها نحوي وطالعتني بعينين يملؤهما الحزن والقلق، وقالت بصوت منخفض: "عندما كنت حاملاً في "جيمي"، كنت أريد بنتًا بشدة، كنا نعرف أن "جيمي" سيكون طفلنا الأخير، وعند ولادته، أصبت بخيبة أمل وانفجرت في نوبة بكاء حادة.

لعل "جيمي" ووالدته قد عملا معًا دون وعي للتغلب على خيبة الأمل تلك؛ لأنه- وهو في سن الثامنة- كان "جيمي" هو الصديق الأقرب لوالدته؛ "جيمي" الصبي الحنون الرقيق الذي أظهر مهارة في العزف على البيانو، كان يملك لباقة فطرية ويحسن قراءة أفكار ومشاعر الآخرين، وفي هذه السن المبكرة، كانت الحالات

المزاجية لوالدته بمثابة كتابٍ مفتوح أمامه، إلا أنه لم يكن له صديق ذكر في نفس عمره.

في الواقع، كانت تظهر عليه علامات مرحلة ما قبل الشذوذ الجنسي، ومؤخرًا أبدت "جلوريا" اهتمامًا بتزايد عزلة الصبي الاجتماعية وإحباطه، في حين كان بقية أولادهم- على النقيض- تبدو عليهم السعادة والتكيف التام.

ظهر ارتباك الهوية الجنسية عند "جيمي" بشكل واضح قبل سنوات، عندما بدأ بارتداء أقراط جدته واستخدام أدوات التجميل الخاصة بها، أسرت مشابك الشعر الذهبية والفضية الخاصة بـ"جلوريا" لب الفتى الصغير، وسرعان ما نمى لديه ذوق خاص به بما يحب وما لا يحب من الأزياء النسائية- كل ذلك قبل أن يلتحق بالمدرسة عندما كان في الرابعة من عمره .

قال "جوردون": "لقد عاملت "جيمي" مثل بقية أولادي، وأظن أن هذا لم يفلح؛ لأنه كان دائمًا ما يفسر نقدي له بطريقة خاطئة؛ كان أحيانًا عندما يغضب يذهب إلى غرفته ويرفض التحدث إليّ لمدة يومين".

والآن بعد أن كبر، ظهرت عليه الكثير من الأعراض المثيرة للمتاعب- مثل قلة النضج، والخيال المفرط الذي اعتاده بديلاً عن العلاقات الإنسانية، ورفضه بازدراء لإخوته الرياضيين الأكبر سنًّا وكل من يصطحبونهم من أصدقائهم إلى المنزل، ويتذكر "جوردون" أن أبناءه الباقين كانوا دائمًا ما يسارعون إلى لقائه عندما يصل إلى المنزل عائدًا من العمل، ما عدا "جيمي" الذي كان يتصرف كما لو أن والده ليس له أي قدر من الأهمية.

والآن أصبح عالم "جيمي" الخيالي أكثر ما يقلق الجميع، كانت له حياته التخيلية الخاصة به والتي يقضي فيها ساعات طويلة وحيدًا في غرفته يرسم شخصيات كارتونية، كما لاحظت "جلوريا" نمطًا مزعجًا آخر؛ أنه عندما كان "جيمي" يصاب بالإحباط نتيجةً لحدث مؤلم في حياته، كان ينسحب إلى عالم من الخيال النسائي، وعندما كان أحد أصدقاء إخوته يزور المنزل ويقوم بمضايقته والاستخفاف به، كانت ردة فعله اللجوء إلى شكل مبالغ فيه من السلوك الأنثوي.

وفي الختام، اتفق "جوردون" و"جلوريا" على القيام بفعل أي شيء لمساعدة ابنهما، وعقدا العزم على قرارهما هذا بشدة، حتى إنه بعد الشهر الأول من التدخل

الأسري، بدأ "توني"- وهو أحد الأولاد الآخرين- يشكو من أنه يشعر بالتجاهل، وكان مفاد ذلك بالنسبة لي أن الوالدين يبذلان المزيد من الجهد في التقيد بتوجيهاتي؛ لذلك وفي هذه المرحلة اقترحت على "جلوريا" و"جوردون" أن يشرحا لـ"توني" أن "الأسرة بأكملها مطالبة بالعمل معًا من أجل مساعدة "جيمي" الذي نسي أن يصبح ولدًا، وعلى الرغم من هذه البداية الصعبة، فإن "توني" بدأ يتعاون في مساعدة أخيه.

كان "جوردون" يدرك أن ابنه الأصغر قد ابتعد عنه لفترة زمنية طويلة، يقول: "عندما كان "جيمي" صغيرًا، مررت بفترة عصيبة، الخلافات الزوجية بلغت ذروتها وكنت أعاني متاعب جمة في العمل، أظن أنني وقتها لم أكن أرغب في الشعور بمزيد من الضيق في محاولة التواصل مع صبي صغير متقلب المزاج لا يلبث أن يتجهم وينسحب إلى غرفته في كل مرة أقول له كلمة يأخذها على محمل الانتقاد".

أما باقي الصبية فقد كانوا على النقيض متحفزين على الدوام للعب مع والدهم ولفت انتباهه؛ يقر "جوردون" قائلاً: "لذا، فإنني كنت أدع "جيمي" يختار ألا يكون معي، عليّ أن أعترف بأن طريقة تفكيري قد كانت: إن لم يكن "جيمي" يرغب في أن يكون برفقتي، فتلك مشكلته".

ثم شرحت له قائلاً: إن استراتيجيتنا ترتكز على أن تفعل خلاف ما كنت تقوم به، أي أنك- يا "جوردون"- تحتاج إلى الترابط مع "جيمي" بشكل فعال، أما أنت يا "جلوريا" فأنت بحاجة لأن تتعلمي كيف تبتعدين عنه، وعلى الأسرة جميعها أن تعمل معًا لتذكير "جيمي" بأن كونه صبيًّا هو أمر جيد".

أما استراتيجيتى بالنسبة لـ"جيمي" فقد تضمنت تشجيع والده على أن يوليه اهتمامًا بالغًا، ويصطحبه في جولات قصيرة، ويشركه في ألعاب بدنية تقوم على التواصل مع نفس جنسه، أحاول أن أجعل الآباء أكثر حساسية للفرص الكثيرة البسيطة؛ كالذهاب لتزويد السيارة بالوقود، والسماح للابن بتعبئة الوقود، كل هذه المهمات البسيطة تساعد في بناء الرابط الذكوري الذي يمثل أساسًا لعلاقة متينة بين الأب والابن.

أحيانًا كان جوردن يدعو ابنه لمرافقته لحديقة المنزل الخلفية ليساعده في القيام ببعض الأعمال أو ليبدأ حفل الشواء، لقد جعل "جوردون" شغله الشاغل التواجد بالمنزل أثناء تلقي "جيمي" دروس البيانو الأسبوعية، والذهاب إلى كل

حفلات الصبية الموسيقية، وفي أوقات أخرى كان يصطحب الصبي للمناسبات الرياضية مع إخوته الأكبر سنًّا، على أمل أن يخرج "جيمي" من عزلته واحتقاره لإخوته.

في بادئ الأمر، كان "جيمي" يرفض دعوات والده؛ فعلى سبيل المثال: عندما دعاه ذات مرة ليذهب معه إلى العمل، رفض "جيمي" الدعوة رفضًا قاطعًا دون إبداء الأسباب، ولكن بعد أن تطورت علاقته مع والده وأصبحت أكثر عفوية وراحة بدأ "جيمي" يتصرف كصبي طبيعي، وبدأ ينحسر الاستهزاء والاستخفاف الذي كان يتعرض له في المدرسة.

بتشجيع مني، قرر والدا "جيمي" أن يرسلاه إلى معسكر ليوم واحد يشجع على المشاركة في الرياضة (دون وجود فكرة التنافس)؛ حيث كان عدد الصبية الموجودين يفوق عدد البنات، أما "جلوريا"- "والدة جيمي"- فقد بذلت أقصى ما بوسعها لتلتمس مساعدة مشرف المعسكر، وهو شاب جامعي كان يسعى ليقدم لـ"جيمي" الانتباه الذكوري المميز الذي يحتاج إليه.

يجب أن يدرك الصبية المماثلون لـ"جيمي" أن آباءهم يقدمون لهم الدعم والتشجيع ويرفعون من معنوياتهم، ولا يصدرون أحكامًا سابقة أو انتقادات لهم؛ على سبيل المثال: عندما كان "جيمي" في سن الثامنة، اصطحب دمية دب باندا إلى المدرسة، وقامت "جلوريا" بزيارة فناء المدرسة في وقت الغداء، ورأت ابنها يلعب وحيدًا بالدمية متظاهرًا التحدث إليها، وفي اليوم التالي: تحدث "جوردون" إلى ابنه بطلب من "جلوريا" وقال: "يا "جيمي"، إن الصبية في مثل عمرك لا يصطحبون الدمى الخاصة بهم إلى المدرسة، لكنني أحضرت لك شيئًا آخر لتأخذه معك بدلاً من الدمية"، وأعطى لـ"جيمي" لعبة "جيم بوي" جديدة، وأخذها الفتى بصحبته في اليوم التالي، وكان ما أثار دهشته أن زملاءه في الفصل قد أحاطوه ورجوه أن يمنحهم الفرصة للعب بها، وبالطبع شاركهم "جيمي" اللعب؛ لأن اللعبة كانت تخصه.

ونتيجةً للتدخل المناسب من جانب الأبوين، أظهر "جيمي" تراجعًا تدريجيًّا عن السلوك غير المناسب والمخالف لهويته الجنسية، ولم يشمل ذلك التأنث فحسب، بل أيضًا عزلته عن أقرانه وخوفه ومقته للصبية الأكثر ذكورة.

أخبرني "جوردون" قائلاً: "عندما يتجاهلني "جيمي" ويتصرف كأني غير مهم،

عليّ أن أقر أن ذلك بمثابة الصفعة لكبريائي، ويدفعني ذلك إلى الابتعاد؛ لأن مسايرة الأوضاع وتقبل الأمور كما هي تبدو دائمًا أكثر سهولة، ولكنني في الوقت ذاته أتذكر أن موقف "جيمي" مني كان دفاعيًّا، فتحت كل هذا الرفض والازدراء، توجد لديه رغبة فعلية في التواصل معي؛ لذلك فإنني أنحي مشاعري جانبًا وأواصل ملاحقته لقد أخطأت خطأً فادحًا في حق "جيمي" عندما كان أصغر سنًّا، أنا لن أدع ابني يصدني عنه.

تحدي إثبات الرجولة:

كما رأينا، فإن ارتباك الهوية الجنسية في مرحلة الصبا إنما هو انسحاب من تحديات الذكورة، وتوضح الكثير من الدراسات أن ارتباك الهوية الجنسية يرتبط أيضًا بمشكلات أخرى- كما في حالة "جيمي"- كرفض الصبي لوالده، وعزلته عن المجتمع، والانغماس في عالم خيالي بحثًا عن التعويض، ويساعد العلاج الناجع الصبي على أن يجد طريقه في عالمٍ ينقسم بشكل طبيعي إلى ذكور وإناث، ومع تفاني أكثر البالغين أهميةً في حياته- والده ووالدته- في مساعدته، يستطيع الصبي الذي يعاني ارتباكًا في الهوية الجنسية أن يتخلى عن خيالاته الأنثوية السرية، ويستكشف شعورًا أكبر بالارتياح في الانضمام لعالم الجنسين الطبيعي الذي يتكون من الذكر والأنثى.

وأنت- أيها الأب- يجب عليك التأكد من أن تدخلك- سواء مع المعالج أو بدونه- يتم برفق وإيجابية ولكن بشكل مؤثر ، وعند القيام بتثبيط سلوكيات التشبه بالجنس الآخر المرفوضة، يجب علي الأبوين أن يتأكدا من أن الطفل يشعر بأنه شخص متميز، أي لا يجب أن يشعر بأن عليه أن يصبح صورة نمطية معينة، من الممكن أن يكون هناك قدر معقول من التشابه بين الأولاد والبنات، لكن في نفس الوقت بعض السمات الأنثوية إن وجدت يجب أن تبنى على هوية ذكورية صلبة.

كما أنه من الضروري أن تنصت لطفلك دومًا بكل احترام، لا أن تجبره على الخوض في أنشطة لا يحبها، ولا تجبره على التوافق مع دور يخشاه، ولا تجعله يشعر بالخجل وهو يواري سلوكياته الأنثوية؛ فعملية التغيير يجب أن تتم بشكلٍ تدريجي من خلال مجموعة من الخطوات التي يرافقها تشجيع ومحبة.

في الواقع، دفعه للشعور بالخجل قد يكون له أثر سلبي، يتذكر "أليكس"- وهو

رجل شاذ جنسيًّا أقوم بعلاجه- قائلاً:

«ذات مرة، عندما كنت في الخامسة من عمري، أُهديَ إليّ صندوق من العطورات النسائية كان يمتلئ بالكثير من الزجاجات الصغيرة لعطور مختلفة مرتبة بعناية داخل الصندوق، كنت أشعر أنها شيء رائع، وكنت أحملها معي أينما ذهبت.

وأتذكر أنني كنت أحملها معي عندما أرافق والدي لزيارة بعض الأقارب، وأظن أنني كنت منبهرًا بهذه الزجاجات؛ لأنني أتذكر استعراضي بها أمام عمتي "مارجريت"، وعندما فعلت ذلك، نظرت إليّ وقالت شيئًا من قبيل: "ما الذي تفعله بالعطور؟ هل أنت بنت"، لقد أجهشت بالبكاء، ولا بد أنها قد شعرت بالذنب؛ لأنها حاولت على الفور أن تهدئ من روعي.

إنني لا أتذكر تفاصيل هذه الحادثة، لكنها ما زالت عالقة بذاكرتي، وهذا الأمر المتعلق بالعطور لم يستمر طويلا، لكنه أمر حمل لي مشاعر مختلطة من الفرح و الآسى في الآن ذاته».

قد يكون من المفيد بالنسبة لابنك أن توضح له- إذا كان لا يزال صغيرًا جدًّا- حقائق تركيبه البيولوجى؛ خاصةً أن لديه عضوًا ذكريًّا، وأن ذلك جانب طبيعي وصحي لما هو عليه، ويجب أن يشارك الأب بشكل فعّال في العملية التعليمية، ويجد الكثير من الآباء أن الاستحمام مع أبنائهم يفتح الباب لهذه المناقشات، ويجب على الآباء التأكيد على أن هذه الحقيقة التشريحية تجعل الصغير "صبيًّا مثل باقي الصبية"، أما الجانب الأكثر أهميةً، فهو أن يركز الأب على تذكير ابنه بأن لديه عضو ذكري (والذي من المحتمل أن تكون لدى الصبي في مرحلة ما قبل الشذوذ رغبة لا واعية في إنكاره)؛ فذلك سوف يبدد بشدة أية خيالات فيما يتعلق بتصوراته الأنثوية، إن ذكورة جسد الصبي هي الحقيقة الوحيدة والجزء الوحيد المسلم به من ذاته الذي يؤكد ذكورته ويميزه حتمًا عن أمه، كما أنه لا شك يرمز لتشابهه مع والده.

الاستحمام مع الأب:

إن تجربة الاستحمام معًا تعمق من تماثل الابن مع والده والتشبه بخصاله الذكورية، بالإضافة إلى التشريح الذكوري الخاص به، ويقدم الدكتور "جورج

ريكرز"- الخبير بالأطفال الذين يعانون اضطراب الهوية الجنسية- إرشادات مفصلة لاستحمام الأب مع الابن بطريقة إيجابية ومفيدة إيجابية؛ يقول الدكتور "ريكرز": "ينبغي ألا يكون رد فعل الآباء حادًّا أو سلبيًّا حال طرح الأبناء أسئلة حول الجنس أو الأعضاء التناسلية بينما هما يستحمان معًا، ويجب التعامل مع هذه الأسئلة باهتمام وبشكل إيجابي ومعلومات مناسبة لمستوى نمو الطفل وتشجيع إيجابي؛ وذلك للإبقاء على باب التواصل مفتوحًا في مثل هذه الأمور المهمة".[1]

ويجب إخبار الأب بأنه من الطبيعي أن يلفت العضو الذكري للأب إنتباه الطفل أو حتى يمد يده بعفوية ليلمسه، وإذا حدث هذا الأمر، فينبغي على الأب ألا يجفل أو يشعر بالغضب، وألا تكون ردة فعله سلبية أو يعاقبه بأي شكل كان، يجب على الأب بدلاً من ذلك أن يتحدث مطمئن الصبي ويخبره بأنه سوف يكون لديه عضو تناسلي مشابه عندما يصبح مراهقًا.

أما إذا حدث ولمس الابن العضو التناسلي لأبيه، فإن ذلك سوف يشبع فضوله، وسيتوقف عن لمسه بعد لحظات، ومن المحتمل غالبًا ألا يلمس الابن العضو الذكري لوالده مرة أخرى، وقد لا يلمسه على الإطلاق، لكن في حالة احتمال إصرار الابن على لمس الأعضاء التناسلية لوالده، فإن الدكتور "ريكرز" ينصح الأب بأن يكون على استعداد لتوجيه تعليمات إلى ابنه مثل: "خذ هذه المنشفة ونظف المنطقة التي وراء أذنيك، أو تأكد من أنك نظيف بالفعل"، دون أن يطلب من الابن مباشرة بألا يركز على الأعضاء التناسلية لوالده.

أما إذا راح الابن يلمس العضو التناسلي لوالده مرارًا وتكرارًا في كل مرة يستحمان معًا، فإن الدكتور "ريكرز" يوصى الأب بأن يقول: " أننا الرجال لا نلمس الأعضاء الذكورية الخاصة بالآخرين، إلا إذا كان طبيبًا يفحص مريضًا أو والدًا ينظف ابنه الصغير، أو يرى إذا ما كان الصبي الصغير في حاجة لدواء حال شكواه من ألم أو حكة في ذكره". إضافة إلى ذلك، يجب أن يوضح الأب أنه عندما يقوم الابن بلمس ذكره، فينبغي أن يكون ذلك بمنأى عن أنظار الآخرين.

ويحكى الدكتور "ريكرز" عن حادثة عرّضت صبيًّا صغيرًا للصدمة وأدت لظهور سلوك مغاير للجنس على الصبي؛ خرج الأب من حوض الاستحمام، ولمس الابن قضيب أبيه بدافع الفضول ، فصفع الأب ابنه في الحال، وصاح فيه غاضبًا ونعته

بـ"المنحرف"، ومنذ هذه اللحظة بدأت تظهر على الصبي تصرفات مغايرة للجنس، فعندما راح يستحم وحده، أخفى عضوه الذكري ما بين قدميه ليبدو كالبنت، وأخبر أمه بأنه يتمنى لو لم يكن لديه عضو ذكري؛ إلا أنه إذا سارت تجربة الأب والابن على ما يرام، يقول الدكتور "ريكرز": "يصبح الصبي أكثر تكيفا مع جسده الذكوري ".

وبجانب مقترح استحمام الآباء مع أبنائهم، أطلب من الآباء أن يحتكوا بأبنائهم بدنيًّا بقوة وبشكل منتظم، حيث يمكن للآباء أن يمدوا يد العون في ذلك من خلال تشجيع السلوك الداعم والحركات البدنية القوية؛ كما أن ذلك يساعد على تقويض دور الفتى الصغير المطيع والجبان الذي يبديه الصبي الذي يعاني اضطرابًا في الهوية الجنسية في الغالب؛ فالمصارعة والاحتكاك القوي و"المزاح بالضرب مع الوالد"؛ كلها سبل تمكن الصبي من اكتشاف قدرته البدنية والإحساس بقوة جسده والتواصل مع الرمز الذكوري الذي يبدو له مرعب و غامض.

أهمية اللمس:

إن جميع مرضاي من الشواذ البالغين دون استثناء، يتحدثون عن غياب مؤلم أو فراغ يدفع للتلهف للاحتكاك البدني بالآباء؛ ويحدثنا "ريتشارد وايلر" كيف أن هذه العزلة عن اللمس قد تؤدي لشعور دائم بالحرمان:

«الرسالة الثقافية السائدة في مجتمعنا واضحة: الرجال لا يتلامسون، وللأسف، فإن هذا الأمر المحظور ينتقل في الغالب للآباء والأبناء، حتى عندما يكون الأبناء في سن صغيرة جدًّا، وينتقل حتى إلى الإخوة الذكور والأصدقاء المقربين، فالرجال في ثقافتنا يخشون من أن يتم النظر إليهم كشواذ، أو أن "يفضحوا" أنفسهم أو الآخرين من خلال العناق والمصافحة واللمس.

إلا أن أشد ما يخشونه هو ذاته الذي يتسببون في صنعه: مجتمع من الصبية المحرومين من اللمس عندما يكبرون يتطلعون إلى أن يعانقهم أي رجل، فإذا لم يتم إشباع الحاجة للمس والعناق في مرحلة الطفولة، فإن تلك الحاجة لا تتلاشى لمجرد أن الصبي يكبر ويصبح رجلاً . إن الرغبة بالنسبة لنا أمرٌ بدائيٌ للغاية، إلا أنه يتم إنكارها لفترة طويلة، حتى إن البعض منا يسعى إلى ممارسة الجنس مع الرجال في أوقات يشعر فيها بالحاجة للاحتضان فقط، فنحن لم نتعلم كيف نحصل

على اللمسة غير الشهوانية التي نتضور لها».

وبدون هذه اللمسة الطبيعية، يصبح الشاب أكثر عرضةً للخوض في علاقات يتضح أنها غير ملائمة أو حتى مؤذية جسديًّا؛ يقول "وايلر" مجددًا:

«ليس أمرًا مفاجئًا أن الكثير منا قد انقادوا في علاقات مخلة أو غير صحية، حتى منذ الطفولة المبكرة، إذا عثرنا على شيء ما يجعلنا نحس بالحب والاستقرار، فإننا في الغالب نتمسك به، مهما كانت العواقب.

وقد يشمل الأمر حتى الذكور الآخرين الذين استغلونا من أجل شهوة جنسية أو الذين استغللناهم جنسيًّا لنشعر بالحميمية والحب».

هل تتذكر قصة الغواص الأوليمبي "جريج لوجانيس" التي ذكرناها في الفصل الثالث؟ لقد كان صبيًّا وحيدًا أساء زملاؤه في الدراسة فهمه واستخفوا به، وكان منعزلاً عن والده، ولم يكن من المفاجئ أن يصبح "لوجانيس" الهش عاطفيا صيدًا سهلاً لرجل كبير السن قابله على الشاطئ وأبدى له بعض الاهتمام، لقد واصل العودة من أجل العاطفة والاحتواء والاحتضان - أكثر من الجنس: "كنت أتضور جوعًا للعواطف والحنان".

إن إحدى المهام الأساسية للأبوين هي تشجيع الصبي على التعبير عن أفكاره ومشاعره؛ ونظرًا لأننا نعرف أن الصبي خائف من أن يكبر ويواجه تحديات دور الذكر، فإنه ينبغي تشجيع الصبي على تحويل هذه المخاوف إلى كلمات، وأن يوصل أفكاره عن الهوية الجنسية، التي لا بد أن تكون مشوهة؛ نظرًا لما يعانيه.

على سبيل المثال: كان "شون" فتى ذا ميول أنثوية في السابعة من عمره، وقرر والده عدم الحديث عن حالته، والتركيز على تقديم الدعم والحب له، وهذا التوجه قد يشكل بداية، ولكنه غير كافٍ؛ ينبغي على الأبوين أن يتحينا الفرص لتوضيح الفروق بين الذكر والأنثى؛ فطرح أسئلة من عينة "ماذا تود أن تصبح عندما تكبر؟"، و"من تود أن تكون مثله عندما تكبر؟"- سوف يفتح باب الفرص على مصراعيه لتصحيح الأفكار الخيالية المشوهة بالإضافة إلى ما يتيحه من تشجيع.

كما أنه سوف يكون من الضروري بالنسبة لكما- أيها الأبوين- أن تستبدلا أي دمى أو ألعاب أو قطع ملابس قد تدعم الخيال الجنسي المغاير عن ابنكما، تخبرني بعض الأمهات بأنهن قد تخلصن سرًّا من بعض الأشياء، وعلى الرغم من

أنني أتفهم إحباطهن وحاجتهن للتصرف بأقصى سرعة، إلا أنني أقترح أسلوبًا أكثر تفتحًا: يمكنكم تشجيع الصبي على المشاركة في عملية نقل هذه الأشياء؛ بأن تجعلوه يقرر: أيًّا منها يتنازل عنه لفتيات صغيرات يعرفهن، بعض الآباء صنعوا طقوسًا مصاحبة لعملية التخلص من متعلقات الفتيات بإهدائها إلى فتاة فقيرة بالجوار أو إلى إحدى بنات العم.

وقد يكون "حفل الوداع" لهذه الأشياء أمرًا مفيدًا في حالة الأطفال الصغار: أحضر صندوقًا، وضع الدمى داخله، وأغلقه وقل: "وداعًا" في نفس الوقت الذي تدرك فيه صعوبة هذا الأمر على الصبي، اشرح له قائلاً: "الآن سيأخذ والدك هذه الدمى لفتاة صغيرة في الجوار ليس لديها أي دمى لتلعب بها".

من المهم أن يحس طفلك بالحزن والخسارة ويعبر عنهما، ولعل الأمر الأكثر صعوبة هو "استماعك" له وإبداء التعاطف لما يعانيه أثناء انكبابك على جمع الدمى، وقد يكون "حفل الوداع" أمرًا عسيرًا، لكنه لا ينبغي أن يتحول إلى مأساة، وينبغي ألا يكون قرارك القيام بذلك من باب الاندفاع، بل بشكل متروٍّ: هل الصبي على استعداد ليترك هذه الأشياء؟ هل كل ما يحتاجه هو دفعة بسيطة لتشجيعه على القيام بالأمر؟ أم أن الحفل سيترك في قلبه شعورًا بالخيانة والغضب؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد يكون قرار الاستغناء متسرع.

إن درجة القسوة التي ينبغي أن تكون عليها هذه التدخلات التصحيحية تعتمد على ردة فعل طفلك، إذا كان يؤثر الانسحاب أو الاكتئاب أو الغضب أو الإحباط أو العصبية، فسوف تدرك أنك تدير الأمر بشكل سريع للغاية.

ذات مرة أراد زوجان متحمسان "حل" مشكلة طفلهما في أسبوع واحد فحسب، وكانت النتيجة إصابة الطفل بالقلق والذعر؛ فالانحدار السلبي في الحالة المزاجية للطفل تشير بشكل واضح إلى أنه لم يكن أمامه متسع من الوقت ليتكيف مع حجم التغير الذي يتوقعه الوالدان.

بعض الآباء يتخذون المنحى المناقض: فيترددون في إجراء التغييرات المنطقية والواضحة، ومرد هذا التردد في المقام الأول ثقافة المجتمع التي تبعث برسائل متناقضة- كما سبق أن ناقشنا- وأيضًا النصائح المتضاربة التي يقدمها المختصون في مجال نمو الأطفال، ويسعى هؤلاء الآباء إلى الحصول على تفويضٍ

صريح من المختص لأن يقولوا للصبي بلطف وحزم: "عزيزي، لا مزيد من ألعاب الفتيات؛ لقد أصبحت كبيرًا على سلوكيات البنات تلك"، حيث يقولون: إنهم يخافون مناقشة المشكلة مع ابنهم خشية جرح مشاعره.

إلا أن التدخل الأكثر فعالية يقع من قبل الوالدين عندما يوصلان معًا رسالة لطيفة ملائمة ومتكاملة: "لا يتماشى هذا مع طبيعتك؛ إنك ذكر"، فهذا الأسلوب من التعامل يتسم بالرقة والرعاية والحب، ويجب ألا يتم دفعةً واحدةً، لكن لابد أن يكون واضحًا لا لبس فيه، والأهم هو تعاون الوالدين معًا وثباتهما؛ لأن هذا هو أفضل الأساليب وأكثرها تأثيرًا على المدى الطويل.

لقد أوجزت إحدى الأمهات هذا الأمر بطريقة رائعة، تقول: "إن مساعدة ابني على التغلب على سلوك التشبه بالنساء يشبه الاعتناء بالورود؛ فهذا الأمر لا يتطلب الكثير من الجهد، إلا أنه يستوجب الكثير من العناية الملائمة".

وتبدأ أولى خطوات العلاج عندما يقر الوالدان بوجود المشكلة، ومن ثم يقرران العمل معًا للتغلب على ما يلاقيه طفلهما من صعوبات، أما الخطوة التالية فتعتمد على توصيل رسالة للطفل مفادها أن الوالدين ملتزمان بمساعدته وأن التغيير أمر ضروري، وما إن يدرك الطفل أن والديه لن يتجاهلا سلوكه غير المناسب مجددًا، فسوف يبدأ في عملية التكيف مع طبيعته، ومع ذلك، فمن المتوقع أن هذه الرسالة الواضحة (غير المتوقعة غالبًا) ستجلب نوعًا من عدم الراحة للصبي.

مراحل في عملية النمو:

اعتمادًا على عملي الطبي مع الصبية الذين يعانون اضطرابًا في الهوية الجنسية وآبائهم، أعتقد أن هناك أربع مراحل في عملية النمو: (1) المقاومة، (2) الامتثال الظاهري، (3) المقاومة السرية، و(4) التحالف العملي بين الوالدين والطفل.

فإذا كان ابنك منخرطًا في سلوك مغاير لهويته الجنسية بشكل واضح، فإنه يجب أن تمثل هذه المراحل إطارَ عملٍ عامًّا بالنسبة لك لتحدد مسار نمو طفلك، وكما هو الحال عند اللجوء لاستخدام نماذج لتفسير أي ظاهرة معقدة، فإن هذه المراحل لا شك تتداخل بعضها في بعض؛ وقد يتراجع الطفل إلى إحدى المراحل قبل أن ينتقل إلى المرحلة التالية، ومع ذلك فإن هذه الخطوات تظل خطوط إرشادية

عامة:

المرحلة الأولى: المقاومة:

ما إن يواجه طفلك القيود الجديدة التي أحاطت به، حتى يبدأ في التغيير عن غضبه وألمه وثورته، حيث يبدأ في ملاحظة أن والده ووالدته لم يعودا يسمحان له بالانغماس في سلوكيات الأنوثة الخيالية التي كانت تمنحه السرور والراحة في السابق، وما إن تصله فكرة أنه لن يعود بمقدوره تحقيق الإشباع من تخيلاته الوهمية عن ذاته، يبدأ في كبت مشاعره تجاهك وينسحب من أمامك، إن هؤلاء الصبية لديهم حساسية خاصة للانتقاد وفرض التحديات عليهم، احذر أن تبالغ في انتقاداتك أو تفرض سبل تصحيحٍ صارمة.

يمكنك أن تظهر له تقديرًا خاصًّا كأن تقول أشياء من قبيل: "أتعرف يا بني، أنت محظوظ حقًّا؛ لأنك ذكر"، وبيِّن له الفروق بين الولد والبنت، وقم بتعزيز الهوية الذكورية الآخذة بالتشكل عليه بطرح أسئلة من قبيل: "أي نوع من الفتيات ترغب في الزواج منها عندما تكبر؟"، و"أي أنماط من الآباء تود أن تكون عندما تكبر؟".

أنتم أيها الآباء، سوف تكونون في حاجة للابتكار في إيجاد الفرص واستغلالها للتأكيد على الفروق الجنسية.

المرحلة الثانية: الامتثال الظاهري:

عندما يبدي الآباء نوعًا من الإصرار والحزم فإنهم سرعان ما يلاحظون- على الأقل ظاهريًّا- تعاون ابنهم مع التوقعات الجديدة لديهم، وفي الغالب يصبح التغيير مفاجئًا لدرجة أن الوالدين يتساءلان: "هل يتغير الصبي بالفعل، أم أنه يسعى لإرضائنا؟"، ولأن الصبي متحمس لأن يجعلكما سعيدين، فإنه ببساطة يبدي تحولاً في انصياعه لرغباتكما، لكن هذه التغيرات المبكرة جدًّا في الواقع تمثل امتثالاً سلوكيًّا ليس إلا، دون وجود تحولٍ داخليٍّ حقيقي.

لكن بمرور الوقت، إذا كان هناك ترابط شعوري كافٍ بينك أنت وابنك، فإنه سوف يدخل هذه السلوكيات كجزء من إحساسه بذاته، ولأنكما- أيها الوالدان- أكثر الأشخاص أهميةً في العالم بالنسبة له، فإنه سوف يتخلى عن خيالات تداخل الهوية الجنسية لديه بانتظام على مضض.

المرحلة الثالثة: المقاومة السرية:

لعلك قد تسر باستجابة ابنك السريعة لتدخلاتك العملية الجديدة، غير أنه من المحتمل أن يقع فيما بعد ارتداد لبعض السلوك الأنثوي السري، والذي قد يصيبك بخيبة أمل ويجعلك تظن أن جهودك تذهب سدى، وللمساعدة على تجنب الإحباط وفتور الهمة، فإنني أنصح الأبوين بتوقع الإخفاقات، أي أنه ليس عليك أن تشعر بالصدمة من هذه الإخفاقات.

إن ذلك نمط من أنماط التناقض: يبدو ابنك ذو الأعوام الخمسة متعاونًا، ثم تجده في أحد الأيام يحمل دمية مرة أخرى ولعله يرجع إلى عادة مص الأصابع، وعندها تقول: "عزيزي، ألم نتحدث في هذا الأمر من قبل؟"، فيقول: "هه؟!"، وتجيبه بلطف ولكن بحزم: "يا ولدي، تعرف ما تحدثنا عنه، لقد تحدثنا عن أنك صبي وأن الصبية الكبار لا يلعبون بالدمى، والآن، اذهب وضع الدمية بعيدًا، وهيا نجد لعبة أخرى تناسبك".

ينبغي لك أن تتوقع أن الصبي قد يتقدم خطوتين للأمام ويعود خطوة للخلف، وفي مثل هذه الأوقات، يصير لزامًا على الآباء أن يتأكدوا من أنه لا يوجد شيء في الكون يسير بخط مستقيم، بما في ذلك تقدم حالة ابنهم.

ولعلك ستلاحظ ميل ابنك للعودة إلى سلوك الفتيات خلال الأوقات التي تهتز فيها ثقته بنفسه، وكما يشير أحد الآباء، فيقول: "يدخل ابني بحالة مزاجية سيئة فيغرق في سلوكياته الأنثوية، أما عندما يشعر بالسعادة والبهجة والتقدير من قبل الآخرين، فمن المحتمل أن يتجنب الارتداد نحو التشبه بالفتيات"، ويمكننا أن نتنبأ بشكل واقعي بحدوث بعض سلوكيات الارتداد عندما يصاب الصبي بالتعب أو المرض أو يقع تحت ضغط أو يمر بتجربة محددة من خيبة الأمل أو النبذ، فالتشبه بالفتيات هو استجابة مهدئة للذات عند الوقوع تحت وطأة الضغوط.

مثل هذا الارتداد، يدفع الأبوان للتساؤل هل هو "يسعى لإرضائنا" أو "يحاول إسعادنا؛ لأنه يدرك أهميتنا بالنسبة له"، وتكون لديهما رغبة في معرفة ما إذا كان ابنهما يتغير داخليًّا بالفعل أم لا؛ إن النمو السوي بالتأكيد يتضمن أمورًا تفوق مجرد التصرف بشكل مختلف؛ حيث يتطلب تحولاً داخليًّا في الإدراك.

ويجب على الأسرة أن تركز كثيرًا على القدوة أو المثل الأعلى للطفل، فإذا كان

الأب لا يزال يمثل نموذجًا سلبيًّا- خاصةً إذا كانت علاقته بالزوجة يشوبها الإهمال أو الإيذاء- فقد يملأ الصبي إدراكه في اللاوعي بفكرة أن اختيار الهوية الذكورية هو أمر غير مأمون الجانب، وفي مثل هذه الحالة، يحتاج الصبي إلى جانبه الأنثوي كحائط دفاعي، وأية تغيرات سلوكية تقع لن تحدث داخليًّا في الغالب.

في الحقيقة، يجب علينا أن نقدر- بشيء من التعاطف- الصراع المرير الذي يواجهه الصبي الصغير؛ فهناك صراع داخلي مشتعل، وكما فسر ذلك أحد الصبية عندما قال: "هناك جزآن منى يتقاتلان بداخلي".

المرحلة الرابعة: التحالف العملي بين الوالدين والطفل:

لا يوجد ما يرضي طموح الوالدين أكثر من إدراك أن ابنهما يبدي الرغبة في التعاون مع عملية النمو؛ إحدى الأمهات كانت تراقب ابنها "آرون" الذي كان يعاني اضطراب الهوية الجنسية، وهو يشاهد برنامجًا تليفزيونيًّا يعرض شخصية كارتونية لفتاة فاتنة، وتسنت لها الفرصة لتراقب صراعه الداخلي:

«لقد تمكنتُ من إدراك أن "آرون" يرغب فعلاً في التخلص من شخصية الفتاة، ولو كان الأمر كما في السابق، لقام ورقص في أنحاء الغرفة كراقصة الباليه التي شاهدها.

كان بجانبه بعض الأشياء الصبيانية من مجموعة ألعاب المزرعة، إلى جانب سيارتين، لقد أدركت أنه كان يحاول أن ينقل بصره بعيدًا عن التليفزيون ويلتقط أحد الأشياء الخاصة بالصبية، لقد كان يحاول تجنب إغراء تخيل الشخصية الأنثوية، لقد انفطر له قلبي؛ لأنني عرفت بالضبط ما كان يشعر به».

في مرحلة التحالف العملي، لن تلاحظ سلوك ابنك المتعاون فحسب، بل إنه سوف يبدأ في التعبير عن صراعه الداخلي شفهيًّا، فقد قال أحد الأزواج: إن ابنهما الصغير قد أفضى إليهما قائلاً: "إن البلوغ أمر شاق"، تذكر أنه بالنسبة لهؤلاء الأطفال، ينتج عن البلوغ صراع؛ لأنه يعني مواجهة تحديات الذكورة، أما عدم البلوغ فيبدو أمرًا مثيرًا؛ لأنه يتيح البقاء في الدور الأنثوي والاستمرار في علاقة تفيض بالحميمية مع الأم؛ لأن هذه العلاقة توفر ملاذًا آمنا من مواجهة تحديات عالم الذكور.

وقال صبي آخر بنبرة إحباط واضحة: "إنني أحاول أن أنسى أمرها"؛ مشيرًا

إلى مجموعة من دمى "باربي" التي كان قد استغنى عنها، وقد أخبرتني أمه قائلة: "تبدو لديه رغبة في التغير الآن، على الرغم من أني أدرك أن ذلك يسبب له الضغوط".

دور المعالج النفسي:

نظرًا لأن الوالدين يرتبطان بابنهما عاطفيًّا، وهو أمر طبيعي فإنهما في الغالب يواجهان صعوبة في مواصلة برنامج التغير الفعال فيما لوحدهما، كلما كان ذلك ممكنًا، فإنني أحثهما بشدة على أن يبحثا عن المعالج النفسي المناسب ليمد لهما يد العون.

إن المعالج النفسي المحترف الذي يشاطركما القيم والأهداف سوف يساعدكما في بادئ الأمر من خلال التعليم والتوجية، وفي المرحلة التالية من خلال تسليط الضوء على الجوانب المعتمة لديكما كفردين وكوالدين، وقد يلاحظ المعالج النفسي- على سبيل المثال- أنكما لا تتواصلان بشكل فعال مع الطفل، كما أنه قد يرى أن ابنكما لا يعبر شفاهة عن الضغوط والصراعات التي يعانيها، وأنه يبدو منقادًا لما تطلبانه منه، وقد يشير إلى الطريقة التي يبث بها الأب والأم رسائل مختلفة (وربما تكون متناقضة ومثيرة للارتباك) عن الهوية الجنسية.

لمعالجة ارتباك الهوية الجنسية يجب أن تتضافر جهود الوالدين؛ لأن أفضل ضمانة لأحداث التغيير هو التزام كلا الوالدين، فالحقيقة هي أنه بالتزام أحد الأبوين فقط، تقل احتمالات تحقيق نتيجة إيجابية بشكل كبير، وتذكر أنه لا يمكن لأي من الوالدين أن يتخذ موقفًا محايدًا، إن الطرف الذي يتراجع منهما يعطي للطفل انطباعًا أنه موافق ضمنيًّا على بقاء سلوكه غير السوي، كما أن هذا الطرف يناقض رسالة الطرف الملتزم.

يركز العلاج النفسي التحليلي التقليدي للشذوذ الجنسي على تعامل الطفل مع المعالج النفسي فقط، أما الأبوان؛ فلا يحضران هذه الجلسات، على أن تعقد الجلسات من مرتين إلى خمس مرات أسبوعيًّا وتستمر لعدة سنوات، لقد كان هذا الأسلوب مكلفًا ونسبة نجاحه مخيبة للآمال، وبدلاً من ذلك، فإن الأسلوب الذي يبدو أكثر فعالية هو عندما يعمل المعالج بشكل منتظم مع الوالدين وليس الطفل، وبعد القليل من الجلسات الأسبوعية ينبغي أن تعقد جلسات مع الوالدين بشكل معتاد

متى اقتضت الحاجة (ربما شهريًّا)؛ وذلك لإرشادهما ومتابعة تقدم حالة الصبي، وكما جرت العادة، فإنه من الضروري للمعالج النفسي أن يرى الطفل مرة للتقييم المبدئي، وبعد ذلك من حين إلى آخر.

لقد توصلتُ إلى أن كل ما أقوم به من دعم مهني ونصائح للوالدين هو فقط للتأكيد على ما يعرفانه بالبداهة، في أعماقهما، يشعران شعورًا قويًّا بأن الأمر ليس على ما يرام بالنسبة لطفلهما، إلا أنهما بحاجة لتصريح بالتدخل، إن الشق الأكبر من الأمهات يعرفن جيدًا أنه كان ينبغي على والد الطفل أن يكون أكثر تواجدًا، وأن هذا البعد يزيد من الصعوبات التي يواجهها ابنهما.

لكن- كما سبق أن ناقشنا في الفصل السابق- يصاب الوالدان غالبًا بالارتباك بسبب الرسائل المتضاربة من وسائل الإعلام والكثير من خبراء نمو الأطفال، ويحتاج هؤلاء الآباء والأمهات إلى معالج خبير يدعم أهدافهم، لا أن يدعم فكرته بأن الهوية الجنسية أمر غير مهم، يجب على المعالج إعداد الطفل للحياة في عالم يتطلب هوية جنسية واضحة، بينما يساعده على تقليل احتمالية شذوذه الجنسي لاحقًا.

حب غير مشروط:

إن إحدى أكبر مسؤوليات المعالِج أهميةً هي في مساعدة الوالدين على التعبير عن رفضهما لسلوك ابنهما الأنثوي دون الإيحاء له بأنهما يرفضانه هو، ويساعد المعالِج الأبوين على تعلُّم إيصال رسائل صريحة للصبي تفيد بأن سلوكه المتأنث أمرٌ غير مقبول، ومن ثم ثنيه بلطف وحزم عن مثل هذه السلوكيات، لكن في الوقت ذاته، يجب ألا يشعر الصبي بأن توقعات أبويه هي نقد شخصي أو نبذٌ له.

أثناء متابعتك لهذه الأمور مع ابنك (أو ابنتك)، قد يأتي شخص ليقول لك بأن الشخص السوي لا يقيد نفسه بتصنيف ضيق للهوية الجنسية، وسوف يقول هذا الشخص: إن شخصياتنا يجب أن تشمل جوانب ذكورية وأنثوية في آن واحد.

إن هذا الرأي الشائع يعود إلى حد ما للمحلل النفسي "كارل يونج"- الذي عاصر "فرويد"- ويعتقد "يونج" أن النمو السوي والناضج هو الذي تتضافر به السمات الذكورية والأنثوية معًا، بالطبع هناك بعض من الحقيقة في فكرة نمونا بالتكامل مع الخصائص الشعورية للجنس الأخر، لكن لا يمكن التوصل إلى ذلك إلا

بعد تعرف الفرد واطمئنانه إلى جنسه البيولوجي، وينبغي ألا يعد مثل هذا التكامل تعويضًا عن التزام المرء بهويته الجنسية المناسبة.

كما يسود فهمٌ خاطئ لهذا المبدأ، نراه عندما يشجع الوالدان أبناءهما على التشبه بالجنس الآخر، تقول بعض الأمهات "المتحررات": "إنهن يشعرن بالابتهاج عندما يرين أبناءهن يرتدون الفساتين أو يلعبون بدمى البنات، وليس لديهن ما يقلقهن بشأن رفض بناتهن المتعنت لارتداء الفساتين"، إلا أن ذلك أمرٌ خطيرٌ؛ فمن الحماقة أن تشجع ابنك على استكمال الصفات الأنثوية قبل أن يدرك هويته الذكورية، وليس من الحكمة قطعًا أن تسمح لابنتك بنبذ كل الأشياء الأنثوية.

قياس النجاح:

ينبغي أن يقلل العلاج الناجح لارتباك الهوية الجنسية من التداخل في السلوك والهوية، ويحسن العلاقة بالأقران، ويقلل في النهاية مستوى الضغوط في حياة الطفل.

إن العلاج يهدف إلى تقليل إحساس الصبي باختلافه، ودونيته بطريقة أو بأخرى عن الصبية الآخرين، وسوف يعمل ذلك على زيادة احتمال نمو توجه جنسي سوي طبيعي لدى طفلك.

ولمعرفة مدى تقدمك، عليك ملاحظة مؤشرات النجاح التالية:

1. **قلة السلوك الأنثوي:** يلاحظ الأبوان تراجع السلوكيات التي كانت السبب الأول في المشكلة؛ ينبغي أن نلاحظ قلة الخوض في أنشطة الفتيات وتقليدهن.

2. **زيادة احترام الذات:** يلاحظ الأبوان أن الابن يبعث رسائل توحي بشعورٍ إيجابي تجاه نفسه، ويجدان أن ابنهما يبدو فخورًا بتخطي تحدٍّ شخصي صعب، ويلاحظ الأبوان أن ارتياح طفلهما تجاه جنسه قد ارتفع.

3. **ارتفاع مستوى النضج:** يتحدث الأبوان عن طفلٍ أكثر سعادةً وثقةً بالنفس يشعر بذاته بشكل طبيعي، وقد فسرت إحدى الأمهات الأمر- كما لو كانت تبحث عن كلمة- عندما قالت: "لقد بدا ... طبيعيًّا بشكل أكبر"، لقد أصبح الصبي أقل خجلاً، ومدركًا لذاته، ومنشغلاً بنفسه، وسوف يبرهن على المزيد من التواصل الشعوري ورد الفعل الملائم تجاه الآخرين.

4.**قلة القلق أو الاكتئاب:** لقد توصل الباحثون إلى وجود علاقة بين الميول الأنثوية للصبية وارتفاع مستوى القلق والاكتئاب فوق المعدل الطبيعي [2]، فعندما يقوم الابن بحل صراع هويته الجنسية، يلاحظ الأبوان أنه يبدو أقل عصبيةً وارتباكًا، ويقل إحساسه بالقلق فيما يتعلق بصغائر الأمور؛ حيث إن تجربة الإحساس بالتوافق مع الصبية الآخرين تقلل من الأعراض المرتبطة بالقلق والاكتئاب.

5.**ذيوع الصيت بين الصبية الآخرين:** لقد لوحظ بشكل عام أن الصبية الذين يظهرون سلوكيات رجولية هم الأكثر شعبيةً، أما الذين يظهرون سلوكيات أقل ذكوريةً تقل شعبيتهم، (والأمر ليس على نفس المنوال بالنسبة للفتيات)، ومن المحتمل أن يكوِّن الصبية الذين يتسمون بالذكورة صداقات جيدة مع الذكور أكثر من الصبية ذوي الميول الأنثوية، أما الصبية الذين يعانون مشاكل في الهوية الجنسية، فإنهم في الغالب يقعون ضحايا للقسوة العنيفة التي يمارسها عليهم أقرانهم من الجنس نفسه، ووفق خبرتي الطبية، فإن الصبية ذوي الميول الأنثوية أكثر عرضة للتحرش من قبل المعتدين الجنسيين، والذين- على ما يبدو- يدركون أن الصبي منبوذ من أقرانه، ومن ثم يصبح فريسةً سهلة.

6.**تضاؤل المشكلات السلوكية:** بينما تكون النسبة الأكبر من الصبية في حالة ما قبل الشذوذ "صبية صغارًا طيبين" ومطيعين، فإن نسبة أقل منهم تكون مثيرة للمشكلات بشكل صريح، وفي كلتا الحالتين، فإنه عندما يتم التوصل إلى سلوك ملائم للهوية الجنسية، يلاحظ والدا الطفل ومعلموه والكبار الآخرون المشرفون عليه المزيد من التعاون في سلوكه الاجتماعي؛ حيث يلاحظون قلة نوبات الغضب المزاجية والانفعالات العاطفية وسلوك الانسحاب.

7.**تحسُّن العلاقة مع الوالد:** يفيد الأبوان بأن الابن يبحث عن والده بشكل عفوي، ويرغب في أن يكون معه ويستمتع بصحبته.

8.**"سعيدٌ لأني صبي":** يدرك الأبوان أن ابنهما يبدو فخورًا بأنه ذكر، وبقيامه بالأمور التي يفعلها الصبية الآخرون، وبإتقانه هذه الأمور؛ وهذا قطعًا سوف يشعره بالرضا لكونه واحدًا من الرجال.

ويوضح الدكتور "جورج ريكرز"- الباحث المرموق في اضطرابات الهوية

الجنسية عند الأطفال- أن نتائج علاج ما يزيد على خمسين طفلاً من المصابين باضطرابات الهوية الجنسية تشير إلى أنه تم التوصل إلى التغيرات الدائمة في الهوية الجنسية، كما أن "ريكرز" لديه قناعة بأن "العلاج الوقائي للتشبه بالجنس الآخر في الملبس والتحول الجنسي وبعض أنماط الشذوذ الجنسي قد أصبح موجودًا".[3]

كما يؤمن الدكتوران "تسوكر" و"برادلي" أن علاج صراع الهوية الجنسية قد يكون أمرًا ناجعًا:

«من واقع خبرتنا، فإن عددًا لا يستهان به من الأطفال وعائلاتهم قد أحرزوا قدرًا هائلاً من التغيير، وفي هذه الحالات، يزول اضطراب الهوية الجنسية نهائيًّا، ولا يظهر في سلوك الأطفال أو خيالاتهم ما قد يشير إلى أن مسائل الهوية الجنسية لا تزال أمرًا مزعجًا.

وبالنظر إلى الأمر في مجمله، فإننا نتبنى موقفًا مفاده أنه في مثل هذه الحالات يجب على الطبيب أن يكون متفائلاً وألا يكون متشائمًا، فيما يتعلق باحتمال مساعدة الأطفال على أن يصبحوا أكثر اطمئنانًا تجاه هويتهم الجنسية».[4]

أما الباحثون الآخرون الذين نجحوا في التعامل مع الصبية ذوي السلوك الأنثوي، فيقولون: إن العلاج الناجع يساعد هؤلاء الصبية على فهم دوافع سلوكهم المغاير لهويتهم ويبرز علامات نمو ذكوريتهم، وهم كذلك يؤيدوننا في المطالبة بأن يكون المعالج من جنس الطفل، وأن يسعى المعالج لطلب العون من والد الطفل، كما أنهم يشركون أسرة الطفل في عملية العلاج ويركزون على دعم الأقران في عملية العلاج.

رحلة عملية التغيير:

إننا نرغب في مشاركة نتائج علاج الأطفال المرتبكين جنسيًّا من خلال الكشف عن وثائق دراسات حالات واقعية كثيرة، ولم يتم انتقاء هذه الحالات لنجاحها، بل في الواقع، ليست سوى أمثلة نموذجية لعائلات صادفت بعض النجاح وبعض الإخفاقات.

ونأمل خلال قراءتها أن تجد ما يساعدك على متابعة حالة ابنك والتقدم الذي

يحرزه، كل هؤلاء الصبية قد تم إحضارهم إلى عيادتي بعد أن لاحظ آباؤهم وأمهاتهم معاناتهم من ارتباك في الهوية الجنسية، وعادوا بعد عدة سنوات من اكتمال العلاج لتقييم المتابعة.

وتذكر أن الهدف من العلاج هو تقليل إحساس الصبي باختلافه عن أقرانه أو دونيته عنهم بطريقة أو بأخرى، وهذا سوف يزيد احتمالية نمو الطفل بهوية جنسية سوية، على الرغم من أنه من المحتمل أن الميول الجنسية للطفل لن تظهر إلا بعد عقد أو عقدين من العلاج.

الحاجة المستمرة لتوكيد الذات: "تومي":

فيما يلي تسجيل للقاء مع والدة لابن يعاني ارتباكًا في الهوية الجنسية بعد عدة سنوات من نهاية العلاج، لقد تطورت حالة الصبي بشكل ملحوظ فيما يتعلق بالسلوك الأنثوي، وهو الآن أفضل بكثير، إلا أن بعض الصعوبات المتعلقة باحترام الذات والتأنث تستمر في إعاقة تقدمه؛ ذلك أن "تومي" يسمح لنفسه بالوقوع في فخ الدور السلبي في العلاقات مع الذكور والإناث.

«**د. "نيكولوسي":** لقد مضى على زيارتك الأخيرة لعيادتي أربع سنوات، كيف حال ابنك الآن؟

الأم: بشكل عام ، حالة "تومي" في تحسن كبير؛ فقد قل تقلبه المزاجي، ولا يمكن وصفه بالمتأنث مجددًا.

د. "نيكولوسي": والآن، ماذا عن شعبية ابنك بين الصبية الآخرين؟

الأم: للأسف هذا الأمر لم يتغير.

د. "نيكولوسي": ألم تزدد شعبيته؟!

الأم: كلا؛ المشكلة أنه يَئِس من بعض الأطفال الذين حاول إقامة علاقات صداقة معهم، ولم يبدوا استجابة سريعة، لقد توقف عن الاتصال بهم والتحدث إليهم في المدرسة، إنه يجنح لذلك الاستسلام عندما تبدو الأمور غير مشجعة.

د. "نيكولوسي": هل لديه أي أصدقاء مقربين؟

الأم: حسنًا، هناك "ماريان"، الفتاة التي تقطن آخر الشارع، لا تزال صداقتهما طيبة، الحمد لله أنهما لم يعودا مرتبطين ببعضهما كما كان من قبل، عندما كانا

يلازمان بعضهما طوال الوقت.

د. "نيكولوسي": صحيح، أتذكر أنه عندما كان يتصرف بقدر كبير من الأنوثة اعتاد "تومي" قضاء الكثير من الوقت معها.

الأم: بالفعل، لقد كان يدع "ماريان" "تقوم بدور الأم وتصدر له الأوامر، وقد تعود على قبول هذا الأمر منها على الرغم من أسلوبها المتسلط ، أي أنه يعمل كل شيء حسبما كانت ترغب هي، في ذلك الوقت لم إدراك أن علاقة من هذا القبيل كانت مضرة له.

د. "نيكولوسي": ماذا عن علاقاته مع الذكور؟

الأم: لديه صديق مفضل، إلا أنني لا ألحظ فعلاً تلك الحميمية التي أتمناها، على الرغم من أن هذا الصبي أيضًا يعتبر ابني صديقه المفضل، لكن عندما يكونان معًا، لا يتحدث "تومي" كثيرًا، أستطيع أن أراه هادئًا جدًّا، أما الصبي الآخر فهو نوعًا ما يتمتع بروح القيادة ودائمًا ما يقول: "أنا الأقوى، أنا الأفضل"».

من الواضح أنه على الرغم من أن التشبه بالإناث قد انتهى أمره، فإن "تومي" لا يزال بحاجة إلى المساعدة فيما يتعلق بميله للوقوع في علاقات يكون فيها الطرف الأضعف، وقد اقترحت على والدته أن تصطحبه إلى نادٍ رياضي أو عمل تطوعي؛ حيث يستطيع أن يتصدر موقع القيادة ليساعد الصبية الأصغر سنًّا، حتى تنمو لديه الثقة وتوكيد الذات، كما أنه قد يستفيد من العلاج مع استشاري ذكر.

الأب تم قبوله مستشارًا محبًا: "تيم ":

لقد عرف والد "تيم" أن هشاشة الهوية الجنسية لدى ابنه تتطلب اهتمامًا خاصًّا، وما إن بدأ بتوفير الاهتمام المناسب حتى تحسنت حالة الصبي بشكل متواصل.

«الأب: منذ السنة الماضية وأنا ألعب دور المراقب؛ أحاول أن أتابع بدقة تصرفات "تيم" مع أقرانه من الذكور والإناث على حد سواء، وفي كل المناحي الاجتماعية؛ في مدرسته- لديهم عرض مسرحي لطلبة الصف الخامس- ولقد ساعدت في بناء المسرح، وحرصت على إحضار "تيم" معي، للقيام بأعمال

الإنشاء؛ ولأجعله يندمج مع بعض الرجال الآخرين بالإضافة إلى أبنائهم، لقد كان أمرًا ممتعًا لكلينا، وقد كنت أحاول القيام بذلك فيما مضى إلا أن "تيم" لم يكن يبدي اهتمامًا بالأمر؛ أعتقد أن الأمر كان يتعلق بالثقة، الثقة التي لم يكن يستطيع الالتزام بها من جانبه.

الأم: "جاك"، أود فقط أن أقول شيئًا، أعتقد أن الأمر كان أكبر من ذلك بالنسبة لابننا؛ أظن أن "تيم" كان ينبذك بالفعل ويرفض كل ما يتعلق بك.

د. "نيكولوسي": لكن هذا أسلوب دفاعي ضد شعوره بالدونية، فتصرفه بتعالٍ في الأساس كان غطاء لإحساسه بالدونية.

الأب: أعتقد أنك محقة في ذلك، لقد كان يفكر: لو تقبلت والدي كما هو عليه، فعليّ تقبل حقيقة أنني قد لا أستطيع الوصول إلى ما هو عليه، لكن الآن يقول: أستطيع أن أسعى لأكون مثله؛ إنني بالفعل أستطيع تحقيق ذلك، إنني أدرك هذا الآن بشكل أكبر في كل جانب من علاقتنا بابننا، فأنا أتحدث إليه الآن عن أشياء- لو تحدثت إليه عنها منذ عام مضى- لكان قد تصرف بشكل دفاعي جدًّا ورفض الاستماع قطعًا.

د. "نيكولوسي": هذا سلوك يستمر حتى في مرحلة البلوغ؛ فالكثير من الرجال الشواذ- مثلما نرى في أدب الشواذ- يقولون: إن الشذوذ الجنسي يرتقي بهم فوق مستوى الرجل العادي، إنهم فنانون؛ وأشخاص حساسون، أما الرجل العادي فهو مجرد عامل، لكن على النقيض، فإنهم في الوقت ذاته ينجذبون جنسيًّا إلى نفس نوع الرجل الذي يزدرونه، وهذا سلوك دفاعي يرجع إلى تلك الخبرات المؤلمة التي يعانيها ابنك في مرحلة الطفولة بين أقرانه؛ لذا، حاول أن توضح له الأمر بأنه أحد الرجال، وأنه مساوٍ لهم.

الأب: حقًّا، إنه ذلك الإحساس بالدونية، وعدم كفاءته لأن يكون فردًا في عالم الرجال، الإحساس الذي نود أن نبعده عنه، لكن في السابق، لم يكن "تيم" منفتحًا معي، أعتقد أنه شعر بأنه من وجهة نظره إذا أبدى انفتاحًا معي وباح بكل أسراره، فإنه إما أن يشعر بأننا ننبذه- مثل قوله: هاهم يفعلونها ثانيةً؛ إنهم لا يكترثون لأمري أو قد يفكر قائلاً لنفسه: إنهم لا يستوعبون ما أحاول أن أخبرهم به، كما تعلمت أنه عندما يكون "تيم" منفتحًا بالفعل ويرغب في التحدث إليّ، فإنه من

الأفضل أن أصغي إلى ما يقوله، فليس هذا بوقت قراءة الصحف والمجلات و إذا كان هناك برنامج مميز في التليفزيون أرغب في مشاهدته، فستكون الأمور أكثر تعقيدا.

لقد تعلمت أنه من الأفضل أن تتوقف عما تفعل وتنصت إليه؛ لأنك إن لم تفعل ذلك، فإنه سوف يلاحظ ذلك عل الفور، وعندما لا يستمع إليك، سيصر على ذلك بتعنت، أما الآن، فإنه يأتي إليّ بالفعل ويسألني: "هل بإمكاني القيام بهذا؟"، أي أنه يسألني بالفعل عن كيفية التصرف كذكر طبيعي، وأمضي الوقت شارحًا له السبب فيما إذا كان عليه أن يقوم بهذا الأمر مع رفاقه، أو إذا كان عليه ألا يسلك هذا المسلك إذا أراد أن يكون مقبولاً وسط أقرانه في المدرسة، وأنصحه بالابتعاد عن الأمور التي تخص الفتيات تمامًا، وعندما أتحدث إليه بهذه الطريقة، فإنني أشعر بالتواصل معه، وأشعر به ينظر إليّ باهتمام ولسان حاله يقول: "حسنًا يا أبي، هذا الأمر جيد؛ سأحاول القيام به".

في الماضي، لم أكن أواجهه بشكل مباشر وصريح وأخبره بأسباب وقوعه في العديد من المشكلات مع أقرانه الذكور في المدرسة، أما الآن، فإنني أتقرب منه بأسلوب رقيق كمرشدٍ وأب وأقول له: "إذا أردت أن تعيش حياتك دون أي منغصات أو آلام، فهناك أمور محددة تناسب ذلك، وأمور أخرى ليست مناسبة أبدا؛ فهناك سلوك معين لا يجلب لك سوى الصداع.

ولم أعد أرى حركات تلويح اليد المتطاولة أو عدم الاحترام مطلقًا، إنني لا أرى إلا رجلاً يافعًا ناضجًا يفوق توقعاتي، ويبدو الأمر كأنك تقرأ كتابًا تزداد متعتك مع قراءة المزيد من صفحاته، فالأمر دائم التحسن بالنسبة له».

إن التغير الحقيقي بالنسبة لـ"تيم" ليس مسألة تغير تصرفاته الأنثوية، لكن عندما يعكس صورة مختلفة للعالم تدفع أقرانه الذكور للتعامل معه على نحو مختلف؛ ومن ثم بشكل متدرج يبدأ في النظر إلى ذاته بشكل أفضل.

جهود الأب لإصلاح العلاقة: "إيفان":

هذا الأب لديه ابن- هو "إيفان"- تورط في علاقة جنسية مع المرشد الطلابي في المخيم قبل ثلاث سنوات، عندما كان في الثالثة عشرة من العمر.

«د. **"نيكولوسي":** عندما كان "إيفان" طفلاً، هل بدا مختلفًا عن أبنائك

الآخرين؟

الأب: أوه! بالتأكيد، في البداية، رأيت أنواع الألعاب التي كان يختارها، كان طفلاً صريحًا واجتماعيًّا وحساسًا للغاية، كنا نراه ابننا المبدع الحساس، ثم عندما بدأ يكبر قليلاً، لاحظنا انجذابه نحو أشياء لا تدخل ضمن الأمور الذكورية في ثقافتنا.

د. "نيكولوسي": هل أزعجك الأمر؟

الأب: في الواقع، كلا؛ لأنه لدينا الكثير من الأشخاص المبدعين في عائلتنا وتصورنا أنه سيكون كذلك، ولم يخطر ببالي أن يجب على ابني أن يكون مفتول العضلات أو حتى رياضيًّا من طراز خاص، إلا أننا في آخر المطاف- عندما أدركنا تنامي اهتمامه بأمور الشواذ بينما كان يقترب من سن البلوغ- توصلنا لقناعة بأنه علينا التعامل مع هذا النوع من الصبية بشكل مختلف.

د. "نيكولوسي": ما الذي كان عليك القيام به بشكل مختلف؟

الأب: كان من المفترض بي أن أقلل من انتقادي وترصدي لأخطائه في الأمور الهامشية، فعندما حاولت إجباره على فعل الأشياء بطريقة محددة لم يفلح الأمر معه، حتى عندما كان طفلاً صغيرًا قبل دخول المدرسة، كان يشعر بالضغط الشديد من الانتقادات، في حين أن أبنائي الآخرين لم يكونوا كذلك، وقد سبب ذلك شرخًا ووقف عائقًا أمام علاقتنا لعدة سنوات.

إن أكثر ما يثير في نفسي الشعور بالخجل هو أنني احتجت لعدة سنوات لألاحظ أن ابني لم يكن يستفيد من تلك النصائح- من قبيل: "اضبط نفسك يا فتى، وتصرف مثل الرجال"- التي كنت أمليها عليه، من المحتمل أن حاجة "إيفان" تتمثل في أن يرى والده رجلاً حنونًا بإمكانه أن يبكي، ويرغب في الإنصات له، وأن يقول: "هيا حدثني عما تشعر به تجاه ذلك الأمر"، لا أن يقول: "بنيّ، من الأفضل لك أن تتحدث الآن!".

د. "نيكولوسي": ما الذي تتمناه لحياة ابنك؟

الأب: إن أكثر ما أتمناه هو أن يجد ابني السلام وأن يتعلم كيف يكون سعيدًا بما هو عليه، ومهما كان الاضطراب أو الانزعاج الذي يشعر به الآن، أتمنى أن

يصبح سليمًا معافًى بطريقة يراها هو ذاته سليمة وصحية، ولأن عائلتنا مسيحية، أتمنى أن يجد إرادة الرب في حياته.

د. "نيكولوسي": لكن ماذا لو جاء إليكما ذات يوم وقال: "أبي، أمي، لقد بذلت ما بوسعي، لا أستطيع أن أتغير؛ أنا شاذ جنسيًّا"، فماذا ستفعلان؟

الأب: أوه! حسنًا، سوف يكون من المؤلم جدًّا أن أسمعه يقول ذلك، لكنني قطعًا- ودون أدنى شك- سأظل أحبه.

د. "نيكولوسي": هل ستبقى على علاقتك به؟

الأب: قطعًا، كيف لي أن أنهيها؟! إنه ابننا.

د. "نيكولوسي": بالضبط، إنهم دائمًا أبناؤنا.

الأب: مؤخرًا، في أوقات كثيرة بكينا فيها معًا وأفضى إليّ "إيفان" بما يعتمل في صدره حول ما يجري في حياته، وعندما استمعت له، وجدت أنه كان هناك الكثير من الأمور التي فعلتها بدافع الحب له، إلا أنه حينها لم يدرك ذلك، بل رآها نوعًا من النقد والتجريح.

د. "نيكولوسي": وما الذي دفعك للاعتقاد بأن الأمر ليس على ما يرام؟

الأب: عندما بلغ سن المراهقة، أدركت أنه كان يتألم، كان ينظر إلى نفسه باعتباره شخصًا منبوذًا وغير محبوب، ولم يكن مرتاحًا لوضعه، ثم وقعت حادثة الاعتداء الجنسي تلك مع المرشد الطلابي في المخيم، وقد كانت بالفعل جرس إنذار، وعندما اقتربت من ولدي أكثر فأكثر، وجدت أن إقناعه بحبي له واهتمامي بحياته أمر بالغ الصعوبة، لقد بدا كأنه ليس بمقدوره تصديق ذلك.

د. "نيكولوسي": إذن، ألم يتقبل ما كنت تقوله؟

الأب: بلى، وبكينا معًا على ذلك بضع مرات.

د. "نيكولوسي": لا بد أن الأمر كان شاقًّا للغاية.

الأب: إنه جد مؤلم أن تستمع إلى ما كان يعاني منه ابنك، فتتمنى لو كنت تستطيع أن تخلصه من كل الألم والذكريات السيئة والأخطاء التي تتكشف أمامك الآن، وأن تمحوها جميعًا فحسب.

د. **"نيكولوسي":** هناك الكثير من الأشياء التي نتمنى جميعًا كآباء أن لو لم نفعلها، هل هناك شيء من ذلك؟

الأب: نستطيع أنا و"إيفان" الآن أن نتحدث في كل هذه الأمور معًا، خاصةً عندما يكون مكتئبًا ويشعر بالألم، وحاليًّا في أغلب الوقت لم أعد أوجه له نصحًا أو أحاول حل المشكلة، وكل ما أقوم به هو الإنصات، وأحاول أن أدعه يصدمني بكل مشاعره وغضبه، وأتلقى هذا الغضب دون أن أتخذ منه موقفًا دفاعيًّا.

د. **"نيكولوسي":** ما النصيحة التي توجهها لآباء المراهقين الآخرين؟

الأب: حسنًا، لقد كنا محظوظين بما فيه الكفاية ليكون لدينا ابن لا يود أن يصبح شاذًّا، وهذا صنع فرقًا كبيرًا بالنسبة لنا؛ لقد مرت بضع سنوات على وقوع ذلك الاعتداء الجنسي، وندرك أنه لا يوجد حل سريع للمشكلة.

د. **"نيكولوسي":** لا شيء يتغير بين عشية وضحاها.

الأب: إنك محق في ذلك، فأنت مقبلٌ على أيام تقول حينها: "لا جدوى؛ إنه لا يتغير"، وأيام أخرى تكون فيها على يقين من أن المشكلة قد زالت تمامًا، وفي تلك الأيام، تقول لنفسك: لقد أفلح الأمر، الحمد لله! سيصبح ابني سويًّا جنسيًّا؛ لذا، أقول للآباء: "اعلموا أن الأمر قد يكون طويلاً، وقد يصبح مؤلمًا قبل أن يبدأ في التحسن".

لكن عندما أتأمل ما مضى، فإنني أدرك أن الأمر لا يتعلق بتقويم وإصلاح طريقة الكلام أو المشي؛ فالأمر لا يتعلق بـ"أود لو أن "إيفان" لم يكن ليمشي بهذه الطريقة"، أو: "أتمنى لو أنه لم يلوح بيده بهذا الشكل".

د. **"نيكولوسي":** بالطبع، إن الأمر يتعدى بكثير مجرد الطريقة التي يقدم بها ابنك نفسه للعالم.

الأب: في جوهر الأمر، إنه يتعلق بمد يد العون لـ"إيفان" ليصبح سعيدًا، وأن يشعر في الأساس بالراحة والسلام مع ذاته؛ حيث يدرك الخيارات المطروحة أمامه وألا يرغب في أن يصبح شاذًّا، إن علاقتي به قد تحسنت الآن بشكل كبير، وأعتقد أننا واثقون تمام الثقة من قيامنا بما نستطيع فعله لنضع الأمور في نصابها الصحيح».

والدٌ غيرُ مُبَالٍ: "سيمون":

لقد أقلع "سيمون" عن تشبهه بالفتيات بعد خمس سنوات من تدخل والديه، فقد أكدت والدته أنه قد نضج وأن أموره على ما يرام في المدرسة، ولم يعد متقلب المزاج، ويبدو أن مشكلاته الجنسية قد انتهت، إلا أن والد "سيمون" تخلى عنه، وأن الصبي- كما هي الحال مع"تومي"- لا يزال يعاني مشكلاتٍ في الثقة بالنفس.

«د. **"نيكولوسي":** سيدة "مارتن"، كم عمر ابنك الآن؟

الأم: "سيمون" الآن في الثانية عشرة.

د. **"نيكولوسي":** هل تعتقدين أن ميوله الأنثوية في تراجع؟

الأم: بالطبع؛ فأنا لا أرى أنوثةً، لا أرى أي شيء من ذلك على الإطلاق، عندما كان أصغر سناً، رأيت ملابس الأنوثة ومحاولات التشبه بالفتيات، كالرقص؛ إنني أحاول تذكر ما مضى، لقد كان منذ فترة طويلة.

د. **"نيكولوسي":** حقًّا، ماذا عن توكيد الذات لديه؟

الأم: "سيمون" ليس عنيفًا ؛ العنف ليس جزءًا من طبيعته، فقد كان لديه مدربان يتسمان بالإيجابية، وقد أسهما في تكوينه وجعلاه أكثر ثقةً بالذات، لقد سعيت لانتقاء المدربين من أجله، كما طلبت أن ينضم إلى فرقهما بالتحديد.

د. **"نيكولوسي":** هل تعتقدين أن هناك تراجعًا في قلق "سيمون" وإحباطه؟

الأم: بالتأكيد، لم أعد أرى ذلك مطلقًا.

د. **"نيكولوسي":** ما الذي كنتِ ترينه من قبل؟

الأم: أتذكر أنني كنت أرى القلق باديًا عليه قبل سنوات، كنت أرى ذلك بشكل خاص عندما كان يذهب إلى أي فصل دراسي يضم كلاًّ من البنات والذكور، كانت تلك المرة الأولى التي لاحظت فيها أنه يعاني مشكلة، عندما كان عليه أن يواجه الأطفال الآخرين، لقد كان يبكي، ولم يكن يثق بذاته، وكان يرغب في البقاء معي في البيت.

د. **"نيكولوسي":** هل يشعر بتحسن حالته أكثر من ذي قبل؟

الأم: إنني على يقين من أن ابني يثق بذاته في بعض المواضع، على سبيل

المثال، عندما يتعلق الأمر بادائه المدرسي، فإنه يتفوق على الأطفال الآخرين بكل تأكيد، في تقريره الأخير حصل على معدل "امتياز"، إن الدراسة أمرٌ يسير بالنسبة له، ولم أعد أرى أي تصرفات طفولية على الإطلاق، على الرغم من أنني قد أسمعه من وقت لآخر يتحدث بصوت طفولي مما يجبرني على تذكيره بألا يقوم بذلك، أما على صعيد النضج، فإنني أراه أكثر مسؤولية ومراعاة لمشاعري، كما أنه يلتزم دومًا بالمواعيد عندما نذهب إلى أي مكان.

د. "نيكولوسي": إنني لا أتذكر أية مشكلات سلوكية بالنسبة لـ"سيمون" فيما مضى، هل طرأ على الأمر شيءُ منذ ذلك الحين؟

الأم: كلا، لقد كان جيدًا على الدوام، فأنا أعتبره متقد الذكاء؛ لأنه كان دائمًا يتسم بذلك الهدوء الذي يميزه، والذكاء أيضًا، وعندما يمارس الأطفال الشغب والإزعاج، ينشغل "سيمون" بالتعلم.

د. "نيكولوسي": ماذا عن أصدقائه الذكور؟

الأم: إن "سيمون" الآن لديه الكثير من الصبية الأصدقاء الذين يقومون بالاتصال به والاستعانة برأيه في الواجبات المنزلية، وهو يخالطهم وأعرف أنه محبوب بينهم، إلا أنني شخصيًّا أعتقد أنه بسبب وضعية جسده غير المناسبة، أرى ذلك مؤشرًا على أنه لا يكنّ لذاته احترامًا كبيرًا، لكن على الرغم من أن شخصيته محبوبة، لا أزال أظن أنه يفضل العزلة، حتى عندما يشارك الصبية الآخرين تناول الغداء ويمارس كل أنواع الرياضة، "سيمون" ليس رياضيًّا خارقًا، لكنه يحسن القيام بالأمر، يقول المدرب: إنه يلعب بجسده وعقله معًا؛ لذلك فإن كل شيءٍ يتناسب معه.

د. "نيكولوسي": كيف حال علاقة "سيمون" بأبيه؟

الأم: ليست علاقة جيدة جدًّا، فزوجي لم يتعلم شيئًا على الإطلاق؛ فقد يصيح صارخًا في وجه "سيمون"، وأستطيع أن أرى كيف تتأذى مشاعر "سيمون"، بعدها، ينسحب ابني إلى غرفته ولا يرى والده لعدة أيام، ينبغي على زوجي أن يدرك الآن أن هذا الأمر مشكلة، إلا أنه لا يفعل، إنه لا يتمتع بأي ذكاء أو شفقة أو أي شيء من هذا القبيل.

د. "نيكولوسي": هل يلاحظ زوجك ذلك؟ هل يشعر بوجود مشكلة ما؟

الأم: كلا، لا أعتقد أنه يدرك ذلك.

د. "نيكولوسي": إذن، إنه حتى لم يلاحظ الأمر، إذن دعيني أفهم الوضع جيدًا، أحيانًا يوبخه والده، ومن ثم فإن رد فعل "سيمون" هو الانسحاب، وقد يتجنب مواجهة والده لأيام، وقد لا يلاحظ والده الأمر أو أنه- لأي سبب كان- قد لا يرغب في المبادرة وإعادة التواصل مع الصبي؟

الأم: هذا صحيح، وأرى الأمر على أنه قلة تعاطف، وبوصفي أمًّا، فإن غريزتي البديهية ستدفعني لحماية أبنائي، وهذا هو سبب متاعبنا في الزواج، وقد بلغ الأمر أنني لم أعد أحرص على تذكير زوجي، ينفطر قلبي عندما أرى ولدي في خصام مع والده، إلا أنني لا أرغب في التعامل مع زوجي فيما يتعلق بـ"سيمون"؛ لقد نشب بيننا شجار لهذا السبب، وقد أضر هذا الأمر بزواجنا.

د. "نيكولوسي": لذا؛ فإنك لم تحثيه على فعل شيء.

الأم: سوف نعيش في منزلنا على هذه الحال طوال عمرنا دون أن نفعل أي شيء، إن الشيء الوحيد الذي يشاركونه فيه هو مشاهدة التليفزيون، ويشاهدون ما يريده هو، إن تصرفات زوجي صبيانية للغاية».

لقد بذلت والدة "سيمون" جهدًا كبيرًا مع ابنها، إلا أن الصبي لا يزال بحاجة لقدوة مشجعة، على أمل أن تكون هذه القدوة أحد الأقارب الذكور، لتحل محل الوالد الذي تخلى عن دوره.

الاهتمام الحاني من الأب يؤتي ثماره: "برايان":

يلاحظ والدا "برايان" أن وجهه يشع بالسعادة عندما يتذكر والده أن يصطحبه معه، والعبرة في الاستمرار والمواظبة على هذا النهج.

«**د. "نيكولوسي":** سيدة "جونز"، كم عمر "برايان" الآن؟ لقد مضى على آخر زيارتك إلينا أربعة أعوام.

"الأم": إنه الآن في العاشرة من عمره.

د. "نيكولوسي": كيف لكِ أن تقيّمي تراجع حالة الأنوثة لديه؟ هل تغيرت كليًّا؟

الأم: نعم، تغيرت بشكل كبير، لا تزال لديه بعض علامات الأنوثة؛ فمن بين أبنائي الأربعة الذكور، لا يزال "برايان" هو الأكثر أنوثةً؛ إلا أنه لم يعد يقوم بالمزيد مما نطلق عليه "خيارات أنثوية"، يمكننا أن نصف تصرفاته "بالتصرفات الصحية" أو "التصرف كالصبية"، وأنا أعتقد أنه لا يزال يعاني قدرًا ضئيلاً من الأنوثة، وقد يظهر ذلك أحيانا في إيماءاته ولغة جسده، ولا يزال علينا أن نذكره بين الحين والآخر، إلا أنني ألاحظ أن خياراته السلوكية أكثر ملاءمة لهويته الذكورية، وقد صار هذا الأمر واقعًا منذ سنتين.

د. "نيكولوسي": هل تعتقدين أنه يتغير لأنه يعرف أنه سوف يصبح منبوذًا ما لم يفعل ذلك، أم لأنه فقد الرغبة في التصرف بهذه الطريقة؟

الأم: إنني لم ألحظ شيئًا غير مناسب، إنه الآن يتخذ الخيارات المناسبة الصائبة حتى إن لم نكن بجانبه، وأنا أقوم بالتحقق من الأمر، وقد فعلت ذلك لمدة عامين.

د. "نيكولوسي": إذن فأنت تعتقدين أن هناك تراجعًا ملحوظًا في خياراته الأنثوية؟

الأم: نعم، بقدر كبير.

د. "نيكولوسي": كيف لك أن تقيّمي اعتزازه بذاته؟ أتذكر أنه كانت لديه مشكلة مع تقدير الذات.

"الأم": أعتقد أن الأمر سيصبح معركة مستمرة طوال حياته، أرى أن الأمر يتحسن بشكل تدريجي، إلا أنها معركة صعبة بالنسبة له، في بعض الأحيان يأتي إليّ ويقول: "أظن أني أصبحت محبوبًا في المدرسة"، أو: "أعتقد أنني قد أكوّن المزيد من الصداقات"، وأنا أسمعه يردد ذلك كثيرًا، يبدو الأمر كما لو كان يمنح نفسه الثقة، في حين لا يبدي أولادي الثلاثة الآخرون أي تساؤلات عن شعبيتهم.

د. "نيكولوسي": وماذا عن قلقه وإحباطه؟ لقد كان ذلك مشكلة كبرى بالنسبة لـ"برايان"، خاصةً الإحباط.

الأم: لقد كاد ذلك يزول نهائيًا.

د. "نيكولوسي": حقًا؟!

الأم: في الواقع، يمكنني القول بإنني لم ألحظ ذلك طوال العام الماضي، لكنني لاحظت أنه مازال متقلب المزاج؛ إنه يتفكر في ذاته وينظر إلى دواخله ويحب مناقشة أحاسيسه معي، وليس مع والده، لكنه ليس محبطًا؛ فإنني لا أرى ذلك بإمكاني القول: إنه فتًى سعيد.

د. "نيكولوسي": رائع، حدثيني عن صداقات "برايان" مع الذكور؛ كيف يسير الأمر؟

الأم: لا يزال قلقًا من الأصدقاء والعلاقات، منذ أن زرناك لتساعد "برايان"، التحقت بمنصب قائد كشافة، كي تتاح لي الفرصة ليكون لديّ مجموعة من عشرة صبية في المنزل مرة كل أسبوع.

د. "نيكولوسي": هل فعلت ذلك حقًّا؟!

الأم: نعم، وما زلت أفعله؛ ولذا فإن لدينا صبية في منزلنا طوال الوقت.

د. "نيكولوسي": هل يتواصل معهم؟

الأم: لم يكن يتواصل معهم عندما بدأت العمل بالكشافة، لكنه يتواصل معهم الآن، لقد بدأت المجموعة عندما كان في الثامنة من عمره، وأستطيع القول بأنه لم يكن متوافقًا- لم يشعر بالراحة، أما الآن فهو خارج المجموعة الكشفية الخاصة بي، إلا أنه يساعدني في مجموعة الصبية العشرة الذين يأتون إليّ، ويشعر بقدر بالغ من الارتياح في ذلك.

إلا أنني لا أزال أراه يحمل صورة سلبية عن ذاته فيما يتعلق بالشعبية؛ لقد بذل محاولات مضنية بالفعل، خاصة في السنتين الأخيرتين، ليقيم علاقات صداقة يمكنه الحفاظ عليها بالمدرسة، وقد يأتي إلى البيت منتشيًا ويقول: "لقد حصلت على صديق مفضل جديد"، الصبية الآخرون يتصلون به كثيرًا، ويقول المعلم إنه بشعبية واسعة في المدرسة، إلا أن ذلك لم يجد طريقه إلى أعماقه حتى الآن.

في العام الدراسي الماضي، ألحقناه بفريق كرة القدم، وقد كره الأمر، فتركناه يتوقف عن اللعب، لكنه مؤخرًا طلب منا أن نسمح له بلعب التنس والالتحاق بفريق التنس، فقلنا له: "بالتأكيد"، لقد كانت المرة الأولى التي يطلب فيها أن يمارس إحدى الرياضات، ولم يكن ذلك بسبب أنه شخص غير رياضي، فهو لا يتصرف

كالبنات عندما يتعلق الأمر بجسده.

د. "نيكولوسي": حسنًا، قد أقول: إنه أنجز بعض التقدم، لكن ماذا عن نوبات الغضب المزاجية الفظيعة والهياج المفاجئ الذي كان ينتاب "برايان"؟

الأم: تلك النوبات الهيستيرية؟! لم تعد موجودة على الإطلاق.

د. "نيكولوسي": جميعها؟

الأم: لقد كانت تلك مرحلة مخيفة للغاية في حياتي استمرت أربع سنوات، إنني أعود لبعض ملاحظاتي التي دونتها خلال تلك الفترة، ولا أستطيع أن أصدق كيف مررنا بتلك التجربة، لقد كان منزلنا على صفيح ساخن، والآن لم يبق من ذلك شيء.

د. "نيكولوسي": أعتقد أن كتابة المذكرات أمرٌ مفيدٌ للغاية بالنسبة للوالدين، حتى تكون لهما وجهة نظر شاملة حيال التغيير؛ لأننا نعيش حياتنا يومًا بيوم فإننا نفقد رؤية الصورة الكاملة، أما تدوين المذكرات، فيعطي الوالدين إحساسًا بالتقدم فيما يخص جهودهما.

الأم: هذا صحيح، صراحةً، عندما أفكر في حياتي مع "برايان" منذ كان في الثانية من عمره حتى بلوغه السادسة على الأقل، أعتقد أنها كانت جحيمًا حقيقيًا؛ لم أكن لأحلم أن يصبح طبيعيًا كما هو الآن أبدًا، في الحقيقة، لم أكن أظن أنه قد يستطيع أن تكون لديه القدرة على مواكبة المجتمع أو أي شيء.

د. "نيكولوسي": هل واصل والده الاهتمام به؟

الأم: نعم لقد فعل، ولطالما حرصت على تحفيزه كلما نسي، إن "بيل" ينسى أنه يجب عليه أن يظل مساهمًا في الأمر، لكن عندما أذكره، فإنه لا يغضب؛ لأنه يعرف أن ذلك أمر مهم.

د. "نيكولوسي": هل يسدي لـ"برايان" بعض النصائح الطفيفة؟

الأم: ليس بالشكل الذي أتوقعه، ولطالما نشب بيني وبينه شجار لهذا السبب.

د. "نيكولوسي": ألا يلاحظ "بيل" نفس تصرفات الأنوثة التي تلاحظينها؟ أم أنه يلاحظ لكنه لا يقوم بالربط بين حجم تدخله مع "برايان" وسلوكه الأنثوي؟

الأم: لا بد أن يحدث ذلك أمام عينيه وبشكل واضح حتى يلاحظ ذلك.

د. "نيكولوسي": هل يتواصل "برايان" مع والده؟

الأم: نعم، لكنني ألاحظ أنه يصبح أكثر ودًّا مع والده بعد أن يقضيا فترة معًا، أي أنه عندما يقضي "بيل"، و"برايان" الوقت معًا، فإن "برايان" يتواصل مع والده بشكل أكثر تلقائية، وكلانا يدرك ذلك.

د. "نيكولوسي " هذا طبيعي فـ"برايان" يحمل انطباعًا سيئًا عن الأب وعن الذكورة التي يمثلها والده، وعندما يمضي وقتًا ممتعًا مع والده، فإن الصورة الداخلية "للأب السيئ" أو "الأب العادي غير المهم"، تستبدل بصورة "الأب الجيد"، وتدخل تجربته اللحظية الجيدة مع والده في صراع مع الانطباع السيئ المترسخ في اللاوعي عنده.

الأم: لقد اعتدت أن أخبر "بيل" بأنه كـ"الحقنة" بالنسبة لـ"برايان"؛هذا أفضل وصف للعلاقة بينهما حيث يعطي "بيل" جرعة من الاهتمام لـ"برايان"، وفي الحال، خلال اليومين أو الثلاثة القادمة يندفع "برايان" نحو والده بطريقه لم نكن نعرفها، لكن المفعول ينتهي ما لم يواصل"بيل" اهتمامه، ومع ذلك، أرى أن "برايان" ليس في حاجة لمثل هذه الجرعة الكبيرة الآن، إنه لا يحتاج إلا إلى ربتة مناسبة يومية على كتفه، أو إلى ذراع تضمه، والكثير من مثل تلك الأشياء.

د. "نيكولوسي": بالضبط، هذا صحيح، هكذا يكون الأمر، وهل ترين ارتباطًا بين تقلص سلوك التأنث لديه وجرعة الاهتمام والعطف التي يلقاها من والده؟

الأم: نعم، إن الارتباط بينهما كبير، يبدو الأمر كما لو كان سحرًا، لا يمكنك أن توضح الأمر لأحد ما لم يعش في بيتك».

المزيد من الارتياح مع ذكورته: "ريكي":

يبدو أن "ريكي" ذا الأعوام التسعة قد أحرز تقدمًا هائلاً في السنوات القلائل الماضية، لقد حافظ والده على المشاركة في علاجه، وكانت علاقة الصبي بأخيه علاقة طيبة، وأصبح يفهم الفروق الجنسية بشكل واضح.

«**د. "نيكولوسي":** السيدة "سميث"، هل تعتقدين أن تشبه "ريكي" بالفتيات قد قل عما كان عليه من قبل؟

الأم: بالطبع، أرى أننا نواجه الآن نسبة 1 إلى 2% فقط من حجم المشكلة في السابق.

د. "نيكولوسي": هل يقوم الأب بدوره بفاعلية في حياة "ريكي"؟

الأم: أوه، بالطبع.

د. "نيكولوسي": ألم يخل بواجباته؟

الأم: كلا، بل لديه الكثير من الوعي بذلك الأمر، وإن نسي، فسرعان ما يتذكر، أو قد ألمح له ويتنبه على الفور ويعدل في الحال من سلوكه، كان من المعتاد أن يثرثر ويزيد في الكلام وفي الرد الذي قد يقدمه، أما الآن، فإن زوجي ينبه نفسه متى نسي أمر "ريكي"، أو قد يتقبل تلميحاتي دون أدنى مشكلة.

د. "نيكولوسي": هذا الأمر مهم جدًّا للغاية، أتدرين، من بين كل الآباء والأمهات الذين أعمل معهم، كانت الأمهات على الدوام هن الأكثر مشاركة بحماس، أما غالبية الآباء فيجب دفعهم وتحفيزهم، والأبناء الأكثر تحسنًا هم دومًا من ينخرط آباؤهم بشكل فعلي في عملية العلاج. ماذا عن اعتزازه بذاته؟ هل يبدو أن "ريكي" يشعر بتحسن فيما يختص بذاته؟

الأم: من الصعب أن أخبرك بذلك؛ لأننا لم نواجه أية مشكلات في هذا الجانب، جل ما أستطيع قوله أن تصرفه تصرفاتٍ سيئةً فيما يتعلق بالتشبه بالفتيات أمرٌ طوى الماضي صفحته، لقد قمنا بتقديم أنشطة ذكورية، والآن نصطحبه إلى تمرين السباحة، وهو شغوف بالأمر للغاية، كما أن أخاه الأكبر سنًّا يمارس السباحة الآن، هذا الأمر مثير , لأنني لا أحب السباحة ولا البيسبول؛ إنني بالفعل أكره البيسبول! إلا أنه يشاهده مع أخيه في التليفزيون ويتحمسان له جدًّا.

د. "نيكولوسي": وهل يهتم والده بالبيسبول؟

الأم: ليس كثيرًا.

د. "نيكولوسي": إذن، فإن الأخوين يشاهدان البيسبول معًا.

الأم: يشاهد الصبيان مباريات البيسبول ويحاولان أن يؤديا واجبات الرياضيات في الفواصل بين المباريات، لا أعرف كيف يقومان بذلك، كما أنهما يقرأان معًا؛ ويجلسان على طاولة المطبخ، ويقرأ زوجي ما يخصه، بينما يجلس

"ريكي" على الطاولة نفسها يقرأ ما يخصه أيضًا.

د. **"نيكولوسي":** هل تقولين: إن نضجه العام قد تطور؟

الأم: أعتقد ذلك، فقد اعتاد سابقًا أن يتصرف بشكل طفولي، أما الآن فقد تغير الوضع؛ صباح اليوم كنت في المدرسة أراقبه؛ لأنه كان لديهم يوم مفتوح، لم يفاجئني بالتصرف بشكل مختلف عن أي طفل آخر، ولم يتصرف بشكل غير ناضج مثل بعض الأطفال، ولديه فضول لم يكن موجودًا من قبل، ولديه رغبة في المعرفة والفهم؛ ولذا، فإنني أعتقد أنه قد نضج بالفعل، لكنني وددت لو أنني رأيت المزيد من الأصدقاء الذكور المقربين له.

د. **"نيكولوسي":** ماذا عن القلق والإحباط؟ هل لاحظت أيًّا من ذلك؟

الأم: لا تزال الكآبة تعلو وجهه في بعض الأحيان، لكنه لم يعد كما كان بذلك الأسلوب من الاستسلام التام أو الاستلقاء على فراشه غاضبًا، لم يعد هناك ذلك النوع من المبالغة، لم نعد نتساهل مع ذلك مجددًا.

د. **"نيكولوسي":** هل يصاب بالإحباط مثلما كان معتادًا؟ أم هل يصاب بالحزن أو الانسحاب؟

الأم: لا، ليس كما اعتاد من قبل، لكن إذا حدث ذلك منه، فلا بد أن يكون هناك داعٍ للأمر؛ ذلك أن الأمر قد يتعلق بشيء محدد، الآن، لديه رغبة في الحديث عن ذلك.

د. **"نيكولوسي":** هل تسير الأمور على وفاق مع أخيه الأكبر؟

الأم: لقد تحسنت علاقتهما، إنهما يمارسان السباحة ويقضيان المزيد من الوقت معًا، وفي كل يوم، يتدربان معًا في حمام السباحة الخاص بنا، قد يتصرف "جون" بسفهٍ ويتتبع أخطاء "ريكي" في بعض الأحيان، إلا أنه الآن أكثر نضجًا حتى إنني أخبره بالضبط بما ينبغي عليه فعله؛ ومن ثم يفهم أن عليه أن يعامل "ريكي" بشكل مختلف.

د. **"نيكولوسي":** هل تحدث "ريكي" ولو مرة عن كونه صبيًّا؟ هل سبق وأشار إلى اختلاف الصبية عن الفتيات؟

الأم: نعم؛ في الواقع، إنه يفعل ذلك، إليك مثالاً: السباحة، بالأمس فقط جاءني

أحدهم في النادي وسألني إذا كنت سأسجل ابنتي "سو" بفريق السباحة أيضًا، علا صوت "ريكي" قائلاً: "كلا، السباحة لا تناسبها"، وعندما سألته: لماذا يا "ريكي"؟، رد قائلاً: "حسنًا، إنها فتاة؛ إنني لا أريدها أن تتدرب معنا في حمام السباحة"».

النمو بوعي ذاتي، الأب يظل مساندًا: "فيليب"

والد "فيليب" مدرب مشهور لكرة القدم بإحدى المدارس الثانوية في بلدة صغيرة، ولدى العائلة أربعة صبية، ومتمسكة بالقيم الكاثوليكية التقليدية، كان "فيليب" على الدوام الصبي الأكثر وداعةً، وعندما كان صغيرًا، كان هادئًا ومنعزلاً عن إخوته، وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره، لم يكن لديه أي أصدقاء ذكور في المدرسة وبدأ اهتمامه بالمسرح والتمثيل، وعندما التحق بالمدرسة الثانوية، أصبح محبطًا للغاية ولم يكن متواصلاً مع أحد، ثم اكتشفت والدته أنه يقوم بتحميل فيلم إباحي عن الشذوذ الجنسي من الإنترنت، فحددت موعدًا للقائي.

كان "جوليو" والد الصبي محبًّا لكل أولاده، إلا أن وظيفته التي كانت تتضمن منافسات وتدريبات كرة القدم مسائية وأثناء عطلات نهاية الأسبوع، قد أبعدته في الغالب عن منزله، كان لأبناء "جوليو" الثلاثة الآخرين نفس قدرات والدهم الرياضية؛ لذلك كانوا قريبين منه على الدوام، أما "فيليب"؛ فنظرًا لاهتماماته المختلفة، فقد ضاع وسط الزحام، لقد أدى نجاح الأب على الصعيد المحلي مدربًا بالمدرسة الثانوية إلى وضع معايير مرتفعة لأفراد العائلة المتسعة من الأعمام وأبناء العمومة، وكان ينبغي على أبنائه- بمن فيهم "فيليب"- أن يلتزموا بهذه المعايير.

وبعد ثلاث سنوات من العلاج على فترات متباعدة- لكن مع تدخل والده الواعي المهتم بالأمر- تحسنت حالة "فيليب" بشكل كبير، وهو الآن في الثامنة عشرة من عمره والتحق بالجامعة، لقد تحدث إليّ في إحدى جلسات المتابعة:

«**د. "نيكولوسي":** "فيليب"، كيف حال صداقاتك مع الذكور؟

"فيليب ": لقد تحسنت بشكل كبير.

د. "نيكولوسي ": وما أسباب هذا التغيير؟

"فيليب ": أظن أنه بإمكانك القول بأنني قد بدأت ألاحظ أن لديّ بالفعل

صداقات مع ذكور على الدوام، إلا أنني كنت أمنع نفسي من تصديق الأمر.

د. **"نيكولوسي ":** تمنع نفسك؟

"فيليب ": في ذلك الحين، لم أكن أفهم حقيقة العلاقات على مستوى الذكور، كنت أظن أنها أكثر عاطفية، أعرف أنني كنت أعاني من تدني ثقتي بنفسي، أما الآن فقد أدركت أنه كان لديّ علاقات صداقة مع الذكور على الدوام، لكنني لم أسمح لنفسي بتصديق الأمر».

ونظرًا لحاجته وعزلته، تنامت لدى "فيليب" توقعات غير حقيقية فيما يتعلق بالصداقات مع الذكور، كان يرغب في علاقة حميمة تحوي كل شيء أو لا شيء، حتى تعوضه عن مشاعر الفشل في تحقيق التوقعات التي يبدو أن العالم من حوله كان يترقبها منه، ومنذ هذه اللحظة أدرك وجود الأصدقاء الطيبين ووفرتهم لديه وأن علاقات الصداقة مع الذكور لا تتسم بعمق التبعية الشعورية وعلاقات الغرام، خاصةً الجنسية منها.

«**"فيليب":** حينما أتأمل ما مضى، أرى حولي رجالاً كانوا مخلصين، إلا أنني كنت أمنع نفسي من الاستفادة مما بإمكانهم تقديمه لي، ولكن في ذلك الوقت، لم أدرك هذه الإمكانية، لم أكن في سن تسمح لي بإدراك هذه الأمور بوضوح.

د. **"نيكولوسي":** لقد كنت وحيدًا؛ لأنك كنت دائم التفكير قائلاً لنفسك: هذا الرجل لن يكون صديقي أبدًا».

إن الخوف من النبذ والإحساس بعدم القيمة، دفعه لبناء حائط صد من العزلة.

«**"فيليب ":** لقد كنت أشعر بأني مختلف ...لا أعرف طريقتي في التحدث، أو روح الدعابة لديّ، هناك أمور عديدة بدت مختلفة بالنسبة لي.

د. **"نيكولوسي ":** هل تشعر بأنك واحد منهم ؟

"فيليب ": بالتأكيد.

د. **"نيكولوسي ":** إذن أين ترى موقعك بعد عشرة أعوام مثلاً؟ هل ترى نفسك جزءًا من عالم الشواذ؟

"فيليب ": لم أشعر أبدًا بالتوافق مع مجتمع الشذوذ، أعلم أنني لم أولد على هذه الشاكلة، أرى أنهم أشخاص متألمون يعتقدون أنهم بالفعل لا خيار لهم في

الأمر؛ وذلك ما يجعلني أشعر بالأسف تجاههم.

د. "نيكولوسي ": إذن هل تقول: إنك قررت ألا يكون لك في هذا الأمر شيء؟

"فيليب ": بالطبع، ولن تسمح لي أخلاقي بأن أفعل ذلك على أية حال.

د. "نيكولوسي": كيف لك أن تصف نظرتك إلى حياتك؟

"فيليب ": لقد تحسنت كثيرًا ، تعرف أن لديّ هدفًا أعمل دائمًا على تحقيقه، ولديّ تحدٍ أضعه نصب عيني؛ هناك المزيد من التفاؤل، على الرغم من أنني أعرف أن الطريق أمامي سوف يكون طويلاً.

د. "نيكولوسي ": كيف تسير الأمور بينك وبين والدك؟

"فيليب ": لقد توطدت علاقتي بوالدي كثيرًا في الخمس سنوات الماضية».

إرشادات للآباء والأمهات:

لعلك أدركت الآن حاجة طفلك، واتخذت بعض القرارات فيما يتعلق بالتدخل وإعادة توجيه سلوك الطفل بطريقة ملائمة لهويته الجنسية، ولإيجاز نظرتنا الشاملة إلى عملية العلاج، إليك أربع نصائح رئيسية قد تفيدك:

1. من أجل تطوير السلوك الملائم للهوية الجنسية وتقويته، تذكر دائمًا أن التشجيع الإيجابي أكثر فعالية من العقاب، وعندما تريد التخلص من سلوك التشبه بالفتيات المبالغ فيه (أو سلوك التشبه بالذكور المبالغ فيه لدى الفتاة)، استخدم أسلوب رفض واضح وملائم لا ينطوي على عقاب؛ وذلك حتى تكون أكثر تأثيرًا ، أي أنه عليك أن توجه الطفل بحنان لا أن تعاقبه، وعلى الجانب الآخر، فإن تجاهل السلوك غير المناسب أو حتى مجرد رفضه بشكل عشوائي سوف ينقل إلى الطفل رسالة خاطئة مفادها أن بإمكانه الاستمرار فيما هو عليه.

2. إذا أحسست أنك تضع ضغوطا كبيرة على الطفل ليبدأ التغيير، فخفف من طلباتك، وتَحَلّ بالصبر، وأبدِ تقديرًا إيجابيًّا تجاه أقل المجهودات، ومن الأفضل أن تمارس ضغوطًا أقل بشكل متواصل ، بدلا من المبالغة في الضغوط بشكل متقطع .

3.إذا كان ذلك ممكنًا، فاعمل مع معالج نفسي تثق به، ويشاركك فلسفتك فيما يتعلق بالهوية الجنسية بالإضافة إلى أهدافك من العلاج، كما أن عليه أن يقدم تقييمًا هادفًا ونصيحة متخصصة فيما يتعلق بجهود تدخلك.

4.تذكر أن ابنتك أو ابنك لن يشعر بالأمان بعد التخلص من السلوكيات المغايرة جنسيًّا ما لم تكن لديه قدوة إيجابية من نوعه الجنسي نفسه لتجذب اهتمامه إلى التوافق مع الهوية الجنسية المناسبة؛ فإن الطفل بحاجة لأن يدرك أن كونه رجلاً أو امرأة هو أمر جذاب ومستحب.

أعتقد أنك سوف توافقني الرأي على وجود تقدم ملحوظ في حياة كل الصبية الذين تنطبق عليهم حالات اضطراب الهوية الجنسية، والمذكورين في الوثائق أعلاه، وبينما لا تزال هناك حاجة للتطوير في بعض الجوانب، فإن الوالدين ورغم انتهاء العلاج يواصلان الالتزام بتشجيع و تنمية الجوانب الذكورية لدى أبنائهم.

في الفصل التالي، سوف تقرأ عن صبية آخرين بذل آباؤهم جهودًا مضنية لتنمية اعتزازهم بهويتهم الجنسية، وسوف ترى بنفسك ما مروا به من تجارب، وكيف واجهوا التحديات، وكيف ساعدتهم عملية العلاج.

10

يوميات أم

«إنه أمر شاق للغاية أن تعلّمِ الرجولة؛

إنه يتطلب قدرًا كبيراً من التيقظ المتواصل،

لكن عندما أراه الآن مقبولاً بين أصدقائه، وسعيدًا في مدرسته، وغير متهيب من الانضمام للصبية الآخرين..

فإنني أؤمن من صميم قلبي بأني قد فعلت الصواب».

أم لطفل يعاني اضطراب الهوية الجنسية

في هذا الفصل سوف نشارككم بعض المقتطفات من يوميات أم كُتبت خلال الفترة التي كانت فيها تساعد ابنها "تريفور" على أن يصبح أكثر سعادة وأمانًا مع طبيعته كصبي.

كانت مشكلة هوية "تريفور" الجنسية أكثر وضوحًا من غالبية الأطفال في مرحلة ما قبل الشذوذ، في الواقع، حالته ترتقي لتصل وبسهولة لفوضى الهوية الجنسية في مرحلة الطفولة، وعلى الرغم من أن ابنك قد يظهر أعراضًا أقل حدة لنفس المشكلة- وهي ضعف الهوية الذكورية- إلا أنك قد تعرف هنا بعض المؤشرات التحذيرية التي سوف تشجعك على اتخاذ بعض الإجراءات لتعزيز و تدعيم نمو ابنك بهوية جنسية سوية.

وبينما تقرأ هذه المدونات، سوف تدرك حيرة هذه الأم بين أوقات يغمرها اليقين وأوقات تعتصرها الشكوك فيما إذا كانت تتخذ أفضل الخيارات من أجل ابنها، إنها تقدم سجلاً متعمقًا للقفزات والكبوات، الآمال والاحباطات، التي يشعر بها الأبوان أثناء عملية العلاج.

والدة "تريفور" تملك حساسية عالية لحياة ابنها العاطفية، وعلاقتها بابنها علاقة

وطيدة جدًّا، وقد كان كرمًا منها أن تسمح لنا بنشر يومياتها الخاصة.

لم تتوقف جهودها عند تغيير السلوكيات الأنثوية لدى ابنها، بل تعدت ذلك إلى دعم إحساس الصبي الداخلي بالهوية الذكورية؛ في البداية، قدمت لنا خلفية بسيطة عن ابنها:

«إنني أكره عيد الحب، وسندريللا، واللون الوردي، أخافها جميعًا وأخشى أنها قد تفسد ابني؛ لقد كنت أعشق هذه الأشياء الثلاثة حتى بدأت أعاني المشكلات مع "تريفور".

كان "تريفور" طفلاً دائم السعادة والسرور، وكان يستمتع بوقته على الدوام، حتى إنك تنسى أن هناك طفل في المنزل، لم يكن يرتكب الأخطاء أو يلمس شيئًا لا يجب أن يلمسه، لقد كان بهجة بالنسبة لنا، كان طفلاً عبقريًّا، كان يعرف كل حروف الأبجدية عندما كان يبلغ ثمانية عشر شهرًا.

لقد كان عمره ستة أشهر عندما وجب عليّ العودة إلى العمل؛ لذلك عرضت عليّ خالته "لوسي"- العزباء- أن تجالس الطفل خلال فترة النهار، ثم رُزقنا بأخته.

أتذكر أنني عند عودتي للمنزل في إحدى لمرات وكان "تريفور" على وشك بلوغ الثالثة من عمره، وقد كان يلعب مع أخته ويرتدي حذاء أختي "لوسي"، كانت أختي تعتقد أن هذه الحركة مرحة ومسلية، لكنني لا أتذكر أنني كنت أشاطرها هذه النظرة، كنت معتادة أن أجعله يخلع الحذاء بعد برهة، إلا أنني لم أُعِرِ الأمرَ أهميةً.

وعندما كان "تريفور" في الثالثة من عمره تقريبًا، اصطحبته إلى السينما لمشاهدة نسخة "ديزني" من فيلم "سندريللا"، أحببت هذا الفيلم، إلا أنه كان من الواضح أنه أحبه أكثر من ذلك، لا أتذكر إذا كان قد بدأ في التظاهر بأنه يرتدي فستانًا قبل مشاهدة الفيلم أو بعده، إلا أنه في تلك الفترة راح يرتدي قميص النوم الخاص بأخته، ويعتقد أنه فستان، ومجددًا، لم تر والدتي ولا أختي "لوسي" أي ضرر في هذا الأمر، فلم يمنعاه من القيام بذلك.

كنت معتادةً أن أنزع عنه قميص النوم وأخبره بأن الفساتين للبنات، وأن عليه التوقف عن ذلك، ومع ذلك، فقد استمر السلوك، وفي كل مرة كنت أراه يتظاهر بارتداء فستان، كنت أنفجر غضبًا، حتى إنه في آخر الأمر، عندما كان يعرف أنني بالقرب منه، كان يخلع قميص النوم بكل هدوء.

كما أنه في ذلك الحين، بدأ يتحدث عن اللون الوردي، كانت علكة الفيتامينات التي يمضغها ذات ألوان وردية، وبرتقالية، وأرجوانية، وكان دائمًا يختار أي شيء يحمل اللون الوردي، كان لونه المفضل الوردي، وقد اعتدت أن أخبره بأن لوني المفضل هو الأزرق، على أمل أن يغير وجهة نظره، لم أظن على الإطلاق أنه قد ربط اللون الوردي بالأنوثة في سنه الصغيرة، وعلى الرغم من أنني كنت ألبس ابنتي ملابس وردية اللون، فإنني لم أعطِ "تريفور" أي أشياء وردية اللون أو أنثوية.

ثم بدأ يرسم كثيرًا، كان ذلك أمرًا جيدًا، لكنه كان دائمًا يرسم صورًا لفتاة ترتدي رداءً جميلاً وتحني رأسها، كان يحب "ميني ماوس" ولم يكترث بـ"ميكي" على الإطلاق، وعندما كان يشاهد برنامج العرائس المتحركة كانت "ميس بيجي" هي ما تجعله يبتسم، صراحةً كنت قلقةً من أنه سيصبح شاذًّ جنسيًّا آنذاك، لكنني سرعان ما تخلصت من تلك الفكرة، كيف يمكن لصبي في الثالثة من عمره أن يصبح شاذًّا جنسيًّا؟! وعندما كنت أصرح بمثل هذه الأشياء، كانت أمي وأختي تسخران مني، وكانتا تقولان لي مرارًا وتكرارًا: "يا لك من حمقاء!".

في تلك الأثناء، لم يكن في الجوار إلا طفل واحد في عمر "تريفور"، كان "جوي" يعيش على الجانب الآخر من الشارع، وفي أثناء الصيف، عندما كان ابني في الرابعة من عمره، كان "تريفور" وأخته يلعبان مع الصبي الصغير، كان "جوي" شرسًا بعض الشيء، وربما كان يضرب الأطفال الآخرين بشكل مبالغ فيه، لكن ابنتي كانت تجيد التعامل معه، إلا أن "تريفور" لم يستطع أن يفعل ذلك، لقد اعتاد أن يأتي إلى المنزل هربًا من "جوي"، وفي الواقع، سرعان ما آل الأمر إلى عدم رغبة "تريفور" في الخروج من المنزل مطلقًا، كان يستمتع بالبقاء في المنزل ومشاهدة التليفزيون.

في ذلك الوقت، كنت أعتبره طفلاً لطيفًا فطنًا لا رغبة له في الشجار، ولو كان ذلك جزءًا من طبيعته، فإن الأمر على ما يرام؛ فبعض الصبية يتصفون بهذه الصفة.

ينبغي عليّ القول بأن علاقتي مع ابني كانت علاقةً جميلة، على الرغم من أنني أستطيع القول بأنني بكل صراحة لا أميز أيًّا من أبنائي عن الآخرين، إلا أنني شعرت أن "تريفور" "توأم روحي"، وكنت كثيرًا ما أقول ذلك لزوجي "جيم".

لقد عانينا أنا و"جيم" بعض المشكلات في التواصل لبضع سنوات، فزوجي هادئ جدًّا وقليل الكلام بكل ما تعنيه الكلمة، فهو يعتقد أن بإمكانه الإجابة عن كل الأسئلة إما بـ"نعم" أو "لا"؛ ونظرًا لأنه لم يكن يعرف أبويه الحقيقيين، فإن "جيم" (وعائلته بالتبني) كانوا يتسمون على الدوام ببعض الجمود العاطفي، ولك أن تصدق أو لا تصدق، في الواقع كنت أجد هذه الصفات في "جيم" محببةً إلى نفسي! كنت أعتقد أن "جيم" من النوع القوي الصامت، (في السنوات الأخيرة، قد لاحظت أن عائلته بأكملها تتسم بالبرود العاطفي).

أحبني "تريفور" وكان يرغب في البقاء بجواري دائمًا، لقد كان كبريائي ينتشي فرحًا في كل مرة يختار "تريفور" البقاء بدلاً من الذهاب مع والده، وقد كان ذلك يحدث دائمًا، ولاحظت أنه قد يتظاهر بلبس فستان أو يتحدث عن اللون الوردي، وكنت أثنيه عن ذلك دومًا، لقد كنا متوافقين بشكل تام، حتى إنني كنت أستطيع أن أقول له أي شيء، لقد كنا نتشارك في روح واحدة.

وأتذكر كيف كان يلعب بالمناديل الورقية متظاهرًا بأنها فساتين جميلة، كما أتذكر لعبه بحقيبة "مينى ماوس" الخاصة بأخته، وكيف كان الاثنان يلعبان معًا بالدمى، في ذلك الحين، بدأ القلق يتسرب إلى نفسي، وذات ليلة دعوت الله وسألته أن يلهمني الصواب، كنت أعرف أن حماتي وأختي تعتقدان بأنني سخيفة، كانتا تؤكدان لي: "سوف يكبر ويتخلص من تلك الأشياء"، ونظرًا لأنني لا أملك خبرة عن الأطفال الآخرين، كنت- بأمانة- لا أعرف إن كان سلوكه طبيعيًّا أو غير طبيعي.

وقبل شهرين من بلوغ "تريفور" الخامسة من العمر، لاحظت أنه يفوقني أنا وابنتي في الأنوثة، لقد أصيب "تريفور" وأخته بالتهاب اللوزتين في ذلك العام وقضيا في المنزل قرابة شهر أثناء مرضهما، كانا يقضيان الوقت في مشاهدة التليفزيون، وأتذكر أنه بمجرد أن يستيقظ "تريفور" من النوم يفتح التليفزيون ويتسمر أمام الشخصيات الخيالية، حتى إنه لم يكن يرغب في التحرك من أمام التليفزيون طوال اليوم، حتى لكي يأكل. كان يشاهد تلك الأفلام الكارتونية دائمًا، خاصةً التي تحتوي منها على شخصيات أنثوية، ولم يكن يشاهد أي شيء من عينة المسلسلات الكارتونية الذكورية، ولم أكن أرى أي ضرر في مشاهدة سلسلة حروب النجم حتى شاهدت "تريفور" في غرفة الطعام يضع لعبة ثلاثية الشكل على

رأسه ويتظاهر بأنه الأميرة "ليا".

في تلك الآونة، صار صوته أكثر حدة، قريبًا من أداء الأغاني، صوتًا أنثويًا متكلفًا، وبدأ يكثر من البكاء.

كما أنه حدث له شيءٌ آخر خلال هذه الفترة؛ لقد أصيب "تريفور" فجأةً بالخوف من مغادرة المنزل تمامًا، وعندما أحاول أن أصطحبه إلى حصة المكتبة المدرسية أو الألعاب الرياضية، كان يصاب بالذعر ويصر على أن أصطحبه أنا أو أخته ونمسك بيده ونبقى معه طوال الوقت، كان هناك ثلاثة من الصبية في حصة المكتبة، وعندما كان يراهم، كان يتجمد في مكانه، في بادئ الأمر، كنت أعتقد أن الصبية يضايقونه، حتى جلست في الفصل وقمت بمساعدة أمين المكتبة لكي أشاهد ما يجري؛ لاحظت أنه على الرغم من محاولة الصبية أن يتعاملوا بلطف مع "تريفور"، إلا أنه كان لا يزال خائفًا منهم، وفي أحد الأيام، عندما لم أبق معه بالغرفة، فر خارجًا منها، لقد صار الفصل الذي كان يستمتع به دائما أكبر مخاوفه الآن.

الأمر نفسه تكرر في حصة التربية الرياضية، عندما كان يحين دور "تريفور" في الأداء، كان يفعل ما يخبره المدرب به، لكن على خلاف الصبية الآخرين، كان حريصًا للغاية على ألا يلحق بنفسه أذى، وبعد أن يؤدي دوره، كان يسعى دومًا إلى الجلوس مع الفتيات، وقد قالت لي إحدى الأمهات التي كانت تجلس بجواري: "إن ابنكِ طيبٌ جدًّا مع الصغار، إنه مهذب دومًا مع ابنتي".

ولاحظت أنه يحب اللعب مع الفتيات الصغيرات قبل بدء اليوم الدراسي؛ كان يقول: "انظروا إلينا، فتاتان وصبي!"، وتنفست الصعداء، فعلى الأقل لا يزال يعرف أنه صبي!

وكنت على يقين أن بكاء "تريفور" المفرط وخوفه من الذهاب إلى الدروس والبقاء مع الأطفال الآخرين- خاصةً البنين- كان بسبب عدم شعوره بالارتياح مع نفسه، لقد كنت متأكدة من هذا لأنه كان توأم روحي، ومع ذلك، فقد كانت المكالمة الهاتفية مع الطبيب النفسي مكالمةً قاسية، من الصعب أن تتحدث عن علة بدنية لحقت بطفلك، لكن الحديث عن علة شعورية تشير إلى حالة شذوذ جنسي هو أمرٌ أكثر صعوبة.

شرحت للدكتور "نيكولوسي" أن ابني يحب التظاهر بأنه يلبس فستانًا وأنه يحب اللون الوردي، وبينت للدكتور كيف كان الصبي يتصرف في الحصص الدراسية التي كنت أصطحبه فيها، وأنه كان يحاكي الفتيات في صوته وحركاته، في هذه الفترة بدأ ابني يجلس على قاعدة المرحاض عندما يتبول، بعد أن كان في السابق يتبول واقفًا.

كان د. "نيكولوسي" خير عون، لكنه يوافق على أننا أمام مشكلة خطيرة، وما أثار إعجابي أنه كان يستطيع أن يصف شخصية "تريفور" قبل أن أتحدث؛ من واقع خبرته مع المرضى الآخرين، أدرك أن "تريفور" يخاف من أن يتعرض لأذى بدني، ومن ثم لم يرغب في أن يلعب لعبًا خشنًا، ولم يكن متوافقًا مع الرياضة، وأنه قطعًا كان مولعًا بالخيال.

كان أول ما طرحه عليّ د. "نيكولوسي" من أسئلة حول نوعية الصور التي رسمها "تريفور"؛ كان ولدي يرسم صورًا للفتيات في فساتين جميلة، ولم يرسم صبيًّا على الإطلاق، لقد كانت تلك مشكلة، وقد أخبرني د. "نيكولوسي" بأنه في هذه السن يرسم الطفل عادةً ما يعبر عنه فهمه لذاته وإحساسه بنفسه، شعرت بأنني سأنهار، الجماد الوحيد الذي كان يرسمه هو المنازل، وكان ذلك أمرًا سيئًا أيضًا؛ فالمنزل يمثل الأمان، وهو اهتمام أنثوي أكثر من أن يكون ذكوريًّا.

أما السؤال التالي الذي طرحه الدكتور "نيكولوسي"، فقد كان عن علاقة "تريفور" بأبيه: هل يجري باتجاه والده عند عودته إلى المنزل؟ إن "جيم" يقضي بالفعل وقتًا مع الأطفال، على الرغم من أنه يقضي معظم الوقت خلف مقود السيارة في وظيفته بائعًا متجولاً، وعندما يعود إلى المنزل يكون منهكًا، وبالنسبة لما يقدمه "جيم" للأطفال، فلا تزال مشكلته في أن فكرته عن قضاء الوقت معهم تكمن في مشاهدة ما يود على التليفزيون بينما يجلس الأطفال في الغرفة نفسها، إن "جيم" مثل أبيه، لا يحب الرياضة ولا يلعب الكرة مع الأطفال على الإطلاق.

غالبًا ما أسمع "جيم" يردد في غضب وتذمر بأن الأطفال لا يرحبون به ولا يتوقفون عما يقومون به ليحيوه عند عودته إلى المنزل، وأن عليه أن يذهب إليهم، لكن لعله إذا لعب معهم بشكل أكثر خصوصية- لا أن يشاهد التليفزيون فحسب- فقد يبدون المزيد من الاهتمام بالبقاء معه.

وقد أوضح لي د. "نيكولوسي" أنه خلال الفترة الحرجة للهوية الجنسية عند الطفل (تقريبًا من عمر سنة ونصف حتى سنتين)، لم يرتبط ولدي حتمًا بوالده، ويحدث ذلك عادةً عندما يرى الابن الأكثر حساسيةً ورقةً والده منتقدًا مبتعدًا وغير موجود؛ لذلك فإن الصبي يعتقد أن الأب لا يحبه- وأن هذا ليس ما يجب أن أكون عليه، ويمثل ذلك سببًا في هذه النوعية من الصبية سريعي التأثر بالنقد ومتقلبي المزاج؛ وذلك لتكوين عزلة دفاعية ضد الأب، ومن ثم التوافق مع الأم، لكن تبقى بالطبع حقيقة أن "تريفور" صبي، وأنه مهما كان تفكيره برغبة معينة في طبيعته، فلن يغير ذلك من الأمر من شيء!

لقد أخبرني د. "نيكولوسي" أن علاج "تريفور" يجب أن يرتكز في الأساس على تحسين علاقته بأبيه، كما وضح أنه يجب على زوجي أن يكسر "العزلة الدفاعية" التي صنعها الصبي، وذلك بأن يكون رقيق الطبع مع "تريفور"، وأن ينتهز كل فرصة للعمل مع ابننا، موضحًا الفروق ما بين الذكور والإناث مع رفض السلوك الأنثوي بشكل لطيف، وكان من المهم ألا يصيح في وجه "تريفور"؛ لأن ابننا يتأذى بسهولة، وينبغي عليه أن يتحلى مع "تريفور" بالصبر بشكل كبير، يفوق صبره على باقي الأطفال، وعندما ينتابه غضب عارم، فعليه بكل بساطة أن يبتعد، حتى لا يجعل "تريفور" يراه غاضبًا أو محبطًا منه.

كان يجب علينا أن نعزز من ذكورية "تريفور" وسلوكه الذكوري، وأن نشرح الفروق التشريحية بين البنين والبنات، وأن نستبدل خيالات "تريفور" الأنثوية بمشاعر الحب، ونعود به لأرض الواقع؛ فببساطة لا يمكن لـ"تريفور" أن يستمر في التظاهر بأنه فتاة، إنه صبي، مهما كانت أوهامه بشأن طبيعته.

كان زوجي يلعب معه المصارعة كل ليلة، حتى يساعده على أن يتغلب على خوفه من الألعاب الخشنة والوقوع على الأرض مع الذكور الآخرين، كما كان من المهم أيضًا أن يوضح زوجي أن "تريفور" يحرز بعض التقدم في المصارعة على أبيه، فقد كان جزءًا من المشكلة عدم إحساس "تريفور" بالتوافق، وأنه ليس جيدًا كباقي الصبية، وكان ينبغي على "تريفور" أيضًا ألا يقضي يومه يلعب مع الفتيات.

ونظرًا لأن الهدف الأساسي من العلاج كان يتمثل في ترميم العلاقة بين زوجي وابني، فماذا كان دوري في كل هذا؟! فبعد التناوب ما بين الدعاء والبكاء،

والمشاركة بشكل كبير في الموقف، كان عليّ أن أواجه بعض الأمور.

أولاً- عليّ أن أقف بصلابة أمام حماتي وأختي "لوسي"، مهما كان اعتقادهما أو مدى اعتراضهما على ما نقوم به أنا و"جيم" لمساعدة "تريفور"، فعليهما أن تحترما رغباتي عندما طلبت منهما ألا تدللا "تريفور" ولا تشجعاه على التصرف كالفتيات، وسواء وصفت بـ"السخيفة" أو لم أوصف، فعليّ أن أواصل السعي لعلاج ابني.

لقد استمرت والدتي في إصرارها على أنه ليس هناك ما يثير القلق بشأن "تريفور"، نعم، عندما زارتنا، رأته يلبس ملابس الفتيات ويلعب بالدمى ويرسم صورًا متقنة لفتيات بملابس النوم، ومع ذلك استمرت في إنكارها لوجود أي مشكلة في الأمر، حتى إنني أتساءل عما إذا كانتا تجدان متعة في إطلاق العنان لخيالات ابني؟! هناك الكثير من الراحة في تربية صبي لطيف وناعم يمكنك أن تحتضنه ويبادلك نفس المشاعر، كان عليّ بالطبع أن أخبر كلاً منهما بمشكلة "تريفور" لأنه قضى الكثير من الوقت معهما.

وكان عليّ أن أشجع زوجي على زيادة ارتباطه العاطفي بابنه، فبدأت أقترح أنشطةً مشتركة لهما معًا ليقوما بها في نهاية الأسبوع، والتي كانت تشمل التنَزُّه والتزلج والبولينج، واشتريت ألعابًا لابني، ولكنني طلبت من زوجي أن يعطيها له، ووضعت قائمة تذكير في حقيبة "جيم"، وهذه القائمة تشبه "قواعد قيادة الإرشادات المرورية"، وتوضح كيفية التعامل مع ابنه: (1) أحببه بشدة حتى تجذبه إلى عالم الذكور. (2) كن لطيفًا معه؛ ولا تصرخ في وجهه. (3) اصطحبه معك إلى العمل... وهلم جرًّا.

في بعض الأحيان كنت أحس أنني مخرجة للعرض بأكمله، بينما كان ابني وزوجي ممثلين سلبيين، وكنت دائمًا أبحث عن سبل لإبراز أوجه الشبه بينهما، حتى إنني كنت أشتري لهما قمصانًا متماثلة كلما أمكن الأمر.

العثور على أولاد في مثل عمر "تريفور" ليلعب معهم وتكوين صداقات مع أمهاتهم كان أمرًا مهما؛ كنت في حاجة إلى مراقبة سلوك هؤلاء الصبية الآخرين أثناء لعبهم مع "تريفور"، وفي الغالب كنت أسأله بشكل عارض عما فعلوه معًا، إنني محظوظة بأن ابني يخبرني بما يجري، لقد صار الآن يرفض اللعب بألعاب

البنات؛ لأنه يفهم أن للصبية ألعابًا مختلفة.

كان هدفي أن أجعل "تريفور" لا يخشى اللعب مع الصبية "الحقيقيين"، فانتقيت الصبية الذين ظننت أنهم الأكثر ذكورة في عيد ميلاده، وذلك وفق ما أخبرني به عنهم، وعقدت صداقات مع أمهاتهم ودعوت الصبية للحضور، لم يكن "تريفور" يشعر بارتياح معهم في بداية الأمر، لكن يوما بعد الأخر يندمج في اللعب معهم، وهو الآن نشط في مشاركة هؤلاء الصبية اللعب في فناء المدرسة، وأقوم بتشجيعه في كل مرة يلعب معهم.

هذه خطوة رائعة للأمام! قبل فترة ليست بالبعيدة، كان يكره الذهاب إلى المدرسة، وكان يمضي الليلة السابقة للذهاب إلى المدرسة في البكاء والتوسل: "أرجوكِ لا تدعيني أذهب!"، كما كان يخبرني بأنه ليس لديه أي أصدقاء، وفي عدة مرات بينما كنت أذهب لأعيده من المدرسة، كنت أراه من خلف الزجاج يلعب في فناء المدرسة وحيدًا على الدوام، ويراقب الصبية الآخرين، كنت أحس بالأسى من أجله، وكنت أتمنى لو كان له صديق حقيقي من الصبية، لكنه كان لا يدع لنفسه فرصة الاقتراب من أي صبي في المدرسة، وكنت أعلم أنه يرغب في أن يكون ودودًا، لكنه لم تكن لديه الشجاعة ليقوم بذلك، وأعتقد أنه كان يخشى الأطفال على الدوام.

لقد سجلت "تريفور" أيضًا في تدريبات السباحة والتمارين الرياضية، وكنت أحرص أن يكون برفقة بعض أصدقائه؛ حتى يزداد حماسه للذهاب، وفي المساء، كنت أقص عليه قصصًا عن الصبية، وأستبدل بأسماء الشخصيات اسمه وأسماء أصدقائه، حتى إنني كنت أنسج قصص مغامرات من وحي خيالي عنه وعن أصدقائه، حتى يتسنى له أن يسمع اسمه ضمن بقية الصبية.

وعلى الرغم من أنه من المفترض أن يكون لزوجي الدور الأساسي في كل هذا، فإنني في الواقع كنت من يرهق نفسه في الأمر، فأنا من أقوم بترتيب حضور جميع الصبية إلى المنزل، وأتأكد من أن سلوكهم إيجابي التأثير على "تريفور"، وكنت أنا دومًا من يدفعه نحو تمارين الرياضة، إن أختي "لوسي" تنتقدني لقيامي بكل هذا الجهد، لكن عليّ أن أتجاهلها.

ولم تكن لديّ أية ضمانات على أن كل هذه الجهود ستكون مثمرة؛ مما جعلني

أدعو الله من أجله كل ليلة، إلا أنني أعتقد من صميم قلبي أنني قد فعلت الصواب، وأن ابني يشعر براحة أكثر مع نفسه مما لو تركت الأمر يسير على ما كان عليه.

الأمر ليس سهلاً، وأستطيع أن أتفهم لماذا لا يواصل الأبوان العلاج حتى النهاية، فقد كان الأمر شاقًّا جدًّا في البداية؛ لأنني حينها شعرت بأنني بالفعل قد أجرح مشاعره، إلا أنني بعد أن رأيته الآن مقبولاً بين أقرانه، وسعيدًا في مدرسته ومتحفزاً للذهاب إليها، غير خائف من التواجد بين الصبية الآخرين ومتحمسًا للعب معهم، ويتلقى دعوات لأعياد ميلاد الكثير من الصبية الآخرين- فإني لست نادمةً على ذلك؛ فهو لا يزال واثقًا فيّ، وكل يوم أحتضنه وأقبِّله وأخبره بأنني أحبه، وهو يعاملني بالمثل؛ إذن فلم يؤثر ذلك على علاقتنا دون شك.

بعد كل ما قلته وفعلته، ليس هناك ما أندم عليه، فأنا واثقةٌ بأنني فعلت الصواب، سوف أكون دائمًا قريبةً من ابني بغض النظر عما ستؤول إليه الأمور، أعرف قلب هذا الصبي تمامًا كما أعرف قلبي، وأكنُّ له عظيمَ حبي، لكن لأنني أحبه، فإنني أتمنى له الأفضل؛ لذا فإنني سوف أواصل الدعاء له بأن يكبر ويصبح قويًّا وواثقًا من رجولته.

هذا أملي ودعائي لـ"تريفور"».

بعد أن أمدتنا والدة "تريفور" بمعلومات عامة حول ارتباك هويته الجنسية، سمحت لنا الآن أن نرى اليوميات التي كتبتها أثناء فترة العلاج التي أمتدت لعام ونصف واحتفظت بها لعشرة أعوام .وسوف تلاحظ أن التقدم المشجع الذي يحققه "تريفور" غالبًا ما يتبعه تراجع إلى العادات القديمة: خطوتان للأمام، وخطوة للخلف، إنها معركة تستهلك وقتًا، ولكن كما سيتضح لك، شيئًا فشيئًا بدأت تجني الثمار:

«**10 فبراير:** مضى أسبوع على زيارتنا للدكتور "نيكولوسي" في عيادته، وعلى الرغم من أنه قد شرح لنا بوضوح ما يجب علينا فعله، إلا أن تعليم صفات الذكورة أمر شاق للغاية، بالضغط المتواصل، دفعت "جيم" ليلعب مع "تريفور" ألعابًا "قتالية" كل مساء؛ حيث يمسك به ويحضنه ويقبله ويقول له كلمات أبوية من الحب والحنان، إنه يحضر الهدايا لـ"تريفور" وأي شيء يساعد على بناء جسور الثقة بينهما.

وإذا رأينا "تريفور" يفعل أي شيء أنثوي، فإننا نخبره بأسلوب لطيف بأن ذلك ليس من أفعال الصبية، ونحاول أن نوضح له ما ينبغي على الصبية فعله، على سبيل المثال: أخبرته بأن الصبية يتبعون طريقة تبول مختلفة، وذلك ما يجعله صبيًّا، فالصبية لا يمكن أن يكونوا فتيات، والفتيات لا يمكن أن يكنّ صبية.

كانت الأيام الأولى شديدة القسوة، كان "تريفور" في البداية يثور قليلاً، ولكن ليس بالقدر الكبير الذي نبهنا له د. "نيكولوسي"؛ ونظرًا لأن زوجي لا يمضي وقتا طويلاً بالمنزل، كان لزامًا علي أن أتعامل مع ذلك في أغلب الوقت، قبل يومين، تحدثت مع "تريفور" عن الأمور الأنثوية التي قام بها، ثم ذهبت إلى غرفتي وأجهشت بالبكاء، وتمر أوقات كان "جيم" يبكي فيها أيضًا، كنا نشعر في أوقات بأننا نغرق بأشياء تفوق طاقتنا، كان علينا أن نخبر "تريفور" بالكثير من الأمور التي عليه ألا يفعلها، لقد كان "تريفور" دائمًا فتًى طيبًا، إنه فقط لم يكن معتادًا أن يقال له أنك أخطأت ، وألاحظ أنه لم يعد يأتي إليّ دون تردد كما كان في السابق، لأنه يخشى أي سلوك سأنتقد هذه المرة.

16 فبراير: عدة مرات كان "تريفور" يقول فيها: "إنني لا أشعر بأنني على ما يرام، أود أن آوى إلى الفراش"، وبعد ذلك ألاحظ أنه كان مستلقيًا أمام التليفزيون وقد وضع فوقه قميص نوم أخته، كما اعتاد من قبل عندما كان يتظاهر بأنه فتاة، وأخبرته في الحال أن يتوقف عن فعل ذلك.

لقد لاحظت أنه عندما يُقبِّل "تريفور" والده فور عودته من العمل إلى المنزل، أن القبلة أصبحت أكثر إغراء، تبدو كقبلة زوجة لزوجها لا قبلة ابن لأبيه، من المحتمل ألا يلاحظ زوجي ذلك، وأعتقد أنه ليس لديه أدنى فكرة عن الموضوع.

ومنذ أن بدأنا زيارة د. "نيكولوسي"، وجب عليّ أن أعيد توجيه سلوك ابني عدة مرات، إن الأمر مؤلم للغاية، لكننا أنا و"جيم" مثابران، بالنسبة لي، أصبح لحياتي معنًى جديد؛ سأفعل كل ما بوسعي لخوض هذه الحرب، كما أصبحت علاقتي بـ"تريفور" وطيدة للغاية، حتى إنه يثق بي؛ لذا، فإنه على الرغم من صعوبة الأمر بالنسبة إليه، فإنه يصدق كل ما أحاول أن أشرحه له».

عند هذه اللحظة، كان عليّ أن أتدخل وأخبر هذين الأبوين بأن يتراجعا، ففي غمرة حماسهما لتغيير السلوكيات الأنثوية، كانا مفرطين في اتباع طرق قد تلحق

الأذى بعلاقتهما بالابن، إن التعزيز الإيجابي، والمقصود به الإطراء، هو أفضل الطرق لتغيير السلوك، لا تغرق الصبي بالتوقعات الجديدة دفعةً واحدة، وفوق كل ذلك، لا تحتقره!

«**26 فبراير:** لقد لاحظت لفترة طويلة أن "تريفور" لا يستطيع أن ينظر إلى الرجال مباشرة أثناء حديثه معهم، على الرغم من أن الحديث مع النساء لا يمثل له أي مشكلة، وأستطيع ملاحظة توتر ابني عند حديثه مع الرجال.

إنه لا يصاب بالتوتر عند حديثه مع الرجال فحسب؛ بل إنه يشعر أيضًا بعدم الارتياح عندما يكون عاريًا أمام الذكور، ولقد بدأت ألاحظ التباين بين درجة ارتياح "تريفور" عندما يكون عاريًا في وجودي (ذلك الأمر لا يمثل له أي مشكلة)، على النقيض من تعريه في وجود أبيه، لقد صادف اليوم أن تبول "جيم" أمام "تريفور" وكان باب الحمام مفتوحًا، بعدها ذهب "تريفور" للتبول، لكنه أغلق الباب حتى لا يراه والده، فقال له "جيم": "الرجال لا يشعرون بالخجل من الرجال الآخرين".

لكن على الجانب الإيجابي، لم أعد أرى "تريفور" يتظاهر بلبس فستان مجددًا، كما أنني لا أسمعه يقلد صوت أخته الصغيرة أثناء اللعب، على الرغم من أن صوته لا يزال متكلفًا وحادًّا، لقد توقف عن الرسم مؤخرًا، ليس بمقدوري إلا أن أتساءل عما إذا كنا نكبح السلوك فحسب، وأنه سوف يظهر على السطح مجددًا فيما بعد أم لا؟ ومع ذلك، بدأ "تريفور" يلعب لعبة يقوم فيها بدور الطبيب وأخته بدور الممرضة، أما المريضة فقد كانت دمية "ميني ماوس"، لكنني تركت الأمر يسير كما هو؛ لأن "تريفور" كان يتصرف من منطلق شخصية ذكورية، لقد لاحظت أنه لم يعد يبكي كثيرًا مثلما كان، وقد كان البكاء شغله الشاغل قبل بدء العلاج.

1 مارس: لقد مضى على بدء العلاج ثلاثة أسابيع تقريبًا، أرى بعض الإشارات المشجعة؛ بالأمس- على الرغم من خوفه- التحق "تريفور" بحصة المكتبة وحده، ونظرًا لأنني أخبرته بألا يجلس مع الفتيات، فقد جلس بجوار أصغر صبي وجده، لكنه على الأقل كان صبيًّا! أحسست بطعم النجاح، ومنذ يومين، ذهب مع والده إلى العمل- وهو أمر لم يكن ليفعله من قبل، لا يزال رافضًا للصور الذكورية ويفضل أنواع الصور الكارتونية المحايدة مثل "دافي دوك" أو "دامبو" أو "بامبي"، كما أنه لا يزال رافضًا للون الأزرق، وهو حاليًّا يفضل اللون الأحمر.

6 مارس: لم يعد "تريفور" يذكر اللون الوردي، وقد زاد شجاره مع أخواته البنات، وقد يبدو غريبًا إلا أن ذلك قد يكون مؤشرًا جيدًا، آمل ذلك؛ لأنه الآن بدأ ينمي اهتمامات مختلفة عنهن.

إن التليفزيون يدفعه للعودة إلى عالم الخيال- بالأمس رأيته يقلد العصفور "تويتي" مجددًا، فحاولت أن أجلس معه عندما يشاهد هذا الكارتون حتى أتأكد من عدم وجود قدر كبير من التصرفات الأنثوية متاحة أمامه ليقلدها، أو على الأقل حتى أشرح له- مرة أخرى وبأسلوب لطيف- قائلةً: "تريفور"، الصبية لا يتصرفون هكذا. يقول د. "نيكولوسي": "إنه يجب على "جيم" أن يقوم بذلك التنبيه أكثر مني".

11 مارس: اليوم خطوة للخلف، حاول "تريفور" اليوم إخفاء عضوه الذكري داخل جسده هذا الصباح، كما أنه يرفض ارتداء القميص المماثل لقميص والده، لقد بدا في نهاية الأسبوع متراجعًا وازدادت حركاته أنوثة بشكل طفيف في الحركات، كما أنه كان يصرخ كثيرًا، أشعر الآن أن قضاءه وقتًا طويلاً جدًّا مع والده يجعله يتراجع، الأمر يتعلق بالإفراط، علينا أن نتعلم كيف نوازن الأمر بطريقة صائبة.

17 مارس: في منزل ابنة عمه "كاثي"، لعب "تريفور" بمكعبات الليجو بينما لعبت ابنتي و"كاثي" بدمى باربي. مع ذلك، بدلاً من أن يشيد بناء بالمكعبات، راح يشكل عقدًا وتاجًا ووضعه على رأسه، وقال: إنه أمير؛ شرح له زوجي بلطف أننا نرتدي الملابس التنكرية فقط في عيد الهالوين، وفي هذا المساء، وهم يقومون بلعبة المنزل لعبت ابنتي دور "الأم" وأراد "تريفور" أن يلعب دور "الأطفال"، إلا أنني أخبرته بأنه ينبغي عليه أن يلعب دور "الأب" لأنه صبي.

24 مارس: حفل عيد ميلاد "موري"، كان هناك ستة صبية بالتمام والكمال، وقد ربح "تريفور" المركز الثالث في سباق الأكياس، وفاز في مسابقة البطاطا الساخنة، آمل أن يساعده ذلك على بناء الثقة في ذاته.

26 مارس: لقد أدى "تريفور" أداءً جيدًا بالفعل في حصة التربية الرياضية، ومؤخرًا، اشترى قميصًا وشورت للعب البيسبول من المتجر، وأثناء مشاهدته التليفزيون، راح يعبث بأزرار جهاز الفيديو في مناسباتين الأولى عندما ظهر على الشاشة الدب الوردي، والثانية عندما ظهرت فطائر الكرز المرحة؛ لقد بذل جهدًا

كبيرًا كي لا يطيل النظر إليهما، ثم راح ليتناول إفطاره بدلاً من أن يكمل مشاهدة الكارتون.

يختار "تريفور" أيضًا "ماريو" أو "لويجي" بالإضافة إلى "تود" (المحايد جنسيًّا) عندما يلعب لعبة ماريو 2 على جهاز "نينتندو"، كما أنه أصبح بلا شك أكثر جرأة عندما يتحدث، وتحسن أسلوب عراكه بشكل كبير.

28 مارس: كنت أنا و"جيم" نلعب بالنينتندو، وكان "تريفور" يحث والده على أن يهزمني في اللعبة! هذه بداية، على الرغم من أن "جيم" لم ينتبه إلى مغزاها؛ فقبل بداية العلاج، كان "تريفور" يشجعني دائمًا حتى أهزم والده، إنني سعيدة جدًّا بذلك ولا أشعر أنها تجرح كبريائي! هذه الظهيرة، قام "تريفور" برسم صور يتشابه فيها الذكور والإناث تمامًا، وأوضحت له الاختلافات.

5 أبريل: لا يزال "تريفور" خائفًا من التحدث إلى الأولاد في حصة المكتبة، لكنه على الأقل يجلس معهم، أصبح يمسك بالكرة بشكل أفضل وقد خسر بضعة أرطال من وزنه؛ لأنه أصبح أكثر نشاطًا ويقضي أوقاتًا أقل متسمرًّا أمام جهاز الفيديو.

13 أبريل: الأسبوع الماضي كان يلعب لعبة صائد البط على جهاز "نينتندو"، وهي لعبة للصبية استعارها من صديقه "جوي"، كما أنه في بعض الأحيان قد يطلب أن يلعب الكيك بول أو لعبة قذف الكرة وإمساكها، كما أنه في الليل قد يطلب أن يشاهد مباريات البيسبول في التليفزيون، وأحمد الله أنه الآن يطلب من والده التواجد بالمنزل! تلاحظ "لوسي" أن صوته أصبح عميقًا وأنه أكثر شراسة الآن.

22 أبريل: أحضرنا كرة بيسبول صغيرة لـ"تريفور" وشجعناه على اللعب، ووجدنا أن طريقة قذفه للكرة ذكورية نوعًا ما، (ستفاجأ بالأمر عندما تشاهد صبية مختلفين، وكيف أنه هناك طريقة ذكورية محددة لقذف الكرة أو ضربها)، ولم يعد يتراجع أو ينسحب من اللعب مع "تومي" ذلك الصبي الخشن جدًّا الذي يقطن في الجوار.

أراد "تريفور" اليوم أن يذهب مع والده ليأتيا بشاحنة "جيم" الجديدة، والآن يفضل والده عليّ طوال الوقت، لم تعد علاقتي بابني وطيدة كما كانت من قبل، أشعر أنني أودع صغيري؛ لم يعد بيننا أي وجه للشبه، إنه لشعور قاسٍ لأننا كنا

قريبين من بعضنا، لكنني بكل أمانة أعتقد أنني أقوم بالأمر الصائب له.

إن صوته يصبح أكثر عمقًا في بعض الأحيان، لقد قام الأحد الماضي بضرب ابن عمه "إيدي" الذي يكبره بثمانية أعوام؛ لأن "إيدي" قد ضرب "كاثي" ابنة عم "تريفور"، وبالأمس، اختار زوجًا من الجوارب ليرتديها لأنه أراد أن يتشبه بوالده.

28 أبريل: أعتقد أنه لم تعد الشكوك تساور "تريفور" بحقيقة أنه صبي، يقول: إنه في يوم من الأيام سوف يتزوج فتاة لطيفة وينجب منها أطفالاً كثيرين، وعلى الرغم من أن "تريفور" لم يقل من قبل مطلقًا: إنه سوف يتزوج صبيًّا، إلا أنه كان يبدي ممانعة عندما أخبره أن عليه أن يتزوج بفتاة، لم يكن ليتصور أنه سيصبح أبًا.

29 أبريل: اليوم، لعب "تريفور" بكرة البيسبول الصغيرة مع والده، إنه الآن يحب والده حقًّا، هذه الليلة قال: إنه سوف يرتدي قميصه ذا اللونين الأسود والأحمر يوم الأربعاء، وفي يوم الخميس سيرتدي قميص "نينتندو" (أعطيت "جيم" هذا القميص حتى يقدمه إلى "تريفور")، إنهما الآن يلعبان لعبة صيد البط معًا.

إنه لأمر مدهش أن يبدو صوته أكثر غلظةً وبلوغًا عندما يتحدث عن لعبة النينتندو؛ فقد تفوق فيها، كما أنه يختار المزيد من ألعاب النينتندو بما فيها الألعاب الرياضية، بدلاً من خياراته السابقة التي كانت جميعها تدور حول الخيال والقلاع.

2 أكتوبر: لقد التقيت بمعلمة "تريفور" لأرى كيف تسير أموره في الفصل، فقد قال د. "نيكولوسي": إنه يجب عليّ أن أخبر المعلمة بمشكلة "تريفور" دون أن أغرقها بالكثير من التفاصيل عن طبيعة المشكلة، هو دومًا مع الصبية؛ لذا أنا على ثقة من أن "تريفور" يبذل جهدًا معي لحل المشكلة».

إنني أشرح دائمًا للأبوين أن بإمكانهما أن يكسبا تعاون معلمي الطفل ومدربيه من خلال الإيضاح لهم أن ابنهما لا يشعر بالأمان تجاه طبيعته الذكورية، "إننا بحاجة للعمل معًا لتعزيز اعتداد هذا الطفل بذاته فيما يتعلق بهويته الجنسية وأن نساعده على أن يكون واثقًا وسعيدًا لكونه ذكرًا"؛ هكذا يجب أن يخبر الوالدان المعلم.

«**7 أكتوبر:** مشاكل: مؤخرًا لم أعد أرى ذلك التقارب بين "تريفور" ووالده؛

حيث حصل "جيم" على ترقية في العمل وأصبح مشغولاً جدًّا بعمله، وفي الغالب أصبح سريع الغضب من الأطفال بعد عودته بسبب قيادة السيارة طوال اليوم، في الوقت الحالي لا يبدي "تريفور" أي اهتمام بالرياضة، ولم يعد والده يشاهد التليفزيون معه.

16 أكتوبر: بدأ "تريفور" تدريبات السباحة اليوم في النادي، في البداية كان خائفًا من الذهاب وأرادني أن أبقى بجانبه، ولم يكن ذلك مسموحًا به لأولياء الأمور، مع ذلك، فقد شاهدته عبر باب آخر (دائمًا أخشى أن أرسل الحمل الصغير إلى المسلخ)، وقد قام بالأمر بشكل جيد، لقد أوضحوا له كيف يغطس ويدور أسفل الماء، كان متحمسًا جدًّا بعد التدريب حتى إنه قال: إنه يود الذهاب إلى التدريب كل يوم، وليس ليوم واحد في الأسبوع فحسب، وعندما عاد إلى المنزل، كان في الواقع يلعب بكرة البيسبول الصغيرة، ثم طلب منى أن أحضر له حلقة لكرة السلة.

كان "تريفور" يرسم كثيرًا في الأسبوع الماضي، وكان يرسم بنين وبنات، عادة بالحجم نفسه، ولا توجد سطوة لجنس على آخر، لقد عادت علاقته وطيدةً بأبيه كما كانت، وراح "جيم" يشاهد معه المباريات الرياضية مجددًا، أعتقد أن تدريبات السباحة قد أعطت لـ"تريفور" بعض الثقة الذكورية التي كان في حاجة ماسة إليها فعلاً.

9 نوفمبر: كان يلعب اليوم مع أخته وابنة أختي، ولاحظت أن "تريفور" كان يتظاهر بلعب دور الملك وأن الفتاتين الأخريين كانتا الملكة والأميرة، لقد كان أمرًا مبهجًا أن أراه يتقمص الدور الذكوري، حتى ولو كان في قصة خيالية.

5 فبراير: مر الآن عام كامل على العلاج، لا يزال "تريفور" يعاني قلة ثقته بذاته، على الرغم من قبوله بدور الذكر- حيث يلعب دور الأب والملك، وما إلى ذلك- إنه الآن يستطيع تحمل الألعاب العنيفة أيضًا، ويلعب في فناء المدرسة.

26 مارس: لقد لاحظت المزيد من رسومات الفتيات والقلوب... إلخ، في فترة عيد الحب، هذه مشكلة؛ لأن ذلك ما أخبرهم المعلم بأن يرسموه، حاولت أن أتحدث إلى "تريفور" عن حقيقة أن الصبية لا يرسمون صورًا لفتيات، ولاحقًا رأيته يلون صورة لفتاة في كتاب تلوين؛ لم يكن يلون الصورة بل كان يحاول طمسها.

إن أهم ما في الأمر ليس إعاقة قدرات "تريفور" الإبداعية- التي هي موهبته

الطبيعية- بل ثنيه عن استخدام خياله في التظاهر بأنه فتاة.

في حفل عيد ميلاده، قمت بدعوة كل الصبية في فصله، بالإضافة إلى ثلاثة صبية من فصل آخر، وزميله في تدريب السباحة- خمسة عشر صبيًّا، ولا توجد فتيات- أي شيء يساعد على ترسيخ صورة الذكر، وجعلت شغلي الشاغل أن أعقد صداقات مع أم أي صبي في عمره، وأدعو هؤلاء الصبية على الدوام للعب معه بعد المدرسة، في بعض الأحيان، أشعر بأنني منهكة، إلا أنني أحس بأنه ثمن ضئيل يجب عليّ دفعه لتجنب دفع ثمن باهظ على المدى الطويل، إذا أصبح "تريفور" شاذًّا جنسيًّا.

كانت هناك فتاة زميلة لـ"تريفور" من فترة الحضانة، راحت تقبله في حفل كان يحضره، إنه يتحدث الآن عن الزواج من هذه الفتاة! رسمت له شجرة العائلة وأخبرته بأنه يومًا ما عندما يتزوج، سأضع اسم الفتاة في المربع بجوار اسمه وأرسم فروعًا لكل طفل من الأطفال الذين سينجبونهما، كما تحدثت معه وقلت: إنه عندما يصير أبًا ستكون زوجته أمًّا، أما أنا فسأصبح جدة ووالده سيصبح جدًّا، وقد قبل ذلك دون أي تحفظ أو شك.

إن هذا مهم جدًّا بالنسبة لـ"تريفور" أن يعي هذه التصنيفات، فالتشبه بالإناث والتوهم بأنه يستطيع أن يكون ذكرًا وأنثى، وأمًّا وأبًا، وزوجًا وزوجة، في نفس الوقت- قد تصبح تشويهًا للواقع يبقى طوال الحياة.

2 أبريل: لاحظت مؤخرًا أن العلاقة بين زوجي وابني تتأرجح ما بين الدفء والبرود، وفي الوقت الحالي، فإن علاقة "تريفور" بـ"جيم" فاترة؛ لقد أخبره زوجي بأنه سوف يبني له بيتًا في شجرة في غضون بضعة أسابيع، إنني على يقين من أن ذلك سيشعل الدفء مجددًا في أواصر العلاقة، "تريفور" متشوق جدًّا للبدء، ويسألني دومًا متى سيقوم أبوه بذلك.

5 أبريل: هناك مشكلات اليوم. لقد ذهبنا إلى النادي وشاهدنا سباق سباحة للرجال؛ حيث كان أبناء عمومة "تريفور" يتنافسون، جلس "تريفور" بالقرب من حمام السباحة جلسة القرفصاء، واتخذ وضعيات أنثوية، بينما كان يشاهد الصبية يتنافسون في حمام السباحة، لم نكن نتصور أنه سوف يتصرف على هذا النحو، لقد كان تقريبًا يتدلل جنسيًّا، بدا الوضع كما لو كان يفعل بالضبط خلاف ما يفعله

أغلب الصبية عندما يستعرضون محاولين ترك انطباع قوي لدى زملائهم الأكبر سنًّا، نادينا عليه وأخبرناه- سرًّا بالطبع- بأن يغير من جلسته ويتصرف كصبي ذكر حتى لا يظن الأولاد الأكبر سنًّا أنه طفل صغير أو صبي يقلد البنات، لقد بدا كما لو كان يريد حقًّا لفت انتباه الصبية الأكبر سنًّا، لكنه لم يكن يعرف كيف يقوم بذلك كصبي يقف معهم على قدم المساواة.

12 مايو: اليوم أفضل حالاً! كل الصبية في النادي (الذين كانوا جميعهم أكبر من "تريفور" عمرًا) قفزوا في حمام السباحة، وقد كانت المياه شديدة البرودة، ولكن "تريفور" أجبر نفسه على القفز في المسبح أيضًا! كان أمرًا جسورًا يشير إلى الذكورة، وطوال اليوم، كان في حالة يمكنني أن أطلق عليها "ذكورة مرتفعة".

ما أسعدني كثيرًا هو أن المعلم أعاد إلى الأطفال رسمتين كان كل واحد منهم قد رسمها لنفسه، الأولى رسمت في سبتمبر، وأتذكر خوفي من رؤيتها معلقة في الفصل؛ لأن ابني جعل الملابس تبدو في الرسمة كما لو كان يرتدي فستانًا! أما الصورة الأخرى فقد تم رسمها في أبريل، وتنفست الصعداء لأنه رسم نفسه صبيًّا- دون أدنى شك في ذلك، كان في الصورة يرتدي بنطالاً وكان شعره قصيرًا ولم تبدُ عليه أي ملامح أنثوية على الإطلاق.

15 يوليو: بالأمس لحق "تريفور" بوالده وهو يرتدي قفاز البيسبول (كانا في طريقهما إلى التدريب)، لقد تأثرت جدًّا بالمنظر، في هذه اللحظة، أردت البكاء عليه وعلى ما يجب عليه أن يواجهه في هذه السن المبكرة من حياته، لا أظن أنه قد يصبح لاعبًا ماهرًا يومًا ما، إلا أنني أدرك أنه يريد أن يقدم أفضل ما عنده.

إن الصبي المرتبك جنسيًّا ليس بحاجة لأن يصبح "رجلاً فحلاً"، إن لم يكن الله قد وهبه قدرات بدنية عالية ، فقد أنعم الله عليه بقدرات فنية ، مع ذلك، فإنه من المفيد بالنسبة له أن يكون قادرًا على الأقل على قذف الكرة وممارسة بعض الرياضات بشكل مناسب، وإلا فسوف يدفعه الشعور بالخجل وعدم التجانس مع الصبية الآخرين إلى تعزيز إحساسه بالاختلاف.

6 سبتمبر: في نهاية الصيف، أحسست بتراجع طفيف، لم يكن شيئًا أنثويًّا، لقد كان النفور من الأب، والميل نحو الأم، بالإضافة إلى صوت مصطنع حاد بعض الشيء، لكن في آخر أسبوعين من شهر أغسطس، اصطحبه والده في شاحنته

الجديدة في رحلة لصيد السمك، ولاحظت تغيرًا كاملاً؛ تغيرًا ذكوريًّا، ومنذ ذلك الحين أصبح يلعب بسيارات الماتش بوكس، لقد أعد موقفًا لسياراته أعلى صندوق الحذاء الرياضي، وراح يلعب بتلك السيارات.

إنني أعرف أن الكثير من اهتماماته سوف تتركز على الجانب الفني، لكنني أرغب بالتأكيد في أن يفهم أمور الرجال وألا يتهيب رؤيتهم.

20 سبتمبر: إن "تريفور" يبدي اهتمامًا بالبيانو وقد سألت د. "نيكولوسي" عما إذا كانت دروس البيانو مناسبةً في هذا الوقت، فقال: "نعم، بالطبع، ما دامت تلك موهبته الطبيعية، لكن أحضري له معلمًا ذكرًا، ويفضل أن يكون معلمًا ذكرًا متزوجًا".

الليلة، كان "تريفور" يلعب بورق اللعب مع أختي "لوسي"، بينما راحت هي تغنى أغنية "سندريللا" من فيلم "سندريللا"- وهي النسخة التي أنتجتها شركة "ديزني"- وبدأ ابني يتضايق من ذلك، حقًّا إن أختي ليست عونًا على الإطلاق!

30 أكتوبر: منذ بداية العام الدراسي كان هناك فتور بين الأب والابن، وواجهنا صعوبة في التغلب على ذلك، ومنذ ذلك الفتور، لم يعد "تريفور" يلعب بسيارات الماتش بوكس أو لعبة صيد البط.

هناك معلم شاب للصف الثاني، وسوف أطلب أن يدرس "تريفور" العام المقبل، حتى يدرك أن التعليم ليس حكرًا على النساء فحسب، كل يوم أسأله بشكل عفوي وبطريقة تلقائية دون أي تطفل على الإطلاق: من كان يجلس بجانبه عندما يستقل الحافلة المدرسية؟ كان يجلس دائمًا بجوار الصبية، مع ذلك، يدهشني التوافق بين التغير في سلوكه وعلاقته الآنية بوالده! فعندما لا تكون علاقتهما وطيدة، ينتكس إلى بعض التصرفات الأنثوية، ولا تزال علاقتهما متأرجحة بشكل منتظم».

تلاحظ والدة "تريفور" تناقض الهوية الجنسية عند ابنها بشكل صائب؛ فمنذ عام مضى، كان "تريفور" مرتبطًا بها وبالأنوثة التي تمثلها؛ أما حاليًّا، فإنه متردد في الارتباط سواء بالهوية الجنسية الذكورية أو الأنثوية، ويتمركز هذا التناقض حول أمرين؛ أولهما: عدم يقين "تريفور" من قدرته على القيام بأمور الصبية، وأنه لا يملك المؤهلات اللازمة ليقوم بدور الذكر؛ وثانيهما: جاذبية والده المتقلبة والتي تمثل له هدفًا أعلى للهوية الذكورية.

«**24 نوفمبر**: عادت المياه إلى مجاريها في علاقة الأب بالابن؛ ذهبت أنا و"تريفور" إلى معرض عالم البحار في سان دييجو، واصطحبت الأطفال وأمي و"لوسي"، وبكى "تريفور" من أجل والده لأنه كان يفتقده!

في الرابع والحادي والعشرين من نوفمبر، رأيت "تريفور" يتعارك مع "آلان"، وكان يؤدي ذلك بشكل جيد، كما حصل على ميدالية في السباحة الأحد الماضي في النادي الريفي، وكانت بالنسبة له دفعة كبيرة لذاته الذكورية، لقد بدا أنه محل إعجاب من الصبية الآخرين في المدرسة، وعندما كان يمسك بالكرة، كان يشعر بسعادة غامرة وبدهشة من ذاته، إنه يدرك أنه يستطيع القيام بالأمر، وسوف يذهب الليلة إلى صالة البولينج مع "جيم".

2 يناير 1992: في بداية ديسمبر، انحرفت علاقة "تريفور" بأبيه عن مسارها الطبيعي قليلاً، كان "تريفور" يرغب في أن يرى والده "يقفز فرحًا" عندما يطلب منه أن يفعل شيئًا، وإن لم يفعل الأب ذلك، كان "تريفور" يستشيط غضبًا، كان لديه عرض مسرحي في الكنيسة أثناء أعياد رأس السنة، وقد اختار أن يلعب دور أحد الحملان في الإسطبل، بدلاً من دور النبي يوسف أو راعي الغنم أو الرجل الحكيم، وقد أصابنا ذلك بخيبة أمل.

وفي الحادي عشر من ديسمبر، ذهب طلاب فصله في نزهة لمشاهدة أحد عروض الباليه لتشايكوفسكي وقامت معلمته (التي تحدثت إليها من قبل عن مشكلته) بوضعه في مجموعة مع خمس فتيات، لقد تضايقت من حدوث ذلك، لكنني تركت الأمر يمر دون تعليق.

31 ديسمبر: حدثت أمور كثيرة منذ أعياد رأس السنة حتى اليوم، تجعلني أشعر نوعًا ما- هل أجرؤ على قول هذا؟- بأن ابني يسير على الطريق الصحيح فعلاً ويحرز تقدمًا لا ريب فيه.

في البداية، قام "تريفور" ووالده برسم الكثير من الأشياء خلال فترة أسبوع عيد رأس السنة، وأهدى والده كتيبًا ألفه في المدرسة، (في العادة كان يهدي كتيباته إلى "أمه").

وفي الحادي والثلاثين من ديسمبر، كان لدينا حفل، وقد حضر "آلان"، إنني أخشى دائمًا من تأثير "آلان" على نفسية "تريفور"، لكن في يوم رأس السنة كان

"تريفور" صبيًّا مختلفًا؛ أكثر ذكوريةً، ولم يتهيب "آلان".

واليوم عندما عاد والده من العمل انتزع "تريفور" قبعة أبيه ووضعها على رأسه وتركها هكذا، وفيما سبق، كان يرفض دومًا أن يرتدي أي شيء من ملابس أبيه، وإن ارتدى شيئًا كان سريعًا ما يخلعه، حاولت ابنتي أن تأخذ منه القبعة، لكنه لم يدعها تفعل ذلك، ثم بدأ يسخر منها بأسلوب استهزاء الصبية الصغار من البنات الصغيرات.

في تلك الليلة، كان "تريفور" مع والده في الفراش يتحدثان عن النظام الشمسي لمدة قرابة نصف ساعة، ولاحظت أن صوته كان حقيقيًّا- دون أي تكلف أو تأنث، كان كما لو أدرك سن البلوغ، أشعر الليلة كما لو أننا قد خطونا خطوة فارقة نحو الأمام.

اتصل صديق آخر وطلب من "تريفور" زيارته في الغد، أخبرني "تريفور" بأنه لا يرغب في الذهاب وأنه يود أن يقضي الوقت مع عائلته في المنزل، "تريفور" يبدو أكثر أصرارًا اليوم! إنه عادة يرغب في أن يكون مجاملاً ولا يضع اعتبارًا لذاته ولا يعبر عما يريده، قال: إنه لن يمانع أن يأتي صديقه إلى هنا، إلا أنه يود البقاء في المنزل، أشعر الليلة أنه كما لو كان قد وجد ذاته أخيرًا، وأنه سيصير كيانًا كاملاً متكاملاً.

3 يناير: رسم "تريفور" اليوم في المدرسة صورةً له هو ووالده يعبران جسرًا مستقلين شاحنة والده الجديدة، أدعو الله أن تكون هذه نهاية هذا الكابوس.

5 يناير: في الليلة الماضية، صنع "تريفور" مضمارًا لسباق السيارات مستخدمًا الكثير من اللوحات الورقية ولصقها معًا، وأجرى سباقًا بين سيارات الماتش بوكس الخاصة به، لقد عاد للعب بها الآن من جديد، أما الأطفال الآخرون فقد راحوا ينادونه "أبي" (إنه يلعب هذا الدور!)، وقد حاول أن يجعل صوته أجشّ كالبالغين ليلعب دور الشخص البالغ.

في الليلة الماضية، أراد أن يبقى مستيقظًا طوال الليل مع والده، لقد لعبا صيد البط على جهاز النينتندو، كأنهما لم يلعباها منذ أمد بعيد، إنهما يلعبانها مجددًا، أشعر كما لو أن "العزلة الدفاعية" ضد والده تنهار بالفعل وأنه يشعر بزيادة انتمائه إلى عالم الرجال.

17 يناير: في الثالث عشر من يناير، كتب "تريفور" على الكمبيوتر- بمساعدة من شقيقته في التهجئة- عبارة: "أبي شخص مميز، أريد أن أصبح مدير مبيعات في يوم من الأيام، وأذهب للعمل معه، إنني أحب أبي"، كما لاحظت أنه لم يعد كما في السابق عندما كان يؤثر الانسحاب ويشعر أنه منبوذ اذا انتقده والده أصبح الآن يصمد ويقاوم، إنني سعيدة جدًّا لرؤية هذا الإصرار، لقد راح يرسم لنفسه صورًا وهو يفوز بالألعاب الأوليمبية، أشعر بالسعادة الغامرة لأن هذه هي خيالاته تجاه ذاته كذكر».

إلا أن الصراع لم ينته بعد؛ حيث يوضح الجزء التالي في هذه اليوميات هشاشة وسرعة تأثر الطفل الحساس؛ فبينما الطفل ذو الجلد السميك يتألم لفترة قصيرة من التوبيخ والنقد الجارح، ولكنه يستعيد توازنه بسرعة ويواصل حياته بشكل طبيعي، فإن الصبي الحساس يتعامل مع النقد على أنها انتكاسات تدفعه للرجوع إلى عالم التخيلات الأنثوية.

«**20 فبراير:** كم أنا حزينةٌ لما أكتبه! فقد كنت أظن أن أسوء ما في المعركة قد ولى! الأحد الماضي، كان زوجي في مزاج سيئ، وسمعته يصرخ في الأطفال بعنف، يبدو أن "جيم" قد نسي- في بعض الأحيان أتساءل إن كان يهتم بالتذكر بشكل كافٍ في الأساس- أن "تريفور" حساس لأي توبيخ، قد تتقبل ابنتاي الأمر، لكن "تريفور" لا يستطيع.

قبل نوبة الغضب تلك، قال "تريفور": إنه يرغب في البقاء في المنزل هذا الصيف والعمل مع والده في حديقة الخضراوات، والآن، منذ نوبة غضب "جيم"، رأيت انتكاسة كبيرة، رأيته مستلقيًا تحت بطانية "ميني ماوس" وقد ارتدى قميص نوم أخته كما كان يفعل عندما كان يتظاهر بلبس فستان، إنا متأكدة من أنه كان يفعل ذلك، ومنذ ذلك الحين لم يبدِ "تريفور" أية رغبة في النوم مع والده، وهذا مؤشر قوي على أن الأمور قد انحرفت عن مسارها الصحيح.

غدًا يوافق عيد ميلاد "تريفور"، سوف يبلغ السادسة من العمر، وقد تمت دعوة خمسة عشر طفلاً، بجانب أختيه، رسم صورة للحفل وكانت أختاه أكبر ما في الصورة وأكثر ما فيها وضوحًا، كشخصيات محورية، أعرف أن ذلك كله أمرٌ سيئ، لكن زوجي لا يرى ذلك.

يستاء "جيم" عندما أواجهه، ومع ذلك، فإنني إن لم أذكره بما يحتاجه ابننا، لا شيء يتم إنجازه، إنه لا يلعب ألعاب القوى والاشتباكات مع "تريفور" ما لم أخبره بذلك، إنه الآن يجلس ويشاهد التليفزيون فحسب، من الواضح أن ذلك لا يساعد ابننا.

إنني أشعر بالتعب والإحباط وأشعر بأني وحيدة في هذه المعركة، إلا أنني أحب ابني وأرغب في الأفضل له، أدعو ألا ينقلب ذلك مرةً أخرى، إن الوقت بدأ ينفد و"تريفور" يكبر في السن، لا تزال لديه رغبة في أن يصبح قاضيًا، وعندما أسأله عمن سيتزوجها عندما يكبر، فإنه يقول: "فتاة لطيفة، وسوف أصبح أبًا ولديّ الكثير من الأطفال".

وحتى هذا القدر القليل من الانتكاس يفطر قلبي، لقد ظهرت "العزلة الدفاعية" ضد ذكوريته مجددًا، وأستطيع إدراك إحساسه بالضعف والحساسية للنقد.

23 فبراير: إنه أمر مدهش ما يمكن ليومين من الرفقة الطيبة والحنونة مع والده أن تصنعه؛ بالأمس، اصطحبت ابني للتسوق، وطلب مني أن أشتري له سيارات ماتش بوكس، وأهديته بالأمس نعلين للصبيان من القطن لونهما بني، ولم يجدهما مثيرين للاشمئزاز، كما أنه كان في رفقة "جيم" بالأمس ونام بجانبه على الأريكة، ولعبا معًا طوال الليل، واليوم لا يزال يطلب من والده أن يلعب معه، لقد تنبهت أنه لا يمكن لأي أم أن تقوم بذلك بمفردها؛ فالأمر برمته يعتمد ويتمحور حول سير العلاقة مع الأب.

28 مايو: في فصل الربيع هذا العام، ظل "تريفور" طريح فراش المرض ثلاث مرات إثر إصابته بالتهاب المعدة والحمى الصفراء، وكعادته أثناء مرضه، ألاحظ بعض الانتكاس والمزيد من السلوك الطفولي والأنثوي، وكان الأمر الذي التصق بذاكرتي هو استخدامه لقيمص نوم أخته كغطاء للنوم، فبالنسبة له، كان قميص النوم ذلك يبدو على الدوام مؤشرًا لسلوك انتكاسي أو أنثوي، بالإضافة إلى تشغيل الفيديو ومشاهدة أفلام "ديزني" التي تظهر فيها شخصيات أنثوية.

مرة أخرى "جيم" لا يقدم العون، بإمكاني أن أحاضر عليه بما يجب عليه القيام به حتى يزرقّ وجهي، لكنه بكل بساطة لا يبدو قادرًا على فعل المطلوب منه، كما أنه لا يعرف كيف يتواصل تواصلاً فعالاً مع ابنه بشكل منتظم، أخشى أن الأمر لا

يشكل أولوية بالنسبة له، على الأقل كما هو بالنسبة لي، ومؤخرًا لم يكن بينهما أية ألعاب بدنية، ولا يحدث ذلك على الإطلاق ما لم ألحّ على "جيم" وأذكره، ثم ينظر إليّ باستياء لأنني أتحمل المسؤولية وأخبره بما عليه فعله، وهو ما يجعلني مكبّلة.

على الجانب الآخر، بدأ "تريفور" في ممارسة كرة القدم، ولديه مدرب رائع يحتضن اللاعبين ويعزز حقًّا من ثقتهم، خاصة عندما لا يؤدي أحدهم بشكل جيد، في الوقت الراهن، لا توجد لدى "تريفور" ذرة من الثقة عندما يكون في أرض الملعب، لكن بمساعدة معلمه، بدأ يثابر، إلا أنه قد تأهل لجائزة أفضل لاعب ناشئ الأسبوع الماضي، الأمر الذي جعلني شديدة الفخر به.

إنني أحارب إدارة المدرسة بضراوة من أجله حتى الحصول على معلم ذكر من الصف الثاني ليدرسه، ليس الأمر سهلاً؛ لأنه على ما يبدو لا يوجد من يتفهم الوضع، تحدثت اليوم إلى معلمته في الصف الأول عن الأمر، وأكدت لي أنه لا شك صبي سليم ومحل احترام من زملائه، وأني مجنونة إذا فكرت أنه بحاجة لتأثير ذكوري، وفي عبارتها الثانية سألتني عما إذا كان قد تعافى تمامًا من التهاب المعدة؛ لأنه يبدو خجولاً جدًّا بين الأطفال في الفترة الأخيرة! لماذا لا تفهم الأمر؟! إن هذه المرأة تعيش بمنأى عن شخصيات الأطفال، ألا ترى كيف ينتكس سريعًا عندما يلحق به أذًى؟ أتمنى لو أنها توليه عناية أكثر، لا أستطيع الانتظار لانتهاء هذا العام الدراسي!

8 أغسطس: إن "تريفور" يؤدي أداء رائعًا في الألعاب الرياضية، ومعلمه يطيل له المديح، لكن أكثر ما ترك انطباعًا قويًّا في نفسي هو عندما يتحدث إلى الصبية الآخرين في فصله ممن لا يعرفهم جيدًا، أجده ينظر إليهم وجهًا لوجه ويتحدث إليهم بكل ثقة ندًّا لندٍّ، وتلك لحظة فارقة من التطور.

كما تحسنت علاقته بوالده الآن حتى إن "جيم" قد اصطحبه للعمل عدة مرات وأخبره بما يفعله طوال اليوم عندما يقود السيارة في جولة للمرور على عملاء الشركة، وقد أخبرني "تريفور" منذ يومين أنه يرغب في الذهاب إلى أكاديمية حرس الحدود، مع العلم أن ذلك يعني ترحاله في عُرض البحر، إنه يعتقد أن العمل الحكومي سوف يساعده على تحقيق هدفه بأن يصبح قاضيًا في المحكمة العليا!

إن كان عليّ أن أصف هذه التجربة بأكملها، فسوف أقول: إنها تشبه إصيص

زهور صحراوية لدي، لقد حصلت على إصيص جميل به زهور صحراوية لونها أحمر زاهٍ بمناسبة عيد الفصح، وللأسف، نسيت أن أرويه، وذات يوم، نظرت إلى الإصيص ورأيت الزهور قد ذبلت وكنت على وشك أن أتخلص منها، وعلى الرغم من اعتقادي بأنه لا أمل فيها، قمت على أية حال بريها وذهبت إلى النوم، وفي صباح اليوم التالي عادت هذه الزهور الذابلة للحياة مجددًا! وتفتحت الزهور الصحراوية الحمراء الجميلة، إنها الزهور نفسها التي كانت ذابلة وميئوسًا منها، إن "تريفور" يذكرني بهذه الزهور لأن النتيجة في الحالتين كانت فورية؛ إن تهتم به يزهر؛ وإن تتجاهله يذبل، عندما يكون "جيم" مشغولاً جدًّا ولا يستطيع قضاء الوقت معه، يعتمد "تريفور" عليّ، لكن عندما يمنح "جيم" ابنه الاهتمام الذي يحتاج إليه، يندفع نحوه؛ فالأمر يتطلب الكثير من العناية المتواصلة».

* * *

جلسة متابعة سنوات المراهقة:

بعد عشر سنوات من بدء "تريفور" العلاج، قمت باستدعاء والدته لجلسة متابعة، لقد أصبح "تريفور" في سن السادسة عشرة، وقد قالت: إنه على الرغم من أن "تريفور" "ليس فحلاً ضخمًا مثل أبناء عمومته"، فإن ما يبعث في قلبها الارتياح هو أن "الميول الأنثوية لم تعد موجودة"، وقالت مستكملة حديثها عن ابنها: "عندما كان صغيرًا جدًّا، لم يكن يشعر بالأمان قط، لا يزال ذلك القلق يساوره، لكنني أود أن أقول اليوم: إنه يشعر بذاته كذكر، وأعتقد الآن أنه يومًا ما سيتزوج وينجب أطفالاً".

وسألتها عن مسلكه مع زملائه في المدرسة، فأوضحت قائلة: "إنه محل احترام كبير من زملائه؛ نظرًا لذكائه ولأنه حقًّا طفل لطيف، إلا أن القلق من الرياضات الجماعية لا يزال يساوره؛ فلو أتيح له الاختيار، أعتقد أنه سيختار رياضة لا يكون فيها احتكاك مع الآخرين؛ كالجولف أو السباحة".

لحسن الحظ، لا يعاني "تريفور" من أي من أعراض النبذ الاجتماعي أو الاكتئاب، وهما من سمات الصبية الذين يعانون في هوياتهم الذكورية؛ فكما تقول والدته: "سوف يتحدث إلى أي شخص"- باستثناء الواقعة النادرة عندما تهجم عليه أحد الصبية مستغلاً طبيعة "تريفور" الحساسة- فإنه سعيد ومحبوب ومتأقلم مع المدرسة، كما ظل قريبًا من باقي الأقرباء في العائلة.

لا يزال "تريفور" شخصًا حالمًا مفتونًا برسم صور الحلقات الكارتونية من المجلات أو مشاهد من أفلام هوليوود القتالية، وتعلم والدته أن هذا أمر مفيد وموهبة لديه، لكنها تحثه على ألا يستغل الخيال كطريقة لتجنب مواجهة المخاطر وتوكيد الذات المطلوبة للتواصل مع الذكور الآخرين، إنه لا يزال بحاجة للدعم والتشجيع عندما يتعرض للنبذ.

مازالت والدته ممتعضة بعض الشيء؛ لأن التحسن في حالة "تريفور" يرجع بشكل كبير إلى جهودها؛ فهي تقول: "إن حالة "تريفور" قد تحسنت على الرغم من زوجي، وليس بسببه، ولا يعني ذلك أن "جيم" لا يحب الأطفال، لكنه لا يعلم كيف يتواصل معهم، أستطيع تفهم صعوبة ذلك بالنسبة له؛ لأنه لم يحصل على تواصل عاطفي من عائلته، لكنه عندما أصبح أبًا، كان ينبغي عليه أن يجتاز تلك العقبة العاطفية، وبمرور الأعوام، لم يبذل زوجي مجهودًا يناسب حاجة "تريفور"، وقد كان ذلك مصدرًا للخلاف الدائم بيننا".

كما أوضحت: "لذلك كنت أستغل أي فرصة في منزلنا بنفسي لتعزيز صورة الذكر؛ كنت أنادي "تريفور" بـ"الرفيق" و"الشاب الصغير" و"ولدي"، كنت دائمًا أشير إليه بتوكيد ذكوري؛ لقد وجب عليّ ذلك، أكره أن أبدو كمن كانوا في "العصور القديمة"، لكن نظرًا لمشكلة اضطراب الهوية الجنسية عند ابني، فإنني مضطرة لتعزيز الفروق الواضحة بين دور الذكر والأنثى: تقوم ابنتاي بمساعدتي في المطبخ؛ أما ابني فيخرج النفايات من المنزل، لن يُطلب من ابنتي أن تأخذا النفايات للخارج، لكن عليهما أن تقوما بترتيب غرفة غسيل الملابس وتضعا مشتريات البقالة في أماكنها، ويقوم ابني بإزالة الجليد من مدخل المنزل، وتغيير زيت شاحنة "جيم"، لكن ليس على ابنتيّ القيام بذلك؛ كان عليّ أن أوضح أدوار الأسرة وفق الهوية الجنسية، وقد فعلت كل هذا لأجل ابني؛ حتى يكون لديه شعور واضح بذاته في صورة الرجل الشاب التي أصبح عليها.

رحلة النمو نحو الرجولة:

نسمع مرارًا وتكرارًا من شواذ سابقين- مثل "آلان ميدينجر"- أنه من الممكن بناء الهوية الجنسية السوية في مرحلة البلوغ، بعد سنوات من الحيرة وعدم الاستقرار، وفي كتابه "النمو نحو الرجولة.. استئناف الرحلة"، يقدم "ميدينجر"

مشورة رائعة لزعيم كنيسة مسيحية يصف تجربته في "التهرب" من رحلة الرجولة؛ رحلة استكملها بعد أن تخلى عن نمط حياته الآخرى؛ كرجل شاذ جنسيًّا.

معيدًا صدى مشورة "ميدينجر"، يفسر "ريتشارد وايلر" أن "مشاعر الشذوذ الجنسي لدينا لم تكن المشكلة، إنما كانت أعراضًا لمشكلات أكثر عمقًا وآلامًا تم دفنها طويلاً لا علاقة لها بالرغبة الجنسية، ولكنها مرتبطة بالهوية الذاتية والاعتزاز بالذات (خاصةً "الاعتزاز بالهوية الجنسية")، وعلاقاتنا والجانب الديني من حياتنا، وما إن نكتشف الألم الكامن ونداويه، فإن أعراض الشذوذ الجنسي تزول من تلقاء نفسها".

لماذا تواصل المثابرة ؟ نظرة إلى الواقع الصعب:

لنفترض أن ابنك على وشك الدخول في مرحلة المراهقة، وتساورك شكوك بأنه يميل إلى عزل نفسه عن الذكور الآخرين وينجذب إليهم جنسيًّا، هناك لحظة قد تقول فيها: "من الواضح أن ابني لديه بعض الاحتياجات العاطفية الشديدة للذكور الآخرين؛ لماذا لا أتناسى تشجيعه على تنمية قدراته الجنسية السوية الكامنة؟ ألن يكون الأمر أكثر تعاطفًا لو فقط منحته مباركتي، ثم سينعم بالسلام ويعم السلام أسرتنا؟!".

على المدى القصير سوف يعم السلام؛ ففي حقيقة الأمر قد يكون عناء تنمية القدرات الجنسية السوية الكامنة لدى الشخص- عند بعض الناس- طريقًا طويلاً وصعبًا، كما أنه قد يبدو صعبًا أن تضحي بعلاقة الحب المتبادلة مع ابنك.

لكنّ هناك أسبابًا تدعوك للمضي قدمًا في تشجيع نمو الهوية الجنسية السوية عند طفلك؛ أولا: مخاطر الوفاة جراء الإصابة بمرض الأيدز، وهي حقيقة يجب وضعها في الحسبان. في الواقع، توصل مؤخرًا مجموعة من الباحثين الطبيين الذين يحللون البيانات في مدينة كبرى، إلى أنه- إذا استمر معدل الوفاة الحالي- فإن نصف الأشخاص من الشواذ وثنائيي الميل الجنسي لن يصلوا إلى سن الخامسة والستين.[1]

وإلى جانب مخاطر الإصابة بالأيدز والأمراض الخطيرة الأخرى التي تنتقل من خلال العملية الجنسية، إضافةً إلى القضية الأهم المتعلقة بالقناعات الأخلاقية في عائلتك، ينبغي أن يدرك ابنك خصائص العلاقة الجنسية الشاذة، على الرغم من

تطلعه إلى علاقة غرامية شاذة طويلة الأمد، فالاحتمالات تشير إلى أنه لن يجد الجنس والإخلاص في الحب معًا في علاقة ذكورية دائمة على المدى الطويل.

هل يعتبر هذا تحيزاً؟ للإجابة عن هذا السؤال، سوف أدع الكثير من مؤيدي الشذوذ يتحدثون عن حالهم، وأولهم "أندرو سوليفان":

يقر "سوليفان" في كتابه "الحب غير قابل للفصل" بأن الشواذ يميلون إلى إقامة عدد غير محدود من العلاقات، كما يقول إنه يلاحظ حاليًّا أن الإفتتان الغرامي بشخص ما سيكون لامحالة قصير المدى ومتقلبًا وغير موثوق؛ لذا، يقول "سوليفان": إنه في التحليل النهائي اتضح أن الأصدقاء- لا العشاق- هم من يمثلون أكبر مصدر يعول عليه الشخص الشاذ للحصول على الدعم والحب؛ فالأصدقاء- لا العشاق- هم من سيقدمون له "ما يعد به الحب، ولا يفي" [2]؛ أي أن الشخص الشاذ لا يمكنه الاعتماد على رفيق حميم.

وإن صحت ملاحظة "سوليفان"- وقد كان مراقبًا متفحصًا لعالم الشواذ- فإن الشاب الذي يحلم بالحصول على علاقة شعورية حميمية دائمة تتسم بالوفاء مع شخص واحد- بعد كل ما كان يأمله- لن يجدها مطلقًا، على الأرجح.

وينبغي التأكيد على أن "سوليفان" ليس متطرفًا وإنما يمثل جزءًا من التوجه المحافظ في عالم الشواذ، إلا أنه- كشخص كاثوليكي ومحافظ- لا يزال مدافعًا عن "جمال وغموض وروحانية الجنس، حتى الجنس مجهول الهوية".

أما عن زواج الشواذ، فيقول "سوليفان": إن الشواذ "لديهم فهم أكثر اتساعًا فيما يتعلق بالحاجة لمتنفسٍ خارجَ الزواج!".[3]

الخيانة.. واقع حقيقي:

ينصح العالم النفسي "إيلي كولمان"- أحد مؤيدي الشذوذ المشهورين- الشواذّ من الرجال الشباب بأن العلاقات الناضجة طويلة المدى يجب أن تكون واقعية؛ ويعني ذلك- مفسرًا- أن توفر "الحرية".[4]

لقد سبق أن ساعد د. "كولمان" على إعداد مسودة تقرير الجراحة العامة حول الصحة الجنسية للشعب الأمريكي، ويعد خبيرًا في الشؤون الصحية للشواذ.

لماذا ينبغي أن يكون عالم الشواذ متعدد العلاقات؟ إننا نعتقد أن ذلك يرجع

إلى طبيعة جاذبية الشذوذ الجنسي القائمة على وجود عجز، والذي يفرض على رجلين دورات متواصلة من الحب الذي لا يكتمل، صداقة وفية، نعم.. ولكن ليس حبًّا ناضجًا جنسيًّا يقوم على الإخلاص والتماسك؛ كالحب الذي يجده الرجل والمرأة في زواج يستمر مدى العمر.

وهناك أيضًا المشكلة غير القابلة للحل لرجلين يرتبطان عندما دافعهما النشاط الذكوري الذي هو في أصله يقوم على تعدد العلاقات، على النقيض من علاقة الرجل والمرأة التي- وفق طبيعتها الأنثوية- تثبتها وتجعلها مستقرة، وفي الوقت ذاته، فإن الأطفال يولدون في علاقة زواج شرعي يختمون على هذا الاتحاد برابطة الدم.

كما أن هناك تناقضًا مزعجًا "ينم عن انفصام الشخصية" في الشذوذ الجنسي عند الذكور؛ حيث يظهر الكثير من الشواذ وجهين للعالم: شخصية "الصبي الطيب الصغير" في مرحلة الطفولة عندما يكون في عالم الأسوياء جنسيًّا، ثم يتحول إلى شخص خارج على قانون الطبيعة الجنسية عندما يكون برفقة الرجال الشواذ، وتؤدي هذه الظاهرة إلى صعوبة التكامل في الشخصية الناضجة.

ويؤكد الباحثان "ماتيسون" و"ماكويرتر"- (وهما زوج من الشواذ؛ أحدهما طبيب نفسي، والآخر عالم نفسي)- صحة ملاحظة أن الخيانة إحدى سمات عالم الشذوذ؛ ففي كتابهما الصادر في 1984 بعنوان "زوج من الذكور" يستعرضان دراستهما العميقة حول نوعية واستقرار علاقة الارتباط الزوجي بين الشاذين جنسيًّا على المدى الطويل؛ لقد قاما بدراسة 156 حالة زواج بين الشواذ تتراوح مددها من عام حتى سبعة وثلاثين عامًا، واتضح أن نحو ثلثي المشاركين دخلوا في علاقات الشذوذ متوقعين حدوث الخيانة، ومن بين الـ156 حالة، لم يكن هناك واحد يستطيع الحفاظ على العلاقة الجنسية بلا خيانة لمدة أكثر من خمس سنوات.

ويقر المؤلفان بأن النشاط الجنسي خارج إطار العلاقة "غالبًا ما يثير قضايا ترتبط بالثقة والاعتزاز بالذات والاعتماد المتبادل"، وعلى الرغم من ذلك، فإنهما يعتقدان أن "استيعاب العلاقة الحميمية الناضجة لا يمثل عائقًا لاحتمال ممارسة النشاط الجنسي خارج العلاقة مع الشريك الجنسي كأمر صحي من

الناحية النفسية في سياق الثقافة الخاصة بالشواذ"[5]، وهما يختتمان بقولهما: "إننا نعتقد أن أكثر العناصر أهمية في إبقاء العلاقة بين الشريكين الشاذين لمدة تفوق العشر السنوات، هو قلة شعورهما بالتملك، إن الكثير من الشركاء يدركون في مراحل مبكرة من علاقاتهم أن تملك الطرفين بعضهما للبعض جنسيًّا قد يصبح أكبر مصدر لتهديد العلاقة داخليًّا وبقائهما معًا"[6]؛ أي أن الشريكين الشاذين مصيرهما إلى الانفصال إذا كانا يتوقعان إخلاصًا في العلاقة.

وهناك دراسة أخرى نشرت في دورية "مجلة ابحاث الجنس" وتم فيها إجراء استبيان على 2585 شاذٍّ جنسيًّا نشطًا، وصورت الدراسة صورة قاتمة، خاصة بالنسبة للشواذ من الرجال كبار السن، كانت نسبة النصف من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين أربعين فما فوق، تدخل في علاقات جنسية متقطعة، وكان نصف الرجال من الذين يبلغون الخمسين فما فوق يعيشون بمفردهم، على الرغم من أن 62% منهم كانوا متزوجين، وكان القليل جدًّا من الرجال (نسبة 14.7%) في المجموعة التي تتراوح أعمارها بين أربعين وتسعة وأربعين عامًا قد تورطوا في علاقة جنسية شاذة، كما أن متوسط عدد الشركاء في ممارسة الجنس لدى الرجال يتراوح بين 101 و500 شخص.[7]

نصيحة: العلاقات العابرة تصعب مهمة الخروج من حياة الشذوذ:

"جوردون أوب"، رجل شاذ سابقًا وقد تزوج منذ عدة سنوات، لديه بعض كلمات النصح من منطلق خبرته:

«قد أنظر إلى رجل يبدو جذابًا بالنسبة إليّ، ولكن لا أحاول التقرب منه؛ لأنني "أعرف الحيلة"؛ أي: أنني أعرف ما الخيال وما تجلبه الأوهام، لو سعيت لمعاشرة جنسية شاذة أيًّا كان فإنني أعرف أنني لن أنال من ذلك سوى الآثار السلبية في نفسي.

لكن الأمر أكبر من ذلك.. إنه إدراك أن التجربة بأكملها زائفة، إن معرفتي بذلك بعد تجربتي الشخصية ومحاولاتي المتكررة طيلة أربعة عقود يجعلني أنجح.

المشكلة.. عندما يتحول الأمر إلى عادة، فالتجربة الجنسية تشبه تعاطي

الأفيون؛ إنه مسكن ومخدر ويمثل "حلاً سريعًا"، وذلك ما يجعل التخلص من الشذوذ الجنسي أمرًا شاقًّا.

وعندما نحول الحاجات العاطفية إلى رغبات جنسية، وعندما نتعلم إشباع هذه الحاجات عن طريق الجنس، نكون قد أخذنا حاجة طبيعية مشروعة وهبها الله لنا (العلاقة الحميمة مع شخص من الجنس نفسه) وأشبعناها بتعاطي "مخدّر".

أما عند إشباع رغباتك من خلال علاقة سوية مع شخص حسن المظهر- علاقة سليمة جدًّا- فإنها تخلو من "الإثارة" الموجودة في اللقاء الجنسي الشاذ.

هذا هو أحد الأمور التي لاحظتها وعليّ أن أعترف بها؛ لم يكن القصد هو الإثارة؛ "الإثارة" مصطنعة، لكنها قسرية للغاية، وهذا ما يدفع للاستمرار في حياة الشذوذ الجنسي».[8]

الوقاية أسهل من العلاج:

إننا نؤمن بأنه يجب على الجنس البشري- حتى يحيا حياة سوية- أن يعيش في توافق مع نظام الطبيعة، كما نرى أن التكامل الجنسي والنشاط الجنسي السوي هما أمران من أسس نظام الطبيعة؛ فعندما ننكر أهمية الفروق بين الجنسين، فإننا نفشل في احترام جزء أصيل من إنسانيتنا.

بالطبع ليس هناك أي تدخل يضمن التوجه الجنسي السوي، كما أنه لا يمكن لأي أبوين- حتى الأكثر التزامًا- أن يسيطرا على كل المؤثرات التي تسهم في تكوين التوجه الجنسي لابنهما أو ابنتهما، إلا أنه يبقى الكثير مما يمكن القيام به، ونحن نعتقد أن الوالدين الحكيمين سوف يصغيان لما يخبرنا به الكثير من الرجال من قصص- مرارًا وتكرارًا- عما كان مفقودًا في حياتهم في الصغر.

ويلتقط "ريتشارد وايلر" خلاصة خبرات هؤلاء الرجال- الإحساس بإعادة الاتصال بالهوية الذكورية الذي يقود إلى تغيير يحول مسار الحياة-:

«الشهوة الجنسية، تحولت الآن إلى حب أخوي؛ خوفنا في السابق من الرجال الأسوياء وغربتنا عنهم، استبدلت اليوم بالثقة والتواصل الحقيقي معهم.

وفيما مضى، كنا نشعر بكراهية الذات والإحساس بعدم القدرة على أن نكون "رجالاً بمعنى الكلمة"، أما اليوم فإننا نتقبل ذواتنا ونشعر بالثقة والقوة في هويتنا

الذكورية.

لقد مررنا بهذا التغيير العميق من خلال كشف وعلاج الألم الكامن، والابتعاد عن الرجال والذكورة والبعد عن الله؛ وهي الأمور التي تسببت في الكثير من أعراض الشذوذ الجنسي التي عانينا منها.

يمكننا أن نتحدث نيابة عن أنفسنا فحسب، عن خبراتنا الشخصية، وعما كان صائبًا بالنسبة لنا، وعما أحدث تغييرًا في حياتنا، وأيضًا عما كان يمنحنا الشعور بالبهجة».

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات